نفحات الرحمن
في
رياض القرآن

تأليف الشيخ
محمد بن ابراهيم سعيد كعباش

الجزء الأول

نشر جمعية النهضة
العطف - غرداية - الجزائر

تخريج الأحاديث، الفهرسة والتّنسيق الفنّي:

أ. قاسم بن عمر حاج امحمد

حقوق الطّبع محفوظة للمؤلّف

1424هـ/2003م

طبع: المطبعة العربية 11 نهج طالبي أحمد غرداية
الهاتف / فاكس : 88. 36. 53 (029)
المنطقة الصناعية : 87. 34. 34 (029)
Imprimerie.El-Arabia@caramail.com

الإيداع القانوني رقم 2003 / 2883
ردمك 17 - 787- 9961 I.S.B.N

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا
آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾

(سورة ص: آية 29)

صدق الله العظيم



مقدمة بقلم فضيلة الأستاذ

شريفي سعيد (الشيخ عدون) -حفظه الله-

الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ونصلّي ونسلّم على أشرف خلق الله محمد بن عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد:

فإنّه من فضل الله عليّ وعلى المجتمع المسلم أن أطال الله إليّ حبل الأجل، وغمرني بفيض من الأمل، ثقة بوعد الله أنّه لا يُضيع أجر من أحسن عملاً، ويقيناً بإرادة أبنائنا -أساتذة وطلبة- أنّهم لا يقطعون حبل التّواصل، ولا يخيسون بالعهود في خدمة دين الله ونشر العلم والمعرفة، بما يركّز الفضيلة ويُعلي مكارم الأخلاق.

وهذا أحد أبنائنا البررة- سعيد محمد إبراهيم (كعباش)- ممّن جاهدوا في سبيل الله مرابطاً على منبر بيته العامر في مدينة العطف تفسيراً لكتاب الله، ووعظاً وإرشاداً وتوجيهاً لمواطنيها لما يقْرب من أربعة عقود -جازاه الله عن الإسلام خيراً-، هاهو ذا يقدّم للمكتبة الإسلامية ثمرة جهوده في خدمة كتاب الله بتفسيره المنهجي " نفحات الرحمن في رياض القرآن"، والذي يجمع بين الأصالة والعصرنة في الصياغة والتحرير، بعيداً عن التّطويل والاستطراد، ومترفّقاً في العرض والتحليل حَذِراً من التّعقيد أو الخروج عن روح النّصّ

المقدّس الذي يقول الله في شأنه جلّ وعلا: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة:١٥-١٦).

وأنا إذ أشكر الابن على ما قام به من جهد، فإنّني أبارك عمله، وأحيّي فيه العزيمة والإرادة لمواصلة جهده، علماً بأنّه انتهى في التّفسير إلى سورة "هود" عليه السلام أدعو الله له بالخير والتوفيق وطول العمر علّه يتمّ الحلقة المفقودة من تفسير الشيخ الإمام بيوض -رحمه الله-، أي إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء:٧٠)، وما ذلك على الله بعزيز، ولا على همّته ببعيد.

القرارة: يوم الثلاثاء ١١ ربيع الأول ١٤٢٤هـ / ١٣ ماي ٢٠٠٣م.

تعريف مختصر بالمؤلف

هو محمد بن ابراهيم بن باحمد سعيد الملقّب بـ(الشيخ كعباش)، من مواليد بلدية العطف ولاية غرداية، من الجمهورية الجزائرية، وآل سعيد فرع أصيل من عشيرة أولاد بكّة في بلدة العطف(تاجنينت).

أبصر نور الحياة خلال ١٩٢٩م في حضن أبوين كريمين:سعيد ابراهيم بن باحمد، وبهون شيخة بنت الحاج محمد. تركه والده فقيراً يتيماً لا يزيد عمره عن سنتين، وليس معه إلا أختان، توفّيت إحداهما فأصبح وحيد أمّه وقرّة عين لها، فاعتنت بتربيته على حبِّ الله ورسوله وعلى حفظ كتاب الله في سنٍّ مبكّرة، وقد وهبه الله ذاكرة قويّة وذكاءً لامعاً، ولم يكن كتّاب قريته ليُقْنِع طموحه في التّعلم، فارتحل إلى معهد القرارة عند الإمام الشيخ بيّوض الحاج ابراهيم بن عمر، ثم إلى تونس الخضراء حيث درس العلوم العربية والشرعية في الجامع الزيتوني ودرس العلوم التطبيقية في المعهد الخلدوني.

بدأ العمل في مجال التربية والتعليم أستاذاً ومديراً في القطاع الدّيني الحرّ في فترة الإستعمار، ثم في القطاع العمومي بعد الإستقلال الوطني حتى تقاعده عن العمل سنة ١٩٩٠م.

انتسب إلى الجامعة الجزائرية في أوائل السبعينيات فحصل على شهادة الليسانس في الأدب العربي، وانخرط عضوا رسميّاً في حلقة العزابة الجامع العتيق بالعطف في سنة ١٩٥٨م، ثم عيّنته الحلقة إماماً ومرشداً في سنة ١٩٧٠م، وهو ما يزال يقوم بمهمّته النّبيلة في الإصلاح الديني والاجتماعي نصحاً وإرشاداً وتجليةً لمعاني كتاب الله وسنّة رسوله على منبر المسجد، بعد أن حدا بصفوف الأجيال على مقاعد الدّراسة لما يقرب من أربعين سنة في مسيرة مهنية متواصلة

لم تنقطع بفترة مرض أو نصب أو وصب، وذلك بفضل الله تعالى.

وقد أسهم المؤلف بقسط وافر من التّضحية والجهد في صفوف جبهة التحرير الوطني ويتشرّف بعضوية منظمة المجاهدين دون منّ ولا غرور، وهو متزوّج وأب لتسعة أولاد، وفّقه الله تعالى إلى مواصلة مسيرته في نصرة دينه وخدمة كتابه، و تقبّل عمله الخالص لوجهه الكريم، آمين.

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلّمه البيان، وأنار سبيله بهداية القرآن، ليكون خليفته في الأرض ويسوسها بالصلاح والعمران. حتى يتحقق بذلك المقصد الأسمى من الخليفة وفق إرادته تعالى وحكمه الأزليّ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالاِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذّاريات:٥٦).

نحمده تعالى حق حمده، إذ بعث في خلقه رسلا مبشرين ومنذرين، ليوطّروا المسيرة البشرية، فلا تضل بها الأهواء ولا تناوشها وسوسة الشياطين، فسار الركب البشريّ على حداء النبيئين والمرسلين، وهو يتدرج في النضج الحضاري والكمال الفكري، حتى انتهى به السير إلى المحطة المحمدية، وهي أوسع فضاء وأوفرُ زاداً وآمن طريقا إلى الله، وأدنى مرحلة إلى الحياة الأبدية التي ينتهي الخلق إليها ليروا أعمالهم.

نحمده تعالى أن هدانا للإسلام وعلمنا القرآن وجعلنا من أمة سيدنا محمد ﷺ، ونصلي ونسلم عليه وعلى آله وصحابته نجوم الهدى ومصابيح الدجى، وعلى من اتبع هداهم إلى يوم الدين، أما بعد:

فإنني أعتبر نفسي محظوظا أن هيأتني العناية الإلهية منذ حداثة سني لأكون من حملة كتاب الله و لم أتجاوز العاشرة من عمري، وأنا أتردد على كتّاب قريتنا الوديعة - العطفاء- صباح مساء، حتّى أصبحت في طليعة لِداتي في الكتّاب حفظا واجتهادا، وقد اضطرتني ظروف اليتم والفقر أن أُسجل مكرها منذ الخامسة من عمري في المدرسة الفرنسية، لأن والدتي لا تملك المال الذي تفدي به ولدها، كما يفعل الأغنياء يومئذ بأولادهم حتى لا يتعلموا لغة الكفر

في اعتبار المواطنين، يوم أن أخذ الإستعمار الفرنسي يحاول أن يقضي على مقومات الشخصية الإسلامية في ديارنا.

لقد كنت أجمع بين الدراستين الدينية والدنيوية -إن صحّ التعبير-، ولكنني أشهد الله بأنني أشّد حبّا وأميل عاطفة وأروح نفسا مع تلاوة كتاب الله وتدبر معانيه في سنّ مبكرة، وإن كنت لا أمتلك ناصية اللغة العربية نظرا للأسلوب التقليدي المتبع في الكتّاب، وكم تطلعت نفسي أن أكون ضمن أفراد البعثات الذين يشدون رحالهم إلى معهد الحياة بالقرارة أو إلى الجامع الزيتوني بتونس الخضراء.

وشاءت قدرة الله أن يقيّض لي من يسّر لي الأسباب إلى تحقيق ذلك، إذ أصبحت طالبا في معهد الحياة من سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٥٠ ثم طالبا في الجامع الزيتوني والمعهد الخلدوني من ١٩٥٠ إلى ١٩٥٤، فتحصّلت على مفاتيح العلوم العربية والشرعية على أيدي علماء فطاحل، أمثال المشائخ: الفاضل بن عاشور، محمد الزغواني، البشير النّيفر، أحمد بن ميلاد وغيرهم، ثم بين يدي الشيخ علي التريكي في علوم القراءة والتجويد على قراءة الإمام نافع روايتي ورش وقالون.

عدت إلى وطني الجزائر ونُذُر الثورة التحريرية المباركة تلوح في الأفق، عدت إلى العش الحبيب، وليس لي من طموح ولا رغبة إلا أن أصبح ذلك المربي المثالي أزجي صفوف الأجيال على نهج الهدى والرشاد، وعلى طريق العزة والكرامة بترسيخ مقومات الشخصية الوطنية دينا ولغة وتاريخا وتراثا حضاريا أصيلا، وليس لي في توجّهي هذا من مرجعية إلا كتاب الله وسنة رسوله ومنهاج الصالحين من علمائنا ومشائخنا في التربية والتعليم.

كانت انطلاقتي مع التلاميذ والطلاب في مدرسة النهضة من المدارس الإصلاحية الحرة في منطقة الجنوب الجزائري، ثم في المتوسطات والثانويات بعد الإستقلال الوطنيّ. وكم أعُدُّ اليوم من إطارات عليا تخدم الدين والوطن كان لي نصيب وافر في تعليمها وتربيتها، وهي لا تنكر لي جهدا ولا تخفر لي عهدا. وكنت أستغلّ مادة التربية الإسلامية إلى أقصى حدٍّ ممكن للتوجيه والإرشاد تفسيرا لنص قرآني أوحديث نبوي شريف ألمس أثرهما في نفوس الناشئة غيرة وحماسا واعتزازا.

وفي بلدة العطف - مسقط رأسي- كان لي دور اجتماعي آخر يعتبر رافدا آخر لنهر التربية والتعليم يخص المواطنين الكبار ممن عاشوا يرزحون في وطأة الجهل والأمية من الآباء والأمهات، فلابد من التذكير والإرشاد على منبر المسجد وما يتبعه من هياكل لتجميع هؤلاء المواطنين.

بدأت أنتقي لهؤلاء بعض السور القصار التي يحفظونها لأداء صلواتهم أفسرها لهم تفسيرا مبسطا في أوقات رتيبة خلال الأسبوع ثم تدرجت إلى تفسير السور المتداولة في المناسبات كسورتي (يس) و(الأنعام).

وهكذا ساقتني الأقدار إلى تحمل المسؤولية العظمى من الوعظ والإرشاد والفتوى إماما ومرشدا في المسجد الجامع بمدينة العطف وذلك في أواخر الستينيات، وأنا عضو في حلقة العزابة منذ سنة ١٩٥٨.

فاللهم رحماك لي من هذه الأمانة الفادحة، أقدرني عليها ومدّ لي يد العون والتوفيق لأشق طريقي في هذه المهمة الشاقة، وقد وضعتني الأقدار في محطتها ولا مناص لي من تحملها وقد أجمع رفاقي في حلقة العزابة أن أكون لها.

استخرت الله وأنا بين إقدام وإحجام، وتهيب وإشفاق متمثلا بقول أبي

بكر الصديق: "أي سماء تظلني وأيّ أرض تقلّني إن قلت في كتاب الله برأيي"؛ ولكن عزائي في تحمل تلك المسؤولية أن مشائخي الأجلّاء - رحمهم الله - قد أجازوني كلّهم في التفسير والحديث بوثائق رسمية تثبت إجازتهم هم من طرف مشائخهم عبر سلسلة متصلة الحلقات في نسب أمانة الدين، من لدن الصحابة والتابعين.

وبعد التردّد والإشفاق عزمت أمري وتوكّلت على الله، ثم قرّرت أن أسير في دروسي بالمسجد السير الطبيعي ابتداء من أمّ الكتاب فالسّور الطّوال تنازلا في ترتيب المصحف الشّريف، وكان أحد رفقائي في الحلقة يتولّى تسجيل الدّروس في أشرطة سمعية، أرتّبها وأرقّمها حسب الآيات في كلّ سورة، لتبقى محفوظة في مكتبة المسجد، وبعد مشوار غير قصير انتهى بي إلى أوائل سورة النساء، وبعد الفحص لمدى حفظ الشريط لوضوح الصوت وفصاحته تبيّن لي أن الجوّ الحارّ وانعدام الرطوبة قد أثرت في الشريط، حتى كاد الصّوت ينطمس في البعض منها، فحز ذلك في نفسي، إذ أرى ضياع جهدي في هذا المجال، وأنا ما أزال على قيد الحياة، فكيف بمستقبل الأجيال؟.

وكان ذلك سبباً لحفز همّتي إلى تأليف تلك الدّروس كتابةً وتدويناً، غير أن التّأليف والتّدوين لهما صياغتهما الخاصة غير التي تكون للوعظ والإرشاد أمام الجمهور، وذلك ما يضاعف من مسؤوليتي ويتطلّب منّي جهداً إضافياً في التّحضير والاستعانة بالتّفاسير المختلفة لتجميع المادة، ثم صياغتها وفق خطّة العمل التي انتهجتها، جمعاً بين الأصالة والعصرنة في المبنى والمعنى، وبين الاتجاهات والأفانين المختلفة للتفسير، وسلكت في ذلك المنهجية التالية:

- اختيار النّص القرآني لكل حصة تفسيرية، والتي لا يتجاوز وقتها ساعةً من الزّمن بين المغرب والعشاء.

- التحقيق اللّغوي لمبنى النص: شرحاً لبعض الألفاظ أو الجمل، وقد أتطرّق فيه لأوجه الإعراب والبلاغة.

- بيان أوجه القرآت للنّص.

- البيان والتفسير لمضمونه، بدءا ببيان وجه التّناسب بينه وبين ما سبقه، وقد أتعرّض إلى سبب النّزول باختصار، ثم من خلال البيان والتفسير أُحَوْصِل مضمون النّص في جمل مختصرة لأضعها عنواناً للدّرس، على أن يتدرّج البيان والتفسير مع آيات النّص من أوّله إلى آخره، وفي آخر كلّ سورة أُنشق تلك العناوين وإلى جانبها تلك الآيات المعنية.

تلك هي خطّتي في العمل، درجت عليها بشغف وعزيمة لخدمة كتاب الله، وكنت أراجع بعض التّفاسير لتجميع المادّة كتفسير المنار، والتفسير الكبير للرازي، والكشّاف للزمخشري، وتفسير ابن كثير والقرطبي، غير أن معتمدي في التأليف والتحرير ثلاثة تفاسير حديثة هي:

- تيسير التفسير: للشيخ القطب امحمد بن يوسف اطفيش.

- التحرير والتنوير: للإمام محمد الطاهر بن عاشور.

- التفسير المنيـــر: للدكتور وهبة الزحيلي.

وها أنا اليوم قد وصلت - بعون الله - إلى سورة هود، فأرجو من المولى الكريم أن يبارك في الأجل ويوفّر لي الصّحة والجهد لمواصلة المشوار إلى ما يشاء الله، وقد عنونت لهذا الجهد المتواضع بـــ:

" نفحات الرحمن في رياض القرآن "

أجلْ، إنّها حقّاً نفحاتٌ ربّانيةٌ، وإشراقاتٌ لدنّيةٌ، أشعر بها وأحسّها وأنا

على منبر المسجد، وقد استجمعت قوّة فكري واستحضرت ذاكرتي، فتـــزول تماماً من صفحة عقلي كل الشواغل الدّنيوية، ويغمرني فيض ربّاني يهتـــزّ لـــه كياني ويستنير به خاطري، فإذا بي أغوص في بحر من التّأمل، تومض خلالـــه خطرات في ذهني وتنقدح معانيها فتجري سلسلاً على لساني، وقد يبلـــغ بي التّأثر ذروته فيتهدّج صوتي وتسيل عبراتي، فيتجاوب الجمهور معي في ذلـــك، وسرعان ما يوفّقني الله تعالى إلى آيات أخرى من القرآن تثبت ذلـــك المعـــنى وتركّزه.

فيا ما أحلى تلك اللّحظات التي تمرّ كومضة البرق لتقدح غيوم الفكـــر فتنصبّ غيثاً مريعاً، ولا تسَلْ عن الحالة النّفسية التي يكون عليها الإنســـان في تلك اللّحظة، إنّها أشبه بحالات الوجد والهيام في خلوة الحبيب الوفيّ. وصدق الذي قال:

لا يدرك الوجدَ إلاّ مـــن يكابده ولا الصّبـــابةَ إلاّ مـــن يـــعانيـــها

ولست بهذا أزعم أنّي بلغت المنزلة التي تبوّأها شيوخُنا العظام من أساطين العلم والمعرفة، ولكن المثل يقول: "يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر"، فأدعو الله أن يوفّقني إلى نيل رضاه بهذا العمل المتواضع، ويقيل عثراتي ممّا يغيب عن فهمي القاصر، ويتجاوز جهدي المحدود، فإنّ كتاب الله هو الأفق اللاّمحدود في فضاء الكون والوجود، حوى علوم الأوّلين والآخرين، وإنه لتنزيلٌ من ربّ العالمين، حجّة الله على خلقه أجمعين، ومنار الهداية والنور للمؤمنين.

فاللهم اجعلنا من حامليه الأوفياء، ومن متّبعي أحكامه الأتقياء، واحشرنا يارّبنا في زمرة ورثة الأنبياء، آميـــن .

العطف يوم الجمعة: ٠٧ ربيع الأول ١٤٢٤هـ / ٠٩ ماي ٢٠٠٣م.

حول القرآن الكريم وعلومه

يقول الرسول ﷺ:«**خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه**»[1]، ويقول: «**علّموا أولادكم القرآن فإنه أوّل ما ينبغي أن يُتَعَلّم من علم الله هو**»[2].

ليس من غرضي في هذه المقدّمة أن أتوّسع في التعريف بكتاب الله وبيان جوانب من علومه، فإن لذلك مصادره المختصّة، مما دوّنه العلماء قديماً وحديثاً -جازاهم الله عن الإسلام خيراً-، فما عَرف كتابٌ مقدّس مثل القرآن الكريم اعتناءً واهتماماً من العلماء عبر العصور، جمعاً وصوْناً لسوره وآياته وفق ترتيب رسول الله لها من صدور الحفظة وكتّاب الوحي من عهد الرّسول وخليفتيه إلى عهد الخليفة عثمان -رضوان الله عليهم- وترتيبه للمصحف الأمّ، ثم ما تلا ذلك من جهود العلماء وعناية الحكّام والأمراء عبر تاريخ الإسلام الطّويل لتبليغ كتاب الله وأداء تلاوته غضّاً طريّاً كما أُنزل على قلب رسول الله، وتحقّق بذلك وعد الله بحفظ كتابه وهو القائل: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ (الحجر:٩).

وعلى ما انتاب المسلمين من وهن وضعف بضمورهم الحضاري، فما يزال كتابهم -بفضل الله- يهيب بهم ويشحذ هممهم للنّهوض من كبوتهم واستعادة وعيهم مرة أخرى وتبوّء مكانتهم من العالمين كما اختارهم الله لذلك حين خاطبهم بقوله:﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ اخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَامُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ**

---

١ - رواه البخاري عن عثمان بن عفان، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، حديث ٤٧٣٩، ٤/ ١٩١٩.

٢ - رواه الربيع بن حبيب في المسند، باب في ذكر القرآن، حديث ٣، ١/ ٢٤.

﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُومِنُونَ بِاللهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

ونحمد الله تعالى على هذه النعمة، نعمة هداية القرآن، فهو المنار الهادي من ظلمات الزّيغ والأهواء، وهو الملاذ الحصين للمسلمين من وسوسة الشياطين ومكايد الأعداء.

فما أجد من تعريف أو وصف للقرآن الكريم أبلغ ممّا قاله رسول الله في شأنه من الحديث المرويّ عن عليّ كرم الله وجهه قال: «**ألا إنّها ستكون فتنة فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبّار قصمه الله ومن ابتغى الهدى من غيره أذله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذّكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء...**».[1]

وقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ، لاَّ يَمَسُّهُۥٓ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ، تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (الواقعة:٧٧-٨٠)، لَهُو أكمل من كلّ تعريف، إذ جاء من منزّله تعالى، وهو أعلم بما أودع فيه من أسرار، وما ضمّنه من قصص وأخبار، وما شرعه من أحكام وآداب، وما ضرب فيه من أمثال وبيّنه من معالم وآثار، ولا أجد أروع ولا أتم من بيان مقاصده وآثاره في تربية البشر وهداية الخلق من قوله تعالى: ﴿**يَآ أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ**﴾ (يونس:٥٧)، وقوله

---

١ - رواه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن، حديث ٢٩٠٦، ٥/ ١٧٢.

مخاطبا أهل الكتاب:﴿يَآ أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَآءَكُم رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُم كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ، قَدْ جَآءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ , إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة:١٦).

ومعروف من حياته ﷺ أنّ نزوله على قلبه الشريف قد استغرق من حياته ثلاثاً وعشرين سنة، منها في مكة ثلاث عشرة سنةً، ويسمّى بالقرآن المكّي، وله خصائصه في المبنى والمعنى حدّدها العلماء، وعشر سنوات في المدينة المنوّرة ويسمّى بالقرآن المدني، له خصائصه هو الآخر في المبنى والمعنى.

وليس من خلاف بين العلماء من أنّ أوّل الآيات نزولا منه هي قوله تعالى:﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الانسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْاَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الانسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق١-٥)، وأمّا آخر الآيات نزولاً، فالأشهر أنّها قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢٨١)، وهناك رواية أخرى تقول بأنّ آخر آية منه نزولاً هي قوله تعالى:﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الاسْلامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٠٣)، نزلت في حجة الوداع من السنّة العاشرة للهجرة.

ويضمّ المصحف الشريف بين دفّتيه مائة وأربع عشرة سورة، أوّلها في ترتيبها التّوفيقي عن رسول الله هي سورة الفاتحة وآخرها سورة الناس. وقد تولّى الرّسول ﷺ عن الله تعالى ترتيب آياته وسوره على تلك الكيفيّة المتواترة عنه، ترتيباً عجيباً بليغاً متّسق الحلقات، متناسباً في معانيه وأغراضه، وصدق

مولانا العظيم حين قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ (النساء:٨٢).

هذا هو قرآننا، تراث نبيّنا، وقوام أمّتنا، ما اعتزّت به وعملت بإرشاداته فإنّها لا تضلّ ولا تشقى، وهو المعجزة الخالدة لرسول الله ﷺ حجّة الله على خلقه، تحدّى به الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثله، وهيهات لأنّه كلام من لا يقبل الشّريك، وليس له كُفءٌ ولا ندٌّ، وصدق مولانا العظيم: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءانِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء:٨٨).

فاللهمّ صلّ وسلّم على محمّد وبارك على محمّد وعلى آل محمّد، كما صلّيت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنّك حميدٌ مجيدٌ، آمنت بالله ربًّا وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قبلةً، وبسيّدنا محمّد ﷺ نبيئاً ورسولاً.

سورة الفاتحة مكّيّة، وآياتها ٧

قبل الشّروع في التّعريف بسورة الفاتحة وتفسير آياتها، نُجمِل القول في مسألتين تتعلّقان بالقرآن الكريم كلّه، توسّع في شأنهما العلماء و هما الاستعاذة والبسملة.

أ- الاستعاذة:

هي قول المؤمن قبل تلاوة القرآن أو غير ذلك من الأعمال الجليلة التي يرجو فيها التّوفيق من الله فيقول:(أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم)، أي ألتجئ إلى الله و اعتصم به ليحفظني من شرّ الشّيطان وأعوانه.و قد جاء الأمر الإلهي بالاستعاذة عامّاً وخاصّاً، عامّاً في كلّ الأحوال بقوله تعالى: ﴿وَقُل رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾(المؤمنون:٩٧-٩٨)، وخاصّاً بتلاوة القرآن في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ القُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾(النحل:٩٨)، و لم تَرِدْ لكيفيّة الاستعاذة المأمور بها جملة مصوغة كالبسملة لتصبح آيةً من القرآن، نلتزم بألفاظها، غير أنّ الصّحابة قد رووا عن رسول الله جُملاً مختلفةً في التّعوّذ، أشهرها عند الجمهور هو ما رواه ابن المنذر عن ابن مسعود ﷺ **«أنّ الرّسول كان يقول قبل القراءة: أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم»**[1]، وهي أسهل نطقاً وحفظاً، و ينصرف الأمر بها للنّدب عند

١ - رواه ابن ماجه، كتاب الصلاة، باب الاستعاذة في الصلاة، حديث ٨٠٨، ٢٦٦/١.

جمهور العلماء، إلاّ في الصّلاة فقد ورد فيها خلاف بين الأئمة مبسّط في كتب الفقه.

ب)- البسملة:

يقول عنها الإمام ابن عاشور: " البسملة اسم لكلمة باسم الله، صِيغ هذا الاسم على مادّة مؤلّفة من حروف كلمتين:-باسم- و - الله- على طريقة تسمّى (النّحت)، و هو صَوْغ فعل مُضِيٍّ على زِنَة (فَعْلَلَ) مؤلّفة مادّتُه من حروف جملة أو حروف مركّب إضافي، ممّا ينطق بـه النّـاس اختصاراً عن ذكر الجملة كلّها لقصد التّخفيف لكثرة دوران ذلك علـى الألسنة".[١]

قلت: و يتيسّر ذلك النّطق حتّـى علـى الأعـاجم، والبسـملة في جملتها﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ تتضمّن جميع الشّرع، لأنّها تدلّ على الذّات الإلهيّة و على صفاتها العليّة، كما يقول العلماء.

و أمّا فضلها فحسبها قول رسول الله: **«كلّ أمر ذي بال لا يُبْدأُ فيـه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع»**[٢]، ويدور حديث المفسّرين حولهـا في المسائل الآتية:

---

١ - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر. تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر، ١٩٨٤، ١ / ١٣٧.

٢ - قال الحافظ ابن حجر: لم أره (الحديث) هكذا، والمشهور عن أبي هريرة ﷺ بلفـظ:«لا يبدأ فيه بحمد الله أقطع».أنظر: موسوعة الحافظ ابن حجر الحديثية، جمع وإعداد مجموعة مـن الأساتذة، سلسلة إصدارات الحكمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢-٢٠٠٢، ٤/٢٤٩.

أ- أنّها آية من القرآن إجماعاً، وذلك في سورة النّمل من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ (النمل:٣٠).

ب- ليست بآية من الفاتحة ولا من غيرها، وإنّما رسمها الذين كتبوا المصاحف للفصل بين السّور ما عدا سورة التّوبة.

ج- و بما أنّ الفاتحة ليس قبلها آيّة سورة، و قد أثبتها الكتّاب في أوّلها فقد اختلف العلماء في كونها آية منها أم لا ؟، وبالتّالي اختلف الأئمّة في قراءتها عند الصّلاة وعدمها، وفي قراءتها سرّاً وجهراً حتّى قال بعض العلماء في كونها ليست آيةً في أوّل كلّ سورة: "يكفيك أنّها ليست من القرآن الاختلاف فيها، والقرآن لا يُختَلَفُ فيه"، وقد رجّح قطب الأئمّة أنّها آية من سورة الفاتحة مكمّلة للآية الأولى منها ﴿ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾.

فاللهمّ يا مالك الملك و يا مدبّر الأمور و يا علاّم الغيوب أنت السّميع العليم، تعلم ما في نفسي من حبٍّ و إجلالٍ لذاتك العليّة، ولرسولك ذي النّفس الزّكيّة و المواهب اللّدنيّة، خذ بيدي و امنن عليّ بفيضٍ من أنوارك ونفحاتك، و أنا مشدود إلى رياض كتابك الكريم، أتفيّأ ظلالها وأتملّى جمالها، وأستلهم معالمها، وأمتصّ الرّحيق من زهورها و رياحينها، لأقدّمه شهداً نقيّاً فيه شفاءٌ للنّاس، لا أبغي منهم جزاءً و لا شكوراً.

اللهّم اعف عنّي إن تجاوزت قدري في اقتحام هذا المسلك الوعر، وأقل عثرتي فيه فأنت العفوّ الكريم، وزوّدني في رحلتي هذه باليقين والصّبر، وحسبي إن أخطأت في الاجتهاد المرّة الواحدة من الأجر، و إن أصبت- بفضلك وعونك- فإنّ ذلك هو الغاية المثلى من هذا الأمر، " فاللهمّ نوّرني بنور الفهم، وأخرجني من ظلمات الوهم، وألهمني حكمتك يا ذا الجلال والإكرام،

سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علّمتنا إنّك أنت العليم الحكيم".[١]

فاللهمّ لك أسلمت وبك آمنت و عليك توكّلت، و إليك أنبت وبك خاصمت، و إليك حاكمت، فاغفر لي ما قدّمت وأخّرت، و أسررت وأعلنت، أنت إلهي، لا إله إلاّ أنت، يا أرحم الرّاحمين.

في الفاتحة مقوّمات العقيدة و أصول الشّرع

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ③ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾: لقد تكرّرت الألفاظ التي في البسملة تكرّرت في الفاتحة، فنكتفي بشرحها مرّة واحدة، وبقي لفظ " بسم"، ويعني اللّفظ الذي يدلّ على ذات من الذّوات أو معنى من المعاني، الحمد: من حمد، يحمد، وقالوا في تعريفه: هو الثّناء باللّسان على الجميل الاختياري، وهو أعمّ من الشّكر والمدح، لأنّ الشكر والمدح يكونان مقابل نعمة، و المقام المحمود

١ - كنت دائماً أفتتح درس التّفسير بهذا الدّعاء الذي بين قوسين.

الذي ندعو للرّسول به، هو ما يُحمَد فيه لما يناله النّاس كلّهم من خير دعائه وشفاعته. الله:عَلَمٌ على ذات واجب الوجود، أي المعبود بحقٍّ، وقيل: أصله "الإله"، و هو يُطلَق على كلّ معبود لغة، ولكن لفظ الجلالة عند العرب يُطلقونه خاصّة على خالق السّماوات و الأرض: ﴿وَ لَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ (لقمان:٢٥). الرّبّ: السّيّد المربّي الذي يسوس عبده و يربّيه ويدبّر أمره. العالمين: جمع عالم بفتح اللام. كل الموجودات سوى الله الخالق، ويضاف إلى الأصناف فيقال: عالم الإنسان، عالم الحيوان، عالم النبات ... الخ. وقال البعض إنه خاص بأهل العلم والإدراك، كالملائكة والإنس والجن.﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: مشتقان من الرحمة. ولكل منهما معنى معين "ففعلان" تدل على الصفة العارضة ولا تدل على الدائمة فاحتيج إلى صيغة أخرى تدل على الدائمة وهي "فعيل" ووصف الذات العلية بهما معا. لجمع بين القوة والفعل في الوصف، فالرحمن الذي وصفه الرحمة، والرحيم: الراحم لعباده. وأكثر العلماء أن وصف "الرحمن" خاص به تعالى لا يجوز أن يوصف به غيره. ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾: ملك: قرأ عاصم والكسائي "مالك" والباقون "ملك" والأولى من المُلْك، والثانية من معنى السلطان والقوة وتدبير الأمور. يوم الدين: يوم الحساب والمكافأة. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: العبادة هي ضرب من الخضوع مبالغ حدّ النهاية ناشئ عن استشعار القلب عظمة المعبود في حب وإجلال. نستعين: نطلب منك العون والتأييد. ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ﴾: الهداية: الدلالة بلطف على ما يوصل إلى المطلوب، الصراط المستقيم: الطريق المعتدل، لا انحراف فيه ولا عوج، وهو طريق الإسلام الذي جاء به الأنبياء والمرسلون. ﴿الذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِم﴾: وقد بينهم الله في قوله:

﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾(النساء:٦٩). ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: المغضوب عليهم هم الذين خرجوا عن الحق بعدما عرفوه، أي بلغهم شرع الله فرفضوه. والضالون هم الذين لم يبلغهم الحق إطلاقا. أو بلغهم ولكنهم لم يعرفوه على الوجه الصحيح.

ج]- البيان والتّفسير:

باسم الله الرحمن الرحيم أفتتح هذا البيان، وبعونه أقتحم هذا الميدان، مزوّداً بنور الإيمان ومستدرّاً فيوض الرّحمان ليفتح عليّ أبواب حكمته، وييسّر لي مسالك المعرفة في هدي كتابه، ويسدّد خطاي إلى الهدف المنشود في استجلاء المكنون من أسراره، وبيان المقصود من آياته وأحكامه وأمثاله وأخباره.

لقد أفاض العلماء في كشف أسرار الفاتحة وبيان فضلها، وحكمة ترتيبها على رأس السّور في المصحف الشريف.

ويكفيها شرفاً وفضلاً أن يأمر رسول الله بتلاوتها في كلّ ركعة من الصلوات، يردّدها المؤمن أناء الليل وأطراف النّهار. وقيل: إنها تُحَوْصِل كلّ ما في القرآن من مقوّمات العقيدة الإسلامية وأحكام شرعه الحنيف، لأنّها في مضمونها توجّهٌ ودعاءٌ لله تعالى مفتتَح بما تستحقّه ذاته العليّة من الحمد والثّناء ومن أوصاف الكمال في الخلق والتدبير؛ يستمدّ منه العبد الدّاعي العون والتّوفيق متعبِّداً بعبادته وملتزماً بطاعته، ليوفّقه إلى أغلى نعمة يستشرف لها المؤمن الوفيّ، وهي نعمة الهداية إلى الصّراط المستقيم، الذي هو ما يتضمّنه القرآن من توجيهٍ وإرشادٍ إلى ما يحقّق روح العبادة لله تعالى.

وقبل أن نشرع في البيان والتّفسير أختصر التّعريف بالسّورة الكريمة فأقول:

لقد تعدّدت أسماء السّورة الكريمة، أوصلها المفسّرون إلى ما يزيد عن عشرة أسماء، ولكنّها اشتهرت عند الجمهور بثلاثة أسماء هي: الفاتحة وأمّ الكتاب، والسّبع المثاني، لأنّها آيات سبعٌ، والبسملة عند مثبتيها تُضاف إلى آية: ﴿ **الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ**﴾، وقد نزلت في مكّة، وروى الإمام البخاري عن أبي سعيد بن المعلّى، قال له الرسول ﷺ: «**لأعلّمنّك سورةً هي أعظم السّور في القرآن: الحمد لله ربّ العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أُوتيتُه**».(١)

وتتناول السورة ثلاثة محاور أساسية:

أ- التوجّه إلى الله بالحمد والثناء ووصفه بالرّبوبية والرّحمة المطلقة.

ب- تعهّد المؤمن بإفراد العبودية إليه والاستعانة به.

ج- التوجّه بالدعاء إلى الله لطلب الهداية والتّوفيق والاستقامة على منهج الصالحين من عباده.

ففي المحور الأول: يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ، مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾.

إنها البداية المقدّسة المطلوبة من رسول الله في أوّل آية من القرآن نزلت عليه، وهو موصولٌ بالملأ الأعلى بحضرة سيّدنا جبريل عليه السلام في ذلك الموقف

١ - رواه البخاري عن أبي سعيد بن المعلى في كتاب التفسير، باب ما جاء في فاتحة الكتاب، حديث ٤٢٠٤، ٤/ ١٦٢٣.

الجليل، والرّسول قد استجمع كلّ قواه النّفسية للتّلقّي، فكان ذلك الإرشاد الإلهي لأعظم مُقوِّم للحضارة البشريّة بتعلّم القراءة والكتابة باسم الربّ تعالى وفق التّصوّر العقدي للإسلام، للشّروع في كلّ عملٍ ذي بالٍ. وعلى ذكر لفظ الجلالة "الله" ناسب أن توصف ذاته العليّة بمُطلق الرّحمة "الرّحمان الرحيم" على ما تؤدّيه هاتان الكلمتان من المبالغة في وصف الرّحمة، ليتكامل هذا الوصف النّديّ ويغطّي كلّ المجالات الوجودية للكائنات، وفي جميع أحوالها، أنّها الرّحمة الشّاملة الواسعة التي نعيش - نحن البشر - نفحةً ضئيلةً منها في رحمة الوالدين وحنانهما، وهي جزءٌ من مائة جزءٍ من رحمة الله كما صوّرها رسول الله ﷺ وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٦).

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾: إنه التّلقين الرّبّاني لعباده كيف يذكرونه ويصفونه وهم يتوجهون إليه بالدّعاء، فالحمد والثناء للمنعم الرّحيم هو ما يستلزمه الأدب الرفيع بحضرة الإله في خفقة قلب المؤمن بمجرّد ذكر الله حياءً و وجلاً وهو يطرُق أبواب عرشه تذلّلاً واستعطافاً، لأنّه ربّ العالمين، مدبّر شؤون هذا الوجود الموّار بالرّعاية والتّربية المثلى، وكفالة الحقوق لكل الكائنات.

وبما أنّ حقيقة الرّبوبية المطلقة لله هي المحكّ الذي يميّز بين التّوحيد الخالص في التصوّر الإسلامي وبين ما درج عليه كثيرٌ من البشر من الكفر والإشراك بالله في واقع هذه الحياة الدّنيا، فإنّ وصف الملك أو المالك في القراءة الثانية، وما يفيده كلّ وصف منهما من القوّة والسّيطرة، أو الملكية والتصرّف، هو الوصف المناسب للإله يوم تنتفي كلّ عبودية لغير الله، وينعدم كلّ ما كان يدّعيه البشر ويقرّون به من أنواع الملك في الحياة الدنيا، يوم ينكشف الغطاء للخلائق فتتجلّى الحقيقة الوجودية فيدركون أنّ كلّ شيء ما خلا الله باطل،

وأن الملك الحقيقي لله الواحد القهّار، يوم يُسأل في هول المحشر: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾، فلا يجرؤ أحد على الادعاء والاستعلاء، فيدوّي الكون كلّه مقرّاً ذليلاً خاضعاً معترفاً بسلطان الخالق العظيم، وهو يجيب: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، ومع سلطان الملك والقوّة والعدل والإنصاف، فلا ظلم ولا هضم ولا محسوبية ولا امتياز: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(غافر: ١٧).

وبعد تلك الدّينونة المطلقة لله تعالى وتقديم الولاء له، يتعهّد العبد المؤمن، وهو لا ينفكّ عن الجماعة في إطار المسؤولية التّضامنية لتحمّل الأمانة، فتتعهّد أن تخصّ الله بالعبادة، ولا تستعين إلاّ به، وهو الفرد الصّمد، بيده خزائن الملك ومفاتيح الغيب.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: فمحدودية الإنسان في قدراته و ضعفه الطبيعي، وهو يواجه تحدّيات شتّى على ظهر هذا الكوكب، تحدّيات من نوازع نفسه و من وساوس الشياطين، و تحدّيات من بني جنسه في صراع البقاء، وتحدّيات من قوى الطبيعة التي من حوله.

و الإنسان أمام كلّ تلك التحدّيات، لابدّ و أن يساوره الخوف، وتنتابه الوساوس، ويعوزه الملاذ الأمين والسند القويّ لمواجهة كلّ ذلك، سيما و هو المرشّح للسيادة في الأرض، والمؤهل بأمر الخالق للخلافة، وقد أودع الله فيه بحكم الفطرة ذلك الانجذاب إلى روح الوجود و مصدره، يتلمّس طريقه إلى خالقه و تُناوشه خلال ذلك خرافات و أباطيل تحيد به عن المسلك الصحيح فيضلّ أحيانا و يتيه، ولكنّه بعد التّجربة والعناء قد يستجيب لنداء الفطرة، فلا يجد السكينة والرشد إلاّ في كَنَف خالقه يركن إليه ويستمدّ منه

العون في محراب التبتّل و العبادة، فيتحرّر إذ ذاك من عبودية نفسه أوّلا، ثم من عبوديّة القوى المادّية أيّا كان نوعها، وبذلك يصبح في الأرض بمعونة الله السّيّد المطاع، وقد سخّر الله له ما في السّماوات و ما في الأرض يخترع ويكتشف، ويصنع و يبدع موصول العُرى بمصدر الوجود عبادةً واستعانةً و توكّلاً، وبما أنّ سنّة الحياة و طبيعتها الاختبارية التي تنبع من حقيقة التّكليف لهذا الإنسان، تجعل الحياة لا تُمادنه، لأنّ معركة الحقّ و الباطل، وصراع الخير و الشرّ يواكب مسيرة الإنسانية من بدايتها إلى نهايتها، فلابدّ للمؤمن من طـــوق للنجـــاة، في تماوج بحر الحياة، وهو لا يجد ذلك إلا في كنف ربّه يستنجده ويستهديه، بعد أن يقدّم شواهد الولاء والإخلاص بين يديه فيقول بصيغة التّضامنية الجماعية: **﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ، غَيْـــرِ الْمَغْضُـــوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾**

قيل: إنّ حقيقة الهداية الدّلالة على الطريق للوصول إلى المكان المقصود، وهي في اصطلاح الشّرع حين تُسند إلى الله تعالى الدّلالة على ما يرضـــي الله من فعل الخير، ويقابلها الضّلالة و التعزير.[١]

في هذا الجو الخاشع من مناجاة ربّ العالمين شكراً وثنـــاءً و تعظيمـــاً وتعهّداً والتزاماً، تتفتّح أبواب السّماء و تنطوي الحجب لرفرفة الرّوح الإيمانية تنطلق من القلوب الخاشعة لتطلب من مولاها سؤلها و حاجتها، وهل من نعمة هي أجلّ من نعمة الهداية بعد نعمة الوجود ؟؟،

الهداية في أسمى معانيها و أشمل مجالاتها هي كلّ ما يقرّب إلى الله ويحقق

---

١ - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١/ ١٨٨.

رضاه، والمُهْدى إليه الصراط المستقيم، وهو مستعار لكلّ ما هو حقّ وخير يحقّق الفوز لصاحبه في الدّنيا و الآخرة، ولا شكّ أن هذه الهداية لا يمنحها إلاّ الله مهما التمسها الإنسان بالوسائل المهيّأة له في حياته المادّية الظاهرة، لأنّها من مفاتيح الغيب التي لا يملكها إلا الله مقلّب القلوب، ومزكّي النفوس: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنَ اَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَّشَآءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص:٥٦)، ﴿وَ مَن يُّومِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التغابن:١١).

و أبلغُ ما قيل في تعريف الصراط المستقيم، أنّه الإسلام في إطار كتابه المقدّس القرآن الكريم وهو الدّين القيّم المُرتضى من الله لعباده، ويُسند هذا التعريف قوله تعالى لرسوله: ﴿وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ، صِرَاطِ اللهِ الذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الاَرْضِ أَلآ إِلَىَ اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ (الشورى:٥٣)، وقول رسول الله ﷺ في وصف القرآن: **«إنه الذكر الحكيم وصراط الله المستقيم»**[1]، و بما أنّ القرآن هو الكتاب الخاتم المهيمن على ما قبله من الكتب، جاءت الأوصاف التي أعقبت "الصراط المستقيم" بأنه هو صراط المُنعَم عليهم من الصّدّيقين والشهداء و الصّالحين، وتكرّر لفظ "الصراط" على البدلّية أو عطف البيان للاهتمام به و التركيز على ما يميّزه من غيره من الطّرق، و يكفيه امتيازاً وتشريفاً أنّه صراط المنعَم عليهم، و في ذلك رجاءٌ من الطّالبين أن يكونوا في عِدَاد أولئك المحظوظين بنعمة الهداية، و لزيادة العناية و الاهتمام جاء نفي الضدّ:

---

١ - رواه الترمذي عن الحرث في كتاب التفسير، باب ما جاء في فضل القرآن، حديث ٢٩٠٦، ٥/ ١٧٢.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾: و هؤلاء صاروا مغضوباً عليهم لأنّهم تنكّبوا طريق الهداية فاستحقوا غضب الله و من ذلك إيماء إلى من صدّوا عن رُسل الله ابتداءً من الأمم الخوالي، فاستحقّوا عذاب الاستئصال بعد أن لحق بهم غضب الله، ولهم في الآخرة عذاب النّار.

و أمّا الضّالون فهم أولئك الذين أنعم الله بالهداية على رسلهم ولكنّهم غيّروا و بدّلوا و انحرفوا و ابتدعوا، وفي هذا الوصف تعريض بأهل الكتاب، لأن المطلوب من المهتدي إلى الصّراط المستقيم أن يجتهد في الاستمرار على ملازمة السير على نهجه إلى نهاية المطاف، ذلك بإدمان الاستعانة والعبادة لله، وذلك أمر لا يتيسّر إلاّ لمن يسّره الله عليه، لأنّ الضلالة بعد الهدى أفدح جُرماً و أبشع وصمةً عند الله و النّاس.

فاللّهم اجعلنا مهتدين لا ضالّين و لا مضلّين، و أعذنا من أن يشتبه علينا أمر ديننا فنتّبع فيه هوانا بغير هدى منك يا أرحم الراحمين.

سورة البقرة مدنيّة، و آياتها ٢٨٦

بين يدي السورة

أ – هي كلّها مدنية إلاّ الآية ٢٨١ فنزلت في حجة الوداع، وقيل إنّهـا أوّل سورة نزلت بالمدينة المنوّرة وآياتها مائتان وست وثمانون آية (٢٨٦).

ب – سمّيت بسورة "البقرة" لورود قصة البقرة فيها ضمن الأحـداث الـتي وقعت بين موسى وقومه من بني إسرائيل في مسيرهم من مصر إلى الأرض المقدّسة وتبدأ القصة من الآية ٦٧: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَـأْمُرُكُمْ أَن تَـذْبَحُوا بَقَرَةً﴾.

ج– وردت في بيان فضلها أحاديث تنبئ على ما فيها مـن خـير وبركـة وتسمى "بقسطاس القرآن" لكثرة أخبارها وأحكامها ومواعظها بأسلوب مفصّـل يتناسب مع تكاليف بناء الدولة الإسلامية الفتيّة لتقوم على نهـج الله مـن تركيـز قواعدها وبناء هيكلها، وقد روى الإمام مسلم عن أبي أمامة الباهلي أن رسـول الله ﷺ قال: «**اقرأوا سورة البقرة، فإنّ أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة**»[1]، أي السحرة.

المحاور الأساسية للسورة

نجد السورة الكريمة قد ركّزت على محورين أساسين:

---

١ – رواه مسلم عن أبي أمامة الباهلي في كتاب التفسير، باب فضل قراءة القرآن و فضل سورة البقرة، حديث ٨٠٤، ١/ ٥٥٣.

أ – المحور الأول:

الحوار اللطيف مع بني إسرائيل وتذكيرهم بنعم الله عليهم ولطفه بهم في مراحل مسيرتهم من خروجهم من مصر وتحريرهم من جبروت فرعون إلى أمرهم بالدّخول إلى الأرض المقدّسة، والغرض من ذلك هو دعوتهم إلى التّصديق برسالة رسول الله ﷺ ومناقشتهم في ما كانوا يثيرونه من الشبهات، والتشكيكات حول الرّسالة المحمدية حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحق الذي جاء به الرّسول وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

فإذا ثبت من الروايات الصحيحة أن سورة البقرة من أوّل القرآن نزولاً بالمدينة المنورة، فإنّ حوار المسلمين لأهل الكتاب أي اليهود يستدعي ذلك الموقف لإقامة الحجّة عليهم وإقناعهم بالتي هي أحسن، ويأخذ هذا المحور حيّزاً كبيراً من السّورة بدءًا من قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ إلى آخر آية البرّ في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرُّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾.

ب – المحور الثاني:

يتناول كثيراً من الأحكام التّشريعية التي تقتضيها طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في ظلال الدولة الإسلامية الناشئة، ومن ذلك:

- أحكام القصاص في القتل العمد والعدوان.
- أحكام الوصية.
- أحكام الصيام والاعتكاف.

- أحكام الحج والعمرة وأن الأهلّة هي مواقيت للناس.

- التحذير من أكل أموال الناس بالباطل، ثم ذكرت أوجهاً من التّوثيق المالي بكتابة الدين والإشهاد عليه والرّهن عند انعدام الكاتب الخ....

- كما تعرّضت لأنواع من المال الحرام كالربا والميسر والخمر.

- وفي موقف الإسلام من المشركين، حرّم مصاهرتهم، ثم بيّن أحكام قتالهم سبباً ومقصداً وغايةً

وفي إطار الأسرة تعرّضت السورة لما يلي:

- حكم حيض النساء والتطهّر منه.

- الطّلاق والعدّة والخلع والإيلاء.

- الرّضاع والكفالة والإنفاق.

- التحريض على الإنفاق في سبيل الله وبيان فضله.

-حكم الأيمان وكفارة الحنث.

ويبدأ هذا السياق من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾، وعلى أسلوب القرآن في مزج الوعد والوعيد يتخلّل تلك الأحكام ما يدعو المؤمنين إلى التزامهم بتلك الأحكام وعدم تجاوز حدودها مما يحقّق لهم سعادة الدّارَين، ثم يختم السورة ببيان شامل لعقيدة المؤمنين: ﴿- امَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُومِنُونَ﴾ مقرونة بالدعاء لله تعالى مُشرّع تلك الأحكام على قاعدة اليسر ورفع الحرج، ليستلهم منه المؤمنون الرّشد والهداية ويطلبون منه المغفرة والرّضوان والنصرة على الكافرين، ونجد ذلك الارتباط الوثيق في أغراض

السورة والتناسق بين أوّلها وآخرها، وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ اخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء:٨٢).

الأحرف المقطّعة من أوائل السّور وآراء العلماء فيها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ ۝١

بُدئت السورة بحروف ثلاثة تُقرأ مقطّعة هكذا: ألف، لام، ميم، ونجد كثيراً من سور القرآن تشاركها في نوع هذه البداية، وجاءت تلك الحروف على أنواع:

- منها حرف واحد مثل: **ص، ق، ن.**
- منها ذو حرفين مثل: **طَهَ، يَسٓ، حَمٓ.**
- منها ذو ثلاثة أحرف مثل: **الٓمٓ، الٓرَ.**
- منها ذو أكثر من ثلاثة أحرف مثل: **الٓمٓصٓ، الٓمٓرَ، كٓهيعٓصٓ، حٰمٓ عٓسٓقٓ.**

ويسمّي علماء التفسير هذه الحروف **بالحروف النورانية**، وليس لها معانٍ سوى الدّلالة على مسمّياتها كحروف يَنتظم منها الكلام، إلاّ أنّهم اجتهدوا في محاولة بيان معانيها، كلّ من المجال المعرفي الذي يغلب عليه، أو المدرسة التي ينتمي إليها، فمنهم من يرى أنّها ممّا استأثر الله بعلمه، كما يُروى ذلك عن أبي بكر الصّدّيق ﷺ إذ قال: **"في كتاب الله سِتْر، وسِتْر القرآن في أوائل السّور"**، إشارة إلى تلك الحروف.

ولكن المتكلّمين يرون أنّه لا يمكن أن يكون في كتاب الله ما ليس مفهوماً، فاجتهدوا في بيان المراد منها، ولكنّ محاولاتهم لا تخلو -أحياناً- من تعسّف وتكلّف لا تتّفق مع المقاصد العليا للقرآن الكريم من أنّه كتاب هداية وإرشاد، متيسّر لمن

يقرأه ويتدبّر معانيه:﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر:١٥)، بحيث لا يحتاج الذي يتلوه إلى تخصّص في الفلسفة أو الرّياضيات، وبالتّالي لا يخضع إلى معادلات التّكنولوجيا، ولا إلى ضبط الحاسوب، كما فعل ذلك بعض العلماء في العصر الحديث.

وأحسن ما قيل في تفسير هذه الأحرف، أو على الأصحّ في بيان قصد الافتتاح بها، هو ما أورده العلاّمة السّيّد محمد قطب، في كتابه القيّم (دراسات قرآنية): " الكتاب مكوّن من هذه الحروف التي تنطقون بها، وتصوغون كلامكم منها، من نفس الخامات التي تستخدمونها، فما بالها – على ألسنتكم- غيرها في هذا الكتاب؟؟، إنّ الإعجاز في هذا القرآن ليس نابعاً من أنّه استخدم حروفاً أخرى غير التي يتكلّم بها العرب المخاطَبون به أوّل مرّة، إنّما هو نابع من "الاستخدام الرّبّاني" لهذه الحروف ذاتها الموجودة في لسانهم، فإذاً من نفس الخامة بناءٌ فريد معجز لا يتسنّى لبشر أن يأتي بمثله". انتهى[1]

قلت: إنّ الأستاذ العلاّمة لم يكن أوّل من أعطى هذا التّوجيه لافتتاحية بعض السّور بهذه الحروف، ولكنّه التّفسير الذي نقله العلماء عبر القرون الخوالي من عهد الصّحابة إلى يوم النّاس هذا، وهو التّفسير المُرَجَّح عند أكثرهم مالت إليه نفس الأستاذ، ولكنّه لا يُقطَع بأنّ ذلك هو المراد تأدّباً مع الله، وتهيّباً من أن يقول في كتاب الله بما لم يثبت قطعيّاً بدلالة محكمة من النّصّ، أو ببيان من رسول الله، ولذلك نجده في تعليقه بنفس الصّفحة يقول:" هذه هي الدلالة التي أستريح إليها من تفسير الأحرف التي تجيءُ في مفتتح بعض السّور، وتجيء مباشرةً إشارةً إلى القرآن، أو الذّكر، أو آيات الكتاب، وهو دليل ظنّي على أيّ حال، واليقين يعلمه الله".

---

١ – محمد قطب، دراسات قرآنية، ص١٥٠.

فما أروع هذا الأدب الرّفيع مع كتاب الله، لا يرقى إليه إلاّ أمثال هؤلاء الأفذاذ من علمائنا الأماجد، وقدوتهم في ذلك خليفة رسول الله أبو بكر الصّدّيق ﷺ عندما قال:"أيّ سماءٍ تظلّني، وأيّ أرض تقلّني إذا قلت في كتاب الله برأيي؟"[١]

أين من هذه الأخلاق العالية ما نشاهده اليوم من الجرأة على كتاب الله والخوض في أحكامه ممّن لا يتوفّر فيهم الزّاد المعرفي لعلوم القرآن، و لم تنْحنِ أصلابهم أمام شيوخ التّفسير، و لم يكلّفوا نفوسهم عناء البحث والدّراسة بدءاً بحفظ كتاب الله وممارسة تلاوته بإحدى القراءات المتواترة على الأقلّ، حتّى لكأنّ القرآن كبقيّة الكتب الأدبيّة، حسبُه أن يُلقي عليه نظرة عابرة ليعرف قيمته شكلاً ومضموناً، وحسب هؤلاء من الوعيد قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ، ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُ, فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ, يَوْمَ القِيَامَةِ عَذَابَ الحَرِيقِ﴾ (الحج:٨-٩).

والله أعلم.

١ - إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس، بيروت-لبنان، ط٤، ١٩٨٣، ١/٠٦.

أصناف النّاس أمام هداية القرآن

الصّنف الأوّل: المتّقون.

أ)- النّص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿الكِتَابُ﴾: على وزن فعال، بمعنى المكتوب، إمّا مصدر "كاتب" المصوغ للمبالغة، وإمّا "فعال" بمعنى مفعول كلباس بمعنى " ملبوس"، مشتقٌّ من كَتَب بمعنى جمع وضمّ، والمقصود به هنا القرآن الكريم. ﴿لَارَيْبَ فِيهِ﴾:الرّيب الشّكّ، وأصل الرّيب القلق واضطراب النّفس، ويُقال: ريب الزّمان وريب المنون، أي مصائب ذلك، والمعنى: لا شكّ في أنّ القرآن هو من عند الله. ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾: الهدى اسم مصدر، وفعله هدى هدياً، يتعدّى إلى المفعول الثّاني بـ"إلى"، وقد يتعدّى بنفسه كقوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، ومعناه اللّغوي هو الدّلالة التي من شأنها الإيصال إلى البُغية، والهدى الشّرعي: هو الإرشاد إلى ما فيه صلاح الدّارين للمتّقين الموصوفون بالتّقوى، أي اتّقاء ما جعل الله الوقوع فيه موجباً لغضبه وعقابه.﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾: الغيب هو ما لا يُدرك بالحواسّ ممّا أخبر به القرآن أو

الرّسول صريحاً بأنّه واقع أو أنّه سيقع، كوجود الله والملائكة واليوم الآخر بكلّ مراحله. ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾: إقامة الصّلاة هي الإتيان بكامل شروطها وأركانها. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: الرّزق هو ما يناله الإنسان من خيرات الأرض ممّا يسدّ ضروراته وحاجاته، والإنفاق: مصدر أنفق، وهو إعطاء الرّزق فيما يعود بالمنفعة على النّفس والأهل والعيال. ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾: الآخرة هي من اصطلاح القرآن: الحياة الثانية بعد الموت، وهي مقابل الحياة الأولى،أي الحياة الدّنيا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى﴾(اليل:١٣)، واليقين هو العلم بالشّيء عن نظر واستدلال. ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: الفلاح الفوز وصلاح الحال، في كلّ من أحوال الدّنيا وأحوال الآخرة.

ج)- البيان والتّفسير:

استفتح الله هذه السّورة بالحروف المقطّعة ﴿الٓمٓ﴾، بالمعنى الذي تقدّم في المقصود من البداية بهذه الحروف، ولا يتّصل بها إعرابيّاً ما يأتي بعدها، ولذلك اعتُبرت مستقلّة في ترتيب الآيات، وجاءت بعدها الإشارة إلى القرآن الكريم موصوفاً بأوصاف ثلاثة كلّها فضل وخير فقال جلّ من قائل:

﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ جاءت الإشارة بـ" ذلك" للبعيد لإظهار رفعة هذا الكتاب وعزّة شأنه تمثيلاً له بالأمر المكرّم المرفوع العزيز المنال، لا تبتذله الأيدي الوضيعة، والمعنى: أنّه ذلك الكتاب الجامع لصفات الرّفعة والكمال في جنس الكتب، وصفه الله تعالى بأوصاف ثلاثة:

أ- معنى الكمال والرّفعة المأخوذ من اسم الإشارة: ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾.

ب- ﴿لاَرَيْبَ فِيهِ﴾: أي لا شكّ في كونه حقّاً من عند الله، لكونه مستقيم اللّفظ، بليغ الأسلوب، صادق المضمون، ليس فيه ما يوجب الارتياب في صحّته، وذلك عند إمعان النّظر فيه وتدبّره بعقل نيّر وقلب طهور، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْءَانَ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ (النساء:٨٢).

ج-﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾: عبّر الله بالمصدر " هدى" إخباراً عن الكتاب المشار إليه، مبالغة وتنبيهاً على أنّه هو عين الهداية لرجحان هداه على هدى ما قبله من الكتب، والذين ينتفعون بهداه هم المتّقون الذين آمنوا به وصانوا أنفسهم ممّا يوجب سخط الله وعذابه، ينتفع بهداه على حسب استعداداته النفسية، ومجال نشاطه وأحواله الزّمانية والمكانية، وقد بيّن الله تعالى لهؤلاء المتّقين صفات أربع كلّها صفات كريمة تدلّ على مدى انتفاعهم بهدى الكتاب، وتجسيد ذلك في واقع حياتهم فقال: ﴿الذِينَ يُومِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

أ- **الصفة الأولى**: الإيمان بالغيب هو المعيار الدّقيق لحقيقة الإيمان، بل هو مفرق الطّريق بين الإنسانية الكريمة العاقلة، وبين البهيميّة الشّهوانية الطّائشة، فالإنسان المتّقي لا يعيش حبيس ماديّته التّرابية المقيّدة بظروف الزّمان والمكان، بل ينطلق بروحه وبصيرته يرتاد الآفاق الكونية اللاّمتناهية ليكون وثيق الصّلة بمصدر الوجود، يخشاه ويجلّ عظمته وقدرته، ويستمدّ منه العون والسّند في سعيه الدّؤوب لتحقيق الخلافة في الأرض، والقيام بعبادة الله ونصرة دينه، كما تقتضيه الفطرة السّليمة في الوفاء بعهد الله، فهولا يتطاول بعقله المحدود وإدراكه القاصر إلى اختراق حجب الغيب، لأنّه لا قدرة له على ذلك، بل يسلّم إرادته لمشيئة الله، ويذعن لرسالة من اصطفاهم الله لأمانة وحيه، كما يأتي بيان ذلك في الأوصاف التّالية.

والغيب مضامينه واسعة جدًّا، وقد لخّصها رسول الله بقوله في حديث أسئلة جبريل عليه السلام عندما أجابه عن الإيمان، فقال: « **أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشرّه**» [1]، وقد تعرّض القرآن الكريم إلى موضوع الغيب فجعل ذلك من صفات الله تعالى فقال جلّ من قائل:

- ﴿هُوَ اللهُ الذي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾(الحشر: ٢٢)

- ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ﴾ (الأنعام:٥٩)

- ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً، إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ (الجن:٢٦-٢٧)

وقد رتب الله تعالى المغفرة والأجر الكبير للمؤمنين بالغيب في سورة الملك فقال عز شأنه :

﴿إِنَّ الذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الملك: ١٢).

ب- **الصفة الثانية: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾**: غالبا ما يعبّر القرآن عن الصلاة مصحوبة بفعل " أقام " وهو مُعدّى فعل"قام "، وإقامة الصلاة جعلها " قائمة "، وإنما يقوم القائم لقصد عمل صعب لا يتأتى بالقعود، وقد ضبط الفقهاء معنى الإقامة بقولهم: (هو الإتيان بجميع حقوقها من كمال الطهارة واستيفاء الأركان والسّنن)، غير أن قوام الصلاة يتمثّل في كمال التوجّه إلى الله والخشوع الحقيقي

---

١ – رواه مسلم عن يحي بن يعمر في كتاب الإيمان، باب الإيمان و الإسلام و الإحسان، حديث ٨، ١/ ٣٧.

له، والإحساس بالحاجة إلى الله تعالى، وإلا فهي لا تعدو الصّورة الظاهرة الخالية من الروح، فلا يتحقق المقصود الشرعي من الصلاة الذي هو ذكر الله والتّذلّل إليه والدّعاء له، وقد عبّر بصيغة المضارع ﴿يُقِيمُونَ﴾ لإفادة التجدّد والتّكرار، وليشمل إقامتها في الماضي والحال والاستقبال، لأن الصلاة عبادة قديمة مارسها أتباع الديانات على أشكال مختلفة، وتمت في الإسلام على أفضل صورة وأكملها، وهي تجمع كل ما عرفه الناس من أساليب التعظيم والإجلال للعظماء كما جاءت به السنة عن رسول الله وكان يقول لأصحابه: «**صلّوا كما رأيتموني أصلي**» [1]

ج – **الصفة الثالثة:** ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: إذا كانت الصلاة تزكية للنفوس وطهارة للأرواح بإحكام الصلة بين العبد وربه، واستشعار عظمته وإدمان مراقبته وتقاه، فان الصدقة والإنفاق في سبل البرّ والإحسان لتخفف معاناة الإنسان، هي من أعظم القُربات إلى الله طلباً لمرضاته بالإحسان إلى خلقه، والتعبير "بالإنفاق " يشمل النفقة الواجبة على الأهل والولد وذي القربى ويشمل صدقة التطوع، كما أن التّعبير بالرّزق من فِعل الله تعالى وجعْل مفعوله ضمير الذين يؤمنون بالغيب، هو تنبيه بأن الله تعالى هو مقسّم الأرزاق، وأن ما يصير الرّزق بسببه رزقاً لصاحبه هو حقّ خاصّ له، خوّله الله إيّاه بحكم الشّريعة ومع ذلك فهو يؤثر به غيره شكراً لنعمة الله عليه وطلبا لمرضاته، لأنّ إنفاق المال في سبيل الخير هو من أقوى أمارات الإيمان بالغيب، ذلك لأن المؤمن قد لا يصعب عليه أن يصلّي ويصوم، بينما قد تشحّ نفسه بالمال، لأنّ له محبّة وشهوة في النّفس البشريّة كما قال الله: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا، وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر: ١٩-٢٠).

---

١ – رواه البخاري من حديث طويل عن مالك، في كتاب الصلاة، باب الآذان للمسافر، حديث ٦٠٥، ١/ ٢٢٦.

وتقديم الجار والمجرور على عامله ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ للدلالة على ذلك الاهتمام بالرزق في عرف النّاس، و"من" التّبعيضيّة للدّلالة على أنّ الإنفاق المطلوب هو بعض الرّزق لا كلّه، لأن الرسول ﷺ يقول: «**ابدأ بمن تعول**» [1]، وقد حدّدت الشريعة الواجب من الإنفاق في مقادير الزكاة ونفقة العيال، وأمّا ما وراء ذلك من صدقات التطوّع فليس فيه تحديد، وهو يضيق أو يتّسع وفق أحوال المنفقين، ويترتب فيه الجزاء على حسب نية المنفق وقصده كما قال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ (الحج:٣٧).

وبهذين الركنين القائمين على أساس الإيمان الصحيح، وهما الصّلاة والزكاة تستقيم حياة المسلم في جانبيها الشخصي والاجتماعي، معتقَداً صحيحاً وسلوكاً نظيفاً، ومحبّةً وإخاءً وتعاوناً في المجال الاجتماعي يحقّق السعادة والهناء، ويضمن الازدهار والرخاء.

د- الصفة الرابعة: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾: العطف وتكرار الاسم الموصول هنا جعل المفسرين على احتمالين للآية:

أ- أن هؤلاء طائفة ثانية من المتقين، وهم المؤمنون من أهل الكتاب، إذ يؤمنون بما أنزل من الكتب الإلهية من قبل محمد ﷺ ويؤمنون بالرسول والقرآن بينما الطائفة الأولى هم من مشركي العرب ونُسب هذا القول إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

---

١ - رواه البخاري عن أبي هريرة في كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلاّ عن ظهر غنى، حديث ١٣٦٠، ٢/ ٥١٨. ورواه مسلم من حديث عن حكيم بن حزام، في كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى، حديث ١٠٣٤، ٢/ ٧١٧.

ب- إنّ المؤمنين في الآيتين هم قسم واحد، وهو كلّ مؤمن على الإطلاق، وإنّما تعدّد ما يؤمنون به، فالعطف في الآيتين عطف الصفات لا عطف الموصوفين.

والإيمان بكل الرسالات السابقة ممّا يقتضيه الإيمان التفصيلي بكلّ ما أنزله الله تعالى في القرآن، وقد أكّدت كثير من آياته هذا المعنى، سيما في مناقشة أهل الكتاب في هذه السورة، وسورة "آل عمران"وقد تكرّر الموصول بالنسبة لهؤلاء تخصيصاً لهم بمزيّة يجب اعتبارها وتجري على جميع الصفات الثلاث المذكورة من قبل.

وقليل من أهل الكتاب – قديما وحديثا – من تحققت فيهم هذه الصّفة المثلى بالإذعان للحقّ الذي يُصَدِّق ما عندهم، وإن لم يجر على يد أحد من بني جلدتهم، إذ لم تغلب عليهم العصبية الفاسدة والحسد البغيض.

وقوله تعالى: ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ هو الصفة الثانية، واليقين هو الاعتقاد الذي لا يقبل الشّكّ ولا الزّوال، وجيء به لإثبات إيمانهم بالآخرة، والمراد بها الحياة الثانية حيث الجزاء على الأعمال بحسب ما ثبتت به النصوص القطعية لجميع أحوالها.

يقول الإمام الطاهر بن عاشور في المقصد من تخصيصهم بهذه الصّفة: "وإنّما خصّ هذا الوصف بالذّكر عند الثناء عليهم من بين بقيّة أوصافهم لأنه ملاك التّقوى والخشية التي جُعلوا موصوفين بها، لأنّ هذه الأوصاف كلّها جارية على ما أجمله الوصف بالمتقين، فإن اليقين بدار الثواب والعقاب هو الذي يوجب الحذر والفكرة فيما ينجي النّفس من العقاب وينعمها بالثواب، وذلك الذي ساقهم إلى الإيمان بالنبي ﷺ، ولأن هذا الإيقان بالآخرة من مزايا أهل الكتاب من العرب في

عهد الجاهلية، فإن المشركين لا يؤمنون بحياة ثانية". انتهى[١]

﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: مرجع الإشارة هم قسما المتقين الموصوفين بما تقدم وتكررت الإشارة للتنبيه على أن تلك الصفات جديرة بالإشادة والتّنويه، فإنّ الفلاح يترتّب على كونهم على هدى من ربّهم "متمكّنين منه تمكّن الرّاكب من مركوبه القويّ المطاوع الملجم في يد المستولي" كما بينه قطب الأئمة -رحمه الله-، ووصف الهدى بأنّه من الرّبّ تعالى للدّلالة على توفيق الله وعنايته بهم، وذلك ما يفيده لفظ "الرّبّ" والإضافة لتعظيم شأنه.

يقول صاحب الكشّاف في بيان بلاغة التركيب في هذه الآية: "انظر كيف كرّر الله عزّ وجلّ التنبيه على اختصاص المتّقين بنيل ما لا يناله أحدٌ على طرق شتّى، وهي اسم الإشارة وتكريره وتعريف المفلحين، وتوسيط ضمير الفصل بينه وبين أولئك ليبصّرك مراتبهم ويرغّبك في طلب ما طلبوا وينشّطك لتقديم ما قدموا".[٢]

فاللهم اجعلنا من المهتدين المفلحين، والله أعلم.

---

١ - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١/ ٢٣٩.

٢ - محمود بن عمر الزمخشري، الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، دت، ١/٤٦.

ب- الصّنف الثاني: الكافرون.

أ)- النّصّ:

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧

ب)- التّحقيق اللّغوي:

الكُفر: بالضّمّ هو إخفاء النّعمة، وبالفتح: ستر الشّيء وتغطيته، ومن كَفَر فقد غطّى الحقيقة الإلهية التي دلّت عليها الأدلّة القاطعة، وتناقلتها الشّرائع الصّحيحة، وضدّه في الاصطلاح الشّرعي: الإيمان. ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: سواء بمعنى الاستواء، وعُدِّي بـ" على" للإشارة إلى تمكّن الاستواء عند المتكلّم، وأنّه لا مَصْرِف له عنه، والمعنى سواء عندهم الإنذار وعدمه. والإنذار هو الإعلام مع التّخويف. ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: الختم السّدّ على الإناء والغلق على الكتاب بطين ونحوه، مع وضع علامة مرسومة بخاتم ليمنع ذلك من فتح المختوم، والمراد: أُغلقت قلوبهم فلا يدخلها إيمان ولا نور الهداية. ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾: الغشاوة الغطاء والسّتر، والمراد أنّ أبصارهم لا تدرك آيات الله المبصرة الدّالة على الإيمان بقدرته.

ج)- أوجه القراءة:

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾: قرأ ابن كثير بهمزتين أوّلهما محقّقة والثانية مسهّلة، وقرأ قالون عن نافع وورش عنه في رواية البغداديّين، وأبو عمرو وأبو جعفر

كذلك مع إدخال ألف بين الهمزتين، وقرأه حمزة وعاصم والكسائي بتحقيق الهمزتين، وهي لغة تميم، وروى أهل مصر عن ورش إبدال الهمزة الثانية ألفاً.

د)- البيان والتّفسير:

بعد ذكر صنفَيْ المتّقين ممّن اهتدوا بهدْي الكتاب والثّناء عليهم، انتقل السّياق إلى ذكر أضدادهم ممّن جحد وكفر جهرةً وعلانيّةً، ويُسمّون في اصطلاح القرآن بالمشركين أو الذين كفروا، ثمّ ذكر الفريق الثّالث ممّن أظهر الإيمان وأضمر الكفر، وهم المنافقون في اصطلاح القرآن، فقال جلّ من قائل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾.

يُلاحَظُ عدم الرّبط بين الصّنف المهتدي بهدي القرآن وصنف الذين كفروا، ويُلاحَظُ عدم الرّبط بعطف أو نحوه للدّلالة على الانفصام التّامّ بين الفريقين وعدم مشاركتهما في شيء ما؛ إنّها المفاصلة التّامّة بين الفريقين، كما أكّدته سورة "الكافرون" من السّور القصار المكّيّة حيث احتدم الصّراع بين الحقّ والباطل في أوّل مراحله من مسيرة الدّعوة الإسلامية، فكان من اللّطف الرّبّاني أن يُسلّي رسوله لمواجهة تلك التّحدّيات بمثل هذا البيان لتصنيف مواقف النّاس إزاء الهداية السّماوية، فهُم لا يتساوون في قابلية التلقّي والاستماع والاهتداء.

وقد رُوعِي في مراتب التّصنيف الأفضليّة مع ذكر معايير التّقييم، فإذا كان المتّقون في تلك المنزلة العليا من الفوز والفلاح، فإنّ أضدادهم من الكفّار الجاحدين لهم عذاب عظيم، إذ أنّهم ميؤوس من إيمانهم مهما حاول الرّسول معهم بأساليب التّبليغ، وليس في كتاب الله عيب ولا تقصير في إقامة الحجّة وإنارة الطّريق، ولكن النّقص والعيب في هؤلاء النّاس الذين تبلّدت حواسّهم واستغلقت قلوبهم فلا منفذ لها لنور الكتاب وهدايته، إذ يستوي عندهم الإنذار وعدمه، فهم لا يؤمنون، إمّا

بُغضاً وإمّا كُرهاً للحقّ بفساد طبعهم، أو عناداً وعداوة لمن دعا إليه.

ثمّ علّل الله ذلك الموقف الشّائن منهم برسوخهم في الكفر فقال: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

هم كذلك لأنّهم فقدوا الأسباب والدّواعي التي تؤهّلهم إلى النّظر في أدلّة الإيمان، فقد تعطّلت فيهم القوّة المدركة المعبَّر عنها في القرآن بـ" القلوب" فهي مستغلقة مختوم عليها بخاتم الحرمان والانسداد، وأمّا الحواس -أي السّمع والبصر- وهي منافذ المعرفة إلى العقل فهي مطموسة أيضاً، وجيء بالتّعبير التّصويري تشبيهاً واستعارةً لتجسيد الحقائق المعنويّة بالأشياء المحسوسة للإمعان في الاستهجان والتّنفير.

يقول الشّيخ رشيد رضا في نكتة إسناد الختم على القلوب والأسماع إلى الله، يقول:" وقد أسند الختم على قلوبهم وعلى سمعهم إلى الله تعالى لأنّه بيان لسنّته تعالى في أمثالهم، وعبّر عنه بالماضي للدّلالة على أنّه أمر قد فرغ منه، وهو لا يدلّ على أنّهم مجبرون على الكفر، ولا على منع الله تعالى إيّاهم منه بالقهر، وإنّما هو تمثيل لسنّته تعالى في تأثير تمرّنهم على الكفر وأعماله في قلوبهم بأنّه استحوذ عليها وملك أمرها حتّى لم يعد فيها استعداد لغيره".

ثمّ يقول نقلاً عن شيخه محمد عبده -رحمه الله-: "وأمّا النّكتة في استعمال الختم مع القلب والسّمع، والغشاوة مع البصر، فهي أنّ الختم من شأنه أن يكون مع المكنون والمستور، وهكذا موضع حسّ السّمع وموضع الإدراك من العقل، والسماع من ظاهر الخِلقة، وأمّا البصر فالحاسّة منه ظاهرة منكشفة".[1]

---

١ - محمد رشيد رضا، تفسير المنار، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط ٢، دت، ١/ ١٤٩.

قلت: يبدو لي -والله أعلم- أنّ النّكتة في استعمال الختم مع القلب والسّمع، أنّ الله سبحانه وتعالى قد سبق في علمه الأزلي أنّ هؤلاء ميؤوس منهم، بحيث لا يُرجَى منهم صلاح ولا إذعان، فهم مستغلقون مختوم على قلوبهم بيد الله خالق الإنسان ومقلّب القلوب، فلا يتأتّى للرّسول بَلْه غيره من البشر أن يوصل إليهم هذه الهداية، ولا أن يُسمعهم كلمة الحقّ.

وهداية القرآن تصل إلى شغاف القلوب المؤمنة المُعَدَّة للتّلقّي عن طريق السّمع بالإنصات والتّدبّر، ويكون التّأثير والتّفاعل بسماعه عن الغير أكثر من قراءته بحاسّة البصر من المصحف وغيره؛ ولذا كان اختيار كلمة الختم على القلوب والسّمع أولى وأنسب، لأنّ الانتفاع بهاتين الجارحتين أمر مقدور عليه من كلّ النّاس، على أيّ مستوى كانوا من الثّقافة والمعرفة، بينما الانتفاع بحاسّة البصر في مجال العلم بتلاوة المكتوب وفهمه لا يستطيعه إلاّ من كان له حظٌّ من الثّقافة، وقد كان الرّسول نفسه يتلذّذ بسماعه من غيره أكثر من تلاوته بنفسه، فيطلب من عبد الله بن مسعود ﷺ أن يُسْمِعَه إيّاه بصوته النّديّ، وقصّة عتبة بن أبي ربيعة مع رسول الله مبعوثاً من قومه يستعطفه ويُغريه بالمال والجاه والسّلطان ليترك الأمر الذي جاء به، فكان جواب رسول الله ﷺ أن أسمعه آيات من أوائل فصّلت حتّى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (فصلت: ١٣)، فأمسك عتبة على فمه وناشده الرّحم أن يكفّ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش.(١)

إنّ هذا الرّجل كان النّموذج الواقعي لتلك الفترة العصيبة في أول الدّعوة الإسلامية بمكّة، وهو يجسّد هذه الصورة الحيّة التي رسمها الله للذين كفروا في هذه

---

١ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس، بيروت -لبنان، ط٤، ١٩٨٣، ٤/٩١.

الآية الكريمة لتحجّر القلوب واستغلاقها، ومن القائلين لرسول الله في أنفة وكبرياء: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ، وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ (فصّلت: ٥).

والعجب كلّ العجب أن يسحره بيان القرآن ويُبهره جلال النّبوّة فلا يملك إلاّ أن يعتزل أصحابه وينطوي على نفسه، وذلك يؤكّد ما للسّماع من تأثير على القلوب، حتّى اضطرّ هؤلاء الكفّار كما حكى الله عنهم إلى الإعراض عن سماعه والابتعاد عن القُرّاء حيثما كانوا، ممّا يدلّ على أنّ تذمّرهم الشّديد كان بسماع القرآن لا برؤية صحائفه، يقول الله تعالى في شأنهم: ﴿وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لِهَذَا القُرْءَانِ وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُم تَغْلِبُونَ﴾ (فصّلت:٢٦).

ولا تكون المغالبة إلاّ لشيءٍ ينازعك في القوّة وشدّة المراس، ولتأكيد هذا المعنى تظافرت آيات القرآن الكريم لتحريض المؤمنين على حُسن الإنصات لقراءة القرآن وتدبّر معانيه من مثل قوله تعالى:

- ﴿وَإِذَا قُرِئَ القُرْءَانُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ, وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف:٢٠٤).

- ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (القتال: ٢٤).

- وقد جعل الله تعالى من أخصّ صفات المؤمنين تأثّرهم بسماع القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا المُومِنُونَ الذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُم وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ, زَادَتْهُمْ, إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال:٠٢).

بل إنّ الله تعالى لم يَقْصُر ذلك التّأثير على الإنس وحدهم فذكر أنّ المؤمنين من الجنّ يتأثّرون هم أيضاً بسماع القرآن فقال جلّ من قائل:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ (الأحقاف:٢٩).

ولاشكّ أنّ هذه الآيات وغيرها كثير تؤكّد المعنى الذي أوردناه من تفسير الآية الكريمة، وها نحن نلمس بركة السّماع للقرآن، وهو يُتْلى على مسامع الدّنيا كلّها غضّاً طريّاً في مختلف إذاعات العالم حتّى من تلك التي تناصب العداء للإسلام، وقد تسلّل إلى عُقْر الدّيار عبر الهوائيات، وبواسطة أشرطة الكاسيت و الفيديو بأصوات المقرئين المشهورين في العالم، وكيف كان لذلك من الأثر الفعّال في هداية كثير من المجموعات البشريّة التي لم يبلغها كلام الله، و لم تنعم ببركة هدايته، إذ شرح الله صدرها للإسلام فاعتنقته عن حبٍّ واقتناع، وصدق الله مولانا العظيم وعده إذ يقول:﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (التوبة:٣٢).

ومن الأدب الرفيع وأخلاقيات الدعوة الإسلامية أن يأمر الله تعالى رسول الله بقبول الإجارة للمشرك، لا لأجل عصبيّة أو حميّة، ولكن لأجل سماع القرآن، رجاء أن يهتدي به فقال:﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة: ٠٦).

توعّد الله الذين كفروا بالعذاب العظيم فقال:﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾، وصف العذاب بأنّه عظيم للاهتمام بالتّنصيص على نوعيّته كمّاً وكيْفاً، وتنكيرُه هنا للإشارة إلى أنّه نوعٌ مبهَم مجهول عند أهل الدّنيا، إذ هو من عالم الغيب في الآخرة، وإن كان البشر يعرفون من الآلام النّفسية والجسدية في الدنيا ما ينطبق عليه اسم العذاب، إلاّ أنّ العذاب الأخروي أشدّ إيلاماً، وأبقى دواماً، فاللّهمّ أجرنا من خزي الدّنيا وعذاب الآخرة، آمين.

ج - الصّنف الثالث: المنافقون وصفاتهم.

أ- النّصّ:

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾
يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾
فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ
ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟
أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾
وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ
إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

ب- التّحقيق اللغوي:

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾: اسم جمع إنسي وهو عوض عن" أناسي" الذي هو الجمع القياسي لإنس وقد عوضوا عن أناسي "أناس" بضم الهمزة وطرح ياء النسب ثم حذفوا همزته تخفيفا فقالوا "ناس". ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾: اليوم الآخر عالم الغيب مراحله من بعد الموت هي البعث والحشر والحساب وبعده دخول الجنة أو

النار، وأحواله لا تعرف إلا عن طريق الوحي والإيمان به جزء هام من العقيدة الإسلامية. ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾: الخداع هو صرف الغير عما يقصده بحيلة وهو فعل مذموم إلا لحيلة الحرب والمقصود هنا إظهار الإسلام وإضمار الكفر. ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: والمرض هو عرض يحرف مزاج الإنسان عن اعتداله فيحس بالألم، ويطلق مجازا على الأعراض النفسية العارضة للأخلاق البشرية. ﴿لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾: من الإفساد ضده الإصلاح، ويكون الإفساد في مجال الدعوات الصالحة بإثارة الشكوك والشبهات، وإفتان الناس في معتقدهم وتنفيرهم من اتباع الداعي... إلخ.

﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾: جمع سفيه من السفاهة وهي خفة العقل وقلة ضبطه للأمور، وأطلقها القرآن على سوء التدبير للمال قال تعالى:﴿وَلاَ تُؤتُواْ السُّفَهَآءَ أَمْوَالَكُمُ التِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾(النساء: ٥). ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾: أي انفردوا معهم في خلواتهم، والشياطين جمع شيطان، وحقيقته أنه نوع من المخلوقات المجردة، وهو في بيان القرآن من جنس الجن مخلوق من الطبيعة النارية للإغواء والإفساد، ويطلق مجازا على مثيري الشر ومروّجي الفتن من البشر قال تعالى:﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيءٍ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالجِنِّ﴾(الأنعام:١١٢).

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾: من الاستهزاء -أي السخرية- أي أن تعامل أحدا بفعل أو قول يحصل به احتقاره سواء أشعرته بذلك أو أخفيته عنه، ويتعدى بالباء وقد يتعدى بمن.﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾:أي يتركهم في الطغيان وهو المبالغة في الطغي أي الإفراط في الشر والكبر. ويعمهون من العمه أي انطماس البصيرة وتحير الرأي.﴿اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى﴾: الاشتراء على وزن "افتعال" من فعل شرى الذي بمعنى باع، واشترى بمعنى ابتاع.﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾: الربح

هو نجاح التجارة ويطلق الربح على المال الحاصل للتاجر زائدا على رأس ماله والتجارة على وزن فعالة: وهي عملية اشتراء البضائع لقصد بيعها بثمن أوفر ممن اشتراها به ليكتسب من ذلك الوفر ما ينفعه.

ج- أوجه القراءة:

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾: يخادعون قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وخلف ﴿يُخَادِعُونَ﴾بألف بعد الخاء وقرأه ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر ويعقوب ﴿يَخْدَعُونَ﴾ بفتح التحتية وسكون الخاء.

﴿بِمَا كَانُواْ يُكَذِّبُونَ﴾: قرأ الجمهور ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ بضم أوله وتشديد الدال. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف بفتح أوله وتخفيف الذال ﴿يَكْذِبُونَ﴾.

د- البيان والتفسير:

يستكمل هذا النص الثالوث البشري أزاء هداية السماء، فبعد بيان الصنفين الأولين من المؤمنين والكافرين وهما على طرفي نقيض أزاء الدعوة الجديدة، انتقل إلى بيان الصنف الثالث وهم المنافقون، وقد أطال النص في بيان أحوالهم وذكر مواصفاتهم لما كان لهم من الخطر على الدعوة الإسلامية في المجتمع المدني، لأنهم لا يظهرون بمظهرهم الحقيقي ليعرفهم الناس كما في الصنفين الأولين فقال تعالى: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الاَخِرِ وَمَا هُم بِمُومِنِينَ، يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخادِعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ، فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يُكَذِّبُونَ﴾**:

لم يعرف المجتمع المكّي عند انطلاق الدعوة الإسلامية غير الصنفين الأولين

من المؤمنين والكفار، وكانت كل جماعة تتعامل مع الأخرى وفق ما تقتضيه طبيعة الصراع بين الحق والباطل، وما تفرزه سنة الإصلاح والتغيير من أنواع السلوكات، ولذلك جاء الوصف القرآني لهما مختصرا مقرونا بالجزاء الأوفى لكل منهما، وفي وضوح معايير الطائفتين لدى الناس يقول الشاعر:

إذا رمت أن تلقى من الناس حرمة فكن سيدًا للخير أو سيّد الشرّ.

أما المجتمع المدني الذي شاءت قدرة الله أن يكون المحضن الأمين للدولة الإسلامية الوليدة فقد عرف من قبل عنصر اليهود، وكان لهم مكانتهم الاجتماعية والاقتصادية في المدينة. وهم بطبعهم المتعجرف ونظرتهم الاستعلائية إلى غيرهم بأنهم أهل كتاب وأنهم شعب الله المختار لا يرضون بمزاحمة الدين الجديد، وهم يشاهدون حبّ الصحابة لرسول الله والتفافهم حوله في تماسك ومنعة. واليهود ليسوا من الوفرة العددية بحيث يواجهون ويتحدّون علانية. فلبسوا ثوب الخداع والمداجاة، ثم جرّوا إليهم من أهل المدينة المتردّدين الإمّعات، وليس أضرّ على المجتمعات البشرية من هذه الصفة الخسيسة عندما تنطلق فيها دعوة مباركة للإصلاح والتغيير، فلا مناص -إذن- من الإطناب والتفصيل في بيان مخازي هذه الطائفة ومضارّها حتى يتفاداها الأتباع الأوفياء، فجاء النصّ المبيّن لمواصفات المنافقين مُطوّلا يضمّ ثلاث عشرة آية مما ورد في النصّ ثم ما يتبعه من ضرب الأمثال لهم، تبين حقيقتهم وخطّتهم في التعامل مع الناس.

ومثل هذا البيان ضروري لكلّ داع إلى الحق ليعامل كل طائفة بما يناسبها، فلا يختل ميزان الأوضاع الاجتماعية، ولا تؤتى الدعوة من مأمنها فتتآكل داخليا حتى يُقضى عليها، والآيات وإن كانت تتناول هذه الطائفة في وقت التنزيل فهي شاملة عامّة لهذا النوع من الناس في كل زمان ومكان.

وقد أضفى عليهم البيان المفصّل كثيرا من الأوصاف فافتتحه تعالى بقوله:﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ وهو خبر مقدّم، وجاء بهذه الصيغة تنبيها للسامع على عجيب ما سيذكر وهو تركيب يكسب الذم للمُخبَر عنهم بما يذكر في شأنهم من الأوصاف الذميمة أوّلها قوله تعالى:

أ - ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الاَخِرِ وَمَا هُم بِمُومِنِينَ﴾:

الإيمان بالله واليوم الآخر هو الأساس الصحيح في معتقد المؤمنين بأية شريعة سماوية، وهو الصلة المعنوية التي تربط الإنسان بخالقه ولا يكون له مفعول حقيقي على سلوك الإنسان إلا إذا وقر في القلب وصدّقه العمل بأوفى صوره وأخلصها، وبما أن المنافقين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ولما كان الإيمان الصحيح مستودعه القلب فقد نفى الله عنهم مطلق الإيمان مؤكدا بدخول الباء في خبر " ما " وينطبق هذا النفي حتى على اليهود، لأنهم وإن كانوا مؤمنين بالله واليوم الآخر، فإن لجوءهم إلى المكر والخداع والمراوغة في العمل والسلوك يجرّدهم من آثار الإيمان الصحيح، وبالتالي فإن ما يأتون به من الأعمال الصالحة ظاهريا إنما يقصدون به الرّياء والنفاق وطلب الحظوة عند الناس، فلا ينفكّون عن الدّسائس والشرور، وهم بذلك محرومون من قبول الله ورضاه ولذلك قال الله تعالى في الوصف الثاني:

ب-﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يُخادِعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: والخداع من المخادعة والمفاعلة تقتضي المشاركة، استشكلها بعض المفسرين وقالوا: إنها محال على الله وغير لائقة بالمؤمنين بل يستقبح لأنه عمل المنافقين، وجاء التركيب في سورة النساء على طريقة المشاكلة اللفظية إذ قال تعالى:﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾، وحاول المفسّرون الإجابة على الإشكالية بأوجه من التأويل بعضها مستقيم مقبول وبعضها فيه تكلّف والتواء نورد

نموذجين منها:

- يقول صاحب المنار: " والتحقيق أن فعل المشاركة هنا خاص بالفاعل المسند إليه فعله وهم المنافقون وصيغة "فاعل" لا تطّرد فيها المشاركة كالفعل كعاقبت اللص، وقد تكون مقدرة أو باعتبار الشأن أو القصد، ومن التكلّف قول بعضهم: إنّه عبّر عن مخادعتهم للرّسول بمخادعتهم لله".(١)

- أمّا صاحب الكشّاف فعلى طريقته في التعليل البياني يقول أن "يخادعون" استعارة تمثيلية، تشبيها للهيئة الحاصلة من معاملتهم للمؤمنين ولدين الله ومن معاملة الله إياهم في الإملاء لهم والإبقاء عليهم، ومعاملة المؤمنين إياهم في إجراء أحكام المسلمين عليهم، بهيئة فعل المتخادعين".(٢)

﴿وَمَا يُخادِعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: أي أنهم في غفلتهم وقصور عقولهم يظنون أنّهم يخادعون الله فلا يعلم نواياهم ومقاصدهم، بينما الله جلّ جلاله لا تخفى عنه خافية، فهم لا يخدعون إلا أنفسهم لما ألفوه من الكذب والمراوغة حتى على أنفسهم، وذلك حين تنطمس بصائرهم، فلا تهتدي لحقائق الأشياء بل تنقلب المفاهيم عندهم، فيرون الفساد صلاحا، والرّشاد سفاهة ولذا نجد الله تعالى في تعداد أوصافهم ينفي عنهم في كلّ مرة أوصاف العلم والشعور والإدراك الصحيح، ولذلك تنقلب عندهم موازين القيم وتنعكس في نظرهم حقائق الأشياء، فلا يرونها إلا من خلال ما وقر في نفوسهم من الأوهام والضلالات حتى أصبحوا في عداد من قال فيهم في سورة فاطر: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا، فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ، فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا

١ - محمد رشيد رضا، تفسير المنار، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط٢،دت، ١/ ١٥٠.

٢ - أنظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١/ ٢٧٦، و تفسير الكشاف، ١/٥٣.

يَصْنَعُونَ﴾ (فاطر:٠٨).

إنهم في حالة مرضية نفسانية لا يرجى برؤها لأنهم لا يلتمسون طرق العلاج، فتستحكم العلة في نفوسهم لأنها تجد المناخ الملائم فتتأصّل وتزداد قال تعالى:

ج-﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ﴾: وأمراض القلوب هي أشد وأنكى على الإنسان من أمراض الأبدان، لأن القلب هو مستودع الإلهامات الرّبّانية، أو الوساوس الشيطانية، وبه قابلية للصلاح والفساد، وبدن الإنسان رهن به في تلك الأحوال المتقلبة، وقد بيّن الرّسول ﷺ ذلك بقوله: «...**ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**».[1]

ولخطورة هذا المرض النفسيّ جاء لفظ "مرض" نكرة، والمقصود بازدياد المرض هو اتّقاء أسباب العلاج بالنصح والإرشاد لأن المنافق يتستّر عن الناصحين والمرشدين، وحين يتستّر المريض عن الطبيب المعالج فإنّ مرضه يزداد حتى يورده موارد الهلاك، ولذلك تقول الحكمة: "من كتم داءه قتله"، فاستحقّ هؤلاء العذاب الأليم الذي يناسب شرورهم، وقد بيّن الله نوعيّته في سورة النّساء عندما قال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (النساء: ١٤٥).

ثم بيّن الله سبب وقوعهم في هذا المسلك الخطير بأنهم يكذّبون، فتكذيب اليهود لدعوة رسول الله كان بدافع الحسد والبغي، وتكذيب منافقي العرب كان

---

١ - رواه البخاري عن النعمان بن بشير في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث ٥٢، ١/ ٢٨. ورواه مسلم عن النعمان بن بشير أيضاً، في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث ١٥٩٩، ٣/ ١٢١٩.

بدافع الشَّك والارتياب في نبوة رسول الله تأثّرا بتشكيك اليهود ودعاياتهم، أو استبقاء لبعض المنافع العاجلة كموقف عبد الله بن أبيّ وأشياعه.

وبعد تصوير الكذب والخداع يبيِّن النص صفات أخرى ذميمة، وتتمثل في السفه والغرور والادعاء وذلك عندما يواجهون النصحاء الذين ينكرون ما هم عليه من الشَّر والفساد:

د - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلآ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُومِنُ كَمَآ ءَامَنَ السُّفَهَآءُ أَلآ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَآءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ﴾:

لاشكَّ أن الغرور والعجب والاعتداد بالرأي كلها تثير عزَّة النفس في هؤلاء المنافقين، فلا يذعنون لناصح ولا ينصفون لقول الحق، وقد صوَّر القرآن خبثهم تصويرا حيويًّا من صميم واقع هؤلاء الناس، إذ جعلهم مفرطين في المكابرة والعناد بذلك الرَّدِّ لمن ينصحهم ويبيِّن لهم فساد تصوُّرهم، لأنَّ الإنسان له أن يعتقد من نفسه ما يشاء، وأن يغالطها بما يشاء، وقد يكون بذلك صريحا بما يعتقده أنه هو الصَّواب، وربَّما يكون له بعض العذر في ذلك، ولكن أن يكابر غيره ممن يقيس الأمور بميزان العقل ويقيِّمها بمعايير الإيمان، عندما يبيِّن له مواطن الخلل في سلوكه، فذلك هو عين السَّفاهة والضَّلال، وصدق الشاعر العربيُّ حين قال:

يُغمى على المرء في أيّام محنته ... حتَّى يرى حسنا ما ليس بالحسن

وقال أيضاً:

ومن جهلت نفسه قدره ... رأى غيره فيه ما لا يرى

ولذلك جاء الرَّد عليهم بصيغة الحصر: ﴿أَلآ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾، ﴿أَلآ

إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَآءُ﴾، وأكّد الحصر في كليهما بضمير الفعل ليبيِّن استفحال العلّة في هؤلاء المرضى بحيث أصبحوا في حالة نفسية متردِّية في التيه والضلال .

هـ:﴿وَإِذَا لَقُواْ الذِينَ ءَامَنُواْ قَالُواْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَواْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ، اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

ومع الكذب والمراوغة، ومع السفاهة والادّعاء يجيء التآمر والكيد والدّسيسة، وهكذا العلل تجرّ بعضها إلى بعض، وتنبثق إحداها عن الأخرى ما لم تجد حاجزا يمنعها، وهناك يظهر الضعف النفسيّ على أشدّه حين يواجههم الواقع وهم بين فئة مؤمنة صادقة أخذت تتنامى وتتسع وتقوى، وفئة باقية على تيهها وضلالها تراوغ وتتخفى وتخشى الافتضاح والتشهير.

﴿وَإِذَا لَقُواْ الذِينَ ءَامَنُواْ قَالُواْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَواْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾، والمقصود بالذين آمنوا هو حضورهم بمجلس رسول الله وصحابته فيعلنون إيمانهم السطحي بألسنتهم لا بقلوبهم، وهم بذلك يتستّرون لاتّقاء الأذى عن أنفسهم من طرف المؤمنين، وللتآمر على أذى المؤمنين من جهة أخرى، قال تعالى في هذا المعنى بسورة المنافقين: ﴿اتَّخَذُواْ أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(المنافقون:٠٢). وما أبلغ التعبير بـ﴿شَيَاطِينِهِمْ﴾ في مقابلة المؤمنين لما في ذلك من تشخيص الخبث والدناءة، وكذا التعبير بالخلوة إليهم لاحترازهم من الافتضاح، لأنّ الخبثاء والمجرمين يتوخون ضروب الحيل، ويلتجئون إلى الأوكار المخبوءة لحبك مؤامراتهم ثم إنهم يأتمرون بأوامر رؤسائهم ويلتزمون بمخططهم للجريمة، وهو ما يدلّ عليه قولهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، وإنّ لقاءهم للمؤمنين إنّما هو لمجرّد الاستهزاء والاستخفاف تضليلا وتستُّرا، ولعلّ المتتبِّع لتصرُّفات هؤلاء الناس يظن البلاهة والغفلة في صف المؤمنين، وهم لا ينتقمون منهم، ولكن حكمة

الله اقتضت أن يعاملهم المؤمنون على حسب ظواهرهم، ولا يعني ذلك أن الله تعالى غافل عمَّا يعمل الظالمون، ولذلك عقَّب ذلك الصنيع الشنيع منهم بما يشاكله من نقمة الله عليهم، وذلك بأن يمهلهم ويستدرجهم من حيث لا يعلمون فقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، ويراد من استهزاء الله بهم هنا إطلاق لازم الاستهزاء وهو إمهالهم واستدراجهم ثم مجازاتهم بالعقاب المناسب للمستهزئ بهم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾: الإشارة إلى الذين بينت الآية أحوالهم السابقة أي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ وهي مقابل قوله تعالى في الفريق الصالح ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾، وهي تفيد تعليل مضمون الجملة ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وجيء بصورة الاشتراء والبيع وما ينتج عنهما من الربح والخسارة، وهي استعارة لتشبيه حالة اختلاطهم بالمسلمين وتلبُّسهم بالإيمان السَّطحي بحالة المهتدي، وطرح ذلك والتخلي عنه عند خلوّهم إلى شياطينهم بحالة الضلال، وأكملت الصورة التشبيهية بنفي الرِّبح عن تجارتهم، ونفي الاهتداء عنهم لإفادة خيبة مسعاهم ووقوعهم في الخسران.

وقد استشكل بعض المفسِّرين في هذه الصورة التشبيهية وجود الهدى بين أيدي المنافقين حسبما يفهم من ظاهر الآية، والواقع أنهم لا يملكون منه شيئا حتى يستبدلوه بالضلالة، وحاول البعض أن يعتبروا بعض ما حصلوا عليه بإسلامهم السطحيّ كالحفاظ على دمائهم وأموالهم اعتبروا ذلك ضربا من الهدى ؟؟ حتى يستطيعوا بذلك أن يكملوا الصورة التشبيهية للمعاوضة التي تتطلّبها عملية الشراء وتصوّر الرِّبح والخسارة فيها إلى غير ذلك من ضروب التكلّف.

ويبدو لي -والله أعلم- أن اختيار هذه الصورة لتشخيص حالة هؤلاء المنافقين، لا يقصد بها معنى المعاوضة، وإنما يراد بها معنى الاختبار والاستحباب للشيء عن رغبة وطواعية، إذ أن الشاري لبضاعة مّا، إنما تدفعه إلى ذلك الحاجة الملحة في اكتساب ذلك الشيء لجلب منفعة أو دفع مضرة، فالإسلام في نظر هؤلاء الإمّعات عملة زائفة يتستَّرون وراءها ويستبدلونها بالذي يهفون إليه في صفقة يوهمون الناس بها أنهم يكسبون بالطرق الشرعية المألوفة ويلتمسون الرّبح ببذل المجهود والتبادل المعهود، وإلاّ فهم من أول أمرهم على طريق الضلالة سائرون وفي سبيلها يعملون، فإذا صحّ أن تروج هذه العملية المفضوحة على الناس الذين يحكمون بظواهر الأشياء، فإن الله الذي يعلم السرَّ وأخفى لا يجازي على ظواهر الأعمال، ولا يقيِّم بالصور والأشباح.

ولكنه ينظر إلى الدوافع الحقيقية والنيات المستكنة في حنايا الصّدور، ولذا فقد حكم بالخسارة على هذه التجارة من أول أمرها: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ والنفاق ينمّ عن ضعف الشخصية وتذبذبها، فقال تعالى في شأنهم: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰؤُلَآءِ﴾ (النساء: ١٤٣).

وقد حدّد الرسول معالم النفاق في ثالوث بغيض يجمع أخسّ الصفات فقال ﷺ: **«آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»**.[1]

وقانا الله شرّ النفاق وعصمنا من التعثر والانزلاق، والله أعلم.

---

١ - رواه البخاري عن أبي هريرة، في كتاب الإيمان،باب علامة المنافق، حديث ٣٣، ١/ ٢١ ورواه مسلم عن أبي هريرة، في كتاب الإيمان، باب بيان خصال النفاق، حديث ٥٩، ١/ ٧٨.

ضرب المثل لفريقي المنافقين

أ)- النّص:

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿مَثَلُهُمْ﴾: المَثَل بفتحتين جمعه أمثال، أصله هو النّظير والمشابه، ويُقال: "المِثْل" بكسر الميم، ويقال:" مَثيل"، والتّمثيل مَنْزع جليل بديع للبلغاء، ويكون لبيان الحالة الغريبة الشّأن، لتوضيحها للنّاس بتشبيه حالة بحالة، وقد لا تُشبّه.﴿اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾: بمعنى أوقد النّار أي أشعلها، فالسّين والتّاء فيه للتّأكيد. ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾: أبانت ما حولها من الجهات، تعدّى بالهمزة ومجرّده "ضَاءَ"، فإذا جاء قاصراً بمعنى"ضاء" كانت همزته للصّيرورة، أي صار ذا ضوء. ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾: أي أطفأ النّار التّي يستمدّون منها النّور. ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾: صمٌّ جمع أصمّ، أبكم، أعمى: آفات تصيب الحواس، الأذن، اللّسان،

العين. ﴿كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَآءِ﴾: الصَّيِّب على وزن " فعيل" من صاب يصوب صوْباً الماء إذا نزل بقوّة. **الرّعد**: صوت احتكاك الهواء في السّحب، **والبرق**: الضّوء الذي يلمع في السّحاب من أثر احتكاك الهواء. **الصّواعق**: جمع صاعقة، وهي نار تندفع من كهرباء السّحب فتجذبها الأرض. ﴿يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾: الخطف الأخذ بسرعة. ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾: أي ثَبتوا في أماكنهم متحيّرين يطلبون النّجاة.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد أن بيّن الله تعالى أحوال المنافقين وصفاتهم المتناقضة عقّب على ذلك بمَثَلين، وضرْب الأمثال يجيء لتوضيح المعاني الدّقيقة بأسلوب التّمثيل والتّشبيه بما هو واقع ملموس، ويكثر في القرآن ضرب الأمثال حتّى بأصغر الكائنات كالبعوضة والعنكبوت، يقول الله تعالى:

- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيءٍ جَدَلاً﴾(الكهف:٥٤).

- ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ (البقرة:٢٦).

وإيراد هذين المثلين للمنافقين يُراد به التّأكيد على شناعة أعمالهم ودناءة صفاتهم وخسّة وضعيّتهم الاجتماعية.

أ)- المثل الأوّل: قال الله تعالى: **﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُ, ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾**:

أي أنّ حالتهم في إظهار الإيمان وحضورهم مجالس الرّسول وتكلّف الاستماع إلى هدى القرآن وقيامهم ببعض طقوس العبادة...إلخ، حالتهم هذه كحالة الذي استوقد ناراً ليهتدي بنورها ويستبين سبيل النّجاة من المهلكات المادّية أو المعنوية، فلمّا أضاءت ما حوله وكشفت له طريق الهداية زمناً يسيراً، وكاد ينتفع بها في مسلكه، أطفأ الله عليه تلك النّار فأطبقت عليه الظّلمات، وتعطّلت حواسّه في الاستفادة منها، إذ تغلّبت عليه أوهام الضّلالات عناداً أو تقليداً، وقد تركه الله إلى نفسه تائهاً مخذولاً، لأنّه قد اختار لنفسه ذلك المسلك المظلم، ولم يُسخّر حواسّه لِما فيه النّفع والخير، حتّى لكأنّها معطّلة عن العمل.

ب)- المثل الثاني: قال الله تعالى: ﴿**أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ، يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾:

وهذا تمثيل لحالة الاضطراب والقلق لأولئك الذين لهم بصيص من نور الهداية في قلوبهم وهم يستمعون إلى مواعظ القرآن وقوارعه، فتلتمع قلوبهم بإشراقاته أحياناً، ولكنّهم كلّما همّوا بالسّير في مسالك نوره تحرّكت في نفوسهم كوامن البدع والضّلالات وغشيتهم ظلماتها، فيتحيّرون قائمين في أماكنهم لا يدرون أين يتّجهون؟؟...ومن ثَمّ يثقل عليهم سماع القرآن فيُعرضون عنه بعد إقبال، ويعودون إلى التّيه والضّلال، ومن وراء ذلك مشيئة الله في الرّشاد والضّلال لهم وِفق ما يترجّح في ميلهم واختيارهم، وهكذا النّفاق لا وضوح فيه لأصحابه ولا راحة ولا استقرار.

ومن النّاحية البيانية نجد كلاً من المُشبّه والمُشبّه به واضحين في المثلين الكريمين، فما هو وجه الشّبه في كليهما؟.

ذهب المفسّرون القدامى مذاهب شتّى في تحليل أجزاء الصّورة التّمثيلية لاستخلاص وجه الشّبه، وقد أوردها الإمام الفخر الرّازي في التفسير الكبير، وألهاها إلى ثماني حالات، أعجبني منها قول الإمام الحسن البصري-رحمه الله- في ذكره للحيرة والخسرة التي تنتاب نفس المنافق، غير أنّه لمّح إليها تلميحاً يحتاج إلى مزيد من التّوضيح، فقال ما نصّه: " نقول ليس وجه التّشبيه أنّ للمنافق نوراً، بل وجه التّشبيه بهذا المستوقد أنّه لمّا زال النّور عنه تحيّر، والتّحيّر فيمن كان في نور ثمّ زال عنه، أشدّ من تحيّر سالك الطّريق في ظلمة مستمرّة، لكنّه تعالى ذكر النّور في مستوقد النّار، لكي يصحّ أن يوصف بهذه الظّلمة الشّديدة، لا لأن وجه التّشبيه مجمع النّور والظّلمة." انتهى[١]

ويبدو لي -والله أعلم- أنّ وجه الشّبه في كلا المثلين هو ما ألمح إليه الإمام الكبير في هذا التّوجيه الأخير، وهو تشخيص الحالة النّفسية المضطربة عند المنافق بكلٍّ من مُستوقِد النّار، والمصابين بصيِّب من السماء، فالجامع بينهم -أي المشبّه والمشبّه به- هو ذلك الشّعور المتحيّر المضطرب، وهم يتخبّطون في الظّلمة والوحشة، بعد أن غشّى عيونهم لمعان النّور المصحوب بالرّعود والبروق والصّواعق، ليكون ذلك أنكى عليهم وأشدّ، وهم يتلمّسون الخلاص ممّا هم فيه بوسائلهم الضّعيفة في يأس وتخبّط، فالبرق يكاد يخطف أبصارهم، وقصف الرعد يصكُّ آذانهم، فلا يجدون حيلةً إلاّ بإغماض أجفانهم، ووضع أصابعهم في آذانهم، ولو شاء الله لأراحهم ممّا هم فيه بإذهاب السّمع والبصر، ولكنّه لم

١ – محمد الرازي فخر الدين، التفسير الكبير، دار الفكر للعاصر، بيروت – لبنان، ١٩٩٨، ٢ / ٧٣-٧٤.

يفعل إمعاناً في الإيذاء، وزيادة في الحيرة والقلق، لأنّ سعادة الإنسان تنبع من داخل نفسه عندما تطمئنّ ويغمرها برد اليقين.

وبما أنّ صفة النّفاق لا تكون على مستوى واحد من نفوس أصحابها كشأن الإيمان والكفر، فقد جاء ذكر هذين المثلين بياناً لصنفين من المنافقين: متطرّفين ومعتدلين، إن جاز لنا أن نعتبر الاعتدال في النّفاق، فنلاحظ التّطرّف في الصّنف الأوّل، إذ أنّ النّور الذي يستوقده صاحبه ليُضيء ما حوله ليس في قوّته وسطوعه بمساوٍ لذلك الذي يُحدثه البرق في الأجواء عند اشتداد العاصفة، ناهيك بنزول الصّواعق شدّةً ولمعاناً.

وشتّان بين الوسيلة الإنسانية الضّعيفة، وبين الظّواهر الكونية التي هي من صُنع الله وقدرته، ولذا فإنّ صاحب المثل الأوّل لا تكاد ناره تضيء حيّزاً ضيّقاً فيما حوله حتّى تنطفئ ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ﴾، فهي ظلمات متعدّدة بشرور أنفسهم، وبإغراء شياطينهم، فحالتهم شبيهة بصنف الكفّار المختوم على قلوبهم وأسماعهم ابتداءً، فهم صمّ بكم عمي، وهم لا يرجعون أمام القوارع، وحتّى ظواهر النّفاق التي تستّروا بها هي من الضّعف والضّآلة بمثابة ذلك النّور الباهت الذي لا يهدي من حيرة ولا ينير سبيلاً.

بينما نجد المثل الثاني يشخّص الصّنف الذي ما تزال فيه قابليّة للتأثّر والانتفاع، غير أنّ موقفه من تصارع عاطفة حبّ الدّنيا وواجب أمانة الدّين غير متّزن، فهو أكثر ميلاً إلى حبّ الدّنيا واقتناص مُتعها بأيسر جهد وأقلّ تكلفة، فلتكن الحيلة والمراوغة ذريعة إلى ذلك، فهم إذا سمعوا القرآن تأثّروا بزواجره وفزعوا لقوارعه التي هي بمثابة الرّعود والبروق والصّواعق، ولذا فهم لا يعرضون تمام الإعراض، إذ يمشون خطوات في مجالات ذلك النّور إذا سطع،

على قدر ما يحصلون عليه من الانتفاع، وبأقلّ قدر من الانقياد والانصياع، لأنّ ذلك النّور لم يبلغ من نفوسهم القرار المكين، ومن قلوبهم سويداء الاطمئنان واليقين، ولذا فهم لا يقبلون على الرّسول ومجالسه إلاّ في إدبار، إيثاراً لمنافعهم الشّخصية وخوفاً من الافتضاح، فهم يقفون في متاهات الحيرة والاضطراب، وإن كانوا يعتقدون أنّهم بعملهم هذا قد أدّوا ضريبة التّأمين على حياتهم وأموالهم، والله تعالى يرخي لهم الحبل ليستدرجهم من حيث لا يعلمون، ومن جهة أخرى لا يتركهم بدون رقيب ولا حسيب، وهو يشرّع أحكامه ويصمّم هياكل المجتمع المسلم، ويعبّد صراطه المستقيم، فيضع الشّارات واللاّفتات المنبّهة لمنعرجات الخطر، ومزالق التّهلكة ودسائس الشّيطان حتّى لا يضلّ السّائرون.

وقد حفلت آيات القرآن ببيان آيات النّفاق ومظاهره، سيما في سورة التّوبة التي نزلت بعد أن قويت شوكة الإسلام، فجاء الأمر الإلهي بالشّدّة والغلظة على الكفّار والمنافقين فقال تعالى لنبيئه:﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيءُ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(التوبة: ٧٣)، وبذلك حسم الله أمرهم، فلم يظلّوا في تستّر واستخفاء بعد أن كشفت السّورة الكريمة مواقفهم المخزية، إذ جاءت كثير من آياتها مصدّرة بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيءَ﴾(التوبة: ٦١)، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾(التوبة:٧٥)، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾(التوبة: ٥٨)...إلخ. وناهيك بسورة "المنافقون" بأكملها تشخيصاً لأحوالهم وردّاً على أقوالهم المنكرة، فلا عجب أن يتهدّدهم الله بذلك الوعيد الشّديد في سورة النّساء:﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾(النساء:١٤٥).

فاللهم أعذنا من الشّقاق والنّفاق ومن سوء الأخلاق وتضييق الأرزاق.

نداء الله تعالى لخلقه وأمرهم بعبادته

أ)- النص:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿يَا أَيُّهَا﴾: "يا" حرف للنداء أكثر استعمالا من الحروف الأخرى، وهو مشترك لنداء القريب والبعيد. و"أي" في الأصل نكرة تدل على فرد من جنس اسم بطريق الإضافة نحو: أي رجل، أو بطريق الإبدال نحو: أيها الرجل، والهاء للتشبيه. ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُم﴾: العبادة التذلل والخضوع، ويكون ذلك شرعيا إذا كان مصحوبا باليقين والإيمان بوحدانية الله. ﴿خَلَقَكُم﴾: الخلق الإيجاد على تقدير وتسوية بلا مثال سابق وهذا المعنى لا يليق نسبته إلاّ لله تعالى، لأن غيره لا يستطيع أن يخلق كما قال تعالى في سورة النحل: ﴿أَفَمَنْ يَّخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَّكَّرُونَ﴾(النحل:١٧)، فيقال مثلا صنع الإنسان أو اخترع ولا يقال خلق. ﴿جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا﴾: جعل بمعنى أوجد، والأرض هي هذا الكوكب السابح في الفضاء، والتابع للمجموعة الشمسية والتي جعلها الخالق مهاد الحياة البشرية بكل ما فيها من وسائل المعاش وأسباب الحياة، والتعبير بالفراش يكسبها معنى التمكن والاستقرار. ﴿وَالسَّمَآءَ بِنَآءً﴾: السماء هو ما

يبدو للناظر كالقبة الزرقاء، والتي تتشكل من الهواء المحيط بالأرض، وتشبيهها بالبناء لأنها تقينا من الأضرار النّازلة من الفضاء. ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا﴾: أنداد جمع ندّ وهو النظير والمماثل في أمر معتبر من مجد أو حرب، ويلاحظ في الندّ المناوأة والمنافسة.

ج) - البيان والتفسير:

بعد بيان أصناف الخلائق إزاء هداية القرآن وذكر أحوال كل فريق أعقب الله تعالى ذلك بهذا النداء ليخاطب الجميع بما يكون لهم إرشادا ونصحا ينتفعون به في شؤون معاشهم ومعادهم، وذلك بعد أن وضع يدهم على مكامن أدوائهم وعرّفهم بحقيقة أوضاعهم، فكان من رحمة الله وفضله أن يوجّه هذا النداء ليرشدهم من ضلال ويستأنسهم من حيرة فقال جلّ من قائل: ﴿**يَآ أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الذِي خَلَقَكُمْ وَالذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾.

النّداء ﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ من ربّ العالمين يقصد به عموم الخلق ممن حضر وقت نزول هذه الآية ولمن سيوجد من بعد لأنه نداء في معرض التكليف: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُم﴾، ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا﴾، وإذا كان هذا الخطاب شائعا من الأمراء والدعاة للجمهور فما بال ذلك من الله ورسوله لمجموع الأمة ؟.

والمأمور به من الله لخلقه هو إفراده بالعبادة، وقد اختار لذاته العلية كلمة الرّب مضافة إضافة تشريفية لضمير المخاطبين ﴿رَبَّكُم﴾ وجيء بلفظ الرّب مفردا للدلالة على استحقاق الله لذلك الوصف وحده فهو ربّ واحد للجميع، وليس أربابا متفرقين كما يزعمه المشركون.

وعبادة الله وحده لا شريك له، هي المقصد الأسمى من الخليقة: ﴿وَمَا

خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦)، كما هي الدعوة الواحدة الشاملة التي دعا إليها رسل الله في موكب الإيمان عبر مسيرته المضنية الشاقة في مراحل التاريخ البشري، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾(الأنبياء: ٢٥)

ويستحق "الربّ" هذه العبادة والتقديس، لأن معاني الربوبية الحقّة من الرعاية والتربية لخلقه لا تتمثل إلاّ فيه، فهو الذي خلقهم في أحسن تقويم وصوّرهم فأحسن صورهم وكفل أقواتهم وأرزاقهم، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وهو الذي خلق من كان قبلهم من الآباء والأجداد، لأن أولئك الأجداد وإن تعاقبت سلالتهم فهم من أب واحد ينتهون إليه، وهو مخلوق لله بالتّأكيد قال تعالى في مفتتح سورة النّساء: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾(النساء:٠١)، فالله تعالى ربّ للجميع وخالق للجميع، والمتفضل بنعمته على الجميع، فهو المعبود الحقّ، وكل ما سواه باطل.

﴿لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾ تعليل لأمره تعالى بعبادته، و"لعل" تفيد الرجاء، والترجي إنما هو بالنسبة للخلق،لأنهم لا يجزمون بما يقع فيه الناس في مجال الإيمان والكفر، أما بالنسبة لعلم الله فللمفسرين تأويلات كثيرة لمعناها حتى يثبتوا الجزم واليقين في علم الله وللإمام ابن عاشور تفسير دقيق لمعناها إذا وقعت في مقام تعليل أو أمر أو نهي، فيرى أن لها استعمالا مغايرا لاستعمالها في الكلام المستأنف.(١)

والتقوى هي الحذر مما يُكره، وهو هنا سخط الله وعذابه. ويكون ذلك

١ - انظر شرح ذلك في التحرير و التنوير، ٠١ / ٣٣٠.

بحصول المؤمن العابد لربه على الكمال النفسي والسّمو الروحي نتيجة لحسن عبادته ذلك هو مجلى قدرة الله في الخلق والإيجاد يتدبّره الخلق في أنفسهم، وأمّا مجلى قدرته تعالى في الآفاق فيقول تعالى: ﴿**الذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ**﴾.

لقد حفلت آيات القرآن الكريم بلفت الأنظار إلى عجيب صنع الله في الأنفس والآفاق، وجعل ذلك مجالا لتدبّر آيات قدرته في خلقة الإنسان متناسقة مع خلقة الكون على عظمته وفسحته، وقد يرد ذلك بأسلوب مختصر كما في هذه الآية الكريمة، وقد يتوسع في البيان والتفصيل وفق ما يقتضيه السياق من الاختصار أو التفصيل، ولكن القرآن في كل من النوعين لا يتعدّى حدود التذكير والإرشاد للتنبيه على جلال الله وقدرته بالقدر الذي تقتضيه الموعظة والإرشاد، وبالقدر الذي يتطلبه الاستعداد الفطري لكل الخلائق بالأسلوب المبسّط الخالي من التعقيدات العلمية التي تتطلب قدرا كبيرا من المعرفة لاستيعابها، مصداقا لقوله تعالى في سورة فصّلت:﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣)، وامتثالا لقول الرسول ﷺ: « **تفكّروا في خلق الله ولا تتفكروا في ذاته فتهلكوا**».[1]

---

١ - الحديث رواه الربيع بن حبيب في كتاب العلم، باب النهي عن الفكرة في الله عز وجل حديث ٨٢٧ (٣١١/١) بلفظ: «تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق»، وزاد فيه الحسن: إن الله لا تناله الفكرة.

و رواه أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب العظمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:«مر النبي صلى الله عليه وسلم على قوم يتفكرون في الله فقال: «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون قدره». (٢١٦/١).

ذلك لأن فساد المعتقد عند المشركين العرب -وهم أول المخاطبين بهذه الآيات- جعلهم في حاجة لهذا النوع من التذكير، ذلك لأنهم لا ينكرون وجود الله كلية، بل كانوا يعترفون بوجوده كما ذكر عنهم القرآن ذلك في قوله تعالى:

- ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (لقمان:٢٥).

- ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُم لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.(الزخرف:٨٧).

غير أنهم غافلون تماما عن إدراك ذلك التناسق العجيب بين أجزاء الكون، وعن التناسب القوّي في خلقة الإنسان وموقعه من ذلك الكون العجيب، ومن ثم قصرت مداركهم عن استخلاص دلائل الوحدانية للخالق، فكان من الضروري لفت أنظارهم إلى مجالات التدبّر والتفكير، والمقارنة والتنظير، وغالبا ما يربط القرآن بين خلق السماوات والأرض، على اعتبار تكاملهما في الأسباب والوسائل لضمان حياة الكائنات وعلى رأسها هذا الإنسان المكلف، فالأرض له فراش ووطاء بكل ما في التصوير من معاني التمكّن والاستقرار وراحة العيش، والسماء له بناء وغطاء بكل ما في ذلك من معاني الوقاية والحفظ، ثم ما ينشأ بينهما من مكوّنات الماء والهواء وما ينتج عنهما من الثمرات والأقوات التي تكفل الأرزاق للأحياء، وذلك ما لا ينكره حتى أعنت الجاحدين، فكيف بمن له أثارة من الإيمان بالخالق.

﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: الفاء لترتيب النهي الذي بعدها على الكلام السابق. فقد نهاهم عن جعل الندّ لله، أي هذا الإله الذي تعترفون بوجوده، وقد دلت الدلائل الواضحة على عظيم قدرته وجلاله، فما

يليق به سبحانه وتعالى أن تجعلوا له ندّا في عبادتكم، لأنه بما سخّر لكم في السماوات والأرض من المنافع والأرزاق قد أغناكم عن غيره ممن لا ينفع ولا يضر، فأنتم بتوجهكم لتلك الأنداد واستشفاعكم بها قد سوّيتم بينها وبين الله في العبادة، وذلك من جهلكم وتوهّمكم، وإلاّ فإن الخالق العظيم ليس له ندّ ولا مثيل.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: جملة للتذييل، وقد أنزلهم الله تعالى بمنزلة من يعلم بالقوة لا بالواقع، لأن المفروض أن يستعمل الإنسان عقله حتى يدرك هذه الحقائق وفي ذلك تنويه بشأن العقل والعلم لإثارة الهمم في هؤلاء الناس عساهم يهتدون إلى الصواب، وهذا الأسلوب اللطيف هو النموذج الأعلى من أخلاقيات الدعوة،

جعلنا الله تعالى من الهداة المهتدين، و الله أعلم.

الله يتحدى خلقه بالقرآن ولا مجيب

أ)- النصّ:

وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ۖ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فِي رَيْبٍ﴾: الشكّ. ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾: الوصف للرسول بالعبودية لأنه القدوة لغيره من البشر وهو في الذروة من الشرف، والإضافة للتشريف والتخصيص. ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾: السورة الجزء من القرآن قد تطول آياتها أو تقصر، وهي مشتقة من السّور أي الجدار الذي يحيط بالقرية أو الحظيرة. وتقسيم تلك الأجزاء المعينة توقيفي عن رسول الله. والمثل: المثيل أو المتشابه، وتكون المثلية في البلاغة وحسن النظم وفي المعنى والمضمون. ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم﴾: جمع شهيد ويطلق على المؤيّد والنصير والمقصود بهم الآلهة والرؤساء المعبودين من دون الله. ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾: الوقود اسم لما توقد به النار كالحطب أو البترول أو الغاز...إلخ. الناس: المقصود الكفار. الحجارة: جمع حجر ألحقت به تاء التأنيث. وقد أدخلها العرب في كل جمع على وزن "فعال" أو"فعول". ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾: هُيّئت وحُضّرت بما فيها من ألوان العذاب أعاذنا الله منها.

ج)- البيان والتفسير:

لقد كان النداء السابق ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ تنبيها لبيان عناصر الحق وأصول الدين عن الله تعالى والتي تتلخص فيما يلي:

- الدعوة إلى وحدانية الله وعبادته وحده.
- الإيمان برسالة محمد ﷺ.
- الإيمان باليوم الآخر دار البعث والحساب والجزاء.

ففي العنصر الأول أرشد الخلق إلى دلائل توحيد الله والقائمة بأنفسهم إيجادا وخلقا وتقديرا، ثم الدلائل القائمة في الآفاق بما فيها من صنع بديع ونظام محكم، وينتقل السياق إلى معالجة العنصر الثاني من العقيدة وهو الإيمان بنبوءة محمد ﷺ فيقول تعالى مخاطبا الناس بما فيهم مشركي العرب: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾.

ينبني الإيمان بالنبوءة والرسالة على الإيمان بالألوهية والربوبية ووحدانيتها، والمخاطبون في هذه الآية هم جميع الخلق، وفيهم مؤمنون وكافرون، ولما كان الكفر والإشراك بالله تعالى مع الفطرة السليمة التي تدين بوجود الله، وكان المفروض أن يكون الناس جميعهم على تلك الفطرة الإيمانية جيء هنا في أسلوب الشرط بـــ"إن" التي للشك إيذانا بأن من شأن هذا التنزيل أن لا يرتاب فيه لما يحمله من دلائل الحق والصدق، وأنه منزل من عند الله على عبده محمد ﷺ وقد وصف الله رسوله بالعبدية ليكون متناسقا مع الأمر الإلهي في الآية السابقة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ حتى يكون

الرسول قدوة لغيره في عبادة الله سيما وهذه الإضافة ﴿عبدنا﴾ تضفي عليه هالة من الإجلال والتكريم، لأن العبودية في واقع المجتمع البشري أصبحت من المفاهيم التي حرفت عن معناها الشرعي أو الفطري، عندما وظفها الإنسان لاستعباد أخيه الإنسان، فأصبح في الناس سادة وعبيد ونبلاء وسوقة...الخ.

﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾: إنه التحدي الإلهي للمعاندين الجاحدين، بأن يأتوا بمثل سورة من القرآن، سواء قلنا أن ضمير ﴿مِثْلِهِ﴾ يرجع إلى القرآن أو إلى الرسول المنزل عليه ﴿عَلَى عَبْدِنَا﴾ فإن التحدي الإلهي جاء مناسبا لظروف المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة أمام مهاترات المنافقين وأشياعهم من اليهود الذين ما فتئوا يشككون في نبوءة الرسول، وها هو ذا مدعوم من قبل الله تعالى وهو يشهد على صدقه فليدعوا هم من يشهد لهم من دون الله على صواب ما يدّعونه: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾(النساء: ١٦٦).

ونجد في سور أخرى من القرآن مكية ومدنية صيغا أخرى للتحدّي جاءت مختلفة في مطلبها لسورة واحدة أو لعدد من السور، أو بجملة من القرآن، قال تعالى:

- ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(القصص: ٤٩).

- ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الانسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(الإسراء : ٨٨).

ونجد في سورتي "هود" و"يونس" ذلك التحدّي، جاء في الأول بعشر

سور وفي الثانية بسورة واحدة، ولهذا التنويع في المطلب معان ومقاصد، حاول المفسرون أن يهتدوا لبيانها وتحديدها، ولكن تواريخ التنزيل لم تكن محدّدة لديهم بالضبط لاختلاف الروايات حتى يعرفوا السابق من اللاحق. ومع ذلك حاول البعض منهم تقصي هذه المعاني، فقال الشيخ رشيد رضا: " ولعل وجه التحدّي بعشر سور مفتريات دون سورة واحدة، هو إرادة نوع خاصّ من أنواع الإعجاز، وهو الإتيان بالخبر الواحد بأساليب متعددة متساوية في البلاغة، وإزالة شبهة تخطر في البال، بل بعض الناس أوردوها على الإعجاز بالبلاغة والأسلوب، وهي أن الجملة أو السورة المشتملة على القصة يمكن التعبير عنها في اللغة بعبارات مختلفة تؤدي المعنى، ولابد أن تكون عبارة منها ينتهي إليها حسن البيان مع السلامة من كل عيب لفظي أو معنوي يخل بالفهم أو التأثير المطلوب، فمن سبق إلى هذه العبارة أعجز غيره عن الإتيان بمثلها".[1]

ويبدو لي -والله أعلم- أن ليس المقصود بذلك المطلوب المتحدى به هو الإتيان بكمية محددة من الآيات أو السور يعجزون هم عن الإتيان بمثلها مجتمعين أو متفرقين، وهم أساطين الفصاحة والبلاغة، سيما أهل مكة وقد نزل القرآن على لغتهم، وإنما المقصود هو إثبات عجزهم ابتداء على الإتيان بالحدّ الأدنى المتمثل في سورة واحدة بله الإتيان بالحد الأوسط أو الأعلى المتمثل في عشر سور أو بجملة القرآن، ويرجح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾، ولم يقل مثلا: "ولن تستطيعوا"، ليدلّ بذلك على أنهم عاجزون حتى على مجرّد المحاولة، وهم لتمام عجزهم لم تبدر منهم أية بادرة في ذلك، لأنهم لم يجدوا في

---

١ - محمد رشيد رضا، تفسير المنار: ١/ ١٩٣.

مألوف أساليبهم وتعابيرهم من الشعر أو النثر أو الخطابة والسجع ما يستطيعون به محاكاة ما في القرآن من أسلوب ممتاز هو في ذروة الفصاحة والبلاغة. وَهَبْهُم فعلوا ورفعوا أسلوبهم إلى ذلك المستوى من الشَّكل فمن أين لهم بالمضامين القرآنية التي هي من علم الله لا يعرفون عنها شيئا ؟، سيما وأنَّ هذا التحدِّي جاء مؤكدا لما في مطلع السورة وأن هذا الكتاب المتحَدَّى به جاء مَصُوغا من تلك الحروف التي يعرفونها، لذا جاء وصف (مفتريات) في سورة "هود" في موقعه المناسب، إذ أن فصاحة الكلام وجودة سبكه لا تستلزم أن يكون صادق المدلول في حدِّ ذاته، كما هو معروف في واقع الناس، وتعالى الله عن اللغو والتلفيق والمراء.

ولعلَّ المحاولة التي حاول بعض فصحاء العرب أن يجعلها بديلا من قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ (البقرة: ١٧٩). فجاء بعبارة "**القتل أنفى للقتل**"، لعلَّ هذه العبارة هي أصدق مثال للعجز البشري أمام ذلك التحدي الصَّارخ في القرآن الكريم، وقد بيَّن البلغاء بالمقاييس اللغوية والبلاغية مدى قصور تلك العبارة في شكلها ومضمونها عن أن تبلغ شأو العبارة القرآنية في الإعجاز البياني فسبحان من جلَّ عن الأنداد، ودانت لإعجاز قرآنه أساطين الضاد.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾: جاء الشرط بـــ"إن" التي تفيد الشك وذلك على اعتبار حال المخاطبين من الشك والارتياب، ولنفي ذلك الشك جيء بالجملة المعترضة ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ وهم أساطين البلاغة ميؤوس منها، فلا سبيل بعد ذلك إلى العناد والمماراة، ومن ثمَّ جاء التهديد بنار جهنَّم التي أعدت للكافرين، وهم والحجارة التي يعبدونها وقودها، فما فائدة الجمع بين الناس والحجارة،

وتبدو العلاقة بين الاثنين غريبة ؟.

ولكن المتمعِّن في روح الآية يجد العلاقة شديدة بين الاثنين مادِّيا ومعنويا فالمادّية منها أن هؤلاء النَّاس هم في أصل خلقتهم من معدن التراب والحجارة، تجلّت فيهم قدرة الله إذ جعل من هذه المادة الميِّتة بشرا سويًّا قال: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾(الرُّوم:٢٠).

أمّا العلاقة المعنوية فتبدو في قيمة هذا النوع من الناس عندما أخطأهم الهداية والتوفيق فهم والحجارة سواء في تحجُّر قلوبهم وقساوتها، إذ لم يرتفعوا إلى مستوى التكريم الإلهي للإنسان على أن تشبيهه بذلك أو بالحيوان مثلا لا يكون إلا على سبيل المجاز، وإلاّ فهو في الواقع أخسّ من ذلك وأضلّ، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَآ، أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾(الأعراف: ١٧٩). ألا ترى إلى اليهود المتعنِّتين كيف شبَّه الله قلوبهم في قساوتها بالحجارة ثم ذكر بعض منافع للحجارة الطبيعية هي منعدمة في تلك القلوب فقال جلّ من قائل: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾(سورة البقرة: ٧٤).

أجل إنّ الإنسان -وهو المكرَّم بنفخة الله العلويَّة- يتردَّى إلى هذا الحضيض عندما تغلب عليه الطبيعة الترابية وتحجب عنه الأنوار الرَّبّانية، فإذا كانت الحجارة وقودا لجهنَّم - أعاذنا الله منها - فقد ذهب المفسِّرون إلى أنّها كناية عن الأصنام التي تعبد من دون الله لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾(الأنبياء:٩٨).

وقد لفت نظري هذا التعبير القرآني بلفظ ﴿حِجَارَة﴾ بدون قيد، ممَّا يدلُّ أنها تتخذ للعبادة أو لمصلحة أخرى، فقلت لماذا يريد المفسِّرون حصر المعنى في الحجارة المعبودة؟، ونحن نعرف أن التماثيل التي عبدها الإنسان، لم تكن من الحجارة وحدها بل تفنَّن في نحتها من معادن وموادَّ مختلفة...

فبدا لي -والله أعلم- أنَّ اللفظ يفيد معنى أشمل من ذلك، وهو الدَّلالة على الحرارة القصوى لنار جهنَّم، وأنَّها ليست كالنيران التي اعتاد الناس إيقادها بمختلف الوسائل للتعمير أو التدمير، فقد سخَّر التراب والحجارة لبناء الدُّور والقصور واتخذ من الجبال أكنانا تحفظ عليه حياته من الحرِّ والقرِّ، واتخذ من الطين قوالب لصهر المعادن...الخ، ولكن نار جهنَّم هي فوق ما يتصوَّرون، إذ أن نارها لا تبقي ولا تذر كما وصفها تعالى:﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ، وَمَآ أَدْرَيكَ مَا سَقَرُ، لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ، لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾(المدثر: ٢٦-٢٩)، فحتّى هذه المادّة الصّلبة الواقية تذوب في حرارتها وتصير هباء.

فاللهمَّ نجِّنا من النَّار سراعا سالمين، ولا تخزنا يوم يُبعثون، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

والله أعلم.

البشارة بالجنة تتعلّق بالإيمان والعمل الصالح.

أ)- النّص:

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾

ب)- التحقيق اللّغوي:

﴿وَبَشِّرِ﴾: من التبشير وهو الإخبار بالأمر المحبوب، فهو أخص من الخبر المجرَّد. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: جمع صالحة وهي الفعلة الحسنة أصلها صفة جرت مجرى الأسماء. ﴿جَنَّاتٍ﴾: جمع جنة من مادة جنَّ يجنّ إذا ستر الشيء، فاستعمل في المكان التي تكاثرت أشجاره والتفَّ بعضها ببعض حتى كثر ظلُّها. ﴿مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾: أي من أسفلها والضمير عائد إلى الجنات باعتبار مجموعها، وتعريف ﴿الأَنْهَار﴾ باعتبار الأجناس التي في علم المخاطب، وقد يراد بـ"أل" العهد التقديري المستحضر في ذهن السَّامع. ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾: أي متشابها بما ذكر من الرِّزق في الدُّنيا مع رزق الآخرة. ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾: جمع زوج يصدق على الذكر والأنثى، أحدهما زوج الآخر. مطهَّرة: ليس فيها ما يعاب من خبث جسدي مثل الحيض والنفاس. ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: أي لا ينقطع لذاتها كما يحدث في الدنيا.

ج)- البيان والتفسير:

بعد الوعيد والتهديد للكفار الجاحدين أعقب الله ذلك بالوعد والبشارة للفريق المضادّ، فريق المؤمنين الأتقياء ببيان جزائهم الأخرويّ في جنات الخلد، جمعا بين أسلوب الترغيب والترهيب، ليكون أدعى للتذكير والموعظة فقال تعالى:﴿**وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾.

لقد حفلت آيات القرآن الكريم ببيان الجزاء الأخرويّ وبتصوير مشاهد الحياة الأخرى بكلّ مراحلها من الموت إلى البعث والحشر والحساب إلى الجنة أو النار، فلا تكاد سورة تخلو من التنبيه إلى ذلك مفصّلا أو مختصرا، ذلك لأن الإنسان بطبعه اللصيق بالواقع المادّي يلهيه حاضره عن الاستشراف إلى المستقبل الأخرويّ لأنه غيب مجهول، فهو وإن آمن بالغيب إيمانا يتفاوت قوة وضعفا كثيرا ما يصيبه الذهول ويلهيه الأمل، فلا يهتم بالغيب ولا يفكّر فيه إلا تفكيرا باهتا قد لا يؤثر في سلوكه إلا في فترات قصيرة عندما يقرع الموت باب أسرته، أو تصيبه ضائقة يجأر فيها إلى الله، ثم هو بعد انفراج أزمته يعود إلى غفلته ويسترسل في ملذاته وانشغالاته، قال تعالى في هذا المعنى:

- ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ، وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾(القيامة: ٢٠-٢١).

- ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ, مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ, نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُواْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾(الزمر: ٠٨).

ذلك هو شأن المؤمن العاديّ، فكيف بالكافر الجحود؟، فقد كانت الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر محلّ سُخرية واستهزاء برسول الله ﷺ فتوالت

آيات القرآن بالرَّد المقنع، وبالتصوير المهول لمشاهد القيامة، حتى لا يغترَّ الإنسان باستقرار نظام الكون عبر ملايين السنين والقرون فيستبعد بذلك فناء العالم، قال الله تعالى:﴿تَعْرُجُ الْمَلآئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً،إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾ (المعارج:٤ -٦).

فما هذا الزَّمان المتطاول والممتد في نظر الإنسان بأعوامه وقرونه بالقياس إلى الفضاء الكونيّ اللاّمتناهي إلا بمقدار قطرة من بحر أو ذرة في فلاة.

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَذَا الذي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: من أخصّ صفات الرَّسول أنّه بشير ونذير، يبشِّر المؤمنين بما أعدَّه الله لهم من جنّات النعيم، وينذر الكافرين من عذاب أليم وكلٌ من الجنَّة والنَّار في التعبير القرآني دار للجزاء الأخرويّ، وقد أفاضت آيات القرآن في وصفهما ترغيبا وترهيبا بالأسلوب المألوف لدينا، وهو يسمّي الأشياء في وصف الجنَّة والنَّار بمدلولها اللغوي الدَّال على المتعة واللّذّة، أو العذاب والألم، ولا يعني ذلك أنها من نفس النوع الذي نعرفه في الدُّنيا ذلك لأن الله جلّ وعلا يخاطب النَّاس بما يفهمون، وأحوال الآخرة علمها عند الله في عالم الغيب الذي نؤمن به إيمانا جازما، ونشهد في كلّ صلاة أنّ ما خبَّرنا الله به من الغيب هو حق آت لا ريب فيه[1]، نؤمن بذلك من غير أن نحاول إخضاع أحكام تلك الدَّار لمألوفنا في الدنيا، بل نكل

١- هذه الكلمات من ألفاظ التشهّد الأخير في الصلوات، مما هو معروف عند إباضية المغرب ولفظه بعد قول المصلّي"...وأنّ محمّداً عبده ورسوله": أشهد أنّ الجنّة حقّ وأنّ النّار حقّ وأنّ الموت حقّ وأنّ البعث حقّ وأنّ الحساب حقّ وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها وأنّ الله يبعث من في القبور.

أمرها إلى الله، فهي كما وصفها وقال عنها إنها نشأة أخرى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(العنكبوت: ٢٠).

فكفى الجنة دارا للنعيم في اللَّذَّة والمتعة أنها قال الله عنها: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُم فِيهَا خَالِدُونَ﴾(الزخرف: ٧١).

وجاء في حديث قريش: **« أعددت للصالحين من عبادي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».**[1]

وهل هناك من تصوير أفظع لما يمكن أن يلحق بالإنسان من ألوان العذاب والشقاء من قوله تعالى في شأن جهنَّم: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، مِّنْ وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ، يَتَجَرَّعُهُ, وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ, وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ (إبراهيم : ١٥-١٧).

يقول الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله- في كتابه القيم (نظرات في القرآن): "ووصفه الجنة أو النار بهذه النعوت الواضحة له ناحيتان: الأولى تقرير الحقيقة كما أوجدها الله وذكر للشيء بطبيعته المجرَّدة، والأخرى غرس هذه الحقائق في ميادين التعليم والتربية والوعظ والإرشاد لتساعد فطام العصاة عن الرَّذائل، وإغراء الأتقياء بالفضائل، فالإنسان يعينه على الحق أن يرتقب الخير من فعله، ويزجره عن الشَّر أن يتوقَّع الدواهي من ارتكابه، واللَّذة والألم قوانين نفسانية قديمة وتجاهلها إغماض عن حقائق قائمة، والزعم بأن الإنسان قد يعلو

---

١ - رواه البخاري عن أبي هريرة، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، حديث ٣٠٧٢، ٣/ ١١٨٥، و رواه مسلم عن أبي هريرة أيضا في كتاب الجنة، حديث ٢٨٢٤، ٤/ ٢١٧. كلاهما بلفظ: لعبادي الصالحين.

على اللّذة والألم، أو بتعبير دقيق يتخلّص من كلّ إحساسٍ ماديّ للسعادة والشقاء وهم بعيد."[١]

قلت: إن الناس يلتمسون مشتهياتهم ولذّاتهم القصوى في مسكن أنيق ومطعم طيّب، ومنكح شهيّ، وقد جمع الله ذلك في الآية الكريمة وهو يصف الجنة:

أ - فالمأوى المريح يتمثل في هذه الجنات تجري من تحتها الأنهار، فهي جنات وأنهار بصيغة الجمع تتعدد أشكالها وألوانها ومناظرها تسيل أنهارها بكلّ ما يلذّ ويطيب من أنواع الشراب وتتدنى قطوفها بكل ما يشتهي من الثمار، قال تعالى:﴿فِيهَآ أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَارٌ مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَٰتِ﴾ (القتال : ١٥).

وأي نوع من الثمرات هي؟، أهي شبيهة بالتي في الدنيا فيشتبه منظرها على أصحاب الجنة؟، أم هي ثمار أخرى، ولكنها تتراءى لأصحابها شبيهة بالتي ع-رفوها في الدنيا، إبقاء للّذة بالمنظر المألوف، حتى إذا تناولوها وجدوا لها طعما آخر، وبذلك تبلغ المتعة ذروة كمالها، لأن النفس تواقة إلى التنويع والتجديد؟.

وقد أطنب المفسرون في تأويلاتهم، ولكن لا يسعنا في مثل هذه المقامات مما يتعلق بالغيبيات إلا أن نقرّ بالحقيقة المخبر عنها من قبل الله تعالى ونؤمن بها كما خبّر به القرآن، جازمين بأن قدرة الله لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء، وكيف وقد لفت نظرنا إلى بديع صنعه في اختلاف طعم هذه الثمرات

---

١ - محمد الغزالي، نظرات في القرآن، ص ٩١.

التي نلتذ بها في الدنيا وهي تسقى بماء واحد فقال جلّ وعلا: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ تُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(الرعد: ٠٤).

وتأكيدا لمعنى الإبداع والقدرة الرّبانية جاء التعبير بلفظ ﴿رُزِقُواْ﴾،لأن الرازق هو الله تعالى؛ ولذة المنكح تتمثل في تلك الأزواج المطهرة حسيا ومعنويا، فلا غشّ ولا غيرة ولا حسد ولا كيد مما يقع -أحيانا- في كثير من زيجات الدنيا، وليس فيهن ما ينفّر من الروائح الكريهة أومن القاذورات التي يفرزها الجسم، فهنّ مطهّرات وهن من بديع صنع الله: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا، عُرُبًا أَتْرَابًا﴾(الواقعة:.٣٥-٣٧)، جاء الوصف بالبناء للمجهول﴿مطهّرة﴾، و لم يقل "طاهرة" للدلالة على القدرة الإلهية.

وأزواج الجنة قد تعدّدت أوصافها في القرآن الكريم في غير ما آية أو سورة، أوصاف تجعلها في غاية الجمال والكمال فهنّ حور مقصورات في الخيام، لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جانّ، كأنهن الياقوت والمرجان ...إلخ، وليس هناك مشكل لتعدّد الزوجات، إذ لا وجود هناك لمكايد الشيطان، وبالتالي فلا مكان للغيرة والحسد: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ، لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (الحجر: ٤٧-٤٨).

وقد أخبرنا تعالى بأنه يكمل أنس المتقين ويتمّ سعادتهم بإلحاق أزواجهم وذرياتهم بهم في نعيم الجنة إذا ما أحسنوا تربيتهم وربّوهم على الإيمان والعمل الصالح فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ

وَمَآ أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (الطور: ٢١).

ب- ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ، سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد: ٢٣-٢٤).

وبعد: فهذا جانب من وصف القرآن للجزاء الأخروي بالأسلوب المألوف لدينا، ومن خلال ما نعرفه من أسباب اللذة والألم في حياتنا العاجلة، فهل يفيدنا أن نخوض مع الخائضين لنبحث عن طبيعة ذلك الجزاء أهو روحيّ أم ماديّ أم مزدوج؟.

لقد طال النقاش في هذا الموضوع، وندّت فيه مفاهيم، ومهما اشتطّ الماديّون في الجحود والإنكار، ومهما أجهد الروحانيون أنفسهم في ضروب من التأويل والاستفسار فنحن -المؤمنين- نصدّق كلام الله ونوقن بقدرته وبديع صنعه، وبالتالي فنحن جازمون بوعد الله ووعيده.

ولكننا نلتزم في "الغيبيات" بالنصوص الصحيحة من قرآن أو سنّة وفق مدلولها اللغوي، إذ لا مجال في ذلك لاجتهاداتنا بل نفوّض أمرها إلى الله تعالى في حقائقها المجردة، ونقول فيها كما يقول الراسخون في العلم: ﴿ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ الْأَلْبَابِ، رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ (آل عمران:٧- ٨).

والله أعلم.

فائدة ضرب المثل في القرآن،

وموقف المؤمنين والكافرين من ذلك.

أ)- النص:

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ۚ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾

ب) – التحقيق اللغوي:

﴿لَا يَسْتَحْيِي﴾، الاستحياء من الحياء، وهو انقباض النفس من صدور فعل أو تلقيه لاستشعار أنه لا يليق، وهذه الحالة لا تليق بالخالق فيكون استعماله في حقه تعالى مجازيا بمعنى "ترك الشيء" من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللازم. ﴿أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾: أي يجعل الشيء مثلا -أي شبها- فيذكر لكل حال ما يناسبها، ليظهر ما خفي من حسنها أو قبحها. ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾: البعوض هو"الناموس" حشرة مؤذية ذات خرطوم دقيق تمتص به دم الإنسان. فما فوقها: أي ما زاد عليها أو أكبر منها، وفوق يستعمل في معنى التغلب والزيادة في صفة سواء كانت من المحامد أو المذامّ، وهو في هذه الآية

صالح للمعنيين، أي ما هو أشدّ من البعوضة في الحقارة وما هو أكبر حجما. ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾: الفسق لغة هو خروج الثمرة من قشرتها ويستعمل شرعا في الخروج عن أمر الله بارتكاب المعاصي. ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾: النقض لغة فسخ وحلّ المركّب والموصول، واستعمل مجازا في إبطال العهد المبرم، وعهد الله هو ما أوصى خلقه برعيه والحفاظ عليه من طاعته وخشيته. من بعد ميثاقه: أي توكيد العهد وتوثيقه.﴿يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾: أي بإعراضهم عن الإيمان وارتكابهم للمعاصي.

ج) – البيان والتفسير:

ما يزال السياق متتابعا موصول الحلقات من مفتتح السورة إلى هذا البيان المذكور في هذه الآية الكريمة، فقد ضرب الله مثلين لليهود والمنافقين في الحيرة والاضطراب أمام ما يسمعونه من بيان كتاب الله، وهم لا يألون جهدا في الطعن والتشكيك في نبوءة رسول الله بمثل قولهم: (أما يستحيي رب محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت)، إشارة منهم إلى ما ورد في سورتي "الحج" و"العنكبوت" وهما سورتان مكيتان، وهؤلاء يهتبلون كل فرصة للكيد والطعن بمثل تلك الشبه السخيفة، فجاء هذا الردّ الإلهي الحاسم لبيان حكمة الله في ضرب الأمثال ولو كان ذلك بأحقر المخلوقات، لأن القدرة الإلهية في الخلق والإبداع لا ينظر فيها إلى النوع والكمّ، ولكن إلى الكيف.

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَّضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾: ليس ضرب المثل بأي نوع من المخلوقات ممّا يعاب ويستهجن، لأن المقصود به هو التفهيم والتنوير والإيضاح والبيان لما يدق من المعاني بضروب من الأساليب

الحيّة المتداولة على ألسنة الفصحاء والبلغاء إذ قالوا في أشباه هذه الأمثال: (أسمع من قراد) و(أطيش من فراشة) و(أعزّ من مخّ النملة أو البعوضة)...

فالله تعالى لا يترك ضرب الأمثال التي من شأنها أن تؤثر في النفوس فتهديها إلى طريق الحق مهما كانت حقارة الممثل به كالبعوضة أو ما كان فوقها أو دونها في الصغر أو الحقارة، لأن قدرة الله في جميع الخلائق صغيرها وكبيرها جليّة واضحة بقطع النظر عن حجمها وشكلها.

والمقصود بضرب المثل هو إبراز المعاني الدقيقة في قالب الأشياء المحسوسة لإيضاح خفاياها وأسرارها بما تستأنس به النفوس فيكون التأثير فيها أشد، ذلك لأن النفوس تختلف طبائعها وبالتالي تختلف مواقفها من الحق أو الباطل والخير والشر. فقال تعالى: ﴿**فَأَمَّا الذينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ من رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الذينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا**﴾، فهناك في الناس مؤمن أو كافر:

أ- فالمؤمنون موصلون بربهم متيقنون بقدرته وعظمته، فتح الإيمان لهم مجال المعرفة بربهم فاستنارت بصائرهم بنور الحق، فهم يتلقون كلّ ما يصدر عن الخالق بالتصديق والإذعان.

ب- وأما الكافرون: فإن قلوبهم المريضة تظل في عمي وتيه، فلا يقدرون الله حق قدره، إذ يطرحون مثل تلك الأسئلة التعجبية في معرض السخرية والاستهزاء ﴿مَاذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾، إنهم في عمي الجهل يعمهون، يجادلون في الحق بعدما تبين مكابرة وعنادا، فأنّى لهم أن يدركوا حكمة الله في ضرب الأمثال؟، وكان الأولى أن يسألوا عن حكمة ذلك، فيجيء الرد من قبل الله تعالى:﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾، فالله تعالى وضع خلقه أمام الأسباب

- ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (يس: ٦٠).

وما أروع وأدق التعبير بقوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا﴾ إذ يجمع بين الهبوط الماديّ من علياء الجنة إلى حضيض الأرض وبين الهبوط المعنوي من مراتب التكريم العليا إلى دركات الإغفال والإهمال.

وهكذا شاءت إرادة الله تعالى أن لا يكون متاع النعيم الخالد في الجنة ممنوحا لهذا الإنسان إلا على مسلك من الابتلاء والامتحان عبر فجاج الأرض ومستعمراتها يكون فيها السيد المتصرّف والخليفة المدبر المسير، فهي وإن جعلها الله مهادا وطيئاً، ومرتعا هنيئا، ومستقرا أمينا لهذا الإنسان، فإن متاعها محدود لأجل، محفوف بالتعب والعمل، ثم يعود الإنسان إلى ربّه في حياة أبدية تتقرر وفق ما قدّمت يداه من خير أو شرّ.

فيا لله لآدَمَ وزوجه كيف انتهيا بمعصيتهما إلى الحيرة والندم ؟، وهل من وسيلة لتخفيف الشعور بالذنب؟، فإن اليأس قاتل، ومعركة الحياة محفوفة بالقوارع والنوازل، ولكن الله هو البرّ الرّحيم فلا يسلم خلقه لمواجهة تلك التحدّيات، وهم مجرّدون من الوسائل والإمكانيات، فجعل التوبة ملاذا للتكفير عن الذنوب والسيئات، قال تعالى:﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾:

ألهم الله تعالى آدم في حيرته إلى المبادرة بالتوبة، وتلقيه لكلمات من الله تعالى يكون بمعنى تلقينه لعبارات التوبة كما ذكره الله تعالى في سورة الأعراف:﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف:٢٣)، أو تكون بمعنى كلمات العفو والمغفرة كما يدلّ

ب-﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾: وكم لله من أوامر بصلات كثيرة، تصل أولا ما بين العبد وربه، ثم ما بين العبد وبني جنسه سواء الأقرباء أو البعداء.فإحكام تلك الصلات كما أمر الله يكسب العبد هناء وسعادة واستقرارا. وقد أجملت الآية تلك الصلات لتشمل كل أنواعها وهي لا توصل إلاّ وفق ما أمر الله به أن يوصل.

ج-﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾: فإذا تجرد الإنسان من الإيمان، وهو الصلة الوثقى بينه وبين خالقه، فإنه يتخلى عن مقتضيات ذلك الإيمان في ربط صلاته بغيره من بني جنسه، ولا يكون من وراء ذلك إلا الفساد في الأرض عندما يفقد الإنسان الرادع الإيماني، فلا يعيش إلا في الفتنة والشر، والنتيجة الحتمية لكل ذلك هي الخسران المبين.

﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: هكذا بالحصر للتأكيد على مدى خسارتهم في الدنيا والآخرة، وإن ظنوا أنهم بفسقهم يحصلون على نوع من الربح العاجل، كما تقدم معنى هذا في الآيات السابقة: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

وقد أورد صاحب المنار بيانا لوجه تقديم الإضلال على الهداية في الآية فقال: "وأما وجه تقديم الإضلال على الهداية فلأن سببه ومنشأه من الكفر متقدم في الوجود. وإنما جاءت الآيات البينة بالأمثال لإخراجهم مما كانوا عليه من ظلمات الباطل إلى نور الحق". ثم قال: "وقد علم بما ذكرنا أن في الآية لفّا ونشرا غير مرتب. فإن الإضلال ذكر أولا وهو للفريق الثاني، والهدى ذُكر آخرا وهو للفريق الأول".[١]

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ١/ ٢٣٩.

الحياتان والموتتان حجة على الكفار، ومجالي قدرة الله في الآفاق.

أ)- النص:

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾: أي في ما يسمى "عالم الذر" في أصلاب الآباء، أو في مادة الأرض. ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾: أخرجكم من بطون أمهاتكم للحياة الأولى على وجه الأرض. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: يميتكم بقبض أرواحكم للانتقال إلى الحياة الأخرى ثانية، ليحاسبكم على أعمالكم ويجازيكم عليها. ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾: أوجده على غير مثال سابق. ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾: استوى إلى الشيء: أي قصد إليه قصدا مستويا خاصا به لا يلوى على غيره. ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾: أتم خلقهن. الاستواء يطلق على الاستقامة وعدم الاعوجاج والمراد به هنا القصد إلى الشيء بعزم وسرعة، ويراد بالسماوات السبع الكواكب العلوية غير الأرض، والسماء مشتقة من السموّ.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: قرأ الجمهور هاء "و هو" بالضم على الأصل، وقرأها قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بالسكون للتخفيف عند دخول حرف العطف عليه.

د)- البيان والتفسير:

بعد الخطاب الموجه للناس قاطبة وأمر الله لهم بعبادته مع تذكيرهم ببديع صنعه وإسباغ نعمه عليهم، وما أتبع ذلك من البشارة والنّذارة مع التفنن في ذكر مواقف الناس أزاء الهداية الإلهية والتنديد على الكفار والفاسقين، وبأسلوب الالتفات يتواصل السياق بخطاب الكافرين الناقضين لعهد الله والمفسدين في الأرض. خاطبهم الله بالاستفهام التعجبي عن صفة كفرهم توبيخا وتنديدا على كفرهم، مقترنا بذكر الأدلة الداعية إلى الإيمان والمتجلية في قدرته تعالى في أنفسهم وفي الآفاق فقال جلّ من قائل: ﴿**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾.

الكفر في مصطلح القرآن هو الإشراك بالله في العبادة وجحود نعمته، وهو مشتقّ من مادة "الكَفر" أي الحجب والتغطية، وضده الشكر. والكفر بالله من طرف الإنسان أمر فظيع يتناقض مع الفطرة السليمة، ويشذّ عن روح الوجود الذي يدين لعظمة الله ويسبِّح بحمده، ومن ثمّ واجه الرَّسول هذه الوضعية الشَّاذة بأسلوب الحوار والإقناع، ولفت الأنظار إلى واقع حياة النَّاس ومختلف مراحلها من مبدأ الخليقة إلى منتهاها، والقرآن وهو يواجه النَّاس بالحقائق الكونية لا يخرج عن إطاره الإرشادي، وهو يتناول تلك الحقائق

العلمية، إذ يبسّطها ويشير إلى دلالاتها الواقعية كما يعيشها النّاس وكما يدركون من ظواهرها، وينطلق في بيان المغيّبات من عالم الشّهادة يمثل ويقارن ما هو مغيّب بما هو محسوس ثم يستخلص النتائج التي لا مفرّ من الإقرار بها من كلّ ذي عقل سليم.

ففي مجال الحياة الأولى والثانية بالنسبة للبشر يذكر الله حياتين وموتتين، غير أنّ المتيقن به لدى الإنسان هو حياة واحدة وموت واحدة، فما وجه اقترانهما بموت وحياة لا يؤمن بهما كثير من النّاس؟. ذلك لأن الموضوع هنا هو إجلاء قدرة الله تعالى في الخلق والإيجاد، فعندما يستدرج المنكر للبعث - وهو أمر غيبي- إلى الاعتراف والإقرار بما لا يستطيع أن يماري فيه من كيفية خلقه الأول -من عالم الشهادة- فهو لا محالة يعترف في نهاية المطاف بأن القدرة الإلهية البادئة للخلق تستطيع أن تعيده مرّة ثانية، وبما أنّ البداية في إيجاد الشيء أصعب من إعادته في عرف الإنسان فإنّ آية سورة الرُّوم جادلت الخلق بما تعارفوا عليه فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (الروم:٢٧).

وفي المقارنة والتنظير وفق مألوف الناس أيضا قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (غافر:٥٧)، وقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَآءُ، بَنَاهَا، رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ (النازعات: ٢٧-٢٨).

وهذه الآية الكريمة مسوقة للذين ينكرون على الله أن يضرب الأمثال بالبعوضة فما فوقها، وقد روّج اليهود والمنافقون مثل هذه الدّعاية لخلخلة الجماعة المسلمة، حين أحسُّوا بنمائها وتماسكها، فقد عدَّ الله هؤلاء المنكرين في عداد الكفار، ونددَّ عليهم بالاستفهام التوبيخي، متعجّبا من غفلتهم عن

قدرة الله كيف أوجدهم من العدم، فإذا هم أحياء يرزقون، وكيف قدَّر آجالهم في الحياة الأولى، ثم يرجعون إلى الموت ثانية ليقوموا بعده إلى حياة أسمى وأبقى.

وإذا دقّقنا النظر في أدوات العطف المستعملة في هذه المراحل بين الموتتين والحياتين وجدنا العطف بـــ"الفاء" و"ثم"، وكلاهما للترتيب، وقد جاءت المراحل المذكورة في الآية الكريمة مرتَّبة ترتيبا طبيعيا حسبما هو معروف لدى الإنسان، ولكن لِمَ جاء العطف بـــ"الفاء" بين الموت الأولى والحياة الأولى وهي تفيد التعقيب، بينما كان العطف بـــ"ثم" التي هي للتّراخي في المراحل الباقية ؟.

حاولت أن أجد في كتب التفسير تعليقا على ذلك أو بيانا فلم أجد ما يشفي الغليل، إلا ما أورده الإمام الفخر الرَّازي في التفسير الكبير إذ قال: " فإن قيل لِمَ كان العطف بـــ"الفاء" والبواقي بـــ"ثم"، قلنا لأن الإحياء الأوَّل قد يعقب الموت بغير تراخ، وأمَّا الموت فقد تراخى عن الإحياء، والإحياء الثاني كذلك متراخ عن الموت إن أريد به النُّشور تراخيا ظاهرا." انتهى[1]

ويبدو لي -والله أعلم- أنه لما كانت صيغ الجمل المتعاطفة في الآية الكريمة قد اختلفت ما بين الماضي والمضارع نجد أن الذي يقف في الزَّمان الحاضر هو الإنسان المخاطب ضرورة أن الزَّمان في أطواره الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل هو جزء من بناء وجوده، وبما أن الماضي بالنسبة إلى وجوده الحاضر كان عدما لا يستطيع معرفة أبعاده ولا تقدير أطواره -إن في عالم الذرّ في ظهور بني آدم، أو في أرحام الأمَّهات- وكان ذلك مما يختصّ الله

١ - الفخر الرازي، التفسير الكبير، ١٦٤/١.

بعلمه، ناسب أن يكون العطف بالفاء في الطّورين الأوّلين، للدّلالة على مجرّد تعلّق إرادة الله بإيجاد هذا الكائن فكان، وعندما أبصر الإنسان نور الحياة وشعر بوجوده في أبعاد الزّمان، كان ما يأتي عليه من الموت الثاني الذي يلاحقه ويؤمن به، أو الإحياء الثاني -سواء آمن به أم لم يؤمن- كان ذلك بالنسبة إليه شيئا بعيدا، ولذا ناسب العطف بـــ"ثم" مع صيغة المضارع، وهذا ما عبّر عنه القرآن في قوله تعالى في سورة المعارج: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا، وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾. ولكن هذا الإنسان الجحود، عندما ينكشف له الغطاء فيرى ببصره الحديد حقيقة ما كان ينكره في يوم الوعيد، لا يملك إلا أن يعترف خاضعا ذليلا، وهو لا يجد إلى الخلاص سبيلا، يقول تعالى على لسان المجرمين وهم يعترفون بمضمون هذه الآية في الموتتين والحياتين فيقولون: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلِ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ (غافر:١١).

والقرآن يصوّر الموت تصويرا مأخوذا من حياة الإنسان المتقلّبة بين النّوم واليقظة، وكيف أقدره الله تعالى ومكّنه من هذه الموتة المؤقتة ليأخذ قسطه من الرّاحة، ويستعيد نشاطه لليوم الجديد وأنّ الذي سخّر له ذلك لا يعجزه أن يعيد حياته مرّة أخرى، فقال تعالى في سورة غافر: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر: ٤٢).

وفي لغز الموت والحياة استرعى انتباهي قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الذي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك:٠١-٠٢)، **فقلت:** إنّ تقديم الموت على الحياة -وهما عرضان للكائن الحي- قد جاء على مقتضى الواقع الطبيعي المذكور في هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾، ولكن

استشكلت التعبير بـ"الخلق" للموت -وهو عدم وحقيقة سلبية-، ثم إننا إذا أمكن لنا أن نلمس العدم والفناء يعرضان للكائن بعد قيام ذاته وتحرُّكه في مجرى الحياة، كما قدّره الله أن يكون، فكيف نتصوَّر العدم وهو لم يوجد بعد؟

غير أننا نستروح من الآية الكريمة وجودا روحانيا لهذا الكائن في عالم الغيب الذي لا يعلم سرَّه إلا الله تعالى، بدليل التعبير بالكينونة الماضية ﴿كُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ وذلك العالم الروُّحاني هو ما يعبِّر عنه العلماء "عالم الذرّ".

وقد ألمح الشيخ ابن عاشور-رحمه الله- في تفسيره إلى المعنى حين قال: "وأوثر ذكر الموت والحياة لما يدلاّن عليه من العبرة بتداول العرضين المتضادّين على معروض واحد، وللدلالة على كمال صنع الصانع "، إلى أن قال: "فالحياة قوة تتبع اعتدال المزاج النوعي لتفيض منها سائر القوى، والموت كيفية عدمية، هو عدم الحياة عمَّا شأنه أن يوصف بالحياة أو الموت أي زوال الحياة عن الحيّ، فبين الحياة والموت تقابل العدم والملكة، ومعنى خلق الحياة خلق الحي، لأنّ قوام الحي هو الحياة، ففي خلقه خلق ما به قوامه، وأمّا خلق الموت فإيجاد أسبابه، وإلاّ فإنّ الموت عدم لا يتعلّق به الخلق بالمعنى الحقيقي، ولكنّه لمّا كان عوضا للمخلوق عبَّر عن حصوله بالخلق تبعا، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات: ٩٦)". انتهى[١]

قلت: إنّ ملحظ الشيخ ابن عاشور دقيق جدًّا من الناحية اللُّغوية في تقابل الألفاظ وفي النسق البياني، ولكن نحن بإزاء حقيقة وجودية تحتاج إلى التحليل العلميّ الدَّقيق، والقرآن العظيم كلام الخالق العليم، يتناول أدقّ الحقائق بأسلوب مبسَّط ولكنه يتَّسع لكل المفاهيم التي تتطوَّر هي الأخرى على

١ - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٣٧٣/١.

حسب معارف الإنسان واتّساعها، وهاهو الدكتور مصطفى محمود يتناقل هذه الحقيقة الوجودية بالتحليل العلميّ فيكشف هذا المعنى -معنى خلق الموت- في كتابه الشّيّق (لغز الموت) فيقول: "ما الموت وما حقيقته؟، ولماذا يسقط من حسابنا دائما حتى حينما نواجهه؟، لأنّ الموت في حقيقته حياة، ولأنه لا يحتوي على مفاجأة، ولأن الموت يحدث في داخلنا في كلّ لحظة حتى ونحن أحياء، كل نقطة لعاب، وكل دمعة، وكل قطرة عرق، فيها خلايا ميّتة، نشيّعها إلى الخارج بدون احتفال، ملايين الكرات الحمر تولد وتعيش وتموت في دمنا دون أن ندري عنها شيئا، ومثلها الكرات البيض، وخلايا اللّحم والدهن والكبد والأمعاء، كلها خلايا قصيرة العمر تولد وتموت ويولد غيرها ويموت، وتدفن جثتها في الغدد أو تطرد في الإفرازات في هدوء وصمت، دون أن نحسّ شيئا ممّا قد حدث، مع كلّ شهيق وزفير يدخل "الأكسجين" مثل "البوتاقاز" إلى فرن الكبد فيحرق كمية من اللحم ويولد حرارة تطهى لنا لحما آخر جديدا نضيفه إلى أكتافنا، هذه الحرارة هي الحياة، ولكنها أيضا احتراق الموت في صميمها والهلاك من طبيعتها". انتهى[1]

فسبحان من خلق فسوّى، ثمّ أمات فأحيا.

﴿هُوَ الذي خَلَقَ لَكُم مَّا في الأَرْضِ جَميعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَليمٌ﴾: في معرض استنكار الله لكفر الناس يذكّرهم ببديع صنعه وعظيم قدرته في خلق السماوات والأرض، وإنّه تعالى خلق ذلك لنا -نحن المخاطبين- وما كان الله ليفعل ذلك عبثا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلا بِالْحَقِّ

---

١ - مصطفى محمود، لغز الموت، دار العودة، بيروت، ١٩٧٢، ٦-٧.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الدخان: ٣٨-٣٩).

وترد في القرآن كثيراً مثل هذه الآيات لتنبّه هذا الإنسان على مدى تكريم الله إياه بأن سخّر له ما في السماوات وما في الأرض، وما فعل ذلك عبثا وسدى، بل ليكون الإنسان خليفة الله في الأرض كما تفصح بذلك الآيات اللاّحقة، وللقرآن تعابيره المناسبة عند التّعرّض إلى هذه الظواهر الكونية التي تدعو للتأمّل والاعتبار، تعابير لا تدخل التفكير في متاهات الفرضيات والتخمينات العلمية التي تتطلب تخصّصا في مثل تلك الأبحاث الكونية التي اتسعت اليوم، وهي تؤكّد مدى قدرة الله تعالى وعظيم سلطانه كما وعد بذلك في قوله:﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣)، ومهما يكشف العلم الحديث في هذه المجالات من حقائق، فسيظل القرآن هو مرجعية المسلمين في بيان صدقها أو وهمها، لأن القرآن دلالته يقينية من مصدر الوجود ﴿لاَّ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت:٤٢).

وفي المصطلحات التي ترد عند ذكر بعض شؤون الغيب، سواء ما يتصل منها بصفات الله وأفعاله لا نغرق في ضروب من التأويل التي تبعد النص عن مدلوله اللّغوي تفاديا من الوقوع في التجسيد، كما لا نعطيه المدلول اللغوي حسب استعمالاتنا المألوفة حتى لا نقع في التشبيه والمماثلة -تعالى الله عن ذلك- بل هناك الطريق الوسط الذي يخرجنا من الحرج بتطبيق الأساليب البيانية من ضروب المجاز والكناية، ثم نفوّض الأمر إلى الله الذي يعلم تأويله، ومثل تلك المصطلحات في هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾، وقد أفاض المفسّرون في بيان معنى الاستواء ونجتزئ فيه بما أوثر قوله عن الإمام مالك -رحمه الله-: "الاستواء معلوم والكيف مجهول".

ويقول سيد قطب -رحمه الله-: "ولا مجال للخوض في معنى الاستواء إلا بأنه رمز للسيطرة، والقصد بإرادة الخلق والتكوين، كذلك لا مجال للخوض في معنى السماوات السّبع المقصودة هنا وتحديد أشكالها وأبعادها اكتفاءً بالقصد الكلّي من هذا النّصّ، وهو التّسوية للكون، أرضه وسمائه في معرض استنكار كفر النّاس بالخالق المهيمن المسيطر على الكون".[1]

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: فإنّ الخالق المدبّر لشؤون ما خلق بذلك التّنسيق البديع والتّنظيم المحكم، لا يمكن إلاّ أن يكون علمه شاملاً محيطاً بكلّ شيء لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة.

ذلك هو علم الله الشامل المطلق، فما هو حظّ الإنسان من العلم والمعرفة في مجال الفضاء الكوني؟...

ليس ثمّت في القرآن ما يدلّ على أنّ الله قطع الطّريق على هذا الإنسان، أو منعه من محاولة التّدبّر والاستكشاف- كما يراه بعض البسطاء من الناس-، بل على العكس من ذلك، نجد القرآن الكريم في كثير من آياته يحرّض المؤمنين على النّظر والتّأمّل في خلق الله لمعرفة قدرته، قال تعالى:

- ﴿قُلُ انْظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ، وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُومِنُونَ﴾ (يونس:١٠١).

- ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ، وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٨٥).

- ويندّد القرآن بالذين عطّلوا مواهبهم فلم يسخّروها لمثل ذلك النّظر

---

١ - سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت - لبنان، ١٢٨/١.

والتّأمّل لما فيها من دلائل تدعو إلى الإيمان بوجود الصّانع، يقول تعالى:﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (يوسف: ١٠٥).

وخلاصة القول في مثل هذه المعارف الإنسانية أنّ الإسلام قد فسح المجال لها بأن اعتبر كلّ ما في الكون من أرضه وسمائه مسخّراً لهذا الإنسان لإنماء قدراته وتفتيق مواهبه، حتّى يطّلع على ما يقدر عليه من أسرار الكون التي هي من علم الله الشّامل المحيط، يقول تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

فاللّهم زدنا علماً، وألهمنا حكمتك يا ذا الجلال والإكرام. والله أعلم.

استخلاف آدم في الأرض، وتعليمه الأسماء كلّها

أ)- النّصّ:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ

أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾: جمع مَلَك بفتح اللام، هم خلق أخبرنا الله بوجودهم وببعض صفاتهم وأعمالهم، وهم من عالم الغيب، نؤمن بهم ونفوّض العلم إلى الله في إدراك حقيقتهم، قال تعالى في شأنهم: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾(الأنبياء:٢٧)، وقال: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(التحريم:٦). ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾: الخليفة من يخلف غيره أو يكون بدلاً عنه في عمل يعمله، وهو بالمعنى المجازي أن يكون مدبّرا متصرّفاً بأمر الله في شؤون الأرض والسّلطنة على موجوداتها، أو الخليفة بالمعنى الحقيقي إذا صحّ أنّ الأرض كانت معمورة من قبلُ بطائفة من المخلوقات انقرضت فحلّ الإنسان محلّها. ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾: يكون الإفساد في الأرض بالمعاصي ومحادّة الله ورسوله، ويكون سفك الدّماء بالقتل ظلماً وعدوانا. ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾: التّسبيح هي الأقوال التي تدلّ على تعظيم الله وتنزيهه ويطلق على قول الذّاكر "سبحان الله"، والتّقديس: التّنزيه والتّطهير، ويكون التّسبيح بالقول والعمل، ويكون التّقديس باعتقاد صفات الكمال المناسبة للذّات العليّة. ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾: الأسماء جمع اسم، لفظ يدلّ على معنى يفهمه ذهن السّامع سواء كان مدلوله ذاتاً أو صفةً أو فعلاً، والأسماء هنا هي ألفاظ تدلّ على ذوات الأشياء التي يحتاج إليها الإنسان إلى التّعبير عنها. ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾: أي عرض تلك الأسماء بتغليب ما كان منها للعقلاء، والمعروض هو الذّوات والمعاني في

أشكال تبيّن مدلولها. ﴿أَنبِئُونِي﴾: من الإنباء أي الإخبار بما فيه فائدة عظيمة.

ج)- البيان والتّفسير:

بمناسبة ذكر خلق السّماوات والأرض، وما في ذلك من دلالة على قدرة الله وعظمته وعلى بطلان الشّرك، انتقل السّياق إلى خلق النّوع البشري ليكون سلطانا في الأرض بتنظيم عمرانها وتدبير أحوالها، وقد كرّمه الله وأهّله لذلك بما علّمه من وسائل التّعبير تجهلها الملائكة، وفي قصّة خلق آدم وما اكتنفها من أحداث في الملإ الأعلى دليل آخر على وحدانية الله وعظيم قدرته، قال تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾**

تعتبر قصّة بدء الخليقة متمثّلة في خلق آدم وما دار من حوار بشأنها في الملإ الأعلى، تعتبر من الآيات المتشابهات في القرآن الكريم، لأنّ هذه الأخبار هي من عالم الغيب الذي لا ندرك بعقولنا ما يجري فيه إلاّ إيماناً بما يخبّر الله تعالى به.

وقد حدث جدل طويل قديماً وحديثاً بين علماء الكلام وعلماء التّفسير في طريقة معالجة الآيات المتشابهات، وإن كانت الأمّة الإسلامية قد أجمعت كلّها على أنّ الله تعالى منزّه عن مشابهة المخلوقات، ولا يحدّه زمان ولا مكان إلى غير ذلك ممّا هو مفصّل في أصول الاعتقاد.

غير أنّ النّصوص الواردة في مثل هذه المواضيع الغيبية قد تدلّ ظواهرها على منافاة التّنزيه لله تعالى، أو تدلّ على بعض الصّفات التي لا تليق بقداسة

الملإ الأعلى، مثل ما ورد في هذا الحوار الحكيم، ولأجل ذلك تعدّدت مدارس المفسّرين في منهجيّة تفسير الآيات المتشابهات، وهي كلّها تتمحور حول طريقتين:

أ)- **الطّريقة السّلفيّة:** وهي تعتمد على التّنزيه المطلق لله تعالى، وذلك بتفويض الأمر إليه تعالى في فهم حقيقة ذلك، كما عبّر الإمام مالك عن ذلك في مقولته المشهورة: "الاستواء معلوم والكيف مجهول"، ذلك لأنّ عالم الغيب فوق مستوى عقولنا، مع العلم بأنّ الله تعالى يعلّمنا مضمون كلامه بما نستفيد به في أخلاقنا وأعمالنا، ويخاطبنا في ذلك بما يقرّب المعاني من عقولنا.

ب)- **الطريقة الخَلَفيّة:** وتعتمد على تأويل الألفاظ المتشابهة، تأويلاً لا يخلّ بالمعنى، على أنّ قواعد الدين وُضعت على أساس العقل، فإذا تعارض النّقل مع العقل، دلّ ذلك على أنّه لا يراد باللّفظ ظاهره، بل لابدّ من معنى موافق ومناسب يحمل عليه، ولا يكون ذلك إلاّ بالتّأويل، وفي هذا الصّدد ينقل الشّيخ رشيد رضا رحمه الله- ما يعتبر في ظنّنا - الطّريقة المثلى التي تجمع بين الحسنيين على أساس أصول الدين، وينقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية قوله: "إنّ كلاً من الدّليلين إمّا قطعي وإمّا غير قطعيّ، فالقطعيان لا يمكن أن يتعارضا حتّى نرجّح أحدهما على الآخر، وإذا تعارض ظنّي من كلّ منهما مع قطعيّ، وجب ترجيح القطعي مطلقاً، وإذا تعارض ظنّي مع ظنّي من كلّ منهما رجّحنا المنقول على المعقول، لأنّ ما ندركه بغلبة الظّنّ من كلام الله ورسوله أولى بالإتّباع ممّا ندركه بغلبة الظّنّ من نظريّاتنا العقلية التي يكثر فيها الخطأ جدّاً، فظواهر الآيات في خلق آدم مثلاً مقدّم في الاعتقاد على النّظريّات المخالفة لها من أقوال الباحثين في أسرار الخلق وتعليل أطواره ونظامه، ما دامت ظنّية لم تبلغ درجة

القطع". انتهى[١]

أقول: مثال ذلك ما تتلقّاه ناشئتنا من نظرّيات علمية بحتة لا تقرّ بغيب ولا دين، وإنّما تُبنى أحكامها على أسس التّجربة العلمية التي تعتمد على الاستقراء والمقارنة، وعلى التحليل والتركيب...إلخ، سواء في علوم الحياة أو العلوم الأخرى.

لنأخذ مثلاً نظريّة "داروين" في النّشوء والارتقاء، والتي تُرجع أصول الإنسان إلى القردة، فإنّ هذه النّظرية مثلاً، زيادة على كونها مناقضة لما يقرّره الدين، كما خبّرنا به خالق الإنسان، فإنّها لم تثبت أمام تطوّر الأبحاث الجيولوجية أو الأثريّة ممّا توصّل إليه علماء الأحياء، وكذلك التّجارب التي أجريت على الفصائل المختلفة للقردة في ضبط قدراتها الذّهنية التي لا يصحّ أن تُقارن بقدرات الإنسان، فضلاً عن إمكان تطوّرها من جيل إلى جيل.

وحبّذا لو أنّ الشّباب المسلم، وهو يتلقّى هذه النّظريّات المادّية البحتة، يزنها ويمحّصها، ثمّ يعرضها على أصول عقيدته في ما يؤمن به من كلام الخالق العظيم. إذاً لجمع بين الأصالة والعصرنة، فلا يضلّ ولا يشقى.

وبناءً على هذه النّبذة التمهيدية لاتّجاهات العلماء في تفسير المتشابه من آي القرآن، نعود إلى تفسير الآية الكريمة فنقول:

يخاطب الله رسوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ بمعنى اذكر يا محمد، وفي اختيار كلمة الرّبّ والإضافة التّشريفية لرسول الله ﷺ إعلاء وإشادة بمقامه الشريف، يحيطه مولاه برعايته وحفظه ويعظّم شانه في العالمين مع التّثبيت

١ - محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ١/٢٥٣.

والمواساة ليشدّ من أزره، تأسّياً بالمولى تعالى في محاورة ملائكته، وهم يحاولون معرفة الحكمة الإلهية من خلق هذا الإنسان، ثمّ إذعانهم إلى المشيئة العلوية، واعترافهم بالقصور أمام علم الله.

والإخبار بالجملة الاسمية ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ جاء لتأكيد الإرادة الإلهية في خلق هذا الإنسان لعمارة الأرض مكرّما (بوصف خليفة)، بحيث يصبح ذلك كالأمر الواقع كما سبق في علم الله، وإن كان وقوعه قد تمّ بعد الإخبار به، والله وحده هو الذي يعلم الفاصل الزمني بين الحوار العلوي وزمان خلق هذا الإنسان، وهذا المعنى اللّطيف لا تفيده الجملة الفعلية.

وقد ذهب المفسّرون إلى وجود احتمالين في المراد بلفظ الخليفة، في إطار ما وصفه به الملائكة من الإفساد وسفك الدّماء.

أ- إنّه خليفة لنوع من الكائنات العاقلة التي عمرت الأرض قبل آدم وذرّيته، وكان من واقعه أن أفسد في الأرض وسفك الدّماء حتّى باد وانقرض، وعلى ذلك قاس الملائكة خليفته الإنسان، فكان منهم ذلك الاستفسار، وليس في النّصّ القرآني ما يرجّح مثل هذا التأويل، بل لعلّ ملائكة الله - وهم صفوة خلقه- وبحكم طبيعتهم العلوية النّزّاعة للخير، قد ألهمهم الله، بأنّ هذا المخلوق الأرضي المادي، سوف لن يكون من فصيلتهم السّماوية المخلوقة لطاعة الله وعبادته وتقديسه، فتوقّعوا منه ذلك الفساد، وكان منهم ذلك التّساؤل في معرض الاستفسار لحكمة الله التي خفيت عنهم.

ب- إنّ هذا الإنسان مخلوق ابتداءً على وجه الأرض ليعمّرها ويصلحها بما أودع فيه الخالق من حرّية وإرادة وتفكير، وبالتالي فهو خليفة الله في الأرض بالمعنى المجازي، أي يكون مدبّراً متصرّفاً بأمر الله في شؤون الأرض، وإلى هذا

المعنى التّشريفي للإنسان ذهب أغلب المفسّرين، ويؤيّده قوله تعالى:

- ﴿وَهُوَ الذي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ (الأنعام: ١٦٥).

- ﴿انَّ اللّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ, عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، هُوَ الذي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ﴾ (فاطر:٣٨-٣٩).

- وقال تعالى على لسان صالح لقومه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١).

وبعد ذلك التّساؤل اللّطيف جاء الرّدّ الإلهي حاسماً بأنّ علمه تعالى بأحوال خلقه أوسع ممّا علموه ﴿إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾، ولا شكّ أنّ الملائكة قد تلقّوا ذلك الإخبار من الرّبّ تعالى بالإذعان والتّسليم، وهم كما وصفهم الله ﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ, بِالقَوْلِ﴾، غير أنّ الحكمة الإلهية شاءت إضافة ما يكون به الاستدلال التّفصيلي على مدى عجزهم في معرفة المقصود الرّبّاني في إيجاد ذلك المخلوق الذي ينكرون خلافته في الأرض فقال تعالى: **﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هَؤُلآءِ انْ كُنتُمْ صَادِقِينَ، قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَآ إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾**.

إنّه الاختبار العسير في مجال التربية والتعليم، وقد زوّد الله تعالى آدم بمعرفة كلّ الأسماء التي تدلّ على ذوات الأشياء وصفاتها، ممّا يمكّنه من القيام بمهمّته الاستخلافية في الأرض، وفي الإتيان بلفظ الجمع " الأسماء" دليل على استيعاب آدم لكلّ المسمّيات المعروفة يومئذٍ بفرز أسمائها ومعرفة رموزها اللّغوية، وهي قدرة عظيمة لهذا الإنسان في مجال التفاهم والتعامل، لم تكن

لغيره من المخلوقات، فأنّى للملائكة أن يحيروا جواباً في هذا الاختبار الرّبّاني العظيم؟.

ولا شكّ أنّ تعليم آدم الأسماء تطلّب مهلة من الزمان، وجملة من الوسائل الله أعلم بها وبالطّريقة التي تمّت به، حتّى إذا استكمل آدم تعلّمه وتهيّأ هو الآخر للاختبار تلقّى ملائكة الله السّؤال المحرج: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هَـٰؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وللدلالة على الفاصل الزمني بين التعليم والاختبار، جاء العطف بـ"ثمّ"، وبذلك يضع النّصّ هذه العملية التربوية في إطارها الطّبيعي المعهود في كلّ من التعليم والاختبار.

﴿قَالَ يَا ءَادَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيَ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾: وأمام عجز الملائكة عن الإجابة، ونجاح آدم فيها أدركوا مدى قصورهم عن إدراك المقاصد العلوية للربّ تعالى فأجابوا بالتّسبيح والتعظيم للخالق وقد عقّب على ذلك بما يعتبر كالنّتيجة المقرّرة بعد إثبات الدليل والبرهان، بأن الله عالم غيب السماوات والأرض وهو عليم بذات الصدور في السّر والعلن، وجاء ذلك بالاستفهام التّقريري ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ وفيه تفصيل لما أجمله في قوله من قبل ﴿إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

وقد حاول المفسرون أن يستخرجوا بعض الفوائد من هذا الحوار الكريم تفيدنا في ديننا ومعتقدنا كما تكون لنا رصيداً معنوياً في مجال الدعوة إلى الله والتّأدّب بآدابه، يلخّص ذلك الشيخ رشيد رضا فيقول:

أ- إنّ الله تعالى في عظمته وجلاله يرضى لعبيده أن يسألوه عن حكمته في صنعه، وما يخفى عليهم من أسراره في خلقه لا سيما عند الحيرة.

ب- إذا كان من أسرار الله تعالى وحكمه ما يخفى على الملائكة، فنحن أولى بأن يخفى علينا، فلا مطمع للإنسان في معرفة جميع أسرار الخليقة وحكمها، لأنّه لم يُؤت من العلم إلاّ قليلاً.

ج- إنّ الله تعالى هدى الملائكة في حيرتهم، وأجابهم عن سؤالهم لإقامة الدليل، بعد الإرشاد إلى الخضوع والتّسليم.

د- تسلية النّبيّ عن تكذيب الناس، ومحاجّتهم في النّبوءة بغير برهان على إنكار ما أنكروا وبطلان ما جحدوا، فإذا كان الملأ الأعلى قد مثلوا على أنهم يختصمون ويطلبون البيان والبرهان فيما لا يعلمون، فأجدر بالنّاس أن يكونوا معذورين، وبالأنبياء أن يعاملوهم كما عامل الله الملائكة المقرّبين."انتهى[1]

أنار الله بصائرنا بالقرآن، وألهمنا إلى معرفة ما فيه من الحكمة والبيان.

والله أعلم.

---

١ - محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ١ / ٢٥٤-٢٥٥.

سجود الملائكة لآدَمَ تكريما له، وعصيان إبليس.

أ) – النّص:

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾

ب) – التّحقيق اللغوي:

﴿ اسْجُدُواْ لأَدَمَ ﴾: السجود التطامن والخضوع والانقياد، وله صور مختلفة وأعظم مظاهره الخرور نحو الأرض للأذقان، ووضع الجبهة على التراب،كما يفعل الناس قديما مع الملوك والأمراء، والسجود على سبعة آراب: اليدين والرجلين والركبتين والجبهة هو السجود المشروع لله، وهو ركن من أركان الإسلام، أما سجود الملائكة لآدَمَ فهو تمثيل لتعظيمهم إياه وليس سجود عبادة، وقد ورد في القرآن سجود المخلوقات لمقتضى إرادة الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ (الرعد:١٥). وفي هذا المعنى وردت آيات كثيرة.

﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾: إبليس اسم الشيطان الأول رمز للشر والفساد، وهو لنوع الشياطين من الجنّ بمنزلة آدم لنوع الإنسان، قيل: إن اللفظ معرّب وقيل إنه عربيّ الأصل مشتقّ من الإبلاس أي البعد من الخير واليأس من رحمة الله.أبى: يأبى إباء الامتناع من فعل أو تلقّيه.استكبر: استكبارا شدّة الكبر فالسين والتاء للمبالغة لا لطلب الشيء.

ج)– أوجه القراءة:

﴿قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُواْ﴾: قرأ أبو جعفر في أشهر رواية عنه ﴿لِلْمَلَائِكَةُ اسْجُدُواْ﴾ بضمّة على التاء في حال الوصل على إتباع حركة التاء لضمّة الجيم في ﴿اسْجُدُواْ﴾ وقرأ الباقون بكسر التاء.

د)– البيان والتفسير:

ما تزال أحداث قصة بدء الخليقة تتوالى في مشهد مثير يجسّد مدى التكريم الإلهي لذلك المخلوق العجيب في نوعه وصورته، وقد أقرّ ملائكة الله بمزيته عنهم بما خصّه الله به من المعرفة، وبما انتدبه إليه من تحمّل أمانة الخلافة في الأرض، فأمرهم الله بالسجود له تعظيما لشأنه فقال تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾: الجملة معطوفة على جملة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ واختير هنا ضمير العظمة ﴿قُلْنَا﴾ لإظهار عظمة الآمر وإذعان المأمورين الذين أُمِرُوا بالسجود لآدَمَ تكريما له وإظهارا لما خصّه الله به من المزايا أعظمها المعرفة والإرادة وحرية الاختيار، وكلها خصائص تؤهل آدم وذريته للقيام بالمسؤولية المنوطة بهم من الخلافة في الأرض، وهل أبلغ في التكريم لهذا المخلوق العجيب من سجود الملإ الأعلى له في أول نشأته من أديم الأرض لينطلق على فجاجها ومناكبها مرتزقا ومنقّبا ومعمّرا، وهو مزوّد بذلك الزاد المعرفي الذي خصّه الله به، والذي كان محطّ التعظيم والتبجيل بأمر الله، ذلك الأمر الذي لم تتردد ملائكة الله في مبادرة تنفيذه فور توجيهه إليهم، ويدلّ على ذلك العطف بفاء التعقيب ﴿فَسَجَدُواْ﴾

وكان "إبليس" بين الملائكة المأمورين بالسجود، استثناه الله من القيام بالسجود المأمور به، وكان مقصودا ومعنيا بكل ما أخبر به ملائكة الله وما أمروا به في شأن آدم، ولكنه عصى ربه وتنكّب عن زمرة الملائكة بثلاثة مواقف تدلّ كلها على الخبث والتمرّد والعصيان وهي قوله تعالى: ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾:

أ – فالإباء هو الامتناع من فعل أو تلقيه، وهو صفة خلقية تأخذ قيمتها من الفعل الممتنع عنه، ومن الجهة التي تأمر بذلك الفعل، فالسجود لآدَمَ سجود تكريم وتعظيم ليس فيه غضاضة للمأمور، بل هو تواضع محمود واحترام لصاحب الفضل، ويزيده قيمة وشأنا أن يكون تنفيذا لأمر الخالق العظيم.

ب – والاستكبار خلق ذميم ينمّ عن خسّة في النفس تنطلق من رؤية خاطئة وتقييم مزيّف، إذ يرى المتكبر لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة أخرى، ثم يرى مرتبته فوق مرتبة غيره، فيركبه الغرور وتأخذه عزّة النفس ويحتقر غيره، وقد ذمّ القرآن هذا الخلق واعتبر صاحبه في عداد الضّالين فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (غافر: ٣٥)، وقال في جزاء الكبر بجهنم: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (الزمر: ٦٠).

ج – ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾: والكفر هو ملاك الرذائل كلها، ويرى كثير من المفسرين أن "كان" هنا بمعنى "صار" حتى يتفادوا الوقوع في حمل فعل "كان" على الدلالة على الاتصاف بالكفر فيما مضى عن وقت الامتناع من السجود، فقوله تعالى ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ بدلا من قوله: "وكفر" للدلالة على معنى رسوخ الكفر فيه رسوخا عميقا.

وقد اختلف المفسرون في كون الاستثناء في الآية متصلا أو منقطعا،

وذلك بناء على اختلافهم في كون "إبليس" من فصيلة الملائكة أو هو من فصيلة أخرى من الخلق الخفيّ، ذلك لأن الله تعالى ذكر في آيات أخرى كونه من فصيلة "الجنّ" فقال في سورة الكهف:﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾(الكهف:٥٠) ويثبت القرآن أن الله تعالى خلق الجنّ من مارج من نار، والشيطان قد اتخذ ذلك معيارا للتفاضل بينه وبين آدم حين تحدّى ربّه بالعصيان فقال: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ, مِن طِينٍ﴾ (ص:٧٦).

وقد حاول المفسّرون حلّ هذه الإشكالية على أساس أن الملائكة كما وصفهم الله ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾(الأنبياء:٢٦)، ﴿لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُومَرُونَ﴾(التحريم:٦)، ولعلّ ما أورده الإمام ابن عاشور في بيان وجه الخلاف بين الملائكة وإبليس، هو أدقّ ما قيل في هذا الموضوع قال: "دلّت الآية على أن إبليس كان مقصودا في الخبر الذي أخبر به الملائكة إذ قال للملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وفي الأمر الذي أمر به الملائكة إذ قال ﴿اسْجُدُواْ لأَدَمَ﴾ ذلك أن جنس المجرّدات كان في ذلك العالم مغمورا بنوع الملك إذ خلق الله من نوعهم أفرادا كثيرة كما دلّت عليه صيغة الجمع في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ﴾، و لم يخلق الله من نوع الجنّ إلا أصلهم وهو "إبليس"، وخلق من نوع الإنسان أصلهم وهو "آدم"، وقد أقام الله إبليس بين الملائكة إقامة ارتياض وتخلّق، وسخّره لاتّباع سننهم فجرى على ذلك السنن أمدًا طويلا لا يعلمه إلا الله، ثم ظهر ما في نوعه من الخبث كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ في سورة الكهف، فعصى ربّه حين أمره بالسجود لآدَمَ، وإبليس اسم الشيطان الأول الذي هو مولد الشياطين، فكان

إبليس لنوع الشياطين والجن بمنزلة آدم لنوع الإنسان". (١)

قلت: إن مثل هذا التخريج لا يتناقض مع النصوص القرآنية التي عالجت بدء قصة الخليقة، غير أننا لا نستطيع أن نقطع بذلك، مادامت كلها أخباراً غيبيّة، بل الأدب مع الله يقتضي أن نفوّض الأمر إليه في حقيقة ذلك، مادام اللفظ المستعمل وهو"الجنّ" أو"الجِنّة" وهو يعني الستر والخفاء، يستوعب كل تلك الخلائق الخفية التي لا يعلم كنهها إلا الله.

والله أعلم.

إسكان آدم وزوجه الجنة، وموقف الشيطان منهما .

أ)- النص:

وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنَ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا
وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا
مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ
إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾
قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ

١ - الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، ١/ ٤٢٣.

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾: زوج آدم هي أمنا حوّاء، والسكن: اتخاذ المكان مقرا لغالب أحوال الإنسان. والجنة: قطعة من الأرض فيها الأشجار المثمرة الملتفة، والمياه الجارية. ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾: أمرهما الله بل أذن لهما أن يأكلا من ثمارها والرغد أي الهنيء الذي لا عناء فيه ولا تقتير. ﴿لَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾: أي لا تأكلا منها فتكونا من المعتدين. ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾: أزلّهما إزلالا، جعل الغير زالاً قائما به الزلل، فتزلق رجلاه. ﴿اهْبِطُوا﴾: اخرجوا، أصل الهبوط أن يكون من مكان عال إلى أسفل، ويستعمل لمجرد الانتقال، أو على اعتبار العلو والسّفل في المعنى. ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾: المستقر مكان الاستقرار، والمتاع ما يتمتع به الإنسان من المطعم والملبس وغيره. ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾: التلقي استقبال الشيء بإكرام ومسرّة، والكلمات هي لطلب العفو والمغفرة. ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾: إما تفيد الشرط وهي مركبة من "إن" و"ما" الزائدة للتوكيد، والجملة مركبة من شرطين "إمّا" و"من"، والهدى هو ما يأتي من الله من الشرائع. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: لا يخافون من عذاب الآخرة. ﴿بِآيَاتِنَا﴾: جمع آية، وهي العلامة الدالة على أمر من شأنه أن يخفى، وآيات الله ناطقة وهي القرآن، وصامتة وهي كل ما في صفحة الكون من أدلة قدرته تعالى.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾: قرأ حمزة ﴿فَأَزَالَهُمَا﴾ بألف بعد الزّاي، وهو من الإزالة بمعنى الإبعاد، وعلى هذه القراءة يتعين أن يكون الضمير في ﴿عَنْهَا﴾ عائدا إلى الجنة لا إلى الشجرة، وقرأ الباقون ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾.

د)- البيان والتّفسير:

يستمرّ السياق في بيان أنواع التكريم لآدَمَ عليه السلام فجاء العطف على ما سبق لبيان ما تفضل الله به عليه من الإقامة في الجنة مرفوقا بزوجه لإتمام السعادة والهناء فقال: **﴿وَقُلْنَا يَآ ءَادَمُ اسْكُنَ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾**.

قصّة السكن لآدَمَ في الجنة ترد مفصّلة في سورتي "الأعراف" و"طه"، وتندرج في الإشادة بهذا الإنسان ومدى تكريم الله له بما أودع فيه من خصائص العقل والتفكير، وما حمّله الله به من أمانة التكليف، والعطف على ما سبق ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ﴾ يحمل نفس المعنى من توجيه الخطاب إلى الرسول بأن يذكر أحداث القصّة كما أخبر الله بها، وهو ينادي آدم في الملأ الأعلى نداء تنويه بذكر اسمه ليمنّ عليه بمسكن الجنة مرفوقا بزوجه، فإذا كان سكن الجنة سببا عظيما لرفاهية ورغد العيش من الناحية المادية، فإن اصطحاب الزوج والاستئناس به يضفي على تلك الحياة معنى السكينة والطمأنينة والهناء، وقد أذن الله لهما أن يأكلا من خيرات تلك الجنة كلها أكلا هنيئا لا يكدّره أي منغّص ماديّ أو معنويّ ينقص من لذة متاعهما بتلك الخيرات لأن قوله تعالى: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ يدلّ على إطلاق الحرية والإرادة لهما في الكسب

والاختيار، ولكن الإرادة لا تتمحّص قيمتها الحقيقية إلاّ على محكّ الاختبار، فكان منه تعالى ذلك النهي لهما أن يقربا شجرة معيّنة لهما بدلالة اسم الإشارة على ذلك ﴿هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ والنهي عن قربها أبلغ في التحذير من النهي عن الأكل، وأحوط لمنع الغواية والإغراء، وذلك حين يكون المنهيّ عنه شديد الجذب للوقوع فيه من مثل فاحشة الزّنا إذ قال تعالى في النهي عنها: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً﴾ (الإسراء:٣٢)، وهو ما يسمّى في أصول الفقه بـــ"سدّ الذرائع".

وفي هذا الأمر والنهي وما يتعلّق بهما من محتويات الجنة تمثيل لحدود الله وتحديد لمجالات الحلال والحرام في أحكام الله، ومن خلال ذلك يكون الحكم العادل لموقف الإنسان فيكون من الأتقياء الصّلحاء أومن البغاة الظالمين﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾:

الربط بالفاء يكون لمعنى التفريع، لأن معنى التعقيب يستلزم وقوع حدث الإزلال مباشرة بعد إطلاق أيديهما في التمتع بخيرات الجنة، والاختبار يقتضي فترة من الوقت يحتكم فيه الممتحن إلى عقله وضميره لاختيار المسلك الذي يريده، والتعبير بالإزلال يرسم صورة رائعة لذلك المسلك الذي يضع فيه الإنسان قدمه، فهو وإن كان مسلكا معبدا على هدي من الله لا يؤمن فيه العثار إذا ما غفل الإنسان عن دواعي الاستفزاز والإغواء.

وقد اقتضت حكمة الله أن تكون حياة الإنسان والشيطان متلازمتين على طول مشوار الخليقة من بدايتها إلى نهايتها، فإذا كان الشيطان بحكم تمرده

عن الله قد تمحّض للخبث والكيد والشرّ، فإن الإنسان هو مجال تنفيذ خطته، وهو هدفه لنصب حبائله وتدبير مكائده. وما إزلاله عن الشجرة أو عن الجنة إلا تجسيد لتلك القابلية في الإنسان للتوجّه نحو الخير أو الشر، وهو في تمام وعيه مما يأخذ ويدع، وتجري سنة الحياة لتتولد المسبّبات عن الأسباب فلا تتخلف ولا ترحم، فإذا آدم وزوجه آثمان بالأكل من الشجرة الممنوعة بعد أن أغواهما الشيطان فاستجابا لداعية الإغواء وهو يقول لهما: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (الأعراف:٢٠)، واللذة الحرام في حكم الله لها عقوبتها -لا محالة- عاجلة أم آجلة، وهي تتصل بالذنب اتصال السبب بالمسبب، وكان الشيطان اللّعين مدفوعا بدافع الحسد لارتكاب تلك الجريمة في حق آدم عليه السلام والحاسد لا يرضيه إلا زوال النعمة عن محسوده، وها هو مبتهج مسرور بإخراج آدم وزوجه من نعيم الجنة، وقد تمثلت العقوبة الربانية في ذلك الحرمان القاتل وهما يجرّان أذيال الخيبة والندم، ولكن هيهات أن يعودا إلى ما كانا فيه.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾: أذن الله بهذه العقوبة بقوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا﴾ وضمير الجمع قد يراد به التثنية -أي آدم وزوجه- باعتبارهما أصلا لجميع البشر، وقد يراد بضمير الجمع آدم وزوجه وإبليس ضرورة وجوده معهما في الجنة، وعلى نفس الاحتمالين يكون مرجع الضمائر في قوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، وإن كانت الآيات القرآنية تركّز على عداوة إبليس لآدمَ وذريته وتحذّر منها في مثل قوله تعالى:

- ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ (فاطر:٠٦).

- ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (يس: ٦٠).

وما أروع وأدق التعبير بقوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا﴾ إذ يجمع بين الهبوط الماديّ من علياء الجنة إلى حضيض الأرض وبين الهبوط المعنوي من مراتب التكريم العليا إلى دركات الإغفال والإهمال.

وهكذا شاءت إرادة الله تعالى أن لا يكون متاع النعيم الخالد في الجنة ممنوحا لهذا الإنسان إلا على مسلك من الابتلاء والامتحان عبر فجاج الأرض ومستعمراتها يكون فيها السيد المتصرّف والخليفة المدبر المسير، فهي وإن جعلها الله مهادا وطيئاً، ومرتعا هنيئا، ومستقرا أمينا لهذا الإنسان، فإن متاعها محدود لأجل، محفوف بالتعب والعمل، ثم يعود الإنسان إلى ربّه في حياة أبدية تتقرر وفق ما قدّمت يداه من خير أو شرّ.

فيا لله لآدَمَ وزوجه كيف انتهيا بمعصيتهما إلى الحيرة والندم ؟، وهل من وسيلة لتخفيف الشعور بالذنب؟، فإن اليأس قاتل، ومعركة الحياة محفوفة بالقوارع والنوازل، ولكن الله هو البرّ الرّحيم فلا يسلم خلقه لمواجهة تلك التحدّيات، وهم مجرّدون من الوسائل والإمكانيات، فجعل التوبة ملاذا للتكفير عن الذنوب والسيئات، قال تعالى:﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾:

ألهم الله تعالى آدم في حيرته إلى المبادرة بالتوبة، وتلقيه لكلمات من الله تعالى يكون بمعنى تلقينه لعبارات التوبة كما ذكره الله تعالى في سورة الأعراف:﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف:٢٣)، أو تكون بمعنى كلمات العفو والمغفرة كما يدلّ

عليه قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ, هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، والتعقيب بهاتين الصفتين للذّات العلية وبما فيها من صيغ التأكيد والمبالغة يدلّ على شمول رحمته تعالى بجميع خلقه مهما صدر منهم من ذنوب، فهو ملهمهم إلى التوبة، والمتفضل بقبولها: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ، وَالذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَآ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

لقد تفنّن المفسِّرون في بيان موجب تكرير الأمر ﴿اهْبِطُواْ﴾ ويتلخّص من أقوالهم أن يكون لذلك احتمالان:

أ- أن يكون ذلك التكرير لأجل ربط النظم في سياق النص: بين ﴿اهْبِطُواْ﴾ الأول والثاني لأن متعلّق كلّ منهما فصل بقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ ءَادَمُ مِنْ رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ ويسمّي علماء البديع هذا الأسلوب بالترديد.

ب- يكون ﴿اهْبِطُواْ﴾ في هذه الآية أمرا ثانيا يدلّ على أن كلاً من زمن الهبوط ومكانه قد اختلف وفي ذلك من التكلف ما لا يدلّ عليه النص، وللإمام ابن عاشور ملحظ دقيق في ذلك إذ يقول: " فالوجه عندي على تقدير أن تكون إعادة "اهْبِطُواْ" الثاني لغير ربط نظم الكلام، أن تكون لحكاية أمر ثان لآدَمَ بالهبوط، كيلا يظُنّ أن توبة الله ورضاه عنه عند مبادرته للتوبة عقب الأمر بالهبوط قد أوجبت العفو عنه من الهبوط من الجنة فأعاد له الأمر بالهبوط بعد قبول توبته ليعلم أن ذلك كائن لا محالة لأنه مراد الله تعالى من جعله خليفة في الأرض". (١)

---

١ - الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، ١/ ٤٤١.

قلت: وزيادة عن ملاحظة الإمام ابن عاشور فإن تكرار ﴿اهْبِطُواْ﴾- وهو ينمّ عن الغضب والسخط- قد أعقبه قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وأفاد ذلك معنى زائدا عن "اهبطوا" الأولى، وهو ربط الطاعة والمعصية من طرف الإنسان بهدى الله الذي يكون حجة عليه في اجتهاده وكسبه وهو موفور الحرية والإرادة بعد أن احتضنته الأرض وتقيدت إقامته ومتاعه فيها بأنها ﴿إِلَى حِينٍ﴾، فإن الله تعالى من تمام رحمته به لم يتركه في حيرته يتخبّط بعد أن حُرِم من حياة الرَّاحة والنعيم في الجنة، لأن الحياة التي انتقل إليها في الأرض مليئة بالمتناقضات متعددة المسالك فهناك حق وباطل، وهدى وضلال وإيمان وكفر وخير وشر...إلخ.

فمن الذي يأخذ بيد هذا الإنسان حتى لا تحيط به خطيئاته مرة أخرى ؟ إنه هدى الله المنزل على أصفياء خلقه، وقد تكرر لفظ الهدى مرتين للاهتمام به، وجاء في الأولى منكرا ليشمل كل وسائل الهدى التي منحها الله للإنسان من عقل وشرع، ثم جيء به مضافا إلى ضمير الجلالة: ﴿هداي﴾ ليدلّ على ما شرعه الله وحدَّده من أحكام دينه، فذلك وحده هو قارب النجاة والملاذ الحصين للإنسان من مكايد الشيطان، يجد فيه أمنه وطمأنينته، فلا يحزن على ما فاته ولا يجزع لما أصابه لأن إيمانه بالله وتوكّله عليه يمنحه الرّضى والهناء، ويكسبه المناعة من القلق والخوف والحزن.

ذلك هو المعنى الذي تأكد في القرآن الكريم لما يحققه دين الله وهداه في حياة الإنسان إن هو وفّى بعهد الله وأخلص الإتباع فقال عزَّ وجلَّ:

أ - ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلا يَشْقَى، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾

(طه:١٢٣-١٢٤).

ب - ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ اَوُ انثَىٰ وَهُوَ مُومِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ, حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمُ, أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٩٧).

وفي مقابل هذا النوع الموفق لهداية الله الضلال والكفر والجحود، والانتقال إلى صيغة الغائب لصنف الذين كفروا من ذرية آدم، يدلّ على التحقير من شأن هؤلاء، وبالتالي فيحتمل أنه من جملة ما قيل لآدَمَ، ويحتمل أن يكون تذييلا منفصلا جيء به لمناسبة تصنيف ذرية آدم إزاء دين الله تأكيدا لما ورد في أوائل السورة، ويكون التكذيب بآيات الله اعتقادا، أو جحودا وعنادا كما هو واقع مشركي مكة، فإن تكذيبهم كان أغلبه بسبب الجحود والعناد لقوله تعالى في سورة الأنعام:﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ, لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام:٣٣).

تهدّد الله هؤلاء بأنهم أصحاب النار، والصحبة تعني الملازمة والاحتكاك، ومع عذاب الله الخوف والهلع والشقاء، يزيد من عذابها البقاء والخلود فيها إلى أبد الآبدين.

وبعد، فإن في النصّ أخبارا غيبية، الله وحده أعلم بكنهها وحقيقتها وكيف تمت، ولذلك تحاشينا الخوض فيها كما فعل كثير من المفسِّرين لمحاولة الأجوبة على عدَّة أسئلة تطرح في الموضوع تتلخص فيما يلي:

أين خلق آدم؟، وكيف خلق الله منه زوجته ؟، من هم الملائكة ؟، ومن هو إبليس وهل هو من جنس الملائكة أو من فصيل آخر؟، ما الجنة التي عاش فيها آدم وزوجته ؟، هل هي جنة الخلد في السماء أم هل هي جنة في الأرض؟، ما هي الشجرة الممنوعة عن آدم وزوجته ؟، هل الإغواء لآدَمَ كان له مباشرة

من الشيطان أم تمّ له من خلال زوجه ؟...

إنها أسئلة كثيرة ليس لها في النصّ القرآني ما يمكن أن نستخلص منه الإجابة عنها، فيجب أن نكل أمرها إلى الله عالم الغيب والشهادة ونقول ما يقوله الرَّاسخون في العلم:﴿ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّن عِندِ رَبِّنَا ﴾، لأن الترف العقلي الذي وقع فيه المتكلمون والفلاسفة وما خلّفوه من تراث في هذا المجال، لم يرشد ضالاً و لم يقنع حائرا ينشد الحقيقة ويلتمس حرارة الإيمان.

وفقنا الله إلى نور هدايته وألهمنا الرّشد والسَّداد .

والله أعلم.

بيان مطالب عهد الله إلى بني إسرائيل

أ)- النص:

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

ب)-التحقيق اللغوي:

﴿يَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾: إسرائيل لقب ليعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، قيل: معناه صفيّ الله وقال ابن عباس معناه: عبد الله. وبنوه هم ذريته أي الأمة اليهودية، وإن كانت اليهودية تعني النحلة والديانة، فيكون في أتباعها غير بني إسرائيل.﴿أَوْفُواْ بِعَهْدِي﴾: الإبقاء والوفاء للوعد والعهد يكون بتحقيقه والالتزام به وعهد الله هو ما عاهدهم به من الإيمان بوحدانيته والالتزام بشريعته، مقابل ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾: أي بالمغفرة والثواب والتمكين لكم في الأرض بالعزّة والسيادة. ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾: والرهبة هي الخوف من الله. ﴿وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً﴾: قد يطلق البيع والشراء كل منهما على الآخر، وآيات الله هي النصوص المقدّسة المنزلة على الرّسل، وبيعها بثمن قليل، فيه استعارة بمعنى إهمالها وتركها واستبدالها بغرض من الدّنيا. ﴿و لاَ تَلْبِسُواْ

الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾: اللبس هو الخلط بين متشابهات في الصفات يعسر أو يتعذر التمييز بينهما ولبس الحق بالباطل يكون بترويج الباطل في صورة الحق، قصد التضليل. ﴿وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ﴾: أي تتخلّون عن النصح والإرشاد وتعليم الناس أمور دينهم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾، ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾: حذفت ياء المتكلم بعد نون الوقاية عند الجمهور من العشرة في الوصل والوقف، وأثبتها يعقوب في الوصل والوقف، وجمهور العرب يحذفونها في الوقف دون الوصل، وقراءة يعقوب بإثبات الياء في الوصل والوقف جرى على لغة أهل الحجاز، وإنما اتفق الجمهور هنا على حذفها في الوصل مثل الوقف لأن كلمة ﴿فَارْهَبُونِ﴾ كتبت في المصحف الإمام بدون ياء، وقرئت كذلك في سنة القراءة.

د)- البيان والتفسير:

ما يزال الحديث متناسقا تتتابع موضوعاته في أسلوب محكم بدءا بالإشادة بكتاب الله وما جاء فيه من هدى ونور لا ريب فيه، ثم بيان أحوال الناس وأصنافهم أزاء هديه فمنهم مؤمن ومنهم كافر، وبينهما المنافقون المخادعون الذين ضرب الله لهم الأمثال بما لا مزيد عليه من التشنيع والتنديد، ثم دعا الناس إلى عبادة الله والإيمان برسالة محمد ﷺ مذكرا الخلق ببديع صنعه وآيات قدرته في الأنفس والآفاق، وعلى خطاب أهل الكتاب خصّ بالذكر بني إسرائيل لكونهم أشهر أمة موحّدة ذات كتاب مشهور وهو التوراة، ولوجودهم في المدينة المنورة وهم أصحاب نفوذ فيها اجتماعيا واقتصاديا وحتى

ثقافيا، إذ يتحدّثون اللغة العربية إلى جانب العبرية، وقد واجهوا الدّين الجديد بالتنكر والعناد ويمتد الحديث عنهم من الآية الأربعين إلى الثانية والأربعين بعد المائة، يضمّ حديثا متنوعا يشتدّ ويلين، ويرغّب ويرهّب، ويذكرهم بمختلف النعم التي أسبغها الله عليهم، وبمختلف المواقف التي وقفوها مع رسولهم موسى عليه السلام والمعجزات التي عاينوها معه، فقال جلّ من قائل: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**﴾.

تعدّدت أنواع النداءات في القرآن لأهل الدّيانات السابقة وفق الغرض المقصود من السياق: فتارة يأتي بـ﴿يَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾ كما في هذا المقطع، وتارة بـ﴿يَآ أَهْلَ الكِتَابِ﴾ أو ﴿يَآ أَيها الذينَ أُوتُواْ الكِتَابَ﴾، وقد يفرّق بين صنفي أهل الكتاب إلى يهود ونصارى أو الذين هادوا...إلخ.

والنداء هنا ﴿يَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾ أي يا أبناء يعقوب، وإلى هذا الجد الكريم تنتسب الأمة اليهودية، وقد توجّه هذا النداء العلوي لها، وتكرر في هذه السورة وفي أغلب السور المدنية بنفس الإضافة والانتساب، مما يدلّ على اعتبارهم أمة واحدة تواصَلَ فيها الأسلاف والأخلاف على عهد الله وميثاقه، وهم يُذكّرون كلّهم بنعم الله الضافية عليهم، ويخاطبون بأسلوب واحد لإشعارهم بالمسؤولية التضامنية التي تتوارثها الأجيال، وقد ينسى الأخلاف ماضي أسلافهم فلا يقيمون له وزنا سيما الأجيال الشّابة، وهي مدفوعة بفتوّتها ونشاطها، فلا تحسن الربط بين حلقات الزمان.

ولمّا كان الغرض الأول من مخاطبة بني إسرائيل هو دعوتهم إلى الإيمان برسالة محمد عليه السلام اقتضى الأسلوب الدعوي الحكيم أن يمهّد لذلك

بتذكيرهم بخصوصية أمجادهم فكان هذا التذكير الإلهي بذلك: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، فهي نعمة خاصة من لدن الرَّب العظيم خصَّ بها هذا الشعب الذي اقتضت حكمته تعالى أن يجعل فيه الحكمة والنبوءة، لأنه من عقب إبراهيم الذي رفع راية التوحيد في العالمين، فوعده الله تعالى أن يجعل في ذريته النبوءة والكتاب كما قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوءَةَ وَالْكِتَابَ، وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾(العنكبوت: ٢٧).

إنها نعمة الاستخلاف في الأرض والتمكين لبني إسرائيل من إقامة دولة التوحيد في أرض المعاد وذلك بالوفاء بعهد الله والالتزام بأحكام شريعته في التوراة، وفق تلك الظروف التي مرّت عليهم بصحبة موسى عليه السلام والتي سيبيّنها النص فيما يأتي ومن جاء بعده من رسلهم وأنبيائهم، وقد وفّى الله تعالى بعهده معهم لمّا استقاموا على الطريقة، سيما في عهدَيْ داود وسليمان، ومن تمام وفائهم بعهد الله أن يصدّقوا برسالة محمد عليه السلام وقد بُشِّرُوا به في التوراة والإنجيل، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ومن شأن ذلك التذكير أن يزيل ما بأنفسهم من غلّ وحسد، ممّا كان سببا لجحودهم ومناوأتهم للدعوة الإسلامية كما قال في شأنهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ١٠٩)

﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾: تتابعت بالعطف الأوامر الإلهية لبني إسرائيل، وكان كلّ أمر يتولّد عن الذي سبقه، فشكر المنعم يقتضي الوفاء بعهده، لأنّ

ذلك قيد لتلك النّعمة، والوفاء بعهد الله قد يفوّت بعض المنافع العاجلة التي من شأنها أن تجعل مستبقيها مقيّداً ببعض الولاء والخوف ممّن تجري على أيديهم تلك المنافع، ويكون هؤلاء عادة من السّادة الكبراء الذين يخشون على حظوظهم وامتيازاتهم أن تزول إن هم اتّبعوا الدّين الجديد، وحتّى لا يقف أولئك الكبراء في وجه الضعفاء وينتفي الخوف من نفوسهم جاء الأمر بالرّهبة من الله وحده بأسلوب الاختصاص بتقديم المعمول على العامل، وانتفاء الخوف إلاّ من الله من نفس المؤمن هو صمّام الأمان ووثيقة التّأمين له في الوفاء بعهد الله.

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِئَايَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾: بعد ذلك التّمهيد الرّائع في خطاب بني إسرائيل، تأتي دعوتهم الصّريحة إلى الإيمان بهدي القرآن والتّصديق برسالة محمد ﷺ، وذلك من مقتضيات الوفاء بعهد الله كما تقدّم، فالقرآن مثل التّوراة كتابٌ منزّل من عند الله، ومحمد كموسى رسول بعثه الله إلى كافّة خلقه متمّماً مشوار رسالاته، ومصدّقاً لما بين أيديكم من نصوص الكتاب المقدّس، فالأجدر بكم يا أهل الكتاب أن تسارعوا إلى الإيمان به بعد ما تبيّن لكم الحقّ الذي يدعوا إليه، ثمّ حذّرهم أن يكونوا أوّل كافر بهدي القرآن، وأعقب الأمر بالإيمان بهذا النّهي عن الكفر -وهو مقابل للإيمان- لتأكيد دعوتهم، حتّى لا يتباطئوا عن تنفيذ ذلك الأمر، لأنّ المأمور قد يتلكّأ في التّنفيذ، ويكون موقفه سلبيّاً من آمِره، وقد ينصاع للأمر بعد تردّد وإحجام، فلا يلام على ذلك.

وبما أنّ اليهود المقصودين بهذا الخطاب قد بادروا بمناوأة الدّعوة الإسلامية، فقد جاء هذا النّهي توبيخاً وتنديداً لموقفهم المخزي، ولا يُقصد بالأوّليّة الحقيقةُ التّرتيبيّةُ، وإنّما هي للمفهوم المجازي، وفيه تعريض بمشركي

مكّة الذين كانوا أوّل الكافرين بالدّعوة، وهم في جهالة وأمّيّة، فلا يليق بأهل الكتاب أن يكونوا مثلهم في الجحود والكفران، ويزداد النّكير والتّنديد على كبرائهم وعلمائهم لأنّهم في مقام القدوة لقومهم، وهم يخشون على نفوذهم ومنافعهم باستغلال عامّتهم، كما أنّ العامّة تخشى غضبهم وعقوبتهم، فكان هذا النّهي الإلهي عن مقايضة تلك المنافع بينهم، في عمليّة فادحة الغبن: ﴿وَلاَ تَشْتَرُوا بِئَايَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً﴾، فآيات الله هي السّلعة الغالية الثّمينة في أيدي أولئك العلماء، يبيعونها بثمن بخس، أو هي الثّمن المبخوس يشترون به منفعة قليلة، وهو الجحود والكفر، فإنّ الدنيا بكلّ زينتها ومفاتنها هي متاع قليل عند الله لا تساوي جناح بعوضة، وقد تقدّم في أوائل السّورة تحليل هذا التّعبير عند قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾، ولمّا كان الإيمان بالله الذي يدعون إليه، هو الحصن الحصين الذي يقيهم تلك الشرور، جاء التّذييل بالأمر بالتّقوى، على الصّيغة السّابقة ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾.

﴿و لاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: تتابع النّهي عن بعض الممارسات التي يقوم بها أولئك العلماء اليهود، من تحريفهم الكلم عن مواضعه، فنهاهم الله تعالى عن اللّبس وكتمان الحقّ، وكم زاول الأحبار من أنواع ذلك التّلبيس قديماً وحديثاً لصدّ قومهم عن الإيمان بالرّسالة الجديدة، وهم يكتمون ما يعرفونه من الحقّ بضروب من التأويل والمغالطات، سيما النّعوت الصّادقة في شخص رسول الله من أنّه النّبيّ المنتظَر الخاتم، وقد كشف القرآن جانباً كبيراً من تلك المغالطات، لينتبه المسلمون إليها ويحذروا من الوقوع في مزالقها من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ عرض مثل تلك المواقف

المخزية فيه تثبيت لرسول الله في دعوته حين يعلم طبيعة الدّعوات الصّالحة وما عاناه رسل الله مع أقوامهم من تنكّر وجحود.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾: إقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة مع بقيّة أركان الإسلام هي ملاك العمل الصّالح الذي لا يتمّ الإيمان إلاّ به، فبعد دعوة بني إسرائيل إلى الإيمان بعقيدة الإسلام دعاهم إلى بعض أحكام شريعته، ممّا أمر الله به في جميع الدّيانات السّابقة كما أخبر بذلك ممّا أوحى به إلى رسله، فقال جلّ من قائل: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَآءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَابِدِينَ﴾ (الأنبياء:٧٣)، فالصّلاة والزّكاة عبادتان قديمتان تختلف أشكالهما من شريعة إلى أخرى ولكن روحهما واحد، وهو الإخلاص والخشوع في التوجّه إلى الله عند أدائهما، وهو ما يعنيه التّعبير بـ: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾، فلم يقل مثلاً: صلّوا أو زكّوا، ذلك لأنّ اليهود وأشياعهم من المنافقين قد يأتون بالصّورة السّطحيّة لمثل تلك العبادات، ولكنّها خالية من الرّوح المطلوبة والتي هي مناط القبول عند الله، كما قال تعالى في شأن المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى الصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء:١٤٢)، فإذا كانت الصّلاة هي الصّلة الوثقى بين العبد وربّه، وهي مخّ العبادة كما قيل في الدّعاء لله، فإنّ الزّكاة هي المحكّ الممحّص للإيمان اليقيني الكامل، ذلك لأنّ شهوة المال قد تطغى على الإنسان فتُنسيه حتّى حقّ نفسه أحيانا في سبيل كسبه والحرص عليه بله حقّ الله وحقّ عباد الله، ولذلك غالباً ما يرد الأمر في القرآن بإقام الصّلاة مقروناً بإيتاء الزّكاة والرّكوع- وهو جزء من الصّلاة وركن من أركانها عند المسلمين- خصّ الله الأمر به بعد الأمر بعموم الصّلاة للإيماء إلى

شعائر الإسلام المفروضة حتّى يأتي بها هؤلاء على الصّورة المشروعة المطلوبة درءا لما قد يتدرّع به اليهود من أنّهم يقيمون الصّلاة المعهودة في دينهم وهي لا ركوع فيها.

فإقام الصّلاة لا يتحقّق إلا بالإتيان بكامل شروطها وأركانها كما بيّنتها السّنّة المطهّرة، وبهذه الأوامر الثّلاثة سدّت عليهم المنافذ التي يموّهون بها على النّاس ويفتنون.

والله أعلم.

بعض الأمراض الفردية والاجتماعية، وطريقة علاجها

أ)- النّصّ:

أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾: البرّ (بكسر الباء) الخير من

الأعمال الدّنيوية والأخرويّة، ويظهر ذلك في المعاملة، والنّسيان ذهاب الأمر المعلوم من حافظة الإنسان قصوراً أو تقصيراً، والمقصود به هنا ترك المأمور به عمداً أو تهاوناً. ﴿تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾: أي التّوراة وفيها من الأوامر والنّواهي ما يذكّرهم بواجبهم الدّيني. ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ﴾: أي اطلبوا المعونة، والصّبر هو حبس النّفس على ما تكره، والصّبر بالمعنى الشّرعي هو ثبات باعث الدّين في مقابلة باعث الشّهوة، والصّلاة بمعناها الشّرعي في الإسلام هي من الأقوال والأفعال الخاصّة الباعثة على حمد الله. ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾: أي صعبة تشقّ على الأنفس. ﴿الاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾: الخاشع هو الذي ذلّل نفسه وكسر سَوْرَتها لتطمئنّ إلى أمر الله وتطلب رضاه. ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾: الظّنّ هنا بمعنى الجزم واليقين في كثير من كلام العرب، وملاقاة الرّبّ بمعنى الرّجوع المجازي إلى الله لحياة الآخرة. ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: العالمون في معناه الإجمالي صنف المخلوقات من الإنس والدّوابّ والطّير...إلخ، والمراد بهم هنا الأمم الإنسانية المعروفة في زمانهم - أي هم عموم عرفيّ لا عمومي- كما يعتقد اليهود بأنّهم شعب الله المختار على جميع الأمم قاطبة. ﴿لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾: من فعل جزى يجزي، قضى حقّاً عن غيره. ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾: الشّفاعة مشتقّة من الشّفع، بمعنى السّعي والوساطة في جلب منفعة أو دفع ضرّ، والعَدل (بفتح العين) يُطلق على الشّيء المساوي شيئاً آخر والمماثل له.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾: قرأ الجمهور ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ بياء

تحتية، ياء المضارع المسند إلى مذكّر، وذلك لمناسبة قوله بعده: ﴿وَلاَ يُؤخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بمثنّاة فوقية: ﴿وَلاَ تُقْبَلُ﴾ مراعاةً لتأنيث لفظ شفاعة.

د)- البيان والتّفسير:

من طبيعة الإنسان الخطأ أو السّهو والنّسيان، وإن كان ذلك تتفاوت نسبه بين إنسان وآخر تبعاً لحصيلته التّربويّة والمعرفية، فإنّ هناك قدراً مشتركاً لهذا المرض بين بني البشر، فإذا كان لكلّ دعوة أقطابها من العامّة البسطاء، فإنّ أخلاقيات الدّعوة تقتضي من الدّعاة أن يكونوا قدوة لغيرهم في الإخلاص والصّدق قولاً وعملاً، حتّى تحافظ الدّعوة على حرارتها وحيويّتها، أمّا إذا أخلد الدعاة - وهم القدوة لغيرهم- أخلدوا إلى المداجاة والمداهنة لأرباب السّلطة والنّفوذ أو إلى النّفاق مع المريدين والأتباع، فإنّهم يقولون ما لا يعتقدون، ويتحدّثون بما لا يفعلون، وتلك هي قاصمة الظّهر للدّعوات، ومزلق الخذلان والفشل لأصحابها، ولذلك جاء التّنديد الشّديد في القرآن بهذه الصّفة الذّميمة في غير ما آية فقال جلّ من قائل في سورة الصّفّ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ،كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾(الصف: ٢-٣)، واعتبر الله ذلك من أخسّ صفات النّفاق فقال: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ (الفتح:١١).

واليهود المخاطبون في هذه الآيات الكريمات هم أكثر النّاس اتّصافاً بهذا الخلق الذّميم، سيما أحبارهم ورهبانهم الحاملون لمسؤولية التّوعية والإرشاد، إذ وقعوا في هذا المزلق الخطير ففسقوا عن أمر الله وحرّفوا الكلم عن مواضعه

فوبّخهم في هذه الآية الكريمة بهذا الاستفهام الإنكاري إذ قال: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾:

فالخطاب موجّه لجميع بني إسرائيل باعتبارهم حملة كتاب، فيكون المقصود من لفظ ﴿النّاس﴾ هم غيرهم من العرب والأمم الأخرى، فإذا كانت المسؤولية تتحدّد بحسب المنزلة الاجتماعية والثّقافية لدى كلّ المجموعات البشريّة، فإنّ علماء اليهود وأحبارهم يتحمّلون القسط الأوفر من هذا التّوبيخ، فقد ثبت تاريخيّاً أنّهم يأمرون وينهون وفق ما يأمر به دينهم ويذكّرون غيرهم من النّاس سواء أتباعهم في الدّيانة اليهودية أو غيرهم من الملل الأخرى، ولكن ذلك التّذكير لا يتعدّى الأقوال والمواعظ، وبالتّالي لا يكون له أثر في قلوب المأمورين، والدّعوة مهما كان خيرها وصدقها تفقد فعاليتها في واقع النّاس المدعوّين لها، إذا لم تتجسّد في السّلوكات والتّصرّفات من الدّاعين لها، والنّسيان مرض نفسي تخفّ وتثقل حدّته تبعاً لقيمة المنسيّ، ولا أغلى على الإنسان من نفسه التي بين جنبيه، فهو لا يمكن أن ينساها مهما بلغت به الغفلة منتهاها، لأنّ نسيانها يدلّ على مدى استفحال ذلك المرض في نفس صاحبه، وبما أنّ الذاكرة وما يطرأ عليها من النّسيان هي من أعمال العقل ناسب أن يكون التّذكير بنعمة العقل ووظيفته فقال تعالى: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ، الذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلاَقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾: لقد تأكّد استفحال مرض النّسيان في نفوس بني إسرائيل بتخلّيهم عن عاملين أساسيين للانتباه والتّذكّر:

فالأوّل هو الكتاب الذي يتلونه وكان من المفروض أن تذكّرهم مواعظه

وزواجره، والثاني هو العقل الذي جعله الله ضابطاً لنزوات الإنسان وهادياً إلى ما فيه الخير والصّلاح، فالعلّة -إذن- مستفحلة والدّاء عضال، فما هو العلاج؟.

الإنسان المريض يفقد قدراً من طاقته الحيويّة التي تقدره على تدبير شؤونه وقضاء حوائجه، فهو في حاجة إلى الاستعانة بشيء يعوّض له تلك الطّاقة المفقودة حتّى يعود إلى توازنه الطّبيعي، فما أبلغ التّعبير بفعل "الاستعانة" بهذا الدّواء الروحي الموصوف في الآية، ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ﴾.

أ)- فالصّبر كما يصفه علماء الأخلاق، هو حبس النفس على ما تكره، بحيث تحتمل المكروه بنوع من الرّضا والاختيار والتّسليم، وذلك في المفهوم الشرعي كما جاء في الأثر:« **الصّبر نصف الإيمان** »[1]، وهذا النوع من الصّبر يحصل للمؤمن بتذكّر وعد الله ووعيده واستحضار عظمته والشعور بجلال هيبته، والإيمان بقضائه وقدره، في خير أو شرّ، وقد أشاد القرآن بخُلق الصّبر في غير ما آية ووعد الصّابرين بالجزاء الأوفى فقال تعالى:﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠).

ب)- والاستعانة بالصّلاة لا يتحقّق مفعولها إلاّ إذا استكمل المؤمن آدابها وشروطها كما رتّبها رسول الله، سيما الخشوع الذي يكون منها بمثابة

---

١ - هذا الحديث موقوف على بعض الصحابة كعبد الله بن مسعود، وروي من قول الشعبي والمغيرة، وهو الأصح، وورد مرفوعاً في مسند الشهاب:«الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله» حديث ١٥٨، (١/١٢٦)، قال ابن حجر: لا يثبت، موسوعة ابن حجر، ١/٤٣.

الروح للجسد، لأنّها هي الدواء الشّافي لجميع أمراض النّفس، إذ تصل المؤمن بمصدر الوجود فتتجاوب روحه تسبيحاً وتعظيماً لله تعالى مع جميع الكائنات ومن ثمّ يتلقّى ذلك المدد الروحاني الذي يطمئن قلبه ويغمر نفسه ببرد الرّضا واليقين، أسوة برسول الله إذ يفزع إلى الصّلاة كلّما حزبه أمر، ويقول في شأنها: **« وجُعلت قرّة عيني في الصّلاة»**.[1]

وبما أنّ هاتين الخصلتين ليستا على درجة واحدة في واقع الناس، فقد أعقب الله تعالى الأمر بهما بقوله: ﴿وإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ، الذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُلاَقُو رَبِّهِم وَأَنَّهُم إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، ومهما يكن مرجع الضّمير في قوله:﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ عند احتمالات المفسّرين، فإنّ المأمورات الشرعية مفردة أو مجموعة تكون شاقّة على النّفس النّزّاعة إلى الهوى والشّهوات يصعب القيام بها، وذلك معنى كبرها، وقد أكّد الله ذلك بمؤكّدين "إنّ" و"اللاّم" ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾، غير أنّ نتائجها في سلوك المسلم أعظم وأقوى، قال تعالى في شأن الصّلاة: ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت: ٤٥).

واعتبرها رسول الله من أعظم القربات، وأقوى سلاح يرابط به المسلم في حمى الله بعيدا عن مكايد الشيطان ووساوسه فقال:**«ألا أدلّكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد**

---

١ - رواه البيهقي في السنن،حديث ١٣٢٣٢، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:«إنما حبب إلي من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة»،٧/٧٨.

الصلاة، فذلكم الرباط. قالها ثلاثا».[١]

ولكن طاعة الله والقيام بالواجبات الدينية بصفة عامة تخف وتسهل كلما كان المؤمن خاشعا خاضعا لله متبتلا إليه، وذلك يسير على من يسّرَه الله عليه، إذ يكون متعوّدا لذلك وقد روّض نفسه الجموحة لتقبل على ذلك طيّعة منقادة. يقول المتنبي في هذا المعنى:

كلّ ما لم يكن من الصعب في الأنفس سهل فيها إذا هو كانا

وليس الخشوع هنا خاصا بعبادة الصلاة بل هو أعمّ من ذلك عندما يصبح عادة متأصّلة في نفس المؤمن تصاحبه في كل أنواع العبادات، ولو في تلك التي يخدم فيها دنياه. ثم بين الله داعية ذلك الخشوع بأنه الاعتقاد الجازم بالرجوع إلى الله وملاقاته ليوم الحساب، وهذا مفرق الطريق بين أصناف المؤمنين التزاما ووقوفا عند الله، أو تهاونا وتقصيرا في جنب الله.

﴿يَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ التِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: لقد كان النداء العلويّ لبني إسرائيل تمهيدا للنّداء الثاني هنا مذكّرا إيّاهم بنعمة الله عليهم في كليهما ولكن بشيء من التفصيل وتعداد تلك النعم هنا، أولاها تفضيل الله لهم على العالمين أيام كانوا ملتزمين بعهد الله يرفعون راية التوحيد في ربوع العالمين الذين كانوا على الوثنية والضلال، فمكّنهم الله بالعز والسيادة في الأرض وقهروا أعداءهم برهة من الزمن، ولكنهم عندما خاسوا بعهد الله، ضُربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب

---

١ - رواه مسلم عن أبي هريرة في كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكـــاره، حديث ٢٥١.

من الله، ومن شأن هذا التذكير بتفضيل الله إياهم أن يثير نخوتهم ويبعث فيهم الحنين إلى أمجاد ماضيهم وإن أصبح الأخلاف على عكس ذلك ذلّة ومهانة وتشرّداً، فعساهم بذلك ينصاعون إلى الدعوة الجديدة فيعودون إلى حظيرة الإسلام الصحيح الذي وصّاهم به جدّهم إبراهيم وجدّهم يعقوب كما سيأتي إن شاء الله.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُوخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾: وبعد التذكير التحذير لكسر حدّة الغرور بأنهم الشعب المفضّل، وأن الله - حاشاه - يحابيهم فلا يؤاخذهم بما يجترحونه من السيئات كما يعتقدون، فأمرهم الله أن يتقوا أهوال يوم الحساب يوم لا تكون فيه مفاداة ولا شفاعة، إذ تجزى كل نفس بما كسبت.

ونظرا لإسقاط حكم ذلك اليوم على جميع الخلائق فقد انتقل الأسلوب من صيغة الخطاب إلى صيغة الغيبة فقال تعالى: ﴿وَلاَهُمْ يُنصَرُونَ﴾ نفي لكل أنواع النصرة التي تعارف عليها الناس، لأنه يوم تنقطع فيه الأسباب ويتجافى الأصحاب، جعلنا الله يومئذ في ظله الظليل.

والله أعلم.

بيان نعم الله على بني إسرائيل

أ- النص:

وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

ب – التحقيق اللغوي:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: أي نجينا أسلافكم على اعتبار أنكم أمة واحدة أبا عن جدّ، وآل الرجل أهلُه، وأصل كلمة "آل" أهل قُلِبَت هاؤه همزة للتخفيف، والمراد بهم وزراؤه ووكلاؤه، وفرعون يجمع على "فراعنة" هو لقب لكلّ مَنْ مَلَكَ مصر قبل "البطالسة". ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾: من سام يسوم أي يذلونكم ويحتقرونكم. سوء العذاب: أشده وأفظعه من التسخير في الأعمال الشّاقة. ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾: الإستحياء هو طلب الحياة، أي يبقوهن أحياء للتمتع بأجسادهن. ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾: البلاء

الاختبار بالخير والشر، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (الأنبياء:٣٥). ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾: فرق وفرّق فرقا وتفريقا أي فصل بين أجزاء شيء متصل الأجزاء والباء في ﴿بكم﴾ للملابسة أو للسببية، والبحر هو" القلزم " ويسمى اليوم بالبحر الأحمر. ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾: والعجل يجمع على عجول ولد البقرة: اتخذوه إلها للعبادة تشبها بسكان بلاد الشام من الكنعانيين. ﴿وَإِذَ ـاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾: الكتاب هو التوراة، وصفت بأنها فرقان تميّز بين الحق والباطل وتفصل بين الحلال والحرام. ﴿فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ﴾: البارئ من أسماء الله الحسنى من برأ الخلق: أي خلقه على تناسب وتقدير وإبداع.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾: قرأه الجمهور ﴿وَاعَدْنَا﴾بألف بعد الواو على صيغة المفاعلة التي تقتضي حصول الوعد من جانبين:وقرأه أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا﴾ بدون ألف على الحقيقة.

د)- التعريف بموسى عليه السلام:

هو موسى بن عمران رسول الله إلى بني إسرائيل وصاحبُ شريعة التوراة، هو وأخوه هارون من سبط "لاوى بن يعقوب" ولد بمصر في حدود سنة ألف وخمسمائة قبل الميلاد، وأمّه تسمى"يوحانذ" وهي أيضا من سبط "لاوى" وكان زوجها قد توفي حين ولدت موسى. وكان ملك مصر قد أمر بقتل كل ذكر يولد في بني إسرائيل قهرا لهم وتعسّفا فتحيّلت الأم لإخفاء

وليدها لمدة حتى ألهمها الله تعالى بإلقائه في النيل بمقربة من قصر فرعون وأوكلت أختاً لموسى اسمها "مريم" بأن ترقب الجهة التي يلقيه الموج فيها. فالتقطته ابنة فرعون مع جوار لها يتبردن على شاطئ النيل فلما فتحت التابوت وجدت الصبي فرقّت له وحملته إلى أمها، وعندها أظهرت أخت موسى نفسها لتدلّهم على مرضعة تكفل موسى -وهي أمه- فتبنت امرأة فرعون الولد وسمّته "موسى" ونشأ في بيت فرعون كولد له ولكنه أدرك بعد كبره أنه ليس بابن لفرعون وأنه إسرائيلي. وهكذا أنشأه الله على عينيه محبا للخير والعدل ونصرة الضعيف. وكان موسى قوي البنية، فحدثت له حادثة قتل فيها قبطيا انتصارا لإسرائيلي استنصر به ضد القبطي فخاف أن يقتصّ منه وهجر مصر حتى مرَّ في طريقه بمدين حيث تزوّج بابنة شعيب عليه السلام، وبعد عشر سنوات قضّاها هناك خرج مع زوجه إلى سيناء حيث أوحى الله إليه وأمره أن ينقذ بني إسرائيل من جبروت فرعون بما قصّه الله في كتابه من رحلة مساره بقومه إلى الأرض المقدسة. وقيل أنه توفي عليه السلام قرب "أريحا" سنة ١٣٨٠ قبل الميلاد، ودفن هناك، ولكن قبره غير معروف لأحد.[١]

هـ)- البيان والتفسير:

بعد التمهيد بذكر تفضيل الله لبني إسرائيل تحفيزا لهممهم إلى عليا المراتب في الفضائل والأخلاق الحميدة، ينتقل السياق إلى بيان النعم التي أنعم الله بها عليهم في مسار رحلتهم التاريخية، خروجا من مصر وانعتاقا من جبروت فرعون ودخولا ثم استقرارا في الأرض المقدّسة بفلسطين، وكيف غمرهم الله

١ - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١ / ٤٩٨ (بتصرف).

بألطافه، وهم يتعرّضون لأنواع من المحن والبلايا ثم الإنعام عليهم بالعفو والمغفرة في كل مرة وهم يرتكبون أنواعا من الذنوب والخطايا فقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

كان مبدأ استقرار بني إسرائيل بمصر عند تنقل يعقوب وأبنائه إلى مصر وظهور أمر يوسف عليه السلام على مملكتها، فهم وإن اختلطوا بالمصريين القدامى فقد حافظوا على مقوّمات شخصيتهم من دين ولغة وتاريخ وعادات، فلم يعبدوا آلهة المصريين، غير أن العلائق الاجتماعية بينهم ظلت حسنة قرونا حتى تغلب ملوك المصريين على ملوك العمالقة وطردوهم من مصر ثم ملكوا جميع البلاد -مصر العليا ومصر السفلى في الصعيد- وقويت شوكتهم، حتى ساءت العلائق بينهم وبين الإسرائيليين فقهرهم القبط وسخّروهم في أشق الأعمال لخدمة الأرض وتشييد المباني فذاقوا الويلات حتى بعث الله موسى عليه السلام لإنقاذهم كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذِينَ اَسْتُضْعِفُوا فِي الاَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ، وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الاَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾ (القصص:٥-٦).

ولمّا كانت هذه الأحداث التاريخية لبني إسرائيل بتفاصيلها غير معروفة لدى رسول الله إلا عن طريق ما يوحى إليه، فإن تذكير القرآن بها لبني إسرائيل يكون باعثا لهم على الإيمان والتصديق بالرسالة المحمدية لو كانوا ينصفون.

والخطاب في الآية المعطوفة على ما قبلها لبني إسرائيل، وهي تفصّل ما أجملته الآية السابقة الممهّدة -كما تقدم- ويتمثل ذلك التفصيل في سلسلة الأحداث التاريخية المتعاقبة زمن أسلافهم، ويخاطب بها اليهود في وقت التنزيل

على اعتبار أن نعمة الله على الأسلاف هي نعمة على الأخلاف لأنهم سبب بقائهم، وذلك يوجب شكر تلك النعمة، وأولى تلك النعم:

أ - إنجاؤهم من آل فرعون، وفرعون هو لقب كل من ملك مصر، كقيصر بالنسبة للروم وكسرى بالنسبة للفرس، وآله هم حاشيته من الأقارب والموالي والأعوان أيًا كانت مسؤوليتهم، وإنما جعل التنجية منهم على اعتبار أنهم ينفذون أوامر الملك، وقد يتعسّفون في التنفيذ فيتجاوزون حدود ما أُمروا به كما هو واقع الولاة والأعوان في كل زمان ومكان، وقوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ تقع موقع الحال من الجملة السابقة، لأن التنجية لا تكون إلا من وضعية شديدة قاسية المعبّر عنها بسوء العذاب المبيّن بقوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾، وهل أقسى على الإنسان من أن يرى فلذة كبده تذبح وتقطع؟، وهل أخزى له من أن يرى شرفه وحرمته تداس إذ تغتصب منه زوجه ليستمتع بها غيره؟.

غير أن الذي عاناه بنو إسرائيل من ويلات فرعون وأعوانه كان هو الثمن الواجب دفعه للانعتاق والخلاص، فتلك هي سنة الحياة في الإصلاح والتغيير وذلك هو الطريق الواجب لنصرة الدعوات الصالحة: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾، والله تعالى يبلو عباده بالخير والشر للتمحيص والاختبار، وقد وصف الله ما حدث لهم بالبلاء العظيم، وأنه تمّ بعلم الله وقدره لما في ذلك من صنوف التربية لهذا الشعب الذي أعدّه الله لرفع راية التوحيد بعد طغيان الوثنية والفساد في الأرض كما قال تعالى في سورة القصص: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٠٤).

وقال تعالى في بيان النعمة الثانية:

ب)- ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾: وهذا بيان للإنجاء النهائي من مصدر عذابهم فرعون وآله، وذلك بعد خروجهم من مصر واتجاههم نحو الأرض المقدّسة، فقد أجمل الله ما فصّله في الآيات الأخرى، سيما في سورة الأعراف والشعراء.

وحادثة فرق البحر ببني إسرائيل -أي البحر الأحمر- كانت أعظم معجزة لموسى عاينها بنو إسرائيل وعاشوها بكل ما فيها من عجائب قدرة الله، إذ كان البحر سببا لإنجائهم وهم يعبرونه في وسط الطريق اليبس وقد ارتفعت عن يمينه ويساره حواجز الماء، حتّى إذا صار موسى وقومه على الضفة الأخرى من البحر وفرعون وجنوده وسطه أطبق عليهم الموج فكانوا من المهلكين: ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، وللجملة الحالية: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ وقعها الشديد في التذكير بهذه الحادثة التي وقعت لأسلافهم، وذلك بإسناد النظر إلى الأخلاف المخاطبين، حتى لكأنهم هم الذين عايشوها وعاينوها، دفعا لهم إلى التصديق بما حدث، لأنه كما قيل: "ليس الخبر كالعيان".

ج)- ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ، ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُمْ مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

قصة انتكاس بني إسرائيل إلى حضيض الوثنية بعبادتهم للعجل عند غياب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه، هي مفصّلة في سورتي "الأعراف" و"طـــه"، وتذكيرهم بها هنا بجملة جاء في معرض التذكير بمختلف نعم الله عليهم، ففي هذه الحادثة من عبادتهم للعجل وتكفيرهم القاسي كما فعلوا ليتوب الله عليهم -وهو النعمة المقصودة بالتذكير- يأتي التمهيد لها بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا

مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ إذ كانت تلك المواعدة بأمر من الله تعالى لإعطاء موسى شريعة التوراة، وتلك نعمة كبرى تستحق شكرهم، لأن التوراة هي مصدر هدايتهم، ومناط عزهم وكرامتهم ولكنهم قابلوها بالجحود والكفران، عند غياب موسى عنهم، فنقضوا ما وصّاهم به من الثبات على الإيمان بوحدانية الله، وعبدوا العجل منتكسين إلى وثنية من نجاهم الله منه، إذ كان فرعون وقومه يعبدون الأبقار، وبضدّها تتميّز الأشياء.

وللدلالة على عظم الجرم الذي ارتكبوه بعبادة العجل، جاء التذكير بأعظم نعمة امتن الله بها عليهم وهي قوله تعالى بيانا لما تمّ في المواعدة: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

فالشرك بالله ظلم عظيم، ويكون أعظم إذا حدث ممن أنعم الله عليه بنعمة الهداية والإيمان ثم انتكس وارتدّ، ولذلك قال:﴿وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ وعلى قدر الجرم تكون عقوبة التكفير وقيمة التوبة والعفو.

د)- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾: بعد أن تقدم ذكر العفو عن عبادة العجل بصفة مجملة وتلته منة إيتاء الكتاب لموسى، قفّى الله على ذلك بذكر تأنيب موسى لقومه بأن عبادتهم للعجل ظلم عظيم لأنفسهم يستوجب منهم التوبة والإنابة إلى الله مع التكفير القاسي، والذي يتمثل في أمر موسى لهم بقتل أنفسهم كعقاب دنيوي عنيف يجبر ما ارتكبوا من ذلك الذنب العظيم، والقتل الذي أمروا به، إما أن يكون بقتل كل واحد منهم نفسه انتحارا، وإما بأن يقتل بعضهم بعضا، أي يقتل المبرّءون من الذنب أولئك المذنبين بعبادة

العجل ليكونوا عبرة لغيرهم.

وتذكر رواياتهم في التوراة أن القتل كان حقيقيا لا معنويا كما ذهب إليه بعض المفسّرين، ونصوص القرآن تؤيّد تلك الغلظة التي كانت في بعض أحكام التوراة عليهم لأنهم كانوا شديدي المراس فشدّد الله عليهم، وذلك في مثل قوله تعالى على لسان سيدنا عيسى:﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ (آل عمران:٥٠). وقوله في بيان مهمة الرّسول محمد ﷺ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ, إِصْرَهُمْ وَالاَغْلاَلَ التِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف : ١٥٧).

فالتوبة النصوح من بعض الذنوب والآثام الكبيرة تستوجب الرّوادع القاسية من حدود الله لتجبر ما انصدع في نفس المذنب من الشعور بالمعصية وتأنيب الضمير، فإن الكفارة تمحو تلك الآثار السيّئة التي يخلفها الذنب، وبالتالي فإن المذنب الطالب للتوبة يتحمّل مشقة الكفارة ووخزها الماديّ مقابل إزالة الوخز المعنوي لتستقيم أحواله بعد ذلك بالاستقرار النفسي، فلا عجب إذن في مثل تلك العقوبة القاسية التي أمر الله بها قومه.

واستعمال موسى لصفة "البارئ" فيه تحريض على إخلاص التوبة شكرا لخالقهم على أحسن مثال. وقوله تعالى ﴿فَتَابَ عَلَيْكُم﴾ تذكير بمنة العفو بعد ذلك الحرج العظيم الذي وقعوا فيه. ﴿إِنَّهُ, هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ تأكيد لمعنى العفو الحاصل لهم ليحسنوا الظن بربّهم.

والله أعلم.

توالي النّعم على بني إسرائيل

أ)- النّص:

وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾: جهرة مصدر من الجهر، وهو الظهور الواضح للذّوات والأصوات أي بحاسّة البصر أو بحاسّة السّمع. ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾: تُجمع على "صواعق"، نار كهربائية تنزل من السّحاب فتحرق من أصابته، واستعمل القرآن هذا اللّفظ في صيحة العذاب لعاد وثمود، قال تعالى:﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾: ظلّلنا من التّظليل وهو نشر الظّلّ أي سترهم بالسّحاب لوقايتهم من حرّ الشّمس. ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾: المنّ مادة صمغيّة جوّية تنزل على شجر البادية شبه الدّقيق المبلول فيه لزوجة وحلاوة، والسّلوى طائر برّيّ لذيذ اللّحم سهل الصّيد ويسمّى "السّمانى"، والسلوى والسُّمانى جمع لا واحد له من لفظه. ﴿ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾: قيل: إنّها "حيرون" أو"أريحا"، والقَرية بفتح القاف يُجمع على "قُرى"، هي البلدة المشتملة على المساكن المبنية من حجارة وطين. ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾: أمرهم بدخول باب تلك القرية مُنحنِي الظّهور شكراً لله تعالى. ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾: حطّة من الحَطّ وهو الخفض، فقيل: هو بمعنى طلب غفران الذنوب من الله، وقيل: إنّها بمعنى حطّ الرّحال أي ناوين الإقامة. ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾: مفرده خطيئة أي الذنب والمعصية. ﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾: الرّجز العذاب الذي لا يمكن دفعه، كالطّاعون وسائر الأوبئة، وكعذاب الموت. ﴿اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾: أي طلب السّقي من الله لقومه. ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾: إمّا "أل" للجنس فيضرب أيّ حجر، أو للعهد عرفه موسى بإرشاد من الله. ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾: أي الأسباط الإثني عشر، عرف كلّ منهم مكان مشربه الذي لا ينازعه فيه غيرهم. ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: عَثَى أي أفسد، ومصدره عُثْيٌ بضم العين وكسرها، ولم يقرأ أحد من القرّاء بضمّ الثّاء في المضارع.

ج)- البيان والتّفسير:

يتوالى التّذكير بنعم الله على بني إسرائيل، وهي هنا نعمة الإحياء بعد

الإماتة لبعض أسلافهم، وهم الذين اختارهم موسى لميقات ربّه، إذ قالوا له:﴿لَن نُّومِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، والقائلون هم أولئك الأسلاف، فخوطب بها الأخلاف على اعتبار القاعدة السّابقة في المسؤولية الجماعية للشّعوب والأمم أباً عن جدٍّ، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّومِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ، ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾.

لم يتّفق المفسّرون على تحديد صنف المخاطَبين الصّادرة عنهم تلك الجريرة مع رسولهم، فمن قائل: إنّهم السّبعون من شيوخ بني إسرائيل المختارين للذّهاب مع موسى إلى الميقات، ومن قائل: إنّ ذلك وقع من عامّة النّاس تحدّياً لموسى بعد أن اصطفاه الله تعالى برسالته وبكلامه، فكان منهم هذا الطّلب المعجز الذي جعلوه شرطاً لإيمانهم برسالته، وأيّاً كان القائلون فإنّ العقوبة التي ترتّبت على تلك الوقاحة على مقام الألوهية والرّسالة تدلّ على فداحة الجرم، وعلى غلظةٍ في الطّبع ناتجة عن القهر والتّسلّط ممّا عاناه بنو إسرائيل من جبروت فرعون، جعلتهم مادّيين مفرطين في عنادهم وتعنّتهم مع رسولهم، فتوالت عليهم تلك النّكبات تتلوها في كلّ مرّة رحمة من الله عليهم كمعجزات ماديّة تؤيّد موسى في رحلة إنقاذهم وخلاصهم.

فقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ بيان لنوع العقوبة المادّية التي تلقّوها، فهي كسابقتها غلظة وقساوة، وإذ هم في عبادة العجل قد ارتدّوا عن إيمانهم، وهنا يجعلون إيمانهم مشروطاً برؤيتهم لله جهرة، فجاءت العقوبة في كلتا الحالتين مناسبة للتّذكير والاعتبار، وكان سبب موتهم أخذهم بالصّاعقة حال كون بعضهم ينظرون ما حدث بالمنتقم منهم، ممّا يرجّح -والله

أعلم- أنّ هناك نفراً كثيراً من قوم موسى من غير الذّاهبين معه إلى الميقات.

هـ)- وقد اختلف المفسّرون-أيضاً- في معنى الموت والبعث في هذه الحادثة: أهما حقيقيان أم معنويان؟

- فمنهم من ذهب إلى أنّهما حقيقيان، إذ جعل الله ذلك معجزة لموسى بعد دعائه وشفاعته لهم، وعليه أغلب المفسّرين، والعطف بـ"ثمّ" يقتضي فترة زمنية بين الإماتة والإحياء.

- إنّهما موت وبعث مجازيان كناية عن تكثير سواد الأمّة بعد هوانها وضعفها، وازدهار العلوم فيها بعد جهلها...إلخ، ومن المائلين لهذا التّأويل الإمام الشيخ محمد عبده.[1]

و)- إذا كانت نعمة الإحياء بعد الإماتة قد مهّد لها بذكر سببها، وهي تجرّؤهم على مقام الألوهية والرّسالة - على ما تقدّم- فإنّ النّعمتين التّاليتين ذُكرتا مجرّدتين عن بيان الذّنب الذي اقترفوه في حقّهما إلاّ أنه تعالى وصفهم بالظّلم لأنفسهم إذ قال تعالى: **﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾**:

التّظليل بالغمام في بيئة صحراوية قاسية نعمة لا تقلّ شأناً عن نعمة تفجير الماء الشّروب كما سيأتي، ولولا ذلك الظّلّ الذي لازمهم في رحلتهم في صحراء سيناء للفحتهم حرارة الشّمس وما استطاعوا إكمال مشوارهم إلى الأرض المقدّسة، وسكّان الصّحراء يعرفون نعمة الظّلّ، تلك النّعمة التي جعلها

---

١ - أنظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ١ / ٣٢٢.

الله تعالى من خواصّ الجنّة ينعم بها المتّقون، بينما الكفّار تنضج جلودهم بلفح جهنّم، فقال تعالى ممتنّاً على المتّقين: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾ (النساء:٥٧).

وفي الكفران بنعمة الظّلّ قصّ علينا تبارك وتعالى نبأ أهل سبأ، وقد طغوا بما آتاهم الله من ظلال جناتهم على يمين وشمال سدّ "مأرب" العظيم، إذ امتنّ الله عليهم بقوله: ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ـ آمِنِينَ﴾ (سبأ:١٨)، ولكنّهم قابلوا تلك النّعمة بالكفران والجحود فقالوا: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ (سبأ: ١٩)، ومع الكفران زوال النعمة وحلول النّقمة: ﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (سبأ:١٩).

ز)- من طبيعة الرّحلات الصّحراوية أن يقتصر المسافرون على الضّروري من الزّاد والماء، وقد ألف بنو إسرائيل في مصر حياة الإقامة بما يتوفّر فيها من أنواع المُتع في المطعم والمشرب، ولذا فإنّ خروجهم في هذه الرّحلة الشّاقّة رحلة الإيمان والانعتاق من الكفر والقهر بقيادة رسولهم على أمر الله وتوجيهه، جعلت وتيرة حياتهم تتغيّر، فهم وإن كانوا ينتفعون بمواشيهم التي اصطحبوها معهم، فأنّى لهم غيرها من خيرات الأرض؟ ومَنْ غَيْرُ موسى يسأل الله ويستمدّ منه العون؟.

لقد سخّر لهم المنّ يستعيضون به عن الخبز بعد أن تجفّ مادّته الحلوة اللّزجة التي تقع على أوراق الأشجار وصفائح الأحجار يلتقطونها كالدقيق، كما سخّر لهم السلوى لحما طريّا تَنْزِل عليهم طيوره طيّعة فيمسكونها بدون عناء. وتذكر رواياتهم بأنهم تمتّعوا بذلك أربعين سنة وهو ما يزيد عن عمر جيل كامل، فهل شكروا هذه النعمة ؟، وهل امتثلوا أمر الله ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ

مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، والإجابة في هذا التعقيب:﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

انتقل السياق إلى ضمير الغيبة لقصد الاتّعاظ والاعتبار، وقد وصفهم بالظلم لأنفسهم مما يدلّ على أنهم لم يشكروا تلك النعمة، وأنهم لم يدركوا ما كانوا عليه من عناد وضلال، وذلك لأنهم يظنون أن محادّتهم لله ورسوله سوف تغيّر من تدبير الله وسننه في خلقه، وحاشا الله تعالى، أن تنفعه طاعة خلائقه أو تضرّه معصيتهم لأنه تعالى غنيّ عن العالمين، وتتوالى نعم الله على بني إسرائيل ويتوالى عنادهم وتماديهم.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَذه الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ يُغْفَرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ، فَبَدَّلَ الذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾.

ح)- يتناول السياق تذكير بني إسرائيل بهذه الحادثة التاريخية، وإن كان طرفها الأخير من دخول القرية لم يقع في عهد موسى، بل أتمّه يوشع بن النون، بناء على أن القرية التي أمروا بدخولها هي الأرض المقدّسة التي ورد ذكرها بتفصيل في سورة المائدة، وإلاّ فقد دخل بنو إسرائيل عديدا من القرى قبل استقرارهم بالأرض المقدسة بعد موت موسى.

والسياق لم يحدّد القرية، غير أن الإشارة إليها تدلّ على أنّهم كانوا على مقربة منها، وأنها من الخيرات والعمران بحيث يجدون فيها كل ما لذّ وطاب: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ ومحلّ العبرة في القصّة هو دائما تعداد مواقفهم المخزية في معاملة رسولهم، وتجسيد طبيعة العناد والمخالفة لأوامر الله،

وكيف ينتقم الله منهم في كل مرّة ثم لا ينتهون، فإن دخول القرية المليئة بالخيرات والانتهاء إليها بعد طول الرحلة ووعثاء السفر نعمة كبرى لراحة المسافر وسلامته ولكل نعمة شكرها وفق ما يأمر به المنعم ومع الشكر بقاء تلك النعمة بل الزيادة فيها كما قال تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾، والقُربة التي أُمروا بالقيام بها عند دخول القرية تتمثّل في عمل وقول، كما هو شأن الصلاة أنها أفعال وأقوال خاصّة. فالفعل أن يدخلوا باب تلك القرية سجّدا، أي في هيئة انحناء خضوعا لله، وللتعبير على الوداعة لأهل القرية كيلا يظنوهم فاتحين، والقول هو أن يقولوا "حطّة" وتأتي في معنى هذا القول الاحتمالات الواردة في التحقيق اللغوي.

وهذا التكليف لا يتطلب منهم عناء ولا مشقة، ولكن الطبيعة القاسية في بني إسرائيل جعلتهم يبدّلون ما قيل لهم تأويلا أو تعنّتا، وذلك ظلم واعتداء يقتضي زجرا وعقوبة من الله تعالى، لأن تبديل القول بغير العبارة المأمور بها عصيان وتمردّ، والتعبير يدلّ على أن الذين بدّلوا ذلك بعضهم، بدليل الإظهار في محل الإضمار فقال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾، فجعل فسقهم عن أمر الله سببا لتلك النقمة النازلة بهم، والتي لم يحدّد النصّ نوعها، واكتفى النصّ بذكر المخالفة القولية ولو أن صفة الفسق تؤدي إلى مطلق العصيان في القول والفعل. وقد جاء في ما رواه الإمام البخاري:« **أنهم بدّلوا**

وصية موسى، فدخلوا يزحفون على أستاههم».[1]

ط)- ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾:

الماء في الصحراء أعزّ من الكبريت الأحمر، فقد واجه موسى هذا المشكل، والمخاطبون بالتذكير الذي يدلّ عليه "إذ" بمعنى اذكروا، هم يعرفون حادثة الاستسقاء، وهي إحدى المعجزات التي خصّ الله بها موسى، وهو يقطع بقومه تلك الصحراء الشاسعة إلى حيث أمره الله أن يتوجّه، فإلى جانب إنعام الله عليهم بالظل لتوفير البيئة المناسبة، وإنزال المنّ والسّلوى لتوفير المطعم الطّيب، ولتكتمل نعمة الرّزق فلابدّ من توفير الماء الشّروب، فمَن غير الله يأتي بالماء المَعين؟.

والله تعالى قادر على إتيان ذلك بدون أي سبب لمجرّد تعلّق إرادته ليكون الشّيء فيكون، والمعجزة وإن كانت خارقة للعادة المألوفة، وهي تتمّ بقدرة الله، غير أنّ ربطها بضرب موسى للحجر بعصاه، كما في حادثة فلق البحر، فيه تربية بليغة لنا نحن البشر في وجوب الرّبط بين المسبّبات والأسباب في كلّ سعي نحاوله وفي أيّ مجال من مجالات حياتنا، سيما إذا كان الشّيء المطلوب تتعدّى أسباب الحصول عليه طاقتنا وحيلتنا، فلا مناص لنا من التّوجّه إلى خالق

---

١ - أورده ابن جرير في التفسير (١/١٠٠) وقال: هذا حديث صحيح، رواه البخاري عن إسحاق بن نصر ومسلم عن محمد بن رافع، والترمذي عن عبد بن حميد كلهم عن عبد الرزاق به وقال الترمذي: حسن صحيح.

الأسباب والمسبّبات، ذلك كان موقف موسى عليه السلام حين شكا قومُه الظّمأ وقد ابتعد بهم عن زلال النّيل وخيراته، فتوجّه إلى ربّه يستسقي لهم.

ولسقيا الماء وسائلها في عرف النّاس، كهطول الأمطار، أو حفر الآبار، أو تفجّر الينابيع، وجريان الأنهار، قال تعالى:﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَآءُ﴾، ولتكن هذه هي الوسيلة المعجزة لموسى في الحصول على هذه المادّة الحيويّة، والقدرة الإلهية الخارقة كانت عصا موسى رمزاً لها، إذ بمجرّد أن يحرّكها بيديه تسري منها إلى المادّة الموجّهة إليها تلك القوّة الإلهية المقتدرة، فتصبح المادّة طيّعة منقادة إلى إرادة الله، فإذا الحجر القاسي المطروح في تلك الأرض يتفجّر عن اثنتي عشرة عيناً بعدد أسباط يعقوب- وهم رؤساء قبائل بني إسرائيل-، وذلك لتستقلّ كلّ قبيلة بمشربها فلا يتدافعون عليها ولا يتقاتلون. وأغلب المفسّرين على أنّ "أل" في الحجر للجنس فأيّ حجر يضربه موسى بعصاه تتحقّق به المعجزة، فلا فائدة لنا في تعيينه وتحديده.

﴿كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: تحوّل السّياق إلى صيغة الخطاب وبالأمر الإلهي بالأكل والشّرب من رزقه حلالاً طيّباً، حتّى لكأنّ السّامعين هم مع أجدادهم يتنعّمون بما منحهم الله فيكون ذلك أبلغ في التّذكير، وانفع في السّلوك.

وقد يكون التّرف والنّعيم مدعاة للفسق والفجور حين ينشغل المُنْعَم عليه بإشباع رغباته ونزواته فينسى حقّ المنعِم ويهمل شكر النّعمة، فكان التّعقيب بالنّهي عن الإفساد في الأرض في أشدّ صوره وهو"العثيّ"، تحذيراً وإنذاراً من العواقب الوخيمة.

وقد سنّ الإسلام صلاة الاستسقاء بالخروج إلى المصلّى والخطبة والدّعاء بالتذلّل إلى الله مع التّوبة النّصوح، وقد يستجيب الله دعاء المستسقين كما قال على لسان هود: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ (هود: ٥٢).

والله أعلم.

عقوبة العصيان وجزاء الإيمان

أ)- النّص:

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾: أي هو نوع واحد، أو يتكوّن من

شيئين فأكثر كالمنّ والسّلوى، ولكنّه يتكرّر كلّ يوم على وتيرة واحدة. ﴿مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾: البقل، جمعه بقول، كلّ ما تنبته الأرض من الخضروات. والقثّاء هي ما نسمّيه"الخيار" وما يشبهه. والفوم قيل: هو الثوم، أبدلت تاؤه فاءً، وقيل هو الحنطة، وقيل: هو ما نسمّيه الحمّص، والعدس والبصل معروفان. ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالذِي هُوَ خَيْرٌ﴾: أي تطلبون هذه الأنواع التي هي دون ما منح الله لكم من المنّ والسّلوى، والأدنى هو الأقرب، واستعير للأنجس والأدون. ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾: والضّرب التقاء ظاهر جسم بظاهر جسم آخر بشدّة، واستعير هنا للإحاطة بهم واللّزوم، كمن يضرب خيمة ليلزمها، والذّلة: الصّغار، ضدّها العزّة. والمسكنة: الفقر، لأنّ العائل الفقير تضعف حركته فيستكين. ﴿بَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾: أي رجعوا متلبّسين بغضب الله. ﴿وَالذِينَ هَادُواْ﴾ - أي اليهود- هم بنو إسرائيل، ﴿وَالنَّصَارَىٰ﴾: هم أتباع عيسى عليه السلام فهم اسم جمع نَصْري بفتح فسكون، أو ناصريّ نسبة إلى "النّاصرة" وهي قرية نشأت فيها "مريم" أمّ عيسى. ﴿الصَّابِينَ﴾: أو الصّابئون، فالصّابي من صبا يصبو إذا مال عن كذا، أو الصّابئ بالهمز من صبأ يصبأ إذا طلع وظهر.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَالصَّابِينَ﴾: قرأه الجمهور بهمزة بعد الموحّدة على صيغة جمع صابئ بهمزة في آخره، وقرأه نافع وحده بياء ساكنة بعد الموحّدة المكسورة على أنّه جمع صابٍ منقوصاً.

د)- البيان والتّفسير:

ما يزال سلك الكلام منتظماً في تعداد النّعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، ولكن هذه النّعمة جاءت مقرونة ببيان سوء اختيارهم لنوع معيشتهم، واستخفافهم بما أنعم الله عليهم من المنّ والسّلوى، مع توبيخهم لسوء أدبهم مع رسولهم، فقال تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾

التّقدير: أذكروا ما قلتموه لموسى، والذين قالوا هم أسلاف المخاطبين من اليهود في وقت التّنزيل على اعتبار تكافل الأمّة الواحدة أسلافاً وأخلافاً، والقصّة معروفة عندهم من نصوص التّوراة، وذلك حين نزعت نفوس بني إسرائيل-وهم في مسيرهم إلى أرض الميعاد مع موسى عليه السلام- إلى ما ألفوه طعاماً من بقول الأرض وخضارها حين كانوا يمتهنون الفلاحة في مصر، والنّفس البشريّة نزّاعة إلى ما ألفته، سيما وقد دأبوا في رحلتهم على طعام واحد سئموه، ولو كان طيّباً لذيذاً، ويظهر سوء أدبهم مع رسول الله موسى في ذلك الإعنات المتكرّر منهم في كلّ موقف، وسوء الأدب مع الله المنعم عليهم، والذي يتجلّى في قولهم لموسى: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ حتّى لكأنّ هذا الرّبّ خاصّ بموسى ولا يعنيهم هم، ثمّ تعبيرهم عن كراهيتهم للطّعام المنعم به عليهم واستخفافهم به بقولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ هكذا بـ"لن" النّافية المستغرقة لكلّ الأزمنة، ممّا يدلّ على منتهى كراهيتهم لذلك الطّعام بحيث لا أمل لموسى في إقناعهم بالصّبر عليه، فهم يطلبون منه أن يدعو ربّه أن ينوّع من

طعامهم بمختلف بقول الأرض، وهي من النّبات ما ليس بشجر يقوم على ساق، ثمّ خصّصوا بالذّكر تلك الأنواع المعروفة، وهنا يظهر عنادهم وإعناتهم، لأنّهم يعرفون أنّهم في أرض لا تنبت تلك الأنواع، ولذا أجابهم موسى متعجّباً مستنكراً ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الذي هُوَ أَدْنَىٰ بِالذي هُوَ خَيْرٌ﴾، أي أتطلبون هذه الأنواع الخسيسة المنحطّة بدلاً من ذلك النّوع الطّيب الرّاقي، أي المنّ والسّلوى؟. وسوء الاختيار دليل على بلادة العقل وسفه الطّبع، ولمّا كان هذا الطّلب يستحيل تحقيقه في تلك البريّة التي جعلها الله معبراً للأرض المقدّسة فقد أمرهم موسى في معرض الاشمئزاز والتّوبيخ أن يهبطوا مصراً- هكذا بصيغة النكرة- أي أيّ مصر أرادوا ليجدوا فيه ما تترع إليه نفوسهم، وقيل: إن المقصود هي مصر التي خرجوا منها — وهو غير ممكن- ولكنّه أمر يدلّ على أنّ الله وكلهم إلى أنفسهم بطلب المسبّبات بأسبابها، وذلك لسوء اختيارهم، ومن ثمّ فسوف يجدون ما طلبوه، ولكن بأيّ ثمن إذا تخلّت عنهم عناية الله؟

وهكذا عاقبهم الله على ذلك الموقف، فقال تعالى:﴿**وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ**﴾: عطفت هذه الجملة على ما قبلها على اعتبار أنّها في معنى النّتيجة لمدلول ما قبلها من الجُمل، وهي تبيّن أنواع العقوبات التي سلّط الله عليهم، فهي وإن لم تكن مادّية مهلكة فإنّها أنكى وأشدّ إيلاماً، إذ هي عقوبات نفسية واجتماعية ما تزال تلازمهم بقدرة الله وإن ظهروا للنّاس اليوم أنّهم في عزّة وقوّة، فقد حرمهم الله من المقوّمات الضّرورية للإنسان السّويّ، كالقناعة والرّضا واطمئنان الخاطر، والشّعور الذاتي بالسّعادة والنّخوة...إلخ. فهم وإن كانوا أصحاب أموال وجاه وعلم، يجعلهم الجشع والحرص والخوف من الفقر يعيشون في فقر دائم، ويجعلهم الجبن المستكنّ في دمائهم حرصاً على الحياة في ذلّ مستمرّ، وبالتّالي تنعدم عندهم

مقوّمات الدّولة القويّة المعتمدة على نفسها، فهم في حاجة إلى الدّعم والمساندة، كما هو واقعهم اليوم مع الولايات المتّحدة الأمريكية والاتّحاد الأوروبي، وصدق الله مولانا العظيم إذ قال في بيان هذا المعنى بسورة آل عمران: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ (آل عمران:١١٢).

والتّعبير بالضّرب للدّلالة على الإحاطة والاحتواء، كما تحيط القبّة المضروبة بمن فيها، فهم لا ينفكّون عن تينك الصّفتين تلازمان طباعهم لزوم الظّلّ لصاحبه، ثمّ بيّن الله تعالى أسباب تلك الأحوال، بأنّها بما كسبت أيديهم فقال تعالى: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِئَايَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّئِينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾:**

الإشارة إلى ما ذكر من ضرب الذّلة والمسكنة عليهم، والباء ﴿بأنّهم﴾ للسّببية، وذكر لها شيئين:

-كفرهم بآيات الله، وهي ما شاهدوه من المعجزات على يد موسى عليه السلام ومن النّصوص المقدّسة التي نزلت عليه، كفروا بكلّ ذلك، وقد دلّ على ذلك تمرّدهم المتكرّر وإعناتهم لموسى في مختلف المواقف المتقدّمة.

- قتلهم للنّبيئين بغير الحقّ، وذلك بالنّسبة لليهود الذين قاموا بتلك الجريمة، وكذلك الذين خذلوا أولئك الأنبياء المقتولين، كزكرياء ويحيى وغيرهما، لأنّ الراضي بالفعل كفاعله، ومجرّد القتل لأيّ إنسان بريء كفر وظلم، فكيف بقتل صفوة خلق الله من الأنبياء والرّسل، وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ للزيادة في التّشنيع، وأن ذلك كان منهم عن سبق إصرار وعمد في

ارتكاب ما حرّم الله عليهم.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾: لعلّ تكرار الإشارة لبيان السّبب في كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير الحقّ، وأنّه العصيان والتّمرّد على الله، وغلبة الظّلم والاعتداء على حدود الله بحيث بلغوا بذلك نهاية الخبث والفساد، فلا يُرجى منهم صلاح ولا رشاد، وفي هذا البيان تحذير للمسلمين من الوقوع في ذلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَالَّذِينَ هَادُوا۟ وَالنَّصَٰرَىٰ وَالصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: وجرياً على سنن القرآن في الوعد والوعيد والتّرغيب والتّرهيب، فإنّ الله تعالى أعقب ذلك الحكم القاسي على مجرمي اليهود، بفتح باب الرّحمة والأمل لمن تحرّى لدينه ورضي بحكم الله في مسار حياته، فجاءت الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟...﴾ وما بعدها بمنزلة الاستثناء من الحكم السّابق، لدفع توهّم أنّ ما سبق ذكره شامل لكلّ اليهود ومن كان على شاكلتهم من الأمم الضّالّة، فإنّ الله تعالى لم يعاقبهم بما سبق إلاّ وفق السّنن الاجتماعية في خلقه بسبب الظّلم والفسوق، وإنّ ذلك ينتظم كلّ من أجرم وتحدّى الله بقطع النّظر عن جنسه وملّته، إذ أنّ الأنساب والانتماءات لا أثر لها في إرضاء الله ولا غضبه، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات:١٣).

وبما أنّ السّياق ما يزال متواصلاً في ذكر أحوال بني إسرائيل، فإنّ فائدة توسّط هذه الآية خلال ذلك السّياق هي لفتح باب الرّجاء لهم للتّوبة والرّجوع إلى الله، فقد ورد فيها ذكر غيرهم من الأمم ممّن تحقّق إيمانه وحسن عمله، وكيف يكون جزاؤهم عند الله، تأنيساً للشّاردين من اليهود، وإنصافاً

للصّالحين منهم، وفي ذلك من التّرغيب والبشارة ما يطمئن قلوب أولياء الله من أيّ جنس كانوا.

ابتدأ الله بذكر الذين آمنوا - وهم المسلمون الذين آمنوا برسول الله وصدّقوا برسالته - بدأ الله بهم رفعاً لشأنهم، وليكونوا قدوةً لغيرهم.

واختار الله تعالى وصف ﴿الذِينَ هَادُواْ﴾ ولم يقل: "اليهود"، ليشمل بني إسرائيل من سبط يهودا، ومن ينتسب إليهم في الدّين، ثمّ ذكر النّصارى وهم أتباع المسيح عليه السلام، وأمّا الصّابئة فقد وُصِفوا بذلك لأنّهم مالوا عن كلّ دين إلى دينهم الذي اختاروه ، واختلف المفسّرون في تحديد دينهم، ومن ثمّ اختلفوا في إجراء الأحكام عليهم، فمنهم من ألحقهم بأهل الكتاب، ومنهم من ألحقهم بالمجوس، فأيّاً كانت ملّتهم فإنّ قوله تعالى: ﴿مَنَ - امَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يحدّد ويرسم طريق النّجاة لكلّ ملّة، وأنّ مناط القبول عند الله تعالى والفوز بمرضاته هو الإيمان الكامل بالله واليوم الآخر، ثمّ تجسيد ذلك الإيمان بالعمل الصّالح استقامة على نهج الله وفق أحكام كلّ شريعة، فيترتّب على ذلك أجرهم عند الله ، وهو الثّواب الأخرويّ بنعيم الجنّة، وانتفاء الحزن عنهم يوم البعث والنّشر.

والله أعلم.

بعض العقوبات على اليهود لمخالفاتهم

أ)- النّص:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾: الميثاق العهد المؤكّد، والمقصود به أن يعملوا بشريعة التّوراة. ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾: الطّور الجبل المقدّس المعروف، فقد تزعزع واهتزّ حتّى خُيّل إليهم أنّه اقتُلع وارتفع، كما قال تعالى في سورة الأعراف:﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ (الأعراف:١٧١). ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾: أي تجاوزا حكم الله بنهيهم عن الصّيد في يوم السّبت والاكتساب فيه ليتفرّغوا للعبادة. ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾: القِردة جمع قرد، وهو الحيوان المعروف، أي مُثّلوا بالقردة في سفاهة عقولهم وقيل بتصوير أجسامهم بصور القردة مسخاً للخلقة. وخاسئين من الخُسوء، وهو الطّرد من رحمة الله. ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾: من النّكال، وهو العقاب الشّديد الذي

يردع المُعَاقَب ويردع غيره.

ج)- البيان والتّفسير:

عاد السياق إلى ذكر أحوال بني إسرائيل، فبعد فتح باب الرجاء في رحمة الله بالإيمان الصحيح والعمل الصالح، جاءت هذه الآيات للتذكير ببعض المخالفات التي ارتكبها أسلافهم فاستحقوا العقوبة لولا فضل الله عليهم ورحمته فقال تعالى:

﴿وَإِذَ اَخَذْنَا ميثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّة وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَالِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ, لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾: وضمير الخطاب في الآية على اعتبار الأمة الواحدة تتكامل فيها الأجيال وتتضامن في المسؤولية ليتعظ بعضها من بعض، فكان سرد هذه الأخبار تذكيرا لليهود بما كان من استخفاف أسلافهم بأوامر الله وما أعقب ذلك من الزواجر والرحمة والتوبة. وقصة زعزعة جبل الطور مذكورة في نصوص التوراة فصدّرت بـــ"إذ" الدّالة على زمن القصة والمشعرة بتحقيق وقوعها، وذلك حينما أخذ الله العهد على بني إسرائيل أن يأخذوا بشريعة التوراة، فتلكّؤوا وتردّدوا فرفع الله فوقهم جبل الطور حتّى تخيّلوا أنه واقع بهم، فأعطوا العهد وامتثلوا لأمر الله، وعندما شاهدوا تلك الآية تحرّك فيهم الوازع الإيماني فخاطبهم المولى وأمرهم أن يأخذوا ما في التوراة بقوة أي بعزيمة ونشاط في التنفيذ والامتثال، مع التدبّر والفهم لما في كتاب الله من الأحكام والإرشادات حتّى يكون العلم مقترنا بالعمل، وبذلك ترسخ العقيدة في النفوس، وتنقاد الجوارح إلى الطاعة والامتثال، فيحصل بذلك الرجاء في تقواهم لله كما أُمروا، لأنّ الله تعالى هيّأ لهم أسباب الهداية، فهم

أقرب إلى التقوى من غيرهم، ولكن توفّر أسباب للهداية قد يأخذ بها الإنسان إذا وفقه الله لذلك، وقد يتولى ويعرض، فلا يصيب من التقوى شيئا، وقد يهتدي أول الأمر فينتكس، وهذا ما وقع فيه بنو إسرائيل، وذلك حين عبد البعض منهم العجل، والعطف بـ"ثم" يدلّ على الفارق الزمني في وقوع ذلك، فهم بتولّيهم عن الطاعة مستحقّون للعقاب، ولكن الله بفضله ورحمته أمهلهم حتى يرجع موسى من ميقات ربّه فتابوا وأذعنوا فوقاهم الله بذلك شرّ الخسران.

وإمعانا في تذكير اليهود بما اقترفه أسلافهم من المخالفات التي استحقّوا بها العقاب يجيء خبر اعتدائهم في السبت فقال جلّ من قائل: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ، فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ**﴾:

اختار الله يوم السبت ليتفرغوا فيه للعبادة، فحرّم عليهم الكسب فيه تخفيفا من غلوائهم في الحرص على جمع الأموال، وشرههم في متاع الدنيا، فلم تتمالك طائفة منهم من تجاوز حدود الله والاعتداء على حرماته، فاستحقوا بذلك لعنته، إذ تدنست نفوسهم وانحطوا إلى درك البهيمة، فنقضوا بذلك عهد موسى عليه السلام وهؤلاء هم سكان قرية "أيلة" على خليج صغير من البحر الأحمر مما يعرف اليوم بخليج العقبة، ووقعت هذه المخالفة منهم في عهد داود عليه السلام، ولما كانت القصة معروفة ومشهورة عندهم أسند الله الأمر فيها لعلمهم مصدّرة باللام المشعرة بالقسم ﴿ولقد﴾، وإنباؤهم بها من طرف رسول الله ﷺ وهو لا يعلمها من قبل هو دليل على صدق نبوءته، مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (النمل:٧٦).

وقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ الأمر فيه للتكوين، ويرد فيه الاحتمالان المذكوران في التحقيق اللغوي، أي بمعنى المسخ لأجسامهم بأن صارت على صورة القردة والخنازير وهو قول الجمهور، أو بمعنى المسخ المعنوي في الطباع مع بقاء الصورة الإنسانية، وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم ذلك عن مجاهد أنه قال: «**ما مُسخت صورهم، ولكن مُسخت قلوبهم**»[1]، فمُثّلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار في قوله تعالى:﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (الجمعة:٥)، والنصّ يحتمل المعنيين، والله أعلم.

يقول الإمام ابن عاشور في المسخ الحقيقي: "والأول أظهر في العبرة لأن فيه اعتبارهم بأنفسهم واعتبار الناس بهم بخلاف الثاني، والثاني أقرب للتاريخ إذ لم ينقل مسخ في كتب العبرانيين، والقدرة صالحة للأمرين، والكلّ معجزة للشريعة أو لداود".[2]

قوله:﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾: الضمير عائد على العقوبة، والنكال هو العقاب الشديد الرادع عن العودة إلى المخالفة، وتنتظم هذه العقوبة ما قارنها من المعاصي وما سبق، بحيث تكون عبرة لمن وقعت في زمنهم ولمن يأتي من بعدهم إلى ما يشاء الله بينما تكون موعظة للمتقين في أنفسهم ولغيرهم في الوقوف عند حدود الله.

---

١ - محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ت: محمود شاكر، أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ١/٣٣٢.

٢ - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١/٣٤٤.

مظهر آخر لتعنّت اليهود في قصّة ذبح البقرة

أ)- النص:

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۖ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ۖ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾: تتخذنا هو بمعنى تجعلنا، والهزؤ بضم الهمزة والزاي وبسكون الزاي مصدر هزأ هزءا إن سخر منه، وهو هنا مصدر بمعنى المفعول.

﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾: أعوذ ألتجئ إلى الله، وأعتصم بتأديبه إياي من الجهالة، والجهل ضد العلم وضد الحلم، والمقصود هنا هو المعنى الثاني.

﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾: الفارض المسنّة التي انقطعت ولادها، والبكر الفتية الصغيرة التي لم تلد وهي مشتقة من البكرة أول النهار، والعوان المتوسطة بين الكبيرة والصغيرة. ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾: من الفقوع أي من شدّة الصفرة، وهو خاص بها ويقال: أحمر قان، وأسود حال، وأبيض يقق، وأخضر مدهام، وأورق خُطباني، وأرمك بُرداني، والنّصوع يعمّ جميع الألوان إذا لم يخالطها لون آخر. ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ﴾: ليست مذللة بالعمل. ﴿تُثِيرُ الأَرْضَ﴾: أن تقلّبها بالحرث. ﴿مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا﴾: أي مسلمة من العيوب، والشية العلامة من وشى الثوب إذا نسجه بالألوان. ﴿الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾: لا يراد أنه قبل ذلك جاء بالباطل بل المقصود أنه نطق بالبيان التام المطلوب. ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾: أصله تدارأتم من الدّرء وهو الدفع أي تدافعتم جناية القتل، كل فريق يدفعها عن نفسه.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾: قرأ الجمهور ﴿هُزُوًا﴾ بضمتين وهمز بعد الزاي وصلا ووقفا، وقرأ حمزة بسكون الزاي وبالهمزة وصلا، ووقف عليه بتخفيف الهمز واوا، وقرأ حفص بضمّ الزاي وتخفيف الهمز واوا في الوصل والوقف.

د)- البيان والتّفسير:

يتواصل السياق في ذكر بعض مخالفات اليهود وتعنتهم في تطبيق أحكام الله، وعنادهم لرسولهم في تنطّع وقساوة بالغة، ويظهر ذلك في قصة ذبح البقرة، وهم يتلكّؤون في تطبيق أمر الله، ويحفون في السؤال غلوا وعنادا،

ويقتضي ذلك التشديد عليهم في الأحكام وقد روي عن ابن عباس ﷺ أنه قال معلّقا على هذه القصة:«**لو ذبحوا أية بقرة لأجزأهم، ولكن شدّدوا فشدّد الله عليهم**».[1]،كما روى أبو هريرة مثل ذلك عن رسول الله.

وتتوفر في أسلوب القصة كل الفنّيات المعروفة في القصّة الحديثة من عناصر التشويق، ومن التدرج إلى سرد الأحداث إلى العقدة ثم إلى الحل، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾:

يرى أغلب المفسّرين أن أوّل القصة هو المذكور في آخرها ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ إذ أن الأمر بذبح البقرة ناشيء عن قتل تلك النفس، قيل: إن السبب في تقديم قول موسى لقومه هو مراعاة التناسب لما سبق من عرض مذمّاتهم في المخالفات التي درج عليها الأسلاف وتوارثها الأخلاف حتى أصبح ذلك من سمات بني إسرائيل، عناد وتمرّد على الرّسل وتلكّؤ وتردّد في الاستجابة لأوامر الله، والتماس للمبرّرات والمعاذير.

ويرى الإمام ابن عاشور أنهما قصّتان، فهو يقول بعد أن ذكر أنّ قصة ذبح البقرة قد أشارت إليها التوراة في السّفر الرابع، سفر التشريع الثاني، قال بعد نصّ التوراة: "وبذلك يظهر وجه ذكرهما قصّتين، وقد أجمل القرآن ذكر القصتين، لأن موضع التذكير والعبرة منهما هو ما حدث من خلالهما، لا تفصيل الوقائع، فكانت القصّة الأولى تشريعا سيق ذكره، لما قارنه من تلقيهم الأمر بكثرة السؤال الدّال على ضعف الفهم للشريعة، وعلى تطلب أشياء لا

١- انظر الروايات في ذلك في تفسير الطّبري، ١/ ٣٣٩، و ما بعدها.

ينبغي أن يظن اهتمام التشريع بها، وكانت القصة الثانية منّة عليهم بآية من آيات الله ومعجزة من معجزات رسولهم بيّنها الله لهم ليزدادوا إيمانا".[١]

قلت: إن تلاحم أحداث القصة، والربط بينها بالضمير في قوله تعالى:﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ يرجح ما ذهب إليه الجمهور من أنها أحداث لقصة واحدة، والله أعلم، إذ أن الأمر بـــذبح بقرة جاء استجابة لطلبهم من موسى الفصل في مسألة القتل.

والتذكير بـــ"إذ" ثم حكاية القصّة بأسلوب الحوار الذي تمّ بين موسى لقومه يضفي عليها حيوية وتأثير لدى السامعين، حتى لكأنهم يعيشون ذلك المشهد ويستمعون للحوار المتداول بين موسى وقومه، فقد أكّد الأمر الإلهي بـــ"إن" للاهتمام به وجيء بلفظ البقرة نكرة ليشمل أي بقرة كانت يعمدون إلى ذبحها ويكونون بذلك قد امتثلوا أمر الله، ولكن كيف كان جوابهم لنبيئهم بعدما تبيّن لهم صدقه وظهرت لهم معجزاته؟.

لقد تعجلوا سوء الفهم للمقصود فكان منهم ذلك الجواب المخالف للّياقة والأدب أمام من لا يشكّ في صدقه ونزاهته: فلم يدركوا العلاقة بين الاستيراء من دم القتيل وذبح البقرة، فعدّوا ذلك من رسولهم هـــزؤا، والهـــزؤ أخـــصّ من المـــزاح لأنه مزح مقرون بالسخرية، وحاشا لرسول الله موسى أن يتصف بذلك، ولذلك سارع في جوابه إلى تبرئة نفسه من ذلك ملتجأً إلى الله أن يعصمه حتى لا يكون من الجاهلين، وحين أدركوا أن الأمر بذبح البقرة مندرج في مقام تبليغ أحكـــام الله، وما كان لرسولهم أن يهزأ في مثل تلك

١- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١/٥٤٧.

المقامات، ولذلك قيل إن استفهامهم على ذلك الشكل لا ينمّ عن الكفر بتكذيبهم لموسى، وإنما ينمّ عن جفوة الطبع وغباوة الفهم حين أدركوا ذلك أخذوا يخفّون في أسئلتهم عن أوصاف البقرة وهم يعلمون أن أجوبة موسى هي في مقام التبليغ عن ربّه بدليل قولهم في كل مرة ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، والدّعاء هو الطلب من الأدنى إلى الأعلى، والمعنى ادع عنا ليجيبك عن أسئلتنا، وقيل: إن كثرة أسئلتهم عن أوصاف البقرة كان حرصا منهم على استيفاء الصفات المطلوبة في ما يذبح للقرابين، وخصّ الله البقرة من تلك القرابين لأنهم كانوا يعبدونها، ولأنهم أُشربوا في قلوبهم العجل كما تقدم فأمرهم الله أن يذبحوا ما حُبِّب إليهم تطهيرا لنفوسهم من أوضار الشرك القديم.

ويظهر تعنتهم وسوء أدبهم مع الله ورسوله في أسلوب طلبهم بقولهم: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، ولو أنهم كانوا مذعنين لامتثال الأمر دونما تردّد لقالوا: "ادع لنا ربنا"، وقولهم: ﴿مَا هِيَ﴾ للاستفسار عن صفاتها لا عن الكنه والجنس بدليل قولهم: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾، وقد علم الله ما في نفوسهم من شكّ وتردّد غلوّا في الدين وإعناتا للرسول فكان لقوله تعالى خلال البيان: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤمَرُونَ﴾، كان في ذلك تربية لما يجب أن يكونوا عليه من الاستجابة لأوامر الله والإسراع في تنفيذها لأن ذلك من مقتضيات الإيمان الصحيح، ويتلخّص البيان الإلهي للأوصاف المطلوبة في ما يلي:

- أنها بقرة عوان: أي متوسّطة السّن، فلا هي صغيرة ولا كبيرة.

- أنها لونها أصفر فاقع تُدخل المسرة في نفوس الناظرين إليها، وحصول المسرة مسند إلى البقرة لا إلى اللون ليفيد تمازج الشكل واللون في الصورة المستحسنة.

- أنها من الأبقار السائمة غير مذلّلة بالحرث والسقي سليمة من العيوب كالعرج والعور، ليس بها علامة أخرى من غير اللون الأصفر.

وبعد استيفاء البيان المطلوب، وما فيه من إعنات وتشدّد، أصبح الظفر بهذا النوع من الأبقار عسير المنال، وفي حالة وجوده يكون غالي الثمن، ولذا قيل بأنهم لم يجدوا ذلك النوع المطلوب إلا عند يتيم صغير ساوموه فيها فتغال في ثمنها حتى اشتروها بملء جلدها ذهبا.

وللتنبيه على ما تطلب ذلك الإلحاح من الأسئلة عن أوصافها، ثم البحث عنها وتحملهم لثمنها الباهظ، جاء قوله تعالى: ﴿**الَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ**﴾، وقولهم لرسولهم:﴿الَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالبيان الواضح الثابت، ولا يعني ذلك تكذيب رسولهم في ما قاله قبل ذلك،كما يقال للرأي السديد يدلي به أحد المفكرين "فلان أصاب كبد الصواب".

وبهذه الإجابة ينتهي المشهد المتقدم في الترتيب للفائدة المذكورة وهو معبّر عنها من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ إلى قوله:﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾، والجملة المعترضة في قولهم لموسى:﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ تدلّ على أن القوم لم يتجرّدوا عن إيمانهم، وإن مراجعتهم تلك إنما هي لزيادة التثبت في أمور الدين، وتعليق ذلك بمشيئة الله طلبا للاهتداء هو من دواعي الإيمان بلا شك غير أن الإفراط في كل شيء قد يؤدي إلى نقيضه كما تقول الحكمة: "كل شيء تجاوز حده انقلب إلى ضده".

وقد ابتلي كثير من المسلمين بهذا الغلو في الدين فضرّوا بأنفسهم وبغيرهم وصدق رسول الله إذ يقول:« **إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق،**

فإن المنبتّ لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى».[١]

والشطر الثاني من القصة هو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ، فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: ﴿وَإِذْ﴾ للتذكير بنعم الله على بني إسرائيل ومقابلتهم إياها بالكفران، وقصة القتل هذه مسندة إلى الجميع على اعتبار المسؤولية التضامنية للأمة في مجموعها، وهي مقدمة في المعنى، إذ كانت السبب في ذبح البقرة لمعرفة القتيل، إذ كتموا القاتل، وتدافعوا تهمة قتله، وقيل: إن القتلة تظلموا أهل قريتهم ليأخذوا ثأر القتيل، ولم يكن هناك شاهد عليهم، فأراد الله إظهار ما كتموه بوسيلة ذبح البقرة وضرب القتيل ببعض أجزائها ليعيد الله الحياة للقتيل فيفصح عمن قتله ليقتص منه موسى عليه السلام وذلك الجزء المضروب به القتيل، ما هو إلا وسيلة جعلها الله لردّ الحياة إلى القتيل -وهو جزء ميت- حتى لا يظن القوم أن الحياة انتقلت من حيّ إلى ميّت، بل هي قدرة الله جسدها في هذه الوسيلة المادية ليستيقن القوم - وهم يؤمنون بالبعث-، وليستيقنوا بقدرة الله وهم يشاهدون ما حدث، وإن ذلك من آيات قدرة الله وعظمته.

وبما أن كيفية إحياء موتى من عالم الغيب نجد النصّ ينعدم من الحوار في هذه الحادثة، لأن ذلك ليس بالأدب مع الله، ثم هو أليق بأفهام البشر، وسوف تأتي قصة إبراهيم عندما سأل ربّه: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ (البقرة:٢٦٠)، مما يدلّ على عجز أفهامنا لإدراك كيف يتمّ ذلك، بل وسيلتنا في

١ - رواه البيهقي في شعب الإيمان حديث ٣٨٨٥ عن محمد بن المنكدر عن عائشة ٤٠٢/٣.

مثل تلك المحالات الغيبية هي الإيمان بقدرة الله، والإشارة في قوله تعالى: ﴿كذلك﴾ يُحتمل أن تكون الإشارة إلى العرب المنكرين للبعث، أو هي من مقول القول لبني إسرائيل.

والله أعلم.

أنّى لقلوب اليهود أن تلين ؟؟

أ)- النص:

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: من القسوة والقساوة وهي الصلابة في الأجسام. وتكون في القلوب مجاز تشبيه، ووجه الشبه هو عدم قبول التحوّل عن الحالة الموجودة إلى حالة أخرى تخالفها، وقوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ لزيادة التعجب من تلك القسوة بعدما شاهدته من الآيات. ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾: تأتي "أو" لمعان مختلفة، تأتي للترديد والتشكيك بالنسبة للمخاطبين، وتأتي للتقسيم وللتخيير، وتكون للإضراب، سيما في مقام الذم كما استعملت

هنا، وأما في مقام المدح فيحسن استعمال "بل". ﴿لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ﴾: أي ينبع ويخرج بكثرة واندفاع. ﴿لَمَا يَشَّقَّقُ﴾: أصله يتشقق، فأدغمت التاء في الشين أي يتفتح الصخر شقوقا. ﴿لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾: أي تتزل من علوّ خوفا من الله، والخشية هي الخوف الباعث على التقوى.

ج)- البيان والتفسير:

كان المفروض من بني إسرائيل أن تلين قلوبهم لذكر الله بعدما شاهدوه من تلك الآيات والمعجزات السابقة، سيما الآية الأخيرة بإعادة الحياة إلى القتيل ليفصح عن قاتله الحقيقيّ، غير أن الواقع كان على خلاف ذلك، والعطف بـــ"ثم" لإفادة التراخي الرّتبي، ويدلّ ذلك على أن من قست قلوبهم جاؤوا متأخرين عن تلك الأحداث ولذا أكّده الله تعالى بقوله: ﴿مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾، والإشارة إمّا إلى الأحداث السابقة كلها ومنها إحياء القتيل، وهو أدعى إلى الخشوع والامتثال، أو الإشارة إلى خصوص الحادثة الأخيرة لأنها أدعى للتعجب من قدرة الله.

وحتى تتضح الصورة لاستغلاق تلك القلوب وشدة قساوتها، رسم الله هذه الصورة البديعة فقال: ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**﴾، وتشبيه قساوة القلوب بقساوة الحجارة، لأنها أعرف للنّاس وألصق باستعمالاتهم في كلّ مراحل حياتهم، بل أصبحت تلك القلوب أشدّ قسوة منها، وبما أن المشبّه به يجب أن يكون أقوى من المشبّه، فإنّ إكمال الصّورة تطلّب نوعاً من التّعليل والبيان فقال جلّ من قائل: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا

لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ﴾، ومهما اختلف اللّغويّون في معنى "الواو" هنا، فإنّ الجمل المتلاحقة لتعداد الأحوال التّي تفضل فيها الحجارة تلك القلوب، هذه الجمل متمكّنة من مكانها المناسب ليجيء بعدها ذلك التّعقيب الذي يحرّك الشّعور الإيماني.

وصف الله تعالى الحجارة الصّلبة بثلاث صفات تدلّ كلّها على أفضليّتها على تلك القلوب، إذ تنزّلت في قساوتها وإعراضها عن ذكر الله عن دركة الحجارة القاسية بمحض تكوينها الطّبيعي، فقال تعالى:

- ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ﴾.
- ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَآءُ﴾.

فهذه الحجارة الصّلبة بطبيعتها قد تلين فينبثق منها عنصر الحياة المتمثّل في الماء، إمّا عيوناً تسقي ما حولها، وقد تجتمع دافقة غزيرة، فتسيل أنهاراً تحمل الخير والبركة إلى أبعد مدىً تحيي الأرض وتسقي الحرث.

- ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ﴾.

وقد تنحطّ الصّخور العظيمة وتندفع من أعالي الجبال بمختلف المؤثّرات الطّبيعيّة كالرّياح والأعاصير والبراكين والزّلازل ونراه شيئاً طبيعيّاً، غير أنّ التعبير القرآني ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ﴾ فيه إيحاء بالغ لترسيخ الإيمان بقدرة الله وعظمته، وأنّ كلّ ما في الوجود خاضع لسلطانه حتّى ما نراه نحن جماداً لا يعقل، وبنو إسرائيل هم أوّل من شاهدوا تلك الآيات على يد رسولهم حين انبجس الماء من الصّخر، وحين رفع فوقهم الطّور، أفبعد ذلك لا تلين قلوبهم لذكر الله؟

وفي هذه الأخبار تذكير للمسلمين وتحذير لهم حتّى لا يقعوا في ما وقعفيه من قبلهم، وهو ما نجده صريحاً في سورة الحديد عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَانِ لِلذِينَ ءَامَنُواْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ، وَلاَ يَكُونُواْ كَالَذِينَ أُوتُواْ الكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد:١٦).

ثمّ يجيء هذا التّذييل المناسب المشوب بالتّهديد إن هم تمادوا في غفلتهم وعنادهم، بأنّ ذلك محصيّ عند الله، لأنّه لا ينسى ولا يغفل، وأنّه يجازيهم على ذلك: ﴿**وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾، ومن قراءات الآية أنّ الجمهور قرأ بالتّاء الفوقية، خطاباً لبني إسرائيل وقرأ ابن كثير ويعقوب وخلف ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالياء للانتقال من خطاب بني إسرائيل إلى خطاب المسلمين للتّذكرة والعبرة كما تقدّم.

والله أعلم.

لا مطمع في إيمان اليهود برسالة الإسلام

أ)- النّصّ:

أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾: الطّمع هو ترقّب حصول شيء محبوب، وهو في معنى الرّجاء، ويتعدّى بـ"في"، واللام في "لكم" لمعنى التّضمين والتّعليل. ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾: المقصود بهذا الفريق هم العلماء الأحبار، وكلام الله هو الوحي المنزّل على موسى وعلى محمد -عليهما السّلام- والتّحريف من فعل"حرّف" الخروج عن جادة الطّريق، وفي المعاني هو إخراج مدلولاتها عمّا جعلت له، بالتّبديل أو الكتمان. ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾: أي انفردوا مع بعضهم البعض.

﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ﴾: بما فتح الله عليكم، الفتح بمعنى القضاء والحكم، أو بمعنى البيان والتّعليم، وهما متلازمان، لأنّ القضاء يستلزم بيان الحقّ، ويحاجّوكم: أي يجادلوكم، ولا يُقصد به المفاعلة من

الطّرفين، بل هو لتأكيد الاحتجاج. ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ﴾: أمّيون مفرده أمّي، من لا يعرف القراءة والكتابة، قيل: هو نسبة إلى الأمّة - أي عامّة الناس- أو إلى "الأمّ" على معنى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ (النحل:٧٨)، والأمانيّ جمع أمنيّة، مشتقّة من فعل "منى" بمعنى قدّر الأمر، فالأمانيّ هي التّقادير النّفسيّة التي يحسبها صاحبها حقّاً وليست كذلك، كما يعتقد العوامّ أشياء من الدّين وليست منه.

ج)- البيان والتّفسير:

إنّ طول النّفس في عرض وقائع بني إسرائيل ومواقفهم من رسول الله وصحابته ينمّ عن ما كان يعانيه المسلمون في المدينة من دسائس ومكايد اليهود، ممّا صوّره القرآن في الآية السّابقة من قساوة قلوبهم وتحجّرها أشدّ من قساوة الصّخر، وحتّى لا يقع المسلمون في حبائل مكرهم، أو يغترّوا بمراوغاتهم ودعاويهم، نجد السّياق تتخلّله -أحياناً- خطابات للرّسول والمؤمنين تثبّتهم على ما هم عليه من الحقّ وتحذّرهم من مكر اليهود ودسائسهم، وتكشف ما يضمرونه من الحقد، وما درج عليه خاصّتهم وعامّتهم من التّحريف والتّضليل، ومن تلك الالتفاتات القيّمة ما ورد في هذه الآيات وما بعدها من قوله تعالى: **﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾:**

جاء هذا الاستفهام الإنكاريّ في أول خطاب الله للمؤمنين لتيئيسهم من إيمان اليهود برسالة الإسلام، جاء نتيجة معقولة لطبيعة قلوبهم القاسية المبيّنة في الآية السّابقة بذلك التّصوير البليغ، فهو متفرّع على ما سبق ذكره من مواقفهم

وأوصافهم، وهذا الاستفهام التّعجيبي يفيد أن لا مطمع ولا رجاء في إيمان هؤلاء القاسية قلوبهم عن ذكر الله، ولا شكّ أن مثل هذا التّيئيس يدلّ على أنّ ثمة محاولة من الرّسول وأصحابه لدعوة هؤلاء إلى الإيمان كما كلّفهم الله بذلك، وليس حتماً أن يؤمن كلّ من دُعي إلى الحقّ، لأنّ الهداية أمرها بيد الله كما قال لرسوله: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنَ اَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَنْ يَّشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص: ٥٦)، ثمّ علّل الله إنكار إيمان اليهود بعلّتين:

- التّفريع على ما وُصفت به قلوبهم من القساوة.

- قوله تعالى:﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

تعدّدت آراء المفسّرين في المراد من قوله: ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أهُم الأقدمون من أسلاف اليهود أم هم الحاضرون في وقت التّنزيل؟، ثمّ تحديد الأقدمين: أهم السّبعون الذين اختارهم موسى لميقات ربّه، أم هم من جاءوا بعدهم من الأحبار؟، وكلام الله هو الوحي المنزّل على موسى أو على محمد، فيكون سماعه مباشرة من الرّسول؟، أو بواسطة النّقل بالنّسبة للذين جاءوا من بعد؟.

وأيّاً ما كان هذا الفريق، فهم فئة خاصّة من علية القوم وعلمائهم، ويسند ذلك ذكر القسم المقابل من الجهّال والعوامّ في قوله:﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ هؤلاء الخواصّ من علماء اليهود دأبهم تحريف كلام الله، بإخراجه عن مدلوله الحقيقي لبيان أحكام الله في شريعته، ولا يقتصر ذلك التّحريف على ما يخصّ صفات الرّسول الخاتم، بل هو شامل لكلّ التّحريفات التي قاموا بها إشباعاً لرغباتهم في تأثيل الأموال، بضروب من التّأويل والاستغلال، وقد جرى الخلف

على سنن السّلف في ذلك، ويقومون بذلك عن قصد ودراية، فكيف يُرجى من هؤلاء إيمان، وتلك سمات تتوارثها أجيالهم، فما هم بتاركين لها.

﴿وَإِذَا لَقُوا الذينَ ءَامَنُواْ قَالُواْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ، أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: لا شكّ أن الضّمير عائد إلى المتحدّث عنهم من بني إسرائيل، وجاءت الصّفة الثانية معطوفة على الأولى، ممّا يرجّح أنّها صفة للفريق المذكور، فقد أضافوا لجريرتهم في تحريف كلام الله صفة النّفاق والمراوغة، وتلك خسيسة أخرى تنمّ عن ضعف الشّخصية، تظهر في فريق من النّاس عندما تقوم الدّعوات الصالحة والنّهضات التّغييريّة في المجتمع، كما صنّف الله تعالى أنواع النّاس أزاء هداية القرآن في أوّل السّورة، فهم أزاء التّغييرات الجديدة لا يحاولون إدراك المقاصد والغايات في إصلاح الأوضاع العامّة، لأنّهم أنانيّون لا تعنيهم إلاّ مصالحهم الخاصّة، ولذا فهم يتربّصون الأوضاع، وعندما تميل الأمور إلى نجاح الحركة، ويخشون أن يبقوا وراء القافلة، فإنّهم يتقمّصون صفة النّفاق والمراوغة، كذلك فعل بعض اليهود وأشياعهم من منافقي العرب مع رسول الله وصحابته، فهم إذا لقوهم واجتمعوا بهم، قالوا آمنّا بما معكم، لأنّ الرّسول مبشَّر به في التّوراة، وبذلك يتّخذون يداً عند رسول الله وأصحابه، بينما إذا خلا بعضهم إلى بعض قال الذين لم ينافقوا للذين نافقوا بلهجة التّوبيخ والتّقريع: أتحدّثونهم – أي المسلمين- بما فتح الله عليكم، أي بما عندكم من التّوراة من البشارة بمحمد، وأنّه يجيء مصدّقاً لما معكم، أو تحدّثونهم بما قضى الله به عليكم من الأحكام وبيّنه في شريعتكم، فتكونون بذلك قد أعطيتم الحجّة للمسلمين ليجادلوكم بها ويخاصموكم عند ربّكم بها يوم القيامة، وفي نهاية قولهم لبعضهم البعض

يؤكّدون التّوبيخ بقولهم: ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾، حتّى لكأنّ أساليب النّفاق والمداجاة من علامات العقل الرّاجح، ولبئس ما يظنّون.

ومن ثَمّ يجيء الرّدّ الإلهيّ لتفنيد زعمهم بالاستفهام التّقريري: ﴿أَوَلاَ يَعْلَمُونَ﴾، نفي علمهم هو لتقرير بلازمه، أي أفلا يعلمون أن الله تعالى يعلم السّرّ والعلن، فهم محجوجون بما عندهم من التّوراة، سواء حدّثوا به المؤمنين أو لم يحدّثوا، تلك هي أحوال خاصّة لليهود من علمائهم وأحبارهم، فما هو شأن عامّتهم؟.

ذلك ما يبيّنه الله تعالى بقوله: ﴿أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾، فإذا كان عقلاؤهم ميئوساً من إيمانهم على مالهم من دراية بكتابهم، فما بال الدّهماء من عامّتهم، وهم لا يقرأون ولا يكتبون؟، ولا يعرفون عن دينهم إلاّ تلافيق سمعوها و لم يعوها، وهم متمسّكون بالأماني الكاذبة، بأنّهم شعب الله المختار، وأنّ الله يغفر لهم ذنوبهم، فلا تمسّهم النّار إلاّ أيّاماً معدودة، وأنّهم أبناء الله وأحبّاؤه...إلخ، ممّا لا سند له من وحي الله ولا من بيان رسول الله، بل هي تلافيق مبنيّة على الظّنّ، والأمانيّ إذا لم تطابق الواقع المعقول فهي أكاذيب اخترعها لهم أولئك المحرّفون لكلام الله فتقبّلوها عن تقليد وبلادة، وفسّر البعض" الأمانيّ" بالقراءة، فيكون المعنى أنّهم يردّدون نصوص كتابهم ولا يفقهون لها معنى، فتكون الآية في معنى قوله تعالى:﴿مَثَلُ الذِينَ حُمِّلُواْ التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ (الجمعة:٥).

ثمّ ختم الله بهذا الحكم عليهم فقال: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾، والظّنّ هو خلاف العلم اليقيني، لأنّ إيمانهم وإن كان مجزوماً به عندهم لم يكن مبنيّا على

دليل علمي، فهو خلاف الواقع، ولذا فإنّ اعتقادهم يكون معرّضاً للشكّ والتردّد متى تمكّنوا من الأدلّة وفهموها.

والله أعلم.

دعاوى الأحبار وتحريفاتهم وافتراءاتهم على الله

أ)- النّص:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿فَوَيْلٌ﴾: لفظ يدلّ على الهلاك ليس له فعل من لفظه، فقيل هو اسم مصدر وقيل مصدر، ومؤنّثه "ويلة" قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ...﴾ (الكهف:٤٩). ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾: أي مختلقاً من عندهم،

وذكر الأيدي في الكتابة للتّأكيد كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، والقصد تحقيق وقوع الكتابة. ﴿لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾: الثّمن هو إرضاء العامّة لاستغلال سذاجتهم. ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾: قيل هي أربعون يوماً لتكفير عبادهم العجل، وقيل سبعة أيّام، عن كلّ ألف سنة في الدّنيا يوم واحد، لأنّ عمر الدّنيا عندهم سبعة آلاف سنة. ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا﴾: حُذفت منه همزة الوصل استغناءً بهمزة الاستفهام. ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَاتُهُ﴾: السّيّئة هي الذّنب الكبير أو الصّغير الذي يصرّ عليه، وهي تشمل الشّرك وما دونه، وأحاطت به خطيئاته: أحدقت به من كلّ جانب، فيموت مشركاً أو غير تائب.

ج)- البيان والتّفسير:

لقد ذكرت الرّوايات لأسباب النّزول مقولات أذاعها أحبار اليهود بدّلوا فيها صفات رسول الله لينكروا رسالته، أو لتحديد مكثهم في النّار كما تصوّرهم لهم أمانيهم الكاذبة، وهذه إحدى افتراءاتهم الكثيرة التي يتولاّها أحبارهم.

بعد بيان أصناف اليهود من محرّفين لكلام الله ومنافقين وأمّيّين، رتّب الله على ذلك هذا الصّنف الخاصّ من الأحبار المستغلّين لسذاجة العامّة بالتّزوير على الله، إمّا بكتمان ما عرفوه من الحقّ، وإمّا بالتأويل الفاسد لنصوص التّوراة يسجّلونها بأيديهم وينشرونها في أتباعهم على أنّها من عند الله لكسب الأموال والمحافظة على الجاه والسّلطة، فقال تعالى: **﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا**

﴿كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾:

رتّب الله تعالى على ذكر تحريفهم لكلام الله عن قصد وعمد هذا الإخبار بما يستحقّونه من سوء العذاب والهلاك استفظاعاً لذلك العمل، فأكّد الكتابة بالأيدي لزيادة التّقبيح، لأنّ ما يكتبونه إنّما هو تزوير وتلفيق ينسبونه على الله كذباً وافتراءً، يستغلّون بذلك العاطفة الدّينيّة عند العوامّ قصد ابتزاز الأموال واستغلال النّفوذ باسم الدّين، يشترون بالحقّ النّاصع ما هو زهيد من متاع الدّنيا فهم كما قال عنهم رسولهم موسى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الذي هُوَ أَدْنَىٰ بِالذِي هُوَ خَيْرٌ﴾، ولفظاعة ما ارتكبوه كرّر الله الوعيد مرّتين، لأنّهم ارتكبوا جريرتين.

أ- التّزوير والافتراء على الله بما لم يترل به وحي.

ب- أكل أموال النّاس بالباطل بمختلف وسائلهم الخسيسة، فهم على شرّ وضلال في الوسيلة والقصد، فكيف يُرجى من هؤلاء أن ينصاعوا إلى الحقّ، وأن يستقيموا على هدى الإسلام ويؤمنوا برسوله؟.

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ, أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾: وهذا لون آخر من دعاويهم ينمّ عن الأماني والغرور، وهي معطوفة على ما سبقها، تقع منها موقع الحال، حتّى تكتمل صورة الشّرّ والضّلال عند اليهود بأفعالهم وأقوالهم، إذ هم يتجرّؤون على الله بادّعائهم نجاتهم من عذاب جهنّم مهما اقترفوه من ذنوب، حتّى أنّهم لا يلبثون في النّار إلاّ أيّاماً معدودة -أي قليلة-، والتّعبير بفعل ﴿تمسّنا﴾ -وإن كان كناية عن الاصطلاء بحرّها- فإنّه يدلّ على اعتقادهم بأنّ عذاب النّار يكون مخفّفاً عنهم كاللّمس الخفيف باليد.

وأيّاً كانت الرّوايات التي حدّدت تلك الأيّام في اعتقادهم فإنّ وصفها بـــ"المعدودة" تدلّ على القلّة في التّعبير العربيّ المألوف، ولكن الرّدّ الإلهي جاء مفنّداً لتلك الأماني الباطلة التي لا تستقيم مع سنّة الله في الحساب والجزاء، وبالتّالي لا تتوافق مع عدل الله في قوله: ﴿فَمَنْ يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾(الزلزلة:٧-٨).

ولله الحجّة البالغة في ردّه القاطع، إذ أمر رسوله أن يوجّه إليهم هذا الاستفهام التقريري الذي حصرهم به بين أمرين، لابد لهم من الاعتراف بأصدقهما في الواقع فقال: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُّخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ, أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾، وبما أنهم لا يستطيعون ادّعاء أيّ وعد من الله في ما يمنّون به أنفسهم فلم يبق إلا الاعتراف بأنهم يقولون على الله ما لا يعلمون، ويتضمن الاستفهام معنى الإنكار والتوبيخ، ثم يبطل الله دعواهم تلك بهذا الجواب القاطع الذي يحمل الحكم العام لكل الملل، ويصحّح المعتقد بما يكون في اليوم الآخر فقال جلّ من قائل: **﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَاتُهُ, فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾**:

فالجزاء وفق العمل المكتسب إن خيرا أو شرّا، و"بلى" إبطال لتلك الدعوى الفاسدة، أي أنتم أيها اليهود في هذا الحكم العامّ ممن سيخلّد في النار بسبب اكتسابه لسيئة ثم لا يتوب عنها، بل يدمن عليها ويستسيغها ويتمادى في اجتراح المعاصي حتى تحيط به من كل جانب بحيث لا يبقى منفذ لنور الهداية إلى قلبه.

وكلمة ﴿سَيِّئَةً﴾ مطلقة المعنى تتناول كل أنواع المعاصي كبيرها وصغيرها في حالة الإصرار وعدم التوبة، ومن المفسرين من خصّها بالشرك حتى

ينسجم مع معتقده بعدم خلود الموحّد في النّار، ولا دليل على التخصيص.

وقضية الخلود في النار قد استنفدت جهدا كبيرا من علماء الكلام، وليس وراء ذلك في مجال العقيدة إلاّ الحيرة والاضطراب والتواكل المغري باجتراح المعاصي والإدمان عليها اعتمادا على مثل تلك القضايا الكلامية التي شوّشت على المسلمين معتقدهم في مفهوم الإيمان أهو معتقد وقول فقط، أم هو قول وعمل، وبالتالي فإن المؤمن العاصي، مهما أحاطت به خطيئاته فإنه غير مخلّد في النار، بينما الرعيل الأول من الصحابة-رضوان الله عليهم- ما وقعوا في مثل ذلك الهوس الكلامي، وما لجأوا إلى الاختلاف في تأويل المتشابه.

والعجيب أن يقع المسلمون في ما وقع فيه أهل الكتاب ومثل هذه الآيات تنكر عليهم ذلك، وقد لزّ الله الفريقين في قرن واحد إذ قال في سورة النساء: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (النساء: ١٢٣-١٢٤).

والتعبير بفعل ﴿كَسَبَ﴾ يدلّ على مسؤولية المكلّف في اختياره الحرّ لما يقترفه من الأعمال إن خيرا أو شرّا، وبالتالي فإن الجزاء المترتب على ذلك من عذاب النار هو من مقتضى العدل الإلهي جزاءً وفاقا، وبعد الوعيد يأتي الوعد الندي بجنة الخلد للمتقين الأبرار الذين يجمعون بين المعتقد الصحيح والعمل الصالح، لا بمجرد الادعاء والأماني عملا بقول رسول الله: «**الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله**

الأماني».[1]

والله أعلم.

مضامين الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل، ومخالفتهم إياه

أ) – النص:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

ب)– التحقيق اللغوي:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾: إعادة العطف بـ"إذ " تدلّ على رجوع السياق إلى ذكر أحوال بني إسرائيل، وأخذ الميثاق عليهم يعني التزامهم بأحكام شريعة التوراة.﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾: أصله و"إحسانا بالوالدين" يجعل

---

١ – رواه الحاكم في المستدرك عن شداد بن أوس، حديث ١٩١.و قال: صحيح على شرط البخاري و لم يخرجاه، ١/ ١٢٥. و رواه الترمذي عن شداد بن أوس أيضاً، كتاب صفة القيامة و الرقائق و الورع، حديث ٢٤٥٩، ٦٣٨/٤.وضعّف ابن حجر رواية الحاكم ، كما ضعّف رواية الترمذي لضعف شداد بن أوس. أنظر: موسوعة ابن حجر، ١٨٠/٦.

المصدر بدلا من فعله للتأكيد. ﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ﴾: هم قرابتك من جهة الرحم أو العصب. ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾: جمع يتيم وهو من فقد والديه أو أحدهما. ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾: جمع مسكين أي الفقير الذي يعجز عن الكسب، وهو كما وصفه الرسول ﷺ: « **من لا يؤبه به فيعطى، ولا يقوم فيسأل الناس**».[1]، ﴿قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾:أي عاملوهم بالحسنى لتوطيد العلاقات الاجتماعية بين الناس. ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾: أي عن ذلك الميثاق بمخالفتكم إياه.

ج)- البيان والتفسير:

عودة إلى ذكر أحوال بني إسرائيل ومواقفهم المخزية، فبعد أن عدّد الله نعمه عليهم وذكّرهم بمعجزات رسولهم، وكيف قابلوا تلك النعم بالتقصير والكفران.

وللإمعان في توقيفهم على مساويهم، عاد السياق هنا بشيء من التذكير بمضامين الميثاق المأخوذ على أسلافهم ببيان أمهات الأحكام في العبادات والمعاملات، وما كان من إهمالها وترك العمل بها لدى الخلف والسلف إلا قليلا منهم، ومن شأن هذا البيان المطنب أن يتحقق بنو إسرائيل بأن دعوة الإسلام جاءت مصدّقة لما معهم من أصول الدين، وبالتالي يظهر تعنّتهم وعنادهم وما ينتظرهم من سوء العواقب على ذلك، كما يندرج هذا البيان في تعداد

---

١ - روى البخاري نحوه عن أبي هريرة، في كتاب التفسير، باب قوله تعالى ﴿ لا يسألون الناس إلحافا﴾، حديث ١٤٠٩، ٢/ ٥٣٨، بلفظ: «ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن به فيتصدق عليه ولا يقوم فيسأل الناس».

الأسباب التي تستبعد إيمان اليهود برسالة الإسلام، ولذا افتتح الإخبار بـــ"إذ" معطوفا على ما قبله، أي أذكر أيها النبي حين أخذنا ميثاق بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَإِذَ اَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآءِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ الزَّكَوٰةَ﴾:

وقد تقدم ذكر الميثاق في ما سبق عند توجيه الخطاب لأسلاف بني إسرائيل عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَ اَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾، تذكير بما هو معروف لديهم فهو يشمل السلف والخلف، ولكن الله تعالى بيّن مضامين ذلك الميثاق بذكر أمهات الأحكام وأصول العبادات والمعاملات. فقوله تعالى:﴿لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ وما عطف عليه بيان لما في الميثاق، جاءت بصيغة الإخبار وهي في معنى الأمر والنهي للمبالغة والتأكيد، حتى كأن الأمر أو النهي قد امتثل فأخبر به وهو من الأساليب البليغة، ويشتمل الميثاق على ما يلي:

أ – ﴿لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ﴾: وعبادة الله وحده لا شريك له، أصل عظيم للديانات كلها قال تعالى:﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ يُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاعْبُدُونِ﴾(الأنبياء: ٢٥)، وعبادته تعالى تقتضي عدم الإشراك به بأي شكل من أشكال الشرك ما ظهر منه وما خفي.

ب – ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾: أي تحسنون بالوالدين إحسانا، وتقديم المتعلق على متعلّقه لتأكيد الأمر ولا يتمّ الإحسان إلا باستكمال أنواع البرّ لهما بكل ما يجب نحوهما من الرعاية والسهر والعناية، وللتأكيد على ذلك فقد قرن الأمر بالإحسان إليهما بالأمر بالتوحيد أو النهي عن الشرك بالله، وليست هذه

العناية بالوالدين مقصورة على القرآن الكريم، بل هي قدر مشترك في الديانات السماوية، وبالأخصّ في التوراة التي تنصّ أن من يسبّ الوالدين يقتل.

ج – ﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ﴾: التقدير أحسنوا بذي القربى، وهو من تربطك به وشيجة النسب ولحمة الرّضاع لها حقّها كالنّسب لقوله ﷺ: «**إن الله حرّم من الرّضاع ما حرّم من النسب**» [1] وقد استغني عن ذكر الأولاد وذكر من دونهم في النسب لقوة حبّهم والرحمة بهم من طرف الوالدين بدافع الغريزة، والفطرة السليمة تقتضي ذلك التلاحم والتراحم بين ذوي القربى كما قال تعالى: ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ (الأنفال:٧٥).

د)–﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾: خصّص الله بالإحسان هذا الصنف من الناس بما يميّزهم به وهو صفة اليتم والمسكنة وقد تقدّم شرحهما، وقد يكونون من الأقرباء فيكونون أولى بالإحسان والرعاية، ويتحقق الإحسان إلى هذا الصنف بكل ما يحفظ لهم كرامتهم الإنسانية، حتى لا ينشأوا على الحقد والضغينة، وهم كلّما وجدوا من المجتمع القلوب الرحيمة والأيادي الحانية، أصبحوا أعضاء صالحين.

هـ)–﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾: لقد تغيّر الأمر من الفعل إلى القول من باب المعاملة الحسنة، وذلك عندما اتسعت دائرة المجتمع إلى الفضاء الواسع لجميع الناس، وقد يتعذّر الإحسان إلى جميع الناس بالفعل، فلا أقل من أن

---

١ – رواه الترمذي عن علي بن أبي طالب في كتاب الرضاع، باب ما جاء يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، حديث ١١٤٦، قال الترمذي: وفي الباب عن عائشة وابن عباس وأم حبيبة. قال أبو عيسى: حديث علي حسن صحيح والعمل على هذا عند عامة أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم لا نعلم بينهم في ذلك اختلافا. ٣/ ٤٥٢.

تسعهم بحسن أخلاقك بلين الجانب وطيب القول والرَّسول ﷺ يقول:«**والكلمة الطيبة صدقة**»،[١] ويقول: «**إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بحسن أخلاقكم**».[٢]، فما أبلغ بيان القرآن الكريم.

و)-﴿**وَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ الزَّكَوٰةَ**﴾: أي على الطريقة التي فرضها الله عليهم في التوراة بشرط أن يأتوا بهما على الوجه الأكمل، بما يؤدون به حق الله تعالى وحق العباد.

تلك هي مضامين ذلك الميثاق أخبر الله بها المؤمنين ليتبيَّنوا صدق ما بين أيديهم من وحي الله، ومع ذلك ينتقل الخطاب إلى الحاضرين معهم من بني إسرائيل، يصفهم بالتولّي والإعراض ليكون أنكى وأخزى فقال الله تعالى: ﴿**ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ**﴾:

ومع التولي والإعراض عما التزموا به من الميثاق وهم متعمّدون لذلك كفرا وعنادا، وقد استثنى من ذلك القليل منهم، سواء من كان منهم في زمن موسى أو بعده، وللحق أنصاره ولو كانوا قلّة، ولكن الله أنصف حقهم في معرض التوبيخ والتنديد بغيرهم ولكن الصّلحاء إذا ضعفوا وتركوا واجبهم الدَّعوي وناموا عن الحق الذي تمسكوا به، فإن الله تعالى يوشك أن يعمّهم

---

١ - رواه البخاري عن أبي هريرة في كتاب الأدب، باب طيب الكلام، حديث ٥٦٧٦، ٥/٢٢٤١.

٢ - أورده الهيثمي في مجمع الزوائد قال: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه»، رواه أبو يعلى والبزار وزاد: «وحسن الخلق»، وفيه عبدالله بن سعيد المقبري وهو ضعيف، ٨/٢٢. وحسّنه ابن حجر: موسوعة ابن حجر: ٥/٤٣٢.

بالفتنة كما يحذّرهم الله من ذلك في قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال: ٢٥).

أعاذنا الله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن، والله أعلم.

نقض اليهود للميثاق بالقتل والنفي لأنفسهم

أ)- النص:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۖ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾: تريقون دماءكم، أي دماء بعضكم بعضا على

اعتبار أفراد الأمة الواحدة كالنفس الواحدة. ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾: أي بالنفي والتغريب. ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾: اعترفتم بذلك الميثاق وشهدتم بأنه الحق. ﴿تَظَّاهَرُونَ﴾: تتظاهرون كما قرأ الجمهور، وقرأ عاصم والكسائي وحمزة بحذف إحدى التائين للتخفيف، والتظاهر هو التعاون سواء في الخير أو الشر، والمقصود هنا التعاون على الشر لقوله: ﴿عليهم﴾، أي ضدهم، والإثم فعل يستحق به الذم. ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ﴾: أسارى وأسرى جمع أسير من أسره إذا أوثقه، والإسار هو السير من الجلد الذي يوثق به المسجون.

ج)- أوجه القراءة:

قرأ الجمهور: ﴿أُسَارَىٰ﴾، وقرأه حمزة: ﴿أَسْرَىٰ﴾. تفادوهم: مفاعلة من فداه يفديه فداء بمال أو غيره، قرأ نافع والكسائي وعاصم ويعقوب: ﴿تُفَادُوهُمْ﴾، وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وحمزة وأبو جعفر وخلف: ﴿تَفْدُوهُمْ﴾ بفتح الفوقية وإسكان الفاء. ﴿يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾: قرأ الجمهور: ﴿يُرَدُّونَ﴾ و﴿يَعملون﴾ بياء الغيبة وقرأ عاصم: ﴿تردّون﴾ بتاء الخطاب. ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: قرأ نافع وابن كثير ويعقوب: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بياء الغيبة، وقرأه الجمهور بتاء الخطاب.

د)- البيان والتفسير:

تحوّل السياق إلى صيغة الخطاب في معرض تذكير بني إسرائيل بأخذ الله الميثاق عليهم، على طريقة تنزيل الخلف منزلة السلف، إذ المخاطبون هنا هم

الحاضرون في زمن التنزيل، تذكيرا بوحدة الأمة واعتبارها أسرة واحدة فقال تعالى:

﴿وَإِذَ اَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ، ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلآء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَّاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالاِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾:

لقد أكدت التوراة حرمة الدماء وحق الإنسان في السكن وأمنه في مستقره ومثواه، كما تؤكده آية المائدة في قوله تعالى:﴿مِنَ اَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ, مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الاَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنَ اَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة:٣٢)، وهنا جاء التعبير بما يؤكد وحدة الأمة وتكافؤ الخلف والسلف في حرمة الدماء والحق الشرعي لكل فرد من أفراد المجتمع، إذ جعل دم كل فرد من أفراد المجتمع كأنه دم الآخر بعينه، وكذا الأمر بالنسبة لحقه في داره، وذلك أبلغ توجيه وأحكم تشريع لضمان المصلحة العامة وتركيز المسؤولية التضامنية بين أفراد الأمة كلّها، بإضافة الميثاق إلى ضمير المخاطبين في وقت التنزيل على اعتبار أنهم ملزمون بأحكام التوراة مثل أسلافهم، وأنهم يقرّون بذلك الميثاق ويشهدون بألسنتهم عليه، وذلك حجة عليهم لا يملكون إنكارها.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلآء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَّاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالاِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ يتتابع فيه الخطاب لليهود الحاضرين المشار إليهم بـــ﴿هَؤُلآء﴾، والترتيب بـــ"ثم" للفارق الزمني بين الأسلاف والأخلاف، فما هو واقعكم بعد ذلك الإقرار والإشهاد؟، إنه خلاف الميثاق المأخوذ، قتل لبعضكم البعض، وإخراج من الديار ظلما وعدوانا، وجاء التعبير

بصيغة المضارع للدلالة على التجدّد والاستمرار، والنص القرآني يذكّرهم بواقع قريب العهد.

يقول الدكتور وهبة الزحيلي تحت عنوان "**المناسبة التاريخية المتجددة**": كان سفك الدماء وتقاتل اليهود وطرد بعضهم بعضا من ديارهم ظاهرة شائعة فيهم، وظلت هذه الظاهرة إلى عصر التنزيل القرآني، فكان يهود بني قريظة حالفوا الأوس، ويهود بني النضير حالفوا الخزرج، فإذا نشبت الحرب بينهم، كان كل فريق من اليهود يقاتل مع حلفائه، فيقتل اليهوديّ يهوديا آخر، ويخرّب بعضهم ديار بعض ويخرجونهم من بيوتهم، وينهبون ما فيها من الأثاث والمال، مع أن ذلك محرّم عليهم بنص التوراة، وإذا أسر بعضهم فدوهم بالمال وكانوا إذا سئلوا: لِمَ تقاتلونهم وتفدوهم بالمال؟ قالوا: أمرنا -أي التوراة- بالفداء، فيقال: فلم تقاتلونهم؟ فيقولون: حياء أن تستذل حلفاؤنا، فأنزل الله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.[1]

ويستمرّ الإخبار بالواقع العجيب من أمرهم بذلك التناقض في المواقف، فهم إذ يتظاهرون مع حلفائهم العرب ضدّ بعضهم البعض بالقتل والنفي يزعمون أنهم أُمِرُوا بفداء كل مملوك من بني إسرائيل، فهم بذلك يطبّقون حكم التوراة، بينما هم يهملون حكمها في تحريم القتل والنفي، وهذا تلاعب بالنصوص المقدسة يدعو إلى التعجيب والاستنكار فقال تعالى:

﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ

---

١ - وهبة الزحيلي، التفسير المنير، دار الفكر، بيروت، دار الفكر المعاصرن بيروت، ١٩٩٨، ١/ ٢١٤، وقد نقل الدكتور هذا النص من تفسير ابن كثير، ١/ ١٢١.

﴿إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: فيا للخزي والعار لمن يرتكب جناية بيده، ثم يزعم أنه يتقرّب إلى الله بما يمحوها، فغلظة الميثاق في تحريم القتل والسبي والنفي أشدّ منها في طلب المفاداة للأسرى لو كانوا أوفياء بعهودهم، ولكنه التلاعب بالأحكام، والهشاشة في الإيمان تجعلهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون بالبعض، والإيمان كلّ لا يتجزّأ، فمن كان ذلك شأنه فإن ما يلحقه من الخزي والعار في الدنيا هو مصيره المحتوم وهو العذاب العاجل ولهم العذاب الأشدّ يوم القيامة، وما الله بغافل عمّا يعمل الظالمون، وتلك هي سنة الله في خلقه أنه يعجّل بالعقوبات الدنيوية للفاسقين عن أمره، وما هم بمنأى عن العقوبات الأخروية إن لم يتوبوا ويستقيموا على الطريقة، ثم اسند الله ذلك الوعيد بهذا الحكم العام الشامل لليهود ومن على شاكلتهم من غيرهم فقال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾:

وقد تقدم تحليل الصورة التمثيلية في قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ (الآية ١٠) من نفس السورة، فكل من آثر المنافع العاجلة وفتنته حظوظ الدنيا حتى نسي ربّه ونقض عهده، كما فعل هؤلاء اليهود مع حلفائهم، فإنه يندرج تحت طائلة هذا الوعيد الشديد الذي لا يُفتّر عنه ولا يُخفّف، وليس له شفيع عند الله ولا نصير.

أعاذنا الله من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، والله أعلم.

موقف اليهود من الرسل والكتب

أ)- النص:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿ اٰتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾: أي الكتاب المعهود وهو التوراة. ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾: قفّى مضاعف قفا يقفو فلانا أي جاء في إثره فمعنى قفينا من بعده بالرسل: أي أتبعنا رسولا إثر رسول على منهاج واحد، حذف المفعول للعلم به، والمراد ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد موته. ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾: عيسى بالسريانية اسم معرب من يسوع أو يشوع أي السيد أو المبارك، والبيّنات هي المعجزات التي أيّد الله بها عيسى كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص. ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾: التأييد التقوية والإقدار على العمل، والروح يُطلق في القرآن على معان مختلفة، يطلق على النفس الإنسانية

ويطلق على قوة لدنية من الله يكون بها عمل عجيب، ويطلق على جبريل عليه السلام، والقُدُس بضمتين وبضم فسكون مصدر واسم مصدر للطهارة والنزاهة، وروح القدس من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي الروح المطهرة، والقدوس من أسماء الله الحسنى. ﴿بِمَا لاَ تَهْوَىٰ أَنفُسُكُم﴾: تهوى مضارع هوي بكسر الواو، الشيء إذا أحبه. ﴿قُلُوبُنَا غُلْف﴾: بضم فسكون جمع أغلف أي الشديد الغلاف، والغلاف هو الوعاء الحافظ للشيء والساتر له من وصول ما يكره له. ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾: بل للإضراب، واللّعن هو الطرد من رحمة الله بسبب كفرهم. ﴿جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾: وهو القرآن المصدق لما معهم من التوراة وغيرها من كتب الله. ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: يطلبون النصر على مشركي العرب ببعثة الرسول الخاتم الذي يجدون صفته في التوراة. ﴿كَفَرُواْ بِهِ﴾: حسدا وحفاظا على الزعامة وحظوظهم الدنيوية.

ج)- البيان والتفسير:

لم تقتصر مواقف اليهود المخزية على نبيهم عليه السلام سواء في حياته أو بعد موته، بل تمادوا على تلك المواقف مع الرسل الذين جاءوا من بعد موسى إلى بعثة عيسى عليه السلام إذ قابلوهم بالإعراض والاستكبار، لأن الحق الذي جاء به هؤلاء الرسل يخالف أهواءهم ويتعارض مع مصالحهم. فأنحى الله تعالى باللائمة عليهم لذلك فقال الله تعالى: **﴿وَلَقَد ـ اتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا من ْ بَعْده بالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَات وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُ ْ بِمَا لاَ تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا**

تَقْتُلُونَ﴾:

قد تقسو القلوب إذا طال عليها الأمد وانقطع عنها النصح والإرشاد، فيجد الإنسان الغافل معذرة لانحرافه عن جادة الصواب، ومن رحمة الله تعالى وفضله على خلقه أن لا يدعهم حيارى مهملين، إذ يبعث إليهم برسله تترى لتتعهّدهم بالنصح والإرشاد، وتقيم بينهم موازين الحقّ والعدل، ولم تبلغ أمّة في هذا المجال شأو بني إسرائيل، نظراً لما خصّهم الله به من الرّسل والأنبياء حتّى عدّهم بعض المؤرّخين بالآلاف بين موسى وعيسى عليهما السلام، فحجّة الله قائمة عليهم، فليس لهم مجال للتّعلّل والاعتذار، وهذا الموكب المبارك كان موسى رائدُه بما آتاه الله من الكتاب والحكمة، فشقّ الطّريق لمن بعده من الأنبياء والرّسل على اختلاف مشاربهم في الدّعوة إلى الإيمان، وتقلّب شعب إسرائيل بين ضعف وقوّة وصلاح وفساد حتّى جاء عيسى عليه السلام مجدّداً وناسخاً لبعض أحكام التّوراة، ممّا يقتضي تأييده من الله بمعجزات خارقة وبروح القدُس، وهو عند أغلب المفسّرين سيّدنا جبريل عليه السلام ويُحتمل أن يكون المقصود منه -والله أعلم- هو روح الوحي الذي يخصّ الله به أنبياءَه لتقوية نفوسهم ومداركهم، وهو من معاني " الروح" في التّعبير القرآني ، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ (الشورى:٥٢).

أما وقد قامت حجّة الله على بني إسرائيل، فلا مفرّ لهم من الإقرار بذلك، فما حظّ أولئك الرّسل منهم؟.

إنّه ما يفيده الاستفهام التّوبيخي في قوله تعالى:﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، والفاء للتّشريك في الحكم، ومضمون التّوبيخ، أنّ موقفهم من هؤلاء الرّسل هو الاستكبار والإعراض حسداً وبغياً، والنّتيجة من ذلك هي تكذيب فريق من

أولئك الرّسل كعيسى ومحمد عليهما السلام، وقتل فريق آخر كزكرياء ويحيى عليهما السلام، واختيار صيغة الخطاب أوجع في التّقريع والتّنديد بمواجهة المجرم بفعلته السُّوءَىٰ، كما أنّ طيّها وإدماجها في الاستفهام يكون أقوى في التّوبيخ، وبدأ الله بالتّكذيب لأنّه أول ما يفعلونه، وهو ما يدفعهم إلى القتل، واختيار صيغة المضارع في " تقتلون" لتنزيل ما مضى منزلة الحاضر المشاهد، وخوطب الخَلَف بذلك لرضاهم عمّا فعل أسلافهم.

وإذا كان هذا هو موقفهم من أنبيائهم ورسلهم، فلا عجب أن يُعرضوا عن دعوة محمد ﷺ وأن يهزؤوا به بمثل قولهم:﴿**وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُومِنُونَ**﴾:

والانتقال من الخطاب إلى الغيبة بعد ذكر صفات النّقص، فيه امتهان لهم بإبعادهم عن الحضور في البال، فلا اعتبار لهم في مجال التّكريم، والتّقدير لأنّ مقولتهم: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ تتّجه إلى الرّسول والمؤمنين حطًّا من شأن الدّعوة الإسلامية ويعتذرون في الصّدّ عنها أنّ قلوبهم في أغلفة، فهي لا تعي ما يقوله الرّسول، ولا تفقه ما يتكلّم به، وفيه إيماءٌ خبيثٌ، بأنّ ما يدعوهم إليه ليس بحقٍّ، إذ لو كان حقاً لوعته قلوبهم، وذلك على المعنى الأصلي "للأغلف"، وهو أن يكون محجوباً عمّا لا يلائمه، فجاء الرّدّ الإلهي بما يبيّن كذبهم ويسجّل عليهم الكفر والعناد، إذ أضرب الله عمّا ادّعوه من القصور في الفهم والإدراك، ولكنّه الكفر الذي سدّ عليهم منافذ الهدى فلم يلتفتوا لحجّة الرّسول، كما حكى الله عن المشركين في قولهم: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ (فصّلت:٥).

وبسبب ذلك الكفر استحقّوا الطّرد من رحمة الله، إذ مردوا على الضّلال

ودرجوا على الكفر حتّى استأنسوا به، فكان ذلك الاختيار سبباً في حرمانهم من نور الهداية، وما كان الله ليظلمهم بذلك الحرمان والإبعاد إذ جرى ذلك على سنّة الله في خلقه بقانون الأسباب والمسبّبات، فهم كسائر الخلائق مفطورون على الفهم والإدراك لو أرادوا ذلك.

﴿فَقَلِيلاً مَّا يُومِنُونَ﴾: تفريع على قوله تعالى:﴿لَعَنَهُم﴾، قليلا: صفة لمحذوف دلّ عليه الفعل، والتّقدير: يؤمنون إيماناً قليلاً جدّاً، أو هو صفة للزّمان الذي يستلزمه الفعل، و"ما" زائدة للمبالغة، أوهي صلة لتأكيد القلّة، قال صاحب المنار: "إنّما قلّة الإيمان على اعتبار ما يؤمن به من أصول الدّين وأحكام الشّريعة، وبالنّسبة إلى اليقين في الإيمان، وتحكيمه في الفكر والوجدان".(١)

وقال الإمام ابن عاشور:" و(قليل) يجوز أن يكون باقياً على حقيقته مشاراً به إلى إيمانهم ببعض الكتاب، أو إلى إيمانهم ببعض ما يدعو إليه النّبيّ ﷺ ممّا يوافق دينهم القديم، أو إلى إيمان أفراد منهم في بعض الأيّام..."، ثمّ يقول: "ويجوز أن يكون " قليلا " هنا مستعملاً في معنى العدم، فإنّ القلّة تُستعمل في العدم في كلام العرب".(٢)

وممّا يزيد في تعنّتهم وعنادهم أنّهم يعرفون أوصاف رسول الله وزمان بعثته في ما عندهم من التّوراة، ويستنصرون بذلك على مشركي العرب ويقولون: "اللهم انصرنا بالنّبيّ المبعوث آخر الزّمان الذي نجد نعته في التّوراة"، ولكنّهم جحدوا دعوة الرّسول، فزادهم الله توبيخاً وقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ

١ - محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ١/ ٣٧٩.

٢ - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١/ ٦٠٠.

كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾:

الضّمير يرجع إلى اليهود المعاصرين لوقت التّنزيل، والجملة متّصلة بما قبلها لمزيد من البيان بأنّ إعراضهم كان للكفر والعناد بعدما قامت الأدلّة أمامهم بصدق ما يدعوهم إليه رسول الله بالكتاب الذي جاء من عند الله وهو القرآن الكريم، والذي يؤكّد ما يجدونه عندهم من أوصاف لرسول الله، ومعنى قوله: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذِينَ كَفَرُواْ﴾ يكون بمعنى الدّعاء في طلب النّصر بالنّبيّ الموعود به، ويكون بمعنى الإخبار والإعلام أي يخبرون المشركين بأنّ رسولاً سيُبعث ويؤيّد المؤمنين، ويعاقب الكافرين.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُوا بِهِ﴾، و"ما" تتناول موضوع معرفتهم من الرّسول والكتاب المنزّل عليه، أعيدت جملة ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾، ومفاد الجملتين واحد أعيدت لبعد الأولى والجواب هو قوله: ﴿كَفَرُواْ بِهِ﴾، والكفر بما استيقنه الإنسان وعرفه من الحقّ حقّ المعرفة لا يكون إلاّ بدافع الحسد والعناد والاستكبار، وهو من أشنع الكفر وأقبحه، فقد عرفوا النّبيّ من خلال ما في التّوراة وغيرها، وجاء القرآن مصدّقاً لما معهم -وهم يعتقدون ذلك- بدليل استفتاحهم بالنّبيّ على المشركين، وهذا الموقف يستحقّ الطّرد من رحمة الله، وهو ما أثبته الله بقوله:﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وإظهار صفة "الكافرين" للجنس أو الاستغراق، ليشمل اليهود وغيرهم ممن قضى الله أن يموت كافراً، ثمّ يبيّن الله داعية كفرهم، وبسبب ذلك الموقف فيما يأتي.

والله أعلم.

داعية كفر اليهود بمحمّد، ومَبَاءَتهم بغضب الله

أ)- النصّ:

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿بِئْسَمَا﴾: تُستعمل للذمّ، وهي مركّبة من "بئس" و"ما" الزّائدة ضدّها "نعم" للمدح، وتُفسّر "ما" باسم معرّف باللاّم والتّقدير: "بئس الشّيء شيئاً". ﴿اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾: الاشتراء بمعنى الابتياع، وهو مجاز أُطلق على استبقاء الشّيء المرغوب فيه، كمن يشتري الشّيء. ﴿أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾: تقدير المصدر كفرهم بما أنزل الله، وهو المقصود بالذّمّ، أي بئس شيئاً اشتروا به أنفسهم هو كفرهم بما أنزل الله-وهو القرآن-. ﴿بَغْيًا﴾: أي حسداً من عند أنفسهم، وهو مفعول لأجله ليكفروا. ﴿فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾: أي رجعوا بغضب مضاعف للغضب الذي لحقهم بإعناتهم لموسى، والذي استوجبوه حديثاً بكفرهم بمحمد ﷺ وهو معنى قوله: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا

وَرَآءَهُ﴾: والمقصود ما عدا التّوراة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿بَغْيًا اَنْ يُنَزِّلَ اللّٰهُ﴾: قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿يُنَزِلَ﴾ بالتّخفيف من الإنزال، وقرأ الباقون ﴿يُنَزِّلَ﴾ بالتّشديد من التّنزيل.

د)- البيان والتّفسير:

هذه الجملة المستأنفة صُدِّرت بفعل الذّمّ لليهود المعاصرين، إذ اختاروا الكفر على الإيمان، وانغلقت قلوبهم عن الإقرار بالحقّ الذي عرفوه، إذ بيّن الله داعية ذلك الكفر، إشهاراً لما ينطوي عليه عند المسلمين، فقال تعالى: ﴿**بِئْسَمَا اَشْتَرَوْا به أَنفُسَهُمْ أَنْ يَّكْفُرُوا بِمَآ أَنزَلَ اللّٰهُ بَغْيًا اَنْ يُنَزِّلَ اللّٰهُ من فَضْله عَلَىٰ مَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِه فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾:

التّعبير بفعل "الاشتراء" على ما يدلّ عليه من البيع أو الشّراء، فهو يصوّر تلك الصّفقة الخاسرة، إذ جعلوا من أنفسهم ثمناً للكفر استبقاءً للمتاع الدّنيوي من الرّئاسة والسّمعة، فبئس ذلك العرض الذي يسترخص فيه الإنسان نفسه مقابل شيء حقير، ويزيده خساسةً وحقارة أن يكون بدافع الحسد والبغي، والحسد هو تمنّي زوال النّعمة عن المحسود -وهو أفدح الظّلم- والمحسود عليه هو قوله: ﴿اَنْ يُنَزِّلَ اللّٰهُ من فَضْلِه عَلَىٰ مَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِه﴾، فاليهود لا يرون الحقّ في الحكمة والنّبوءة لغيرهم، فحسدوا محمّداً على رسالته إذ كان من ولد إسماعيل جدّ العرب، ولم يكن منهم — أي من ولد إسحاق-، فتلك هي علّة كفرهم، وأيّ ظلم أفدح من أن ينازع أحدٌ الله في اختياره ومشيئته، والله أعلم

حيث يجعل رسالاته.

ومن نتائج ذلك الظّلم أنّهم رجعوا من تلك الصّفقة بالخسران المبين: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، فقد اجتمعت غضبات الله عليهم، بكفرهم بما جاء به محمد، وبكفرهم بما جاء به عيسى وبإعناتهم لموسى -عليهم السلام-، وغير ذلك ممّا وقعوا فيه من الانحرافات كعبادة العجل وقولهم عزير بن الله ...إلخ.

ومع الغضب المضاعف عذاب مهين، أي مُذِلّ لهم جزاء سخريّتهم بالرّسول والمؤمنين، والإظهار لصفة الكفر للمعنى المتقدّم في استحقاق اللّعنة، وهو عذاب شامل للدنيا والآخرة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾:

توالت المعطوفات لحكايات أحوال اليهود وتعداد مواقفهم المخزية في نَفَسٍ طويل لمحاجّتهم، تثبيتاً لرسول الله وتأييداً لدعوته، وقد أعرضوا عنها واعتذروا بأنّ قلوبهم غُلْفٌ، فهم لا ينفكّون عن الاعتذار والتّلفيق، بينما السّبب في كلّ ذلك هو الكفر والحسد، ولم يترك الرّسول وسيلةً لإقناعهم واستمالتهم إلى الإسلام إلاّ وابتدرها معهم، وها هي دعوته إيّاهم إلى الإيمان بما أنزل الله، وهي دعوة كلّ رسول، فلا يملكون الامتناع عنها لأنّهم يدّعون أنّهم مؤمنون، ولكنّهم ككلّ مرّة يجدون التّعلاّت لأنفسهم في اعتذار ذكيّ إذ أجابوا الرّسول بقولهم: ﴿نُؤمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، أي أنّهم في إطار الإيمان من قبل تلك الدّعوة المحمّديّة، واختيار صيغة المضارع ﴿نُؤمِنُ﴾ للدّلالة على

دمومتهم على ذلك الإيمان، فهم ليسوا بحاجة إلى غيره، وقوّة الحجّة في صيغة الدّعوة تكمن في قوله تعالى:﴿ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، إذ تتناول ما أُنزل على رسلهم، وما أُنزل على محمد، ولكنّ ردّهم ينمّ عن الإفلاس في الحجّة، ما داموا يقرّون أنّ المنزّل للوحي على الرّسل هو الله تعالى، ولذا جاء الرّدّ الإلهي بما يفضح حقيقتهم فقال: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾.

فالجملة حالية، تنمّ عن حقيقته في اعتقادهم بأنّ الإيمان بما في التّوراة يقتضي الكفر بغيرها وهو القرآن، فجاء الرّدّ مؤكّداً لصدق القرآن وحقيقته في كونه مماثلاً لحقّية التّوراة في الدّلائل المثبتة للنّبوءة، وكونه مصدّقاً لما معهم، والنّتيجة هي إسقاط دعواهم بالإيمان الحقيقي بما أنزل عليهم، بل شأنهم في ذلك الفسوق وغلبة الهوى، وأسند الله ذلك الحكم بهذا الرّدّ المبكّت فقال مخاطباً رسوله وكلّ من يناظر بالقرآن، ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤمِنِينَ﴾.

فمواقفهم وشأنهم هو معاداة الأنبياء وقتلهم، كما فعل أسلافهم من قبل، وقد رضي الخلف المخاطبون وصوّبوا ذلك، فهم بذلك فاسقون عن الإيمان بما أُنزل عليهم، إذ كانت التّوراة تنهى نهياً شديداً عن قتل النّفس بله الأنبياء، وعبّر بصيغة المضارع عمّا مضى لاستحضار الصّورة الفظيعة وتشديد وقعها في النّفوس، وقد جوّز بعض المفسّرين أن تكون "إن" نافية، أي ما كنتم مؤمنين.

والله أعلم.

عبادة اليهود للعجل وحرصهم على الحياة.

أ)- النّص:

وَلَقَدْ جَآءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ﴾: هي الدلائل التي سخّرها الله لموسى من المعجزات المادية والمعنوية لتدعيم نبوءته. ﴿ٱتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِ﴾: أي جعلتموه إلها معبودا، أو بمعنى صوّرتموه، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾: رفع الله جبل الطور ليسقط عليهم إن هم امتنعوا من قبول التوراة وتفهّمها درسا وعملا. ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾: الإشراب هو جعل الشيء شاربا واستعير لجعل الشيء متصلا بشيء وداخلا فيه، وهو إشارة أنه بلغ حبّهم العجل مبلغ الأمر الذي لا اختيار لهم فيه. ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَٰنُكُمْ﴾:

أي بالتوراة والمخصوص بالذم عبادة العجل. ﴿خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ﴾: أي لم يشبها نقص بمعنى صافية خاصّة بكم. ﴿لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾: أي طول العمر فهم أشدّ حرصا على ذلك من غيرهم. ﴿لَوْ يُعَمَّرُ﴾: المعمّر هو الطويل العمر. ﴿مَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾: أي طول عمره في الدنيا لا يبعده من عذاب الآخرة، والضمير في ﴿مَا هُوَ﴾ مبهم وقال بعض اللغويين أن "ما" حجازية، والضمير اسمها.

ج)- البيان والتفسير:

لقد سبقت قصة اتخاذ العجل في ما مضى من سياق تعداد نعم الله على بني إسرائيل، وأعيدت هنا بأسلوب آخر في معرض محاجّتهم وإبطال دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم خاصّة -كما سبق- إذ لم تزدهم البيّنات التي آتاها الله موسى إلا تماديا في الكفر والعناد، ومن أقوى الدلائل لذلك عبادتهم العجل، فلا عجب إذن أن يعاملوا محمدًا بتلك المعاملة الجافّة، وقد عاملوا رسولهم موسى الذي يدّعون الإيمان به بمثل ذلك، وذلك ينمّ عن فساد طبعهم وغلظة قلوبهم فقال جلّ من قائل: **﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾**:

الجملة معطوفة على قوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ اللَّهِ﴾، وهي مصدرّة باللاّم المشعرة بالقسم، والمقصود بالبيّنات هي ما أيّد الله به موسى قبل الميعاد الذي نزلت فيه التوراة، وهي التي لخّصها الله في قوله: ﴿وَلَقَد ۔ اتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ (الإسراء:١٠١)، والمقصود من إيراد هذه الأحداث التاريخية بعدما تقدّمت نظائرها هو التبكيت لبني إسرائيل والردّ على دعواهم الإيمان بما

أنزل على موسى والاكتفاء به عما سواه، فتذكيرهم بتلك الفظائع التي ارتكبوها يلزمهم الحجة بأن لا عذر لهم في ترك الإيمان بمحمد، وهذه الأحداث الفظيعة هي كما أوردها السياق:

- قتلهم الأنبياء بغير حق، وقد تقدّم تفسيرها.

- كفرهم بالبينات التي جاء بها موسى إذ قابلوا ذلك بعبادة العجل ورسخ حبّه في قلوبهم رسوخ الماء في بدن العطشان، أو رسوخ الصبغ في الثوب.

- تردّدهم في أخذ الميثاق وتهديدهم برفع الطور فوقهم.

وقد تفنّن الأسلوب القرآني في التذكير بهذه الأحداث، وإن تقدّم ذكرها في ما مضى من سورة البقرة، كما ستأتي بتفصيل أكثر في سورة الأعراف بحول الله.

ولعل من المفيد أن نتعرّض بإيجاز لفوارق النظم والأسلوب بين الآيات هنا ونظائرها هناك:

قال الله في حدث عبادة العجل هنا وهناك:

- ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾.

- وأضاف على الحدث هنا قوله: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾، فاختيرت هذه الاستعارة الفريدة للدلالة على التمازج التّام لذلك الحبّ مع قلوبهم، حتّى أصبحوا وكأنّهم لا اختيار لهم فيه، إذ أشربوا إياه من طرف غيرهم. وذلك منتهى التصوير البليغ لرسوخ المعتقد وإن كان باطلا كما

يدلّ عليه قوله: ﴿بِكُفْرِهِم﴾، والسامريّ هو المدبّر لتلك النكسة عند غياب موسى لميقات ربّه.

وفي أخذ الميثاق ورفع الطور قال تعالى هناك وهنا:

- ﴿وَإِذَ اَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾:

وقد فصّلنا القول في تفسير هذا الحدث، وفي هذه الآية يَرِدُ الأمر الإلهي بقوله تعالى: ﴿وَاسْمَعُواْ﴾، وهو كناية عن سماع الإجابة والامتثال، جاء تأكيدا لمدلول قوله ﴿خُذُواْ مَا ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾، لأن الله قد ثبت في علمه الأزليّ أنهم لا يمتثلون. وذلك ما حكى عنهم في ردّ أسلافهم: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، فما تجدي الأقوال إذا لم تساندها الأفعال؟ فقد سمعوا بآذانهم، ولكن لسان حالهم يجيب بـ﴿عَصَيْنَا﴾.

وبعد التذكير بتلك الأحداث المخزية جاءت الخلاصة الصريحة لإبطال زعمهم بقولهم: ﴿نُومِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، جاءت مصدّرة بأمر الله لرسوله أن يقولها لهم: ﴿قُلْ بِيسَمَا يَامُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُومِنِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن كنتم مؤمنين حقا بما أنزل عليكم في التوراة، فبئسما أمركم به هذا الإيمان، إذ قمتم بتلك الأعمال الدنيئة، من قتل الأنبياء وعبادة العجل ونقض الميثاق، فأيّ إيمان هذا الذي يأمر بارتكاب تلك الجرائم ؟ أو يصدّ عن الإيمان بمحمد ﷺ وهو لا يأمر إلا بعبادة الله وحده ؟وبهذا الردّ انقطعت حجتهم وسُقِط في أيديهم.

ثم تلي ذلك حجة أخرى تبيّن ثمرة الإيمان الحقيقي باستشراف المؤمن لما عند الله من النعيم الأبديّ فقال تعالى: ﴿قُلِ انْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الاَخِرَةُ عِندَ

اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾:

تتصدّى هذه الحجة لإبطال معتقدهم الباطل بأنهم شعب الله المختار، وأنهم ينفردون برحمة الله ورضوانه إذا هم تمسّكوا بالتوراة، كما حكى الله عنهم في ما يلحق من الآيات: ﴿وَقَالُواْ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ وقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ (المائدة:)، فهذا المعتقد الباطل كان معلوما لديهم، وجاء التعبير بالدار الآخرة مطلقا، ولكن السياق والإخبار بقوله: ﴿لَكُمْ﴾ يشعران بأن المراد من الدار الآخرة نعيمها -أي الجنة-، ولإبطال هذه الدعوى أمر الله نبيه أن يحيلهم إلى الكشف عن حقيقة معتقدهم ببيان ثقتهم بحسن المصير، أو بشكّهم في ذلك. وأن يكون معيار صدقهم في ذلك أو شكّهم هو تمنّي الموت أو عدمه، لأنه هو الباب الذي يدخلون منه إلى ذلك النعيم المرتقب الذي يزعمون أنه خالص لهم من دون الناس، إذ لا يُعقل أن يختار الإنسان الشقاء الدنيوي على السعادة والنعيم المضمون.

وكراهة الموت من الأحياء أمر طبيعي، غير أن الذي يجعله محلّ التمنّي عند المؤمن هو معتقده الصادق بأن الموت هو المدخل إلى نعيم الجنات، كما كان عليه أصحاب رسول الله، وهم يطلبون الاستشهاد، بل يتسابقون إليه. فأنّى لليهود أن يرتفعوا إلى ذلك المستوى. ولذلك روي عن ابن عباس ﷺ أن المراد: «ادعوا بالموت على أيّ الفريقين أكذب منا ومنكم» أي على وجه المباهلة، واختار ذلك كثير من المفسّرين[1]، وعلى أي الاحتمالين فإن اليهود لا

---

١ - أنظر الروايات في ذلك: الطّبري، جامع البيان، ٤٢٤/١ وما بعدها؛ ابن كثير، تفسير القرآن، ١٢٨/١.

يتمنون الموت أبدا، وعلة ذلك أنهم يعلمون أنهم ظالمون بما كسبت أيديهم من الذنوب والآثام، والتي لا تخفى على الله وهو يعلم أنهم جائرون في هذا الحكم.

والعبرة في الآية عامّة لكل من يتمنّى على الله الأماني، ويقصّر في القيام بواجباته الدينية، وقد قال الرسول ﷺ: «**الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني**».[1]

ثم بيّن الله حقيقة حال اليهود بعد أن ألزمهم الحجة فقال: ﴿**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ**﴾:

ولتأكيد النفي لتمنّيهم الموت أقسم الله تعالى بأنهم أحرص الناس على حياة، حتى من الذين أشركوا بالله ولا يؤمنون ببعث ولا نشور، بله نعيم الجنة أو شقاء النار. وذُكِرَت كلمة ﴿حَيَاة﴾ للتحقير، وذلك تعبير لواقع اليهود ماضيا وحاضرا ومستقبلا، فهم لحرصهم على الحياة لا يبالون بنوعيتها أن تكون حياة عزّة أو هناء أو حياة ذلة وهوان، ولو امتدّت بهم إلى أرذل العمر لقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، جيء بهذه الجملة لتشخيص ذلك الحرص الذي لا يستنكف معه صاحبه عن هذا النوع الذميم من الحياة الذي يفترض أن لا يتمناها أي عاقل، والعرب تضرب الألف مثلا للمبالغة في الكثرة، فكان الردّ الإلهي تهديدا بالعذاب المنتظر لمن يخالف كتاب الله ويستحقّ عقابه فقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾، أي لا يبعده ذلك التعمير الطويل من العذاب المنتظر، لأن الله تعالى عليم بما تنطوي صدورهم من النوايا الخبيثة والأماني الكاذبة، فطول العمر لا يخرج أحدا من

---

١ - تقدّم تخريجه: ص ١٧١.

قبضة الله، لأن الموت حق يطال كل حيّ، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ، كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء:٣٤-٣٥).

والله أعلم.

عداوة الله وملائكته ورسله

أ)- النص:

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾: العدو مشتق من عدا، يعدو عليه أي وثب، وهو مبغضك، يستوي فيه المذكر والمؤنث، وضده الصديق. وجبريل: اسم للملك المرسل من الله تعالى بالوحي، وهو اسم أعجمي مركب من "جبر" فمعناه بالعبرانية أو السريانية "القوة" ومن "ايل" ومعناه الإله أي قوة الله.

ج)- أوجه القراءة:

﴿جِبْرِيل﴾: فيه أربع قراءات مشهورة: جَبْرَئِيلَ كسلسبيل، قرأ بها حمزة والكسائي، جِبْرَيل بفتح الراء وحذف الهمزة، قرأ بها ابن كثير والحسن وابن محيص، جِبْرَئِلَ قرأ بها عاصم برواية ابن بكر، جِبْرِيلَ كقنديل، قرأ بها الباقون.

﴿مِيكَآئِلَ﴾: فيه أيضا لغات إحداها مِيكَآئِيل بهمزة بعد الألف وياء بعد الهمزة وبها قرأ الجمهور، ومِيكَائِل بهمزة بعد الألف وبدون ياء بعدها وقرأ بها نافع، ومِيكَالَ بدون همزة ولا ياء، قرأ بها أبو عمر وحفص، وهي لغة أهل الحجاز.

د)- البيان والتفسير:

تكرر الأمر الإلهي لرسوله بـــ"قل" في سياق ذكر حجج الرد على قول اليهود: ﴿نُومِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، وهي الحجة التي تستّروا بها في إعراضهم عن الدعوة المحمدية حسدا وبغيا أن يتزل الله من فضله على من يشاء من عباده. وترد كثير من الروايات في سبب نزول هذه الآية لخصها إمام المفسرين أبو جعفر الطبري في قوله: " أجمع أهل العلم بالتأويل جميعا أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أنّ جبريل عدوّ لهم وإن ميكائيل وليّ لهم، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك". ثم يورد الروايات التي ذكرت ذلك الخلاف.[1]

جاء الردّ الإلهي لبيان حماقتهم وسخفهم في دعواهم لعداوة جبريل التي جعلوها سببا لإعراضهم عن الرسول فقال تعالى: **﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ**

---

١ – الطبري، جامع البيان، ٤٣١/١.

فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾:

لقد بلغ الحسد باليهود مبلغا تجاوز كلّ حدّ، ويدلّ على ذلك هذه القصّة التي لا يقبلها العقل السليم ولا الإيمان القويم، إذ ادّعوا عداوة جبريل - صاحب الرسول- لأنه يتزل بالهلاك والعذاب، ولو كان الذي يتزل إليه بالوحي هو ميكائيل لآمنوا به لأنه يتزل بالرخاء والخير والخصب، وهل جبريل بشر مثلهم فيعاتب على ما يفعل؟، وهل يقوم بمهمته من إنزال الوحي على الرسل بمحض إرادته؟.

جاء الرد الإلهي بالإجابة المفحمة فقال تعالى:﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، فما أبلغ جواب الشرط بما يفيده من شأن جبريل عليه السلام في مهمة التزول بالوحي من الله للرسل. والضمير في قوله ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ يراد به القرآن، ويستفاد ذلك ممّا تقدم ذكره في قوله تعالى:﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، فإذا كان شأن جبريل هو التزول بوحي الله -وهو يشمل التوراة وغيرها- وقد آمنتم بأن الوحي من عند الله، فإذاً من كان عدوًّا لجبريل فإنه عدوّ لله.

ويلاحظ الالتفات عن التكلم إلى الخطاب في قوله تعالى:﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ بدلا من قوله: "على قلبي" تعظيما لمقام الرسول، يؤيده التقييد بقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ لا افتياتاً ولا كذبا على الله بإتيانه من عند نفسه، كما يدّعيه اليهود، فلا يجوز أن تصدّ عداوتهم لجبريل عن الإيمان بك ما داموا يؤمنون بأن الوحي من عند الله، وفي معرض الرّد على شبهة اليهود في إعراضهم عن رسول الله لكون جبريل عدوّا لهم أثبت الله خمس خصال كلّها خير وبركة:

أ- أنّه منزّل من عند الله على قلب رسوله بإذنه تعالى، والقلب بمعنى القوة المدركة في الإنسان، وهو مستودع الأنوار الربانية ومحطّة التلقي، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ، عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٣-١٩٤-١٩٥)، وهذه خصلتان.

ب- ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: أي موافقا لما جاءت به الرّسل السابقون من أصول التوحيد ومكارم الأخلاق وهذه الموافقة والتصديق هما أقوى دليل على صدق المبلّغ، وقد نوّه القرآن بالتوراة والإنجيل و وصفهما بالهدى والنور، فلا يقدح في القرآن أن يكون جبريل - عدوّهم المدّعى- واسطة في التبليغ وتنزيله.

ج- ﴿وَهُدًى﴾: وصف بالمصدر لقصد المبالغة في تحصيله للهدى، وهو ضد الضلال فقد حارب القرآن البدع والضلالات التي طرأت على الأديان السابقة وترك رسول الله ﷺ البشرية بهداية القرآن على المحجة البيضاء ليلها كنهارها.

د- ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: والبشرى هي الإخبار بأمر سارّ، وهو الحصول على رضا الله المستوجب لخيري الدّنيا والآخرة، وفيه إيماء بنقص وضعف إيمان اليهود إذ لو كانوا مؤمنين حقا، لما أعرضوا عن هذه البشرى.

وبهذه الأوصاف جمع القرآن الكريم كل أصول الخير، فلا يمكن أن يكون سببا للبغض والكراهة بدعوى عداوة جبريل إلا لمن كان سخيف النفس زائغا في إيمانه، ثم سجّل الله عليهم بأنهم أعداء لله وملائكته ورسله في حقيقتهم وواقعهم فقال جلّ من قائل: **﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾**.

وعداوة الله تكون بمخالفة أوامره وبالكفر بما يترّله من الهداية على رسله، وقد أثبت الله لليهود عداوتهم للملائكة والرسل مع أنهم لا يعادون إلا جبريل لعداوتهم لمحمد رسول الله، لأن عداوتهم لجبريل كانت لأجل قيامه بمهمته من إنزال الوحي، وتلك خصوصية جنسه من الملائكة، وهم بأمر الله يعملون: ﴿لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُومَرُونَ﴾ (التحريم:٠٦)، فعداوته تستلزم عداوة جنسه من الملائكة، كما أن عداوتهم لرسول الله ﷺ تستلزم عداوة جنسه من رسل الله، فمن عادى واحدا من الملائكة أو الرسل فقد عاداهم كلهم، وقد خصّ الله بالذكر جبريل وميكائيل، لأنهم فرقوا بينهما في الولاء والعداء تحكّما بأهوائهم وافتياتا على الله، وهكذا سجّل الله عليهم بأنهم أعداء للحق وأعداء لكل من يدعو إليه من رسل الله، ولمن يحمله من ملائكة الله ثم يجيء جواب الشرط بهذا الحكم الصارم مبيّنا لدوافع تلك العداوة وأنها الكفر بالله، وجيء بالاسم الظاهر مكان الضمير ليكون عامّا في اليهود وغيرهم ممن يثبت فيهم وصف الكفـــر، وعداوة الله تستوجب السخط والغضب وتنذر بالعذاب والانتقام، فالكفر هو سبب الحكم، وحسبك من امرئ يكون الله عدوّا له، وهو لا ينتقم من عباده ولا يعاديهم لذواتهم ولا لأنسابهم، ولكنه وضع لذلك سننا لا تتخلف في أن يرتبط ذلك بالنوايا والأعمال وما لها من الأثر في الصلاح والفساد، ثم ما ينجرّ عن ذلك من السعادة أو الشقاوة في الدنيا والآخرة،

نسأل الله التوفيق والوقاية من المهالك، والله أعلم.

نقض اليهود للعهود، ونبذهم لكتاب الله

أ)- النص:

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍۭ بَيِّنَاتٍ﴾: اللام موطئية لقسم محذوف، والإنزال للوحي أو التنزيل يطلق حقيقة على الإنزال الحسيّ من مكان مرتفع إلى مكان منخفض، والله تعالى فوق خلقه جميعا يتعالى عن الحصر وعن الحيّز، فالإنزال لبيان علوّ الربوبية، لأن الله فوق الخلق جميعا أينما كانوا وسيأتي تفصيل ذلك في تفسير آيات القبلة. ﴿ءَايَاتٍۭ بَيِّنَاتٍ﴾: واضحات الدلالة على صدق النبوءة. ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: الفاسق الخارج عن طريق الخير ونور الهداية. ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾: النبذ إلقاء الشيء من اليد واستعير هنا لتقض العهد -أي عهد التوراة-. ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: الرسول هو محمد ﷺ وقيل: هو عيسى عليه السلام. ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾: تمثيل للإعراض لأن من أعرض عن الشيء تجاوزه وخلّفه وراء ظهره.

ج)- البيان والتفسير:

انتقال مناسب إلى خطاب رسول الله لتسليته عمّا لقي من اليهود من التكذيب والإعراض، وتلفيق الأعذار عن مواقفهم المخزية من مثل معاداتهم لجبريل فعطف الله على قوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ عطف هذه الجملة المصدّرة بالقسم للاهتمام بمضمونها، وأن القرآن المنزل على قلب رسول الله هو حق من عند الله وحده، وهو في نفسه آيات واضحات على صدق نبوءته، وعلى حقّية الإيمان به فقال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلاَّ الْفَاسِقُونَ﴾:

بعد أن أثبت الله تعالى منزلة القرآن ومقامه في ما أُنزل من عند الله، وأنه في بيانه ووضوحه لا يحتاج إلى ما يدلّ على صدقه، لأنه كالنور يظهر الأشياء وهو ظاهر بنفسه كما قال تعالى لرسوله في سورة النساء:﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (النساء:١٧٤)، بعد ذلك وصف الله كل من حاد عن هدي القرآن بأنه فاسق عن منهج الله، وجيء بصيغة الحصر وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار والتجدّد، وأن ذلك هو شأن اليهود من الكفر بالله ونقض العهود، وقد نقلت الروايات عن أحد شيوخهم -وهو مالك بن الصيفي- أنه قال: " والله ما عهد إلينا في محمد عهد في التوراة"، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾:

الهمزة للاستفهام التوبيخي، والمراد بالعهد هو عهد التوراة، كما تقدم تفصيل ذلك في الآيات السابقة وقد تكرر نقض عهدهم مع أنبيائهم، ومن جملة تلك العهود أن يؤمنوا بمحمد الذي ثبتت بشارة بعثته وبيان أوصافه في نصوص كتبهم المقدسة، أو هو عهدهم للنبي على أن لا يعينوا عليه المشركين

كما فعل مع بني قريظة وبني النضير، ولذا قال الله تعالى:﴿نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾.

ومن آداب الدعوة في القرآن الكريم أنه لا يعمّم الحكم على كل أفراد طائفة من الناس احتراسا ممن لم يفعل ذلك، ولاجتناب توهّم القلة في الفريق المذكور جاء الإضراب عن ذلك بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤمِنُونَ﴾، وقد يراد بالكثرة معنى الكلّ، فحكم عليهم بعدم الإيمان وهو واقعهم الغالب، أو يراد بالكثرة ظاهر لفظها، وأن القليل منهم آمنوا و لم ينقضوا عهدهم.

ثم أعقب الله ذلك ببيان علّة ما صدر عنهم من تلك الشناعات، وهي معاداتهم ونبذهم للرسول الذي جاءهم من عند الله مصدّقا لما معهم، فقال جلّ من قائل: **﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾**:

أوتيت هذه الجملة المعطوفة على ما قبلها ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا﴾ لمزيد من بيان واقعهم الشائن، بذكر سبب ذلك الكفر والإعراض، ويراد بمجيء الرسول هو محمد ﷺ في أرجح الأقوال لأن السياق يقتضيه، وذهب بعض المفسرين أنه عيسى عليه السلام فعلى القول الراجح يكون قوله تعالى: ﴿كِتَابَ اللهِ﴾ هو القرآن ويكون نبذه هو تركه بعد سماعه، لأن النبذ يقتضي الأخذ، وعلى القول الثاني يكون المراد من ﴿كِتَابَ اللهِ﴾ هو الإنجيل، وذلك على اعتبار ما فعله أسلاف المذكورين، والتعبير بالنبذ تعبير وتصوير لما يتصفون به من الاستهزاء والتحقير لما نبذوه. وقيل: إن المراد بـ﴿كِتَابِ اللهِ﴾ هو التوراة لأنها الكتاب الذي أخذوه ثم نبذوا ما فيه من بعض الأحكام التي حرّفوها، وما يختص بالبشارات التي تتعلق برسول الله، وهذا يصدق على كلّ من اليهود والنصارى، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ تسجيل عليهم بأنهم متعمّدون

لما فعلوه لأنهم في الواقع عالمون بتصديق القرآن لما في التوراة، وأن كليهما حق من عند الله، ولكنهم متمـــادون على الضلال.

والله أعلم.

اشتغال اليهود بالسّحر والشّعوذة، وخبر هاروت وماروت

أ)- النص:

وَاتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ۗ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَاتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ الشَّيَاطِينُ﴾: الإتباع في الأصل هو المشي وراء الغير، ويكون مجازا باتّباع قول الغير ورأيه، وكذا في الاعتقاد. والتلاوة قراءة

المكتوب ويتعدّى بنفسه، والشياطين يطلق على الجنّ المتمرّدين، ويحتمل أن يراد بهم ناس تمرّدوا وكفروا وأتوا بالشرّ فأطلق عليهم "شياطين" على وجه التشبيه، والمراد بالملك أي على عهد ملكه أو سببه، وذلك شائع في كلام العرب. ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾: السحر لغة كل ما لطف مأخذه وخفي سببه وسحره بمعنى خدعه، ويقوم على التمويه والتلبيس وتخييل غير الواقع واقعا وترويج المحال، وقد ورد ذكر السحر في مواضع متعددة من القرآن، وأكثره في قصة موسى وفرعون، وللعرب في السحر خيال واسع. ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾: ابتلاء واختبار يصحبه اضطراب أحوال أحد وتشتت باله بالخوف والخطر على الأنفس والأموال على غير عدل ولا نظام. ﴿مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾: نصيب وحظ. ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾: المثوبة اسم مصدر لفعل "أثاب" أي أعطى الثواب، أي الجزاء لفاعل الخير، ويقال: ثوّب وأثوب.

ج)- أسماء الأعلام الواردة في النص:

أ ــ سليمان: هو النبي سليمان بن داود بن يس من سبط يهوذا ولد سنة ١٠٣٢ قبل المسيح وتوفي في "أرشليم" سنة ٩٧٥ ق م، ولي ملك إسرائيل بعد وفاة أبيه النبي الملك داود، فعظم ملك إسرائيل في عهده، وهو الذي أمر ببناء مسجد بيت المقدس، وكان نبيا حكيما شاعرا.

ب ــ بابل: بلد قديم من مدن العالم، وكان على ضفتي الفرات وهو يخترقه، ويقرب موضعه من موقع بلد الحلّة الآن من ملتقى الفرات ودجلة بأميال، توالى عليها اعتناءُ أصحاب الحضارة بمواطن العراق في زمن

"النمروذ" وكان ابتداء عظمة بابل في حدود سنة ٣٧٥٥ قبل الميلاد، فكانت إحـــدى عواصم أربعة لمملكة "الكلدانيين" وهي أعظمها وأشهرها، فكانت بلد العجائب من الأبنية والبساتين، ومنبع المعارف الأسيوية والعجائب السحرية.

ج ــ هـــاروت ومـــاروت: بدل من قوله تعالى على الملكين: والقراءة المتواترة بفتح اللام، وقرأه ابن عباس والضحاك والحسن وابن أبزى بكسر اللام، فعلى القراءتين أنّهما رجلان صالحان كانا حكما مدينة "بابل"، وكانا قد اطّلعا على أسرار السّحر التي كانت تأتيها السّحرة ببابل، فبكسر اللاّم "ملك"، فالمعنى ظاهر من "المُلك"، وبفتحها "مَلَك"، هو استعارة لمعنى الصّلاح، وهما اسمان كلدانيان دخلهما التّغيير لإجرائهما على خفّة الأوزان العربيّة، فـــ"هاروت" اسم القمر عند الكلدانيين، و"ماروت" اسم للمشتري عندهم، لأنّ الكواكب من المعبودات المقدّسة عندهم.[1]

د)- البيان والتّفسير:

وهذه خسيسة أخرى أوغل في التّعجيب، وأدعى للملامة والتّوبيخ لأولئك الذين يتطاولون بأنّهم أهل كتاب، يعلمون منه ما جعلهم يستفتحون على الذين كفروا، فليتهم إذ أعرضوا عن كتاب الله وناصبوا العداء لرسول الله، ليتهم إذ فعلوا ذلك لم يجنحوا إلى اتّباع الأباطيل والاشتغال بما هو من أعمال الشّياطين من تعاطي السّحر والشّعوذة، وهو كفر صادّ عن دين الله، والأدهى من ذلك أن يتّهموا سليمان عليه السلام بأنّ ملكه قائم على أساس السّحر

١- أنظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١ /٦٤١-٦٤٢.

والطّلاسم، إذ يركب الرّيح ويستخدم الجنّ، فبرّأ الله ساحته، وكفّر الشّياطين الذين يُسندون إليه ذلك فقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾:

الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾، عطف قصّة على أخرى، أي أنّ اليهود نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، واستبدلوا بذلك ضلالات السّحر والشّعوذة ممّا تتلوه شياطين الإنس والجنّ على عهد سليمان، ادّعاءً منهم بأنّ ملكه قائم على السّحر، والتّعبير بـ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ بعد قوله ﴿تَتْلُو﴾ يتضمّن معنى "تتقوّل وتكذب"، وصيغة المضارع لتنزيل الحالة الماضية منزلة الحاضرة كأنّها تُشاهد، والشّياطين يُحتمل أن يكون المراد بها الحقيقة، وهم متمرّدو الجنّ، إذ يسترقون السّمع -كما خبّر الله عنهم- في قوله: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ (الجن:٩)، فهم يسترقون السّمع ويضيفون لها أكاذيب يلقّنونها إلى الكهنة، ويُحتمل أن يُراد بالشّياطين المعنى المجازي أي هم من الإنس، ويُسنده قوله: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾، ثمّ الحكم عليهم بأنّهم كفرة، وهو أمر لا يحتاج إلى التّقرير بالنّسبة إلى شياطين الجنّ، فتقتضي العمليّة التّعليميّة بالنّسبة إلى اليهود أن يكون المراد بهؤلاء الشّياطين الإنسيّين أنّهم الأحبار والعلماء، وقيل في سبب النزول أنّ اليهود قالت: "أنظروا إلى محمد، يخلط الحقّ بالباطل، يذكر سليمان في الأنبياء، إنّما كان ساحراً يركب الرّيح"، وقد سألوا النّبيّ زماناً عن أمور من التّوراة، لا يسألونه عن شيءٍ من ذلك إلاّ أنزل الله عليه ما سألوه عنه فيخصمهم، فلمّا رأوا ذلك قالوا: محمد أعلم بما أُنزل إلينا منّا، وإنّهم سألوه عن السّحر وخاصموه به فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾.

وهكذا لفّق اليهود على سليمان عليه السلام ضروباً من الأكاذيب والأباطيل شوّهوا بها حقائق التّاريخ، وربّما انطلت على كثير من المسلمين فصدّقوها، فجاءت قصّة ذلك في القرآن لإجلاء الحقّ ونفي ما ألصقه اليهود بملك سليمان فقال جلّ من قائـــل: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ أي أنّهم كذبوا على سليمان في ما نسبوا إليه من السّحر الذي هو كفر، وأثبت ذلك للشّياطين، إذ علّموا السّحر للنّاس، وعبّر عن ذلك بصيغة "لكن" للاستدراك ليفيد معنى الحصر بمعنى: الشّياطين هم الذين كفروا، ثمّ أبان العمل الذي به كفروا وهو أنّهم يعلّمون النّاس السّحر.

والسّحر وتعاطيه تعلّماً أو تعليماً هو من الواقع التّاريخي للبشر منذ عصور سحيقة، وتأثيراته المعنويّة والحسّيّة ممّا هو معروف عند النّاس قديماً وحديثاً، ولا يملك العلم حتّى اليوم أن يفسّر تلك الخصائص التي يملكها بعض النّاس في هذا المجال، وللعرب ممارسات في هذا المجال كبقيّة البشر، ولهم فيه خيال واسع ومادّة تعبير في قصصهم وأشعارهم، وجاء ذكر السّحر في مواضع متعدّدة من القرآن الكريم، سيما في قصص موسى وفرعون، وقد وصفه بأنّه تخييل فقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾(طه:٦٦)، وقال: ﴿سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾(الأعراف: ١١٦)، وحكم الله بنفي الفلاح عن السّاحر فقال: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ (طه:٦٩)، وعندما وفّق الله سحرة فرعون إلى الإيمان وتوعّدهم فرعون بالقتل والصّلب، أفصحوا في توبتهم إلى الله بأنّهم ارتكبوا خطايا بما أتوا به من السّحر إذ قالوا:﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (سورة طه:٧٣).

وممارسة اليهود لأعمال السّحر قديماً وحديثاً أمر مشهور، وقد اختلف

العلماء في حقيقة السّحر، وفي بعض أحكامه تبعاً لاختلافهم في تصوّره ما بين إفراط وتفريط، ففي ذكر حقيقته يعجبني ما أورده الشهيد سيّد قطب في ظلاله إذ يقول: "إنّما الأسلم والأحوط أن يقف العقل الإنساني أمام هذه المجاهيل موقفاً مرناً، لا ينفي على الإطلاق، ولا يثبت على الإطلاق، حتّى يتمكّن بوسائله المتاحة له بعد ارتقاء هذه الوسائل من إدراك ما يعجز الآن عن إدراكه، أو يُسلّم بأنّ في الأمر شيئاً فوق طاقته، ويعرف حدوده، ويحسب للمجهول في هذا الكون حسابه".(١)

وفي بعض أحكامه يقول القطب اطفيّش-رحمه الله- في تيسيره: "وتعلّم السّحر للعمل به أو لتعليمه أو للرّياء حرام، وللحذر منه أو لتعليمه من لا يعصي به مباح، أو لغيره فمكروه، أو مباح أو حرام أقوال، وعن أحمد: إنّ السّحر شرك ولو لم يعتقد حلّه، ولا تَضَمَّنَ خصلة شرك".(٢)

وبعد نفي الكفر عن سليمان وإثباته للشّياطين، وتفسير ذلك أنّهم يعلّمون النّاس السّحر، عطف عليه قوله: ﴿**وَمَآ أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ اَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ**﴾:

الجملة معطوفة على قوله: ﴿مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ﴾ أو على ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾، هو نوع قويّ أشدّ مما تتلوه الشّياطين، وعلى احتمال القراءتين للفظ﴿ ملكين﴾، بفتح اللاّم أو كسرها، فإنّ في هذه العبارة إجمالاً وإيجازاً يدلاّن على أنّها قصّة معروفة كان اليهود يتحدّثون عنها،

١ - سيد قطب، في ظلال القرآن، ١/١٣١.

٢ - احمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، ١/٢٠٠.

وبما أنّ العطف لتنزيل المعطوف منزلة تغاير الذّات فيكون ما أُنزل على الملكين - والله أعلم- شيئاً غير السّحر، ذُكر معه لاعتبار أنّ كليهما سيّئة مذمومة، وليس المقصود بالإنزال عليهما أنّه وحي من الله، إذ يُستعمل الإنزال بمعنى الإلهام والإبداع أي أنّهما اهتديا إليه من غير أستاذ ولا معلّم، وقد ورد في القرآن الكريم التّعبير بالإنزال لمعانٍ كثيرة.

اختلف العلماء في بيان الحكمة من تصدّي الملكين أو الرّجلين لهذا الأمر، وقد علما أنّه مضرّة وأنّه فتنة كما ينبّهان إلى ذلك كلّ متعلّم عنهما، ولعلّ التّعليل الأدقّ هو ما أورده العلاّمة ابن عاشور -رحمه الله- في تحريره وتنويره إذ قال: "وعندي أن ليس المراد بالإنزال إنزال السّحر إذ السّحر موجود من قبل، ولكنّه إنزال الأمر للملَكين، أو إنزال الوحي والإلهام للملكين، بأن يتصدّيا لبثّ خبايا السّحر بين المتعلّمين ليبطل انفراد شرذمة بعلمه..." ثمّ يقول: "إنّ الحكمة من تعميم تعليمه أنّ السّحرة ببابل كانوا اتّخذوا السّحر وسيلة لتسخير العامّة لهم في أبدانهم وعقولهم وأموالهم، ثمّ تطلّعوا منه إلى تأسيس عبادة الأصنام والكواكب، فحدث فساد عظيم وعمّت الضّلالة، فأراد الله على معتاد حكمته إنقاذ الخلق من ذلك، فأرسل أو أوحى أو ألهم هاروت وماروت أن يكشفا دقائق هذا الفنّ للنّاس حتّى يشترك الناس كلّهم في ذلك، فيعلموا أنّ السّحرة ليسوا على ذلك، ويرجع النّاس إلى إصلاح الحال".[1]

قلت: وشبيه بذلك ما فُتن النّاس به في هذا العصر من أسرار التّكنولوجيا وعلوم الذّرّة وعلوم الفضاء، حتّى حدث ذلك البون الشّاسع بين

١ - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١/ ٦٤٠.

الدّول المتقدّمة والدّول المتخلّفة، إذ أصبحت تلك الوسائل العلمية حكراً على الأولى تمنع تصديرها إلى الخارج لتبقى في موقف الهيمنة والسّيطرة على الثّانية، تستغلّ خيراتها وتنهب ثرواتها، وتُبقيها دوماً في التّبعيّة والتّخلّف، ولكن الله الحكيم في تدبير شؤون خلقه يقيّض لهذه الأمم المغلوبة على أمرها من يكون بمثابة الملكين في "بابل" بما يؤتيهم الله من الإلهام والذّكاء، فيرفعون من شان قومهم ويقضون على الانتهازيين والمحتكرين، وما ذلك على الله بعزيز.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾: أي أنّ الملكين المعلّمين اتّبعا مع تلاميذهما طريقة الإنذار والتّحذير والنّصح، يقولان لكلّ أحد يريد تعلّم السّحر ما يتضمّن النّصح الأمين في إجلاء حقيقة علمهما وأنّه فتنة، هكذا بصيغة الحصر والإخبار بالمصدر لتأكيد المبالغة، بأن ليس في عملهما شيء من الخير الإلهي الثّابت عن طريق الوحي، بل هو فتنة محضة يختبر الله بها عباده حتّى يتبيّن المتمسّك بدينه؛ ذلك لأنّه قد اختلط في ذلك الزّمان أمر السّحر بشأن النّبوّة على النّاس، إذ ادّعى النّبوّة كثير من السّحرة، وقولهما: ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ يوحي بأنّ المفتون بالسّحر تعلّماً أو تسخيراً له قد يلتبس بالكفر إذا اعتقد شيئاً من الألوهية أو النّبوءة في السّاحر، ويزيد توغّلاً في الكفر إذا عمل بما اعتقد، ويسود هذا الاعتقاد -غالباً- عند المبتدئين في تعلّم هذا الفنّ وعند دهماء النّاس، وما أبلغ التّعبير القرآني بالفتنة لتجسيد ذلك الواقع المرير الذي دمّر كثيراً من البيوت وهتك الأعراض وأفنى الأموال.

يقول القطب -رحمه الله- في حكم ذلك خلال تفسيره للآية: "ابتلاء من الله للنّاس، فمن تعلّمه كفر، ومن تعلّمه وعمل به كفر، وكذا من اعتقد أنّه حقّ جائز، ومن لم يتعلّمه، أو تعلّمه ليتّقي ضرّه، أو يدفع به دعوى النّبوءة

عمّن ادّعاها، وكان مؤمناً، فهو باقٍ على إيمانه".[١]

وفي حالة حصول ذلك التّعليم لأحد بعد النّصح له بما تقدّم، يتفرّع عنه ذكر بعض مضامين ذلك التّعليم، فقال تعالى: ﴿**فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ**﴾:

والضّمير في ﴿يَتَعَلَّمُونَ﴾ للنّاس المعبّر عنهم بـــ"أحد" في سياق النّفي، وصيغة المضارع لتصوير الواقع بذكر شيءٍ من تأثيرات السّحر الضّارّة في فكّ آصرة الزّوجين المتحابّين، وفي معناهما كلّ متحابّين بآصرة أخرى غير الزّوجية كآصرة الأبوّة والأخوّة والشّراكة...إلخ، ولم يبيّن القرآن كيف يتمّ ذلك حسّياً أو معنويّاً، لأنّ هذا الفنّ مثل غيره من فنون العلم خاضع للتّطوّر والبحث والكشف، واختيار فكّ آصرة الزّوجية، لأنّها أقوى آصرة تجمع بين شخصين متحابّين يتكاملان ويتمازجان تمازج اللّباس بالجسد في ظلال المودّة والرّحمة، كما صوّر الله بذلك العشرة الزّوجية إذ قال: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة:١٨٧).

ولخطورة ذلك التّأثير في معتقد النّاس نبّه الله على أنّ السّحر لا يؤثّر بذاته، وإنّما بإذن الله وقدرته فقال: ﴿**وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾:

والإذن معناه خلق الأسباب لفعالية السّحر في المسحور، أو إيجاد القابليّة فيه لتأثير ذلك السّحر، وفي ذلك يختلف النّاس كثيراً، فيخلق الله تلك الأسباب

---

١ - محمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، ١/ ٦٤٠.

ويأذن بتأثيرها فيمن يشاء من عباده، فليس السّاحر بأشدّ براعة من الطّبيب الحاذق في تشخيص الدّاء ووصف الدّواء، فيربط الأسباب بالمسبّبات ويتحقّق الشّفاء -بإذن الله-، فليس ثمّة قوّة غيبية يمتلكها السّاحر كما يدّعي ذلك أغلبهم، وهكذا يغرس القرآن العقيدة الصّحيحة في نفس المسلم في كلّ مناسبة أو واقعة تدعو فيها الحاجة إلى البيان والتّوضيح.

ثمّ أكّد الله الضّرّ في تعلّم السّحر بصفة عامّة، أي زيادة على التّفريق بين المرء وزوجه فقال: ﴿**وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ**﴾، أكّد الضّرّ المحض بنفي أيّ نفع، وذلك بالنّسبة لأمور الدّنيا، فحسب المرء من الشّرّ والخزي أن يتركه النّاس مخافة شرّه.

وأمّا حالة السّحرة في الآخرة فيفيده قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ**﴾:

الضّمير يعود على اليهود، لأنّ الجملة المصدّرة باللاّم المشعرة بالقسم معطوفة على قوله: ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ﴾، فقد علم اليهود بما ثبت عندهم في نصوص التّوراة، علموا حرمة تعاطي السّحر، وبالتّالي فلا نصيب من الأجر والثّواب لصاحبه في الآخرة، والتّعبير بـ﴿اشْتَرَاهُ﴾ يفيد معنى الاستبدال والمعاوضة، فهم يبدّلون إيمانهم والوفاء بعهد الله بتعاطي السّحر والشّعوذة، وقد علموا أنّ تعاطي السّحر حرّمته التّوراة واعتبرته بمثابة عبادة الأوثان، ولكن اليهود يتأوّلون نصوص التّوراة وفق هواهم ومصالحهم الدّنيويّة، ولذلك أعقبه بقوله: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾، وشروا بمعنى "باعوا"، والمقصود بالذّمّ هو تعاطي السّحر والإعراض عن التّوراة، فهم في الحقيقة

جاهلون بحقيقة ما يصيرون إليه من الخسران المبين في الحياة الأبدية، والعلم المثبت لهم من قبل هو علم ظنّيّ خياليّ لا تأثير له في نفوسهم وتصرّفاتهم، إذ يلجأون إلى التّأويل والتّحريف، ولبيان أنّهم متردّدون في إيمانهم بما أنزل إليهم كما يدّعون قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ**﴾:

تصدّرت الجملة بـــ"لو" الشّرطية الامتناعيّة مع اقتران شرطها بـــ"أن" للتّأكيد، أي لو آمنوا واتّقوا، وقد أطلق لفظا "الإيمان" و"التّقوى" ليفيد إيمان اليهود بكلّ من يجب الإيمان به من الأنبياء والرّسل والكتب بما فيها التّوراة والإنجيل والقرآن، ولو أنّ السّياق يفيد تخصيص التّوراة والقرآن بالإيمان من طرف المتحدّث عنهم على اعتبار ما ورد في التّوراة من التّبشير ببعثة الرّسول وبيان أوصافه، ولا بدّ أن يتجسّد الإيمان بالتّقوى والعمل الصّالح لتتحقّق الخيرية المطلوبة، ولكن هؤلاء امتنعت عنهم تلك الخيرية لامتناع الشّرط عنهم، فدلّ ذلك على بعدهم عن العلم الصّحيح، إذ لو توفّر لهم شرط الإيمان والتّقوى لتحقّقت لهم المثوبة، ولكن علمهم ظنّيٌّ وتقليديٌّ.

والله أعلم.

الأدب الواجب في خطاب الرّسول،

وفضل الله لمن يخصّه بالرّسالة

أ)- النّص:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي وأوجه القراءة:

﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾: راعنا أمر من راعاه يراعيه، وهو مبالغة في رعاه يرعاه، إذا حرسه من الهلاك والتّلف، وأُطلق مجازاً على حفظ مصلحة الشّخص والرّفق به ومراقبة نفعه. ﴿انظُرْنَا وَاسْمَعُواْ﴾: أي أنظر إلينا، يقال نظرت الشّيء ونظرت إليه، وتتضمّن معنى الانتظار والإمهال والمراقبة كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ (الأنعام:١٥٨)، ويؤيّد هذا المعنى قراءة: ﴿أَنظُرْنَا﴾ من الإنظار. ﴿واسمعوا﴾: أي سمع وطاعة واستجابة. ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: ودّ يودّ وُدّاً -بضمّ الواو- محبّة الشّيء وتمنّي وقوعه، ونفيه بمعنى الكراهة، و"مِن" الأولى للبيان، و"مِن" الثانية زائدة. والخير: النعمة والفضل من الله.

ج)- البيان والتّفسير:

يقول الشّيخ الغزالي في كتابه القيّم (نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم) يقول: "كان لا بدّ -وسورة البقرة أوّل ما نزل بالمدينة- أن تتصدّى السّورة لبني إسرائيل، مفنّدة موقفهم من الرّسالة الخاتمة، ومسالكهم المعيبة في القديم والحديث، وبدا ذلك من قوله تعالى:﴿ يَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ، وَءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِئَايَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ (البقرة: ٤٠-٤١).

ويقول: "إنّ تصديقه أي القرآن لما مع بني إسرائيل هو-على الإجمال لا على التّفصيل- والمجمل الذي سلّمه لهم أو وافقهم عليه إنّما ذكرهم ليحاسبهم على ضوئه حساباً عادلاً.

وقد أحصت سورة البقرة أكثر من ستّ عشرة مرّة شؤوناً وقضايا عرضت للقوم في تاريخهم الطّويل، وذكرت لديهم في التّوراة، ومع ذلك لم يكونوا عند حسن الظّنّ في الاعتبار بها وشكر الله عليها".[1]

قلت: لقد مرّ قبل هذه الآية الكريمة ذكر أغلب تلك القضايا الخاصّة ببني إسرائيل، ويأتي هذا النّداء الإلهي للمؤمنين لبيان أمر مشترك بينهم وبين اليهود والنّصارى ممّا هو من آداب الدّين في إعظام مقام الرّسالة في شخص رسول الله، ووجه المناسبة واضح بين هذه الآية وما سبقها، لأنّ هذا النّهي التّأديبي للمؤمنين هو تعريف باليهود في شؤون معاملتهم للرسول والمؤمنين،

---

١ - محمّد الغزالي، نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم، دار الشروق، ط٤، ٢٠٠٠، ١٢-١٣.

وزيادة كشف لأسباب امتناعهم وإعراضهم عن الإيمان برسالة الإسلام فقال جلّ من قائل: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُواْ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

خطاب للمؤمنين يناديهم الله بالصّفة الإيمانية المميّزة لهم، يستجيش بذلك شعورهم الدّيني ليتحمّلوا مسؤوليتهم التّضامنيّة، في الإلتزام بسموّ الآداب في حضرة رسول الله، سيما في تلقّي آيات القرآن منه وسماع أحكام الشّريعة، ممّا يتطلّب منهم التأنّي وحسن الاستماع، وقد اعتادوا أن يطلبوا من رسول الله إعادة القول والتّروّي في الإلقاء حتّى يعوا ما يقال لهم فيقولون: "راعنا يا رسول الله"، بمعنى: "ارعنا سمعك وتأنّ بنا حتّى نفهم ما تقول"، أو بمعنى: "راقبنا وانتظر ما يكون من شأننا من حفظ وفهم ما تلقيه علينا".

وبما أن هذا اللفظ قد جعله اليهود وسيلة للطعن والسبّ، وذلك ليّاً بألسنتهم به، لأنه يعني في لغتهم -كما قيل- معنى الحمق والرّعونة وكانوا يتسابّون به فيما بينهم. ولسبب ذلك نهى الله المؤمنين أن يقولوا ذلك لرسول الله وأمرهم أن يقولوا "انْظُرْنَا" لأنها تفيد نفس المعنى، ولا يمكن لِيّ اللسان عند التلفظ بها لتحريف معناها كالأولى، وبذلك قطع الطريق عن أهل الكتاب والمشركين أن يتذرعوا بها لأذى النبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْمَعُواْ﴾ أمر بسماع خاص، يدعو إلى حسن الاستجابة والطاعة لأوامر الرسول، بحيث لا يحتاج السامعون إلى طلب المراعاة والإعادة، ثم حذرهم من مصير الكافرين جملةً بمن فيهم اليهود الذين تحققت فيهم صفة الكفر بسبّ رسول الله، وهم لا ينفكّون عن حقدهم وغيظهم وشدة عدائهم لكم -أيها المسلمون- حسدا لما حباكم الله به من الخير

والفضل، وذلك ما كشفه الله للمؤمنين في قوله: ﴿مَّا يَوَدُّ الذينَ كَفَرُواْ مِنَ اَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَّشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾:

ولمزيد من التأطير الرباني والرعاية الربانية للرسول وجماعة المؤمنين حتى لا يَأْمَنُوا جانب أعدائهم في ما يزعمون من الخير لهم كذبا ونفاقا، ركّزت هذه الآية على الأسباب الداعية لعدوان أهل الكتاب والمشركين، وامتناعهم عن الإيمان بالرسول والقرآن، وبينت أن سبب ذلك هو الحقد والحسد لكم على هذا الخير والفضل مما حباكم الله به، إذ اختاركم لحمل هذه الرسالة الخاتمة وعهد إليكم برعاية أمانتها في العالمين، وكفاكم بها شرفا ومنّة.

وجاء التعبير بـــ:﴿أهل الكتاب﴾ ليشمل اليهود والنصارى تمهيدا لما يكشفه من ادّعاءاتهم تطاولا على غيرهم من الناس، وجمع الله بينهم وبين المشركين في صفة الكفر، ليفند مرة أخرى ادعاء اليهود والنصارى الإيمان بما في كتبهم، إذ لو كانوا مؤمنين بها حقا لصدّقوا بما جاء به محمد، وهي تأمرهم بذلك، ولكنه الحسد المقيت، والحاسد لا يرضيه إلا زوال النعمة عن محسوده،كما أن اختيار صفة الربوبية في إنزال الخير إذ قال: ﴿مِّن رَّبِّكُم﴾ ليدلّ على معنى الرعاية والتربية للمؤمنين، وهي تقتضي منهم المحبة والطاعة للمربّي، وفي ذلك مزيد من النكاية والإغاظة للكفار الحاسدين.

ومشيئة الله هي تعلق إرادته بالمراد، فيتحقق على وفق علمه وحكمته، في إبراز حوادث خلقه على ما ينبغي، فلا ينازعه أحد في ذلك، ولا يضرّه سخط الساخطين، وهو صاحب الفضل العظيم الذي يشمل كل المجالات: الدينية والدنيوية والأخروية، فما على المؤمن الوفي إلا أن يتعرض لتلك الرحمة وذلك

الفضل بالاجتهاد في الطّاعات والقربات.

والله أعلم.

إثبات النسخ، وبيان أحكامه

أ)- النص:

مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي وأوجه القراءة:

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾: قرأ الجمهور ﴿نَنْسَخْ﴾ بفتح النون الأولى وفتح السين مضارع "نسخ"، وقرأه ابن عامر بضم النون الأولى وكسر السين ﴿نُنْسِخْ﴾ على أنه مضارع "أنسخ" بهمزة التعدية. ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾: قرأه نافع وابنُ عامر وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وأبو جعفر وخلف "نُنْسِهَا" بنون مضمومة وسين مكسورة ثم هاء، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو ﴿نَنْسَأْهَا﴾ بنون مفتوحة في أوله وبسين مفتوحة وبعدها همزة ساكنة ثم هاء، فعلى قراءة ترك الهمز فهو من النسيان، والهمزة للتعدية ومفعوله محذوف للعموم، وعلى

قراءة الهمز فالمعنى "نؤخرها" في تلاوتها أو العمل بها؛ والنسخ في اللغة إزالة الشيء بشيء آخر، ومعناه النقل -أيضا- سواء لنقل الذات كقولك: نسخت الشمس الظل -أي نقلته من مكان إلى آخر- أو هو نقل للصورة كما تقول: نسخت الكتاب. وفي المصطلح الشرعي هو رفع الحكم الشرعيّ بطريق شرعي متراخ عنه؛ والنسيان أصله الترك أو هو غايته اللازمة له، والإنساء إزالة الآية من ذاكرة النبيّ بعد تبليغه إياها، أو يكون المعنى إنساء الآية أي تأخير مجيئها مع إرادة الله وقوع ذلك بعد حين. ﴿نَاتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَا﴾: أي بشيء هو خير من المنسوخ أو المنسيّ أو مثله في التكليف والثواب. ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ﴾: "أم" حرف عطف مختص بالاستفهام وما في معناه وهو التسويّة، وقيل هي هنا منقطعة للإضراب. وتشبيه سؤال المسلمين للرّسول بسؤال بني إسرائيل لموسى يقتضي أن يكون سؤال تعنّت وإحراج. ﴿ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ﴾: السّواء هو الوسط من كلّ شيء، والسّبيل: السّواء، هو طريق الحقّ المعتدل، وضدّه هو الانحراف عن وسط الطّريق إلى أحد جانبيه.

ج)- البيان والتّفسير:

لا يألوا أهل الكتاب والمشركون جهداً في التّشكيك بما جاء به محمد، وفي إثارة الشّبهات بأنّ الرّسول يقول أمرا ثمّ يعود عنه، ويأمر بأمر ثمّ ينهى عنه، كما يموّه اليهود على النّاس، بأنّ محمّداً يصف التّوراة بأنّها حقٌّ، وأنّه جاء مصدّقاً لها، فكيف يكون شرعه مبطلاً للتّوراة ؟، وذلك يستلزم في دعواهم أن يتّصف الله بالبداء -وحاشاه ذلك-، ومعنى ذلك أن يكون الله تعالى غير عالم بما يحسن تشريعه، وأن يبدو له الأمر، ثمّ يُعرض عنه ويبدّل شريعة بشريعة، إلى غير ذلك من الشّبهات التي يموّه بها اليهود والمشركون على ذلك، ممّا أثبتته

الرّوايات المختلفة في بيان أسباب النّزول، وأيّاً كانت تلك الأسباب، فإنّ الله تعالى أراد أن يُعلّم المسلمين أصلاً من أصول الشّريعة، وهو أصل النّسخ، ويكون:

أ- على شريعة بشريعة بعدها، وفق ما تقتضيه الظّروف والأحوال، وذلك في ما هو من المتغيّرات، من الأحكام، لا في الثّوابت من أصول الدّين، كما قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾(المائدة:٤٨).

ب- ويكون النّسخ في ما يطرأ على بعض الأحكام بأخرى تُبطلها من تلك الشّريعة نفسها، وفق ما يقتضيه التّدرّج في التّشريع.

وجّه الله الخطاب للمسلمين مع معرض الرّدّ على تلك الشّبهات فقال جلّ من قائل:﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَاتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾:

وفي اختيار توجيه الخطاب للمؤمنين في معرض الرّدّ على اليهود والمشركين تحذير وتنبيه لهم من أن ينساقوا وراء تلك الشّبهات، وأن لا تثبّط عزائمهم تلك الدّعايات لأنّ الله تعالى وليّهم وناصرهم.

والآية في الأصل هي الدّليل والشّاهد على أمر ما، وتُطلق إمّا على المعجزة التي تدلّ على صدق الرّسول، كما تُطلق على نصّ من القرآن يشتمل على حكم أو على موعظة أو أمثال أو قصص، والنّسخ لها يتمّ برفع حكمها ولفظها، أو برفع أحدهما والإبقاء على الآخر، وأمّا النّسيان - على قراءة ترك الهمز- فهو أن يأمر النّبيّ بترك قراءة آية حتّى ينساها النّاس، وبإثبات الهمز يكون المراد إبطال العمل بقراءتها أو بحكمها، وهو قسم آخر مقابل للنّسخ لأنّه قد يكون في الأخبار.يقول القطب -رحمه الله-: "وبين النّسخ والإنساء عموم

وخصوص يجتمعان في الرّفع عن القلوب، ويختصّ النّسخ بمنسوخ الحكم مع بقاء التّلاوة وبالعكس، ويختصّ الإنساء بالأخبار التي أُذهبت عن القلوب".[١]

قلت: والأمثلة على ذلك قد فصّلها علماء أصول الفقه، تُطلب من مظانّها وجواب الشّرط في قوله ﴿نَاتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾، لم يذكر الله فيه متعلّق الخيريّة والمثليّة، ليشمل كلّ ما يناسب مصلحة الخلق، من التّيسير ورفع الحرج، أو إثبات الأجر والثّواب ...إلخ، وفي البديل ممّا يُنسخ أو يُنسى من الخير والنّفع للخلق مجال لرحمة الله وفضله، ومظهر من مظاهر ربوبيّته في رعاية مصالح النّاس، ونبّه على ذلك بقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾.

الخطاب لرسول الله ومن خلاله للمؤمنين، ويؤيّد ذلك الإلتفات من الإفراد إلى الجمع في قوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، والتّذكير بعظمة الله وقدرته في صيغة الاستفهام التّقريري تكرّر مرّتين لزيادة التأكيد على قدرة الله وعظمته لبيان حكمة ذلك النّسخ أو ذلك الإنساء بأنّه لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السّماء، فهو يدبّر مصالح خلقه بما هو أنفع لهم، وفي هذا التّذكير تثبيت للمسلمين سيما للضّعاف في الإيمان ممّن قد تنطلي عليهم تلك الدّعاية، وتلتبس عليهم تلك الشّبهات، فذكّرهم الله بموجب إيمانهم بقدرته وعظمة ملكه، أنّه هو وليّهم وناصرهم لا يملك هؤلاء المعترضون على الله في أن ينسخ أو ينسى، لا يملكون نفعهم ولا ضرّهم، فلا ينبغي أن يستفزّوهم عن دينهم.

---

١ - احمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، ١ / ٢١٣.

ولعلّ من تأثير تلك الدّعايات المغرضة أن تدفع بعض المؤمنين إلى توجيه أسئلة لرسول الله لا تتّفق وآداب النّبوّة، كما كان يفعل ذلك بنو إسرائيل مع رسولهم، فجاء هذا التّحذير مرّة أخرى: ﴿**أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ**﴾:

وقد تفاوت بيان المضمون لتلك الأسئلة الموجّهة إلى رسول الله من طرف الكفّار، أو إلى موسى من طرف اليهود، تفاوت بيان ذلك في روايات أسباب النّزول، وتتّفق كلّها في التّعجيز والإعنات لرسول الله ممّا قد يؤدّي إلى الكفر -والعياذ بالله-، وذلك هو وجه الشّبه بينهما، فقد سأل العرب الرّسول أن يوسّع أرض مكّة ويزيل جبالها، وأن يحوّل الصّفا ذهباً...إلخ، كما سأل اليهود موسى أن يريهم الله جهرةً، وأن يجعل لهم إلها كما للقوم الذين مرّوا بهم إله...إلخ، وفي هذا الاستفهام استنكار لبعض المؤمنين أن يتشبّهوا ببني إسرائيل في إعنات رسولهم بطلب الآيات والخوارق؛ لأنّ ذلك يصرفهم عن التّأمّل والتّدبّر في ما أنزل الله من آيات القرآن التي تركّز على توحيد الله والإيمان به، وذلك من خلال النّظر في سعة ملكه وقدرته اللاّمتناهية، فهي لا تُحدّ بزمان ولا مكان، ولا تخصّ رسولاً دون رسول.

ولمّا كان المُحذّر منه -وهو توجيه الأسئلة للرّسول على وجه الإعنات- لما كان ذلك قد يؤدّي إلى الكفر والضّلال، فقد جاء جواب الشّرط صريحاً في ذلك مقروناً بـــ"قد" التي تفيد التّحقيق مترتّباً على الشّرط الذي صُرّح فيه بصفة الكفر، وبذلك جمعت الجملة الشّرطية بين الكفر والضّلال ليتمّ التّهديد المناسب للمحذّر منه، حتّى لا يصير المسلمون إلى ما صار إليه بنو إسرائيل.

تمنّي أهل الكتاب ردّة المسلمين إلى الكفر، وما هو واجب المسلمين في ذلك؟

أ)- النّصّ:

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا۟ وَاصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ اللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ الزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾: الحسد هو تمنّي زوال النّعمة عن الغير، و"من" ابتدائية، و"عند" تدلّ على الاستقرار لبيان تمكّن ذلك الحسد بأنفسهم، و"لو" هنا بمعنى "أن" المصدرية. ﴿فَاعْفُوا۟ وَاصْفَحُوا۟﴾: العفو هو ترك العقاب على الذّنب، والصّفح مصدر صَفَح يصفح إذا أعرض عن شيءٍ بأن والاه من صفحة وجهه، وهو مجاز في عدم مواجهة صاحب الذّنب بذكر ذنبه، وهو أبلغ من العفو. ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ اللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾: أي بمعونته ونصره لكم بما فيه شفاء صدوركم. ﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾: الضّمير يعود إلى الخير المقدّم، وهو المقصود -تجدوا ثوابه-، يسمّى باسم سببه وملزومه.

ج)- البيان والتّفسير:

تكرّر التّنبيه الإلهي للمؤمنين خلال ذكر مواقف أهل الكتاب، وأنّهم يحسدون الرّسول وأتباعه بما كرّمهم به من الحكمة والرّسالة فقال تعالى فيما تقدّم: ﴿ مَّا يَوَدُّ الذينَ كَفَرُواْ مِنَ اَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾(البقرة:١٠٥)، أي هم يودّون عدم مجيء هذا الدّين إطلاقاً، أما وقد جاء وتحقّق أمر الله، فهم يودّون أن يبقى النّاس على كفرهم فلا يؤمنون، أما وقد آمنوا واتّبعوا الرّسول فهم يودّون أن يرجع النّاس إلى كفرهم بإثارة الشّبهات، ونصب الادّعاءات والافتراءات، فقال هنا لمزيد من البيان والتّحذير: **﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنَ اَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾**:

إنّه الحسد البغيض والحقد الدّفين الذي يُضمره الكثير من أهل الكتاب على المسلمين، فهم لا يكتفون بالكفر والكيد، بل يمعنون في الإذاية، ويتفنّنون في حبك الدّسائس مدفوعين بالحسد، متمنّين أن يرتدّ المسلمون عن دينهم، وقد قال ابن عبّاس في سبب النّزول أنّ الآية نزلت في نفر من اليهود قالوا للمسلمين بعد وقعة أُحد: ألم تروا إلى ما أصابكم؟، ولو كنتم على الحقّ ما هُزمتم، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم، والحسود لا يفوّت فرصة إلاّ وابتهلها لتنغيص العيش على المحسود.

واليهود يتظاهرون في أمثال هذه المواقف بأنهم يريدون النّصح للمسلمين، لعلّ ضعفاء الإيمان منهم يرجعون عن دينهم، فجاءت التّنبيهات الإلهية لتبيّن أنّ أهل الكتاب لا يُرجى منهم نصح أمين في ما يقولون، وإنّما هو الغشّ والحسد المتمكّن في نفوسهم الخبيثة، فقال تعالى: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ

أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾، أي أنّ نفوسهم الخبيثة هي مصدر ذلك الحسد، لأنّهم يتيقّنون بحقّية ما جاء به رسول الله، سيما علماؤهم وأحبارهم، ولعلّهم المقصودون بقوله:﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنَ اَهْلِ الْكِتَابِ﴾، ومنهم حُيَي بن أخطب، وأبو ياسر، وفنحاص بن عازوراء.

وفي هذا الموقف الذي انكشفت فيه للمسلمين حقيقة أهل الكتاب، كيف يواجههم وهم في المراحل الأولى من تأسيس الدّولة الإسلامية، ورسول الله لم يُؤمر بعدُ بالمواجهة العنيفة.

وهنا يأتي أمر الله للمؤمنين أن يقابلوا ذلك بما يليق بسمعتهم من مكارم الأخلاق وعلوّ الهمّة، فقال جلّ من قائل: ﴿**فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَاتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَ ءَاتُواْ الزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوٓاْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾.

وبما أنّ المسلمين في مقام القدوة، فإنّ ذلك يتطلّب منهم الصّبر والحلم في مقامات الغضب والإثارة، فجاء الأمر الإلهي بالعفو والصّفح مطلقاً -إذ لم يذكر متعلّقهما- ليكون ذلك أساس تعاملهم لجميع النّاس، والصّفح أعمّ من العفو؛ لأنّ أصل العفو محو الجريمة، بينما الصّفح هو الإعراض عن الذّنب، فيشمل ترك العقاب وترك اللّوم والعتاب، فما أبلغ هذه التّربية الإلهية الحكيمة بما يتناسب مع الطّبيعة البشريّة، إذ يستحوذ عليها الغضب والانتقام عند إثارة الحفيظة، فهؤلاء المؤمنون قد حبّب الله إليهم الإيمان وزيّنه في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وهم أشدّ حبّاً لله ولرسوله من أنفسهم وأولادهم وأموالهم، فكلّ من ناوشهم في دينهم وإيمانهم يكون عرضةً لغضبهم وانتقامهم، ولذلك غيّا الله التّحلّي بالعفو والصّفح بإتيان أمره أي نصره وتأييده

لكم، بأن يأذن لكم في قتالهم، وما الله بغافل عمّا يعمل الظّالمون.

وحتّى لا يعتبر المسلمون بأنّ هذا الموقف السّلبيّ منهم أمام أعدائهم ضعفاً واستسلاماً، جاء هذا التّعقيب المناسب بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بما فيه من التّطمين والتّثبيت للمؤمنين، حتّى يتخلّقوا بأخلاق الله، وهو القويّ القدير فيعفو ويصفح ويملي للظالمين، ولا يُفلتهم متى شاء ذلك، وكان لا بدّ من بعض الرّياضيات الرّوحية والاجتماعية لترويض النّفوس المؤمنة وحملها على عليا المراتب في الأخلاق، فأعقب الله الوعد بالنّصر بدعوة المؤمنين إلى إقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة، لما لهذين الرّكنين من الأثر الفعّال في السّموّ الروحي والزّكاء النّفسي والوعي الاجتماعي بالعيش في كنف الله واستنزال فضله ورحمته، لأنّه لا تضيع عنده الودائع وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وذلك هو المدّخر الثّمين عند الله في الجزاء الأخرويّ إذ قال تعالى: ﴿**وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾.

وكلمة "خير" شاملة لكلّ أنواع البرّ بما فيها العفو والصّفح وإقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة، ثمّ جاء التّذييل المناسب لمناط الجزاء وهو النّيّة الصّادقة والعمل الصّالح، والله عليم بهما، بصير بما تعملون فيوفّيكم جزاءكم على ذلك.

والله أعلم.

غرور اليهود والنّصارى بدينهم، ورأي كلّ فريق في الآخر

أ)- النّص:

وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾: هوداً جمع هائد أي تائب من عبادة العجل، وقيل: هو مخفّف من "يهود" بحذف الياء، والنّصارى هم أتباع المسيح عليه السلام ويقال في المفرد: نصرانيّ أو نصريّ. ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾: جمع أمنيّة، أصلها أمنويّة قلبت الواو ياءً، وأُدغمت الياء في الياء، وهي ما يتمنّاه المرء ولا يدركه. ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾: أي دليلكم وحجّتكم، وهو إمّا من "البره" أي القطع، لأنّ الحجّة تقطع الخصم، وإمّا من "البرهنة" بمعنى البيان. ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: "بلى" يجاب بها لإثبات نفي سابق، وهي هنا مبطلة لقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ﴾، وهي تقع بعد النّفي والاستفهام وقد تقع في غيرهما، وإسلام الوجه لله هو التّوجّه إليه وحده، وتخصيصه بالعبادة دون سواه، ويُكنّى

بالوجه عن النّفس، ويُطلق على الذّات من إطلاق الجزء وإرادة الكلّ كقوله تعالى:﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾(الرحمن:٢٧)؛ لأنّه هو الأشرف والأعظم في السّجود لله، وهو أقرب ما يكون فيه العبد من ربّه. ﴿لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾: أي ليسوا على أمر يُعتدّ به من الحقّ. ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾: أي قال المشركون من العرب، وهم مقابل أهل الكتاب.

ج)- البيان والتّفسير:

لقد كان لدعاوى أهل الكتاب وإلقاء الشّبهات هامش كبير من المناورة والتّشكيك في صفوف المسلمين، وهي تقوم بدور ما نسمّيه "المخابرات" في هذا العصر، فكان لزاماً على المسلمين أن ينتبهوا لذلك، وهم يقيمون كيانهم ويؤسّسون دولتهم على إيقاعات الوحي المنزّل من الله وعلى منهجه القويم، وقد نبّه الله في هذه الآيات إلى "إيديولوجية" اليهود والنّصارى، وهي قائمة على الغرور بما عندهم، وعلى الاستخفاف بما في أيدي الغير، مفتاتين على الله، مغالين في أمانيهم، محرّفين الكلم عن مواضعه، فقال تعالى: **﴿وَقَالُواْ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا اَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**:

الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنَ اَهْلِ الْكِتَابِ﴾، والضّمير يعود عليهم، وهم اليهود والنّصارى بقرينة ما بعده في قوله: ﴿إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا اَوْ نَصَارَىٰ﴾، ومقول القول جاء مجموعاً، لما اشترك فيه الفريقان من القول، و"أو" لتقسيم القولين، وهي ليست من المقول المحكي، فيكون المعنى قالت اليهود: لن يدخل الجنّة إلاّ من كان هودا، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلاّ

من كان نصارى.

وذلك هو واقعهم التاريخي، إذ كان كلّ فريق منهم يعتقد النجاة لنفسه وحده، ولا يشكّ في ضلال غيره، وذلك معتقدهم إلى اليوم، ولا يتنافى ذلك أن يكون سبب نزول الآية كما قيل: أن وفد نجران -وهم نصارى- لمّا قدموا على رسول الله ﷺ أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم، فقالت اليهود: ما أنتم على شيء من الدّين، وكفروا بعيسى والإنجيل، وقالت لهم النصارى: ما أنتم على شيء من الدّين، فكفروا بموسى والتوراة. فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قلت: ولا ينافي سبب النزول في ما قاله أولئك لحضرة الرسول أن يسقط هذا الحكم على أخلافهم، لأنهم على آثار أسلافهم مقتدون، وبما أن هذا الادعاء من الفريقين ليس له سند صحيح من كتبهم فقد جاء الردّ الإلهي بأن ذلك من أمانيهم الكاذبة التي لا تستند إلى دليل.

ثم أمر الله رسوله بأن يتحداهم بإتيان الدليل على قولتهم تلك إن كانوا صادقين فيها على ما يعتقدون وأنّى لهم أن يأتوا بذلك الدليل وهم درجوا على تقليد آبائهم، وجيء بـ"إن" للتشكيك في صدقهم، غير أن عجزهم عن الإتيان بالبرهان هو دليل قاطع على عدم صدقهم وقد قال البوصيري:

والدعاوى ما لم يقم عليها دليل أصحابها أدعياء

وبعد هذا الاستدراج يقرّر الله تعالى ما يكون القاعدة في إقامة العدل الإلهي في ترتيب الجزاء على العمل وحده بدون محاباة ولا محسوبية فقال تعالى: **﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾**:

أبطل الله دعواهم بـــ:"بلى" وهي تفيد الجواب لإثبات نفي سابق -أي إثبات نقيض النفي وهو دخولهم الجنّة وحدهم-، ثم بيّن الله تعالى أن الجنـــة ليست حكرا على أحد، بل يستحقها كل من خضع لله وانقاد له بالطاعـــة، وهو مخلص في عمله، فالإخلاص لله وإفراده بالطاعة هو ملاك العبادة ومنـــاط القبول والأجر عند الله.

وقد جرى أسلوب القرآن على إقران الإيمان بالعمل الصالح، ولكن هنا قيد التوحيد الخالص لله بالإحسان ليفيد معنى زائدا عن العمل الصالح وهـــو الإخلاص والتقى، ثم رتب على ذلك استحقاق الأجر والكرامة عند الله، وهي "عندية" علم وعهد وتشريف، ومع إثبات الأجر نفى عنهم الخوف والحـــزن عند الفزع الأكبر، إذ يظلهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلا ظله.

وفي ذلك عبرة للمسلمين الذين يقصّرون في واجباتهم الدينية تعلقًا بمثل هذه الأماني الكاذبة، وقد أفصح الله عن ذلك في سورة النساء إذ نفى كلاً من أمانيّ المسلمين وأمانيّ أهل الكتاب فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَّعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا، وَمَنْ يَّعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ اَوْ اُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (النساء:١٢٣ــ١٢٤).

وقد حرص رسول الله في تركيز هذه التربية المثلى عند أصحابه، فـــلا يتعلقون بالأماني الكاذبة، وكان يحرّض على الاجتهاد في الصلاح والتقـــوى فيقول:« **الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني** ».[1]

---

١ - تقدّم تخريجه: ص ١٧١.

و لم يكتف الفريقان بتزكية أنفسهما عجبا وغرورا، بل طعن كل فريق في خصمه بأنه ليس على شيء من الهدى والصلاح.

ومثل هذا التفصيل من شأنه أن يخفف من حنق المسلمين على اليهود والنصارى بحجز الجنة لأنفسهم ومنعها عن غيرهم فقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾:

عَطْفُ هذه المقولة على ما سبق يدلّ على أنهم صرّحوا بذلك أمام رسول الله وهم يتناظرون ويتلاحون، إذ أنكر كل فريق ما في أيدي الفريق الآخر من النصوص المقدسة توراة أو إنجيلا، وهم بالتبع ينكر كل فريق منهم رسالة رسول الآخر فلا يعتقد بدينه، بينما يدّعون أنهم أهل كتاب، فقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ واللفظ للجنس على الأرجح أي كل فريق منهم يتلو كتابه ويتلو كتاب الآخر أي التوراة والإنجيل وهما متكاملان يصدّق بعضهما بعضا، ولهذه الجملة الحالية ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ موقعها المناسب إذ يقابل بهم الذين قالوا مثل ذلك وهم يتلون الكتاب، أي مشركو العرب وغيرهم، وفي ذلك تعريض بمن آتاه الله العلم فلم يشكر تلك النّعمة بأن أخفى ما عنده من العلم، أو هو لا يعمل بما علم.

فالمشركون أحطّ منزلة، إذ لا يؤمنون بأيّ دين سماوي وقالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ (الأنعام:٩١).

وبعد تسجيل تلك الدّعاوى وتفنيدها، فرّع الله عليه حكمه العادل يوم

القيامة، بأن يفصل بينهم بالحقّ في ما كانوا فيه يختلفون، وهو العليم بما عليه كلّ فريق من حقّ أو باطل، ولا تكون الجنّة إلاّ لمن أخلص في إيمانه وعمله لله وحده، والإخبار بهذا الحكم الإلهي العادل الفاصل يتضمّن التوبيخ والوعيد للمتخاصمين المذكورين.

والله أعلم.

ظلم تعطيل المساجد عن ذكر الله،
وصحّة التوجّه إلى الله من أيّ مكان.

أ)- النصّ:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾: "مَنْ" نكرة موصوفة أُشربت معنى الاستفهام وهي مبتدأ، والاستفهام للنفي، والظّلم وضع الشّيء في غير موضعه. ﴿مَّنَعَ مَسَٰجِدَ

اللّه أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾: المساجد جمع مسجد، مكان العبادة بذكر أشرف ما فيها وهو السّجود لله، ومنعها: منع العبادة في أوقاتها الخاصّة بها. ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾: السّعي أصله المشي، ثمّ صار مجازاً في التّسبّب المقصود، والخراب اسم مصدر بمعنى تخريبها بالتّعطيل عن ذكر الله أو هدمها. ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾: أي ما يعقبه الظّلم من فساد العمران، وما ينجرّ عن ذلك من الذّلّ والهوان. ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾: المقصود بهما تعميم جهات الأرض كلّها، وهو تقسيم اعتباريّ اشتهر عند الأقدمين، وهو مبني على مشاهدة مسار الشّمس في شروقها وغروبها. ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾: أي هناك ذات الله تعالى، ووجه الله كناية عن وجوده بالعلم والحفظ والرّحمة، وعن رضاه بتوجّهكم حيث أمركم. ﴿وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾: المراد سعة ملكه وسعة علمه وفضله.

ج)- البيان والتّفسير:

ما يزال الكلام مطّرداً في مواقف أهل الكتاب ومن على شاكلتهم من المشركين أزاء الدّعوة الإسلامية، وهي كلّها تنمّ عن الظّلم والفساد، ويجيء عطف هذه الآية على ما سبقها من أقوال ضدّ بعضهم البعض، ليبيّن الله بها عملاً وسعياً هما أوغل في الظّلم، ويتوعّد فاعله بخزي الدّنيا وعذاب الآخرة، فقال تعالى: **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُوْلَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾**:

وعلى ذكر أهل الكتاب والمشركين وتعداد مواقفهم المخزية، فإنّ

الرّوايات المبيّنة لأسباب النّزول تذكر احتمالات كثيرة للوقائع التّاريخية التي يمكن أن تكون سبباً للنّزول، إذ ذكرت ما فعله "بختنصر" ملك " أشور" قبل الميلاد، بهدمه لبيت المقدس وإحراقه للتّوراة وقتله لبني إسرائيل، كما ذكرت ما فعله "طيطوس" الرّوماني، إذ خرّب هو أيضا بيت المقدس وقتل وسبى، حتّى ترك البيت خراباً إلى أن بناه المسلمون بعد فتح الشّام.

وروي عن ابن عبّاس ﷺما أنّ الآية نزلت في مشركي العرب، إذ منعوا الرّسول وأصحابه من الدّخول إلى مكّة في قصّة صلح الحديبية[1]، وجيء بالجمع للفظ " المساجد" تعظيماً للمسجد الحرام، لأنّ مساجد الإسلام كلّها جُعلت تابعة إليه في التّوجّه إلى الكعبة، وقيل: إنّ الآية لا تنبئ بأمر وقع، ولكنّها تنبئ إنباءً غيبيًّا بأمر سيقع، وذكروا لذلك حادثة "القرامطة" وما فعله الصّليبيّون ببيت المقدس وغيره من مساجد المسلمين عند احتلالهم لبلادهم.

وأيّاً كان السّبب، فإنّ الآية عامّة في حكمها بأعظم الظّلم لمن منع مساجد الله بمنع العبادة فيها، أو السّعي في تخريبها، أو تعطيل دورها في تعظيم شعائر الله، وتجميع المسلمين على ذكر الله ومحبّته، لما في ذلك المنع من انتهاك لحرمات الله، وما ينتج عنه من التّفريط في جنب الله وحقّ الجماعة المؤمنة في توحيد الصّفّ ووحدة التّوجه، والتّزوّد بزاد التّقوى، والإخبار عنهم بعد اسم الإشارة " أولئك" فيه معنى استحضارهم بالأوصاف المذكورة، أي المانعون السّاعون في خراب المساجد.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ﴾ يدلّ على نفي المستقبل، أن يكون دخولهم إليها في أمن وطمأنينة، فهم إذ يقومون بذلك

١ - أنظر الروايات في ذلك: الطبري، جامع البيان، ١٥٧/١ وما بعدها.

المنع والتّخريب خائفون من نقمة الله عليهم، وهذا الوعيد جارٍ على مقتضى علم الله بما سيؤول إليه أمر تلك المساجد، بتطهيرها من دنس الكفر، ومنع أهل الشّرك من التّصرّف فيها كما حدث ذلك بعد فتح مكّة بالنّسبة للمسجد الحرام، ولذلك توعّدهم الله بالخزي في الدّنيا، وهو ما نالهم من الذّلّة والهوان، وأتمّ الله ذلك الوعيد الأخرويّ بأنّه عذاب عظيم.

ولعلّ السّياق -وهو يعدّد مواقف اليهود من دعوة الرّسول- يرجّح كفّة من يقول من المفسّرين أنّ الآية نزلت في صلاة النّبيّ قِبَل بيت المقدس، ثمّ عاد فصلّى إلى الكعبة، كما احتجّ المشركون عن انصراف النّبيّ عن التّوجّه إلى الكعبة بعد هجرته إلى المدينة، فكلّ هذه الوقائع التّاريخيّة يُحتَمل أن تكون هي السّبب في نزول هذه الآية، ولكن الآية بعموم لفظها لا تنحصر في تلك الأسباب القديمة، إذ ما يزال الأمر يتكرّر من الظّلمة والبُغاة ما دام الصّراع بين الحقّ والباطل، وقد جعل الله تدافع النّاس في ذلك الصّراع سبباً لبقاء تلك المعابد التي يُذكر فيها اسم الله فقال في سورة الحجّ: ﴿وَلَوْلاَ دفَاعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً﴾ (الحج:٤٠).

ويحتمل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَآ إِلاَّ خَآئِفِينَ﴾ يحتمل أنّ الله قضى بذلك، فلا يجوز للمسلمين أن يتركوا المشركين يدخلون مساجدهم، أو هو أمر بإبعادهم عنها ولو قسراً، وقد اختلف الفقهاء في ذلك، فقال قطب الأئمّة -رحمه الله- ما ملخّصه: "ولا يجوز عندنا أن يُترَك مشرك أن يدخل مسجداً إلاّ إن لم نقدر، وذلك قول مالك، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ (التوبة:٢٨)، والمساجد مثله

في التّطهير عن الأنجاس، فهي مثله أيضاً في الحُرمة، وأجازه الشّافعي في غير المسجد الحرام بشرط الحاجة إليه، وإذن المسلمين له، وأجازه أبو حنيفة مطلقاً".[١]

ثمّ بيّن الله تعالى ما يُبطل دعاوى اليهود، ويفسخ ابتهاج المشركين بانفرادهم بجوار الكعبة فقال: ﴿**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾.

فالآية شديدة الاتّصال بما قبلها، إذ تقرّر أنّ الأرض كلّها لله تعالى، فحيثما توجّه العابد إلى الله تعالى بقلب خاشع فإنّه يجد الله حياله وتجاهه، كما لا يجدي الإنسان أن يتّجه إلى مكان مقدّس، وقلبه زائغ كافر بالله، وما تفاضلت بعض الأماكن بأمر من الله إلاّ لما فيها من مزايا التّذكير بفضل الله، وما يملك الإنسان شبراً من هذه الأرض حتّى يدّعي أفضليتها على الأخرى افتياتاً على الله وتحكّماً في ملكه الواسع العريض، وإنّما كان توحيد الاتّجاه إلى قبلة معيّنة بتحديد من الله وحده، كان مظهراً من مظاهر التّوحيد والتّجميع للمؤمنين لترتبط قلوبهم بالعقيدة، كما أن تعميم جهات الأرض لتكون مجالاً للتّوجّه في العبادة ومرجعيّة ذلك إلى الله يركّز قاعدة أساسية في العقيدة بأنّ الله لا تحدّه الجهات ولا تحصره الأمكنة، وبالتّالي لا تنحصر عبادته في الهياكل والمعابد، كما يدلّ عليه حديث: «**جُعلت لي الأرض مسجداً وترابها طهوراً**».[٢]

---

١ - احمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، ١/ ٢٣٣.

٢ - رواه مسلم عن حذيفة، في كتاب المساجد و مواضع الصلاة، حديث ٥٢٢، ١/ ٣٧١ بلفظ:« جعلت لنا الأرض كلها مسجدا وجعلت تربتها لنا طهورا».

وقوله تعالى:﴿ إنّ الله واسع عليم﴾ تذييل مناسب يدلّ على سعة ملكه تعالى وسعة فضله ورحمته بخلقه، فلا يضيّق عليهم واسعاً، ولا يحرمهم ثوابهم وهو عليم بدوافعهم ونواياهم.

والله أعلم.

تنزيه الله تعالى عن اتّخاذ الولد، وتشابه المشركين بمن قبلهم في طلب الآيات

أ)- النّصّ:

وَقَالُواْ اتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي، وأوجه القراءة:

﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَه﴾: ﴿وَقَالُواْ﴾ قرأه الجمهور بالواو على العطف، وقرأه ابن عامر بدون واوٍ، على الاستئناف والاتّخاذ والاكتساب،

والولد إشارة إلى قولة اليهود: عزير بن الله، وقولة النّصارى: المسيح بن الله، وقول المشركين: بأنّ الملائكة بنات الله. سبحانه: جملة معترضة، تنزيه لله عن قولتهم الشّنيعة. ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾: القنوت هو الخضوع والانقياد مع الخوف، والتّنوين في "كلٌّ" هو عوض عن المضاف إليه. ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾: بديع مشتقّ من الإبداع، وهو الإنشاء عن غير مثال سابق، وقيل هو صفة مشبّهة من فعل "بُدْع" الثلاثي. ﴿يَقُولُ لَهُ, كُن فَيَكُونُ﴾: قرأ الجمهور "يكون" في كلّ موضع بضمّ النّون على تقدير "فهو يكون"، وقرأه ابن عامر بفتحها في كلّ موضع إلاّ في آل عمران والأنعام، بناءً على أنّ جواب الأمر بالفاء يكون منصوباً، وهو تمثيل لسرعة وجود الكائنات عند تعلّق الإرادة الإلهية بها. ﴿قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾: قضى لفظ مشترك يكون بمعنى الخلق، ويكون بمعنى الإعلام. ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَاتِينَآ ءَايَةٌ﴾: "لولا" حرف تحضيض، قصد منه التّعجيز والاعتذار عن عدم الإصغاء للرسول، والآية: الدليل والبرهان على صدق الرّسول.

ج)- البيان والتّفسير:

عاد السّياق إلى تعداد المواقف المخزية لأهل الكتاب والمشركين، وقد بيّن الله تعالى في ما سبق ما قالته اليهود والنّصارى والمشركون في حقّ الله، وقد اتّفقوا كلّهم على الضّلال بأن جعلوا لله ولداً، والكلام غالباً ما ينمّ عن الاعتقاد، فجاء هذا الرّدّ مبطلاً لتلك الدّعاوى ومنزّهاً لذات الله العليّة إذ قال تعالى: **﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُۥ, بَل لَّهُۥ, مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾**:

الجملة معطوفة على ما تقدّم من أقوال الفرق الثّلاثة: اليهود والنصارى ومشركو العرب، والضمير المرفوع يرجع إليها، ومقول القول هو: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، وهو أسوأ كلمة في الكفر تقال عن الله جلّ جلاله، وتختلف بواعثها عند الفرق الثلاثة، فالمشركون يقولونها عن جهالة وفساد تصوّر عن حقيقة الألوهية، أمّا أهل الكتاب فهم يقولونها عن تأوّل خاطئ لمعنى البنوّة والأبوّة بمعناهما المجازي والذي يتمثّل في الرّحمة والشّفقة، حين اعتبروهما حقائق تتمثّل في شخص المسيح أو عزير، أو وصفهم الصّالحين بأنهم أبناء الله، وكلمة الكفر لا يُسلخ عنها معنى الكفر أن يكون النّطق بها ظاهرياً لا يعتقد معناها الحقيقي، ونجد القرآن شديد التّنديد على هذا التّصوّر الفاسد في المعتقد بمختلف الأساليب، ولعلّ أقوى ما ورد في ذلك هو قوله تعالى في سورة مريم: ﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا، لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا ادًّا، يَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا، أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا، وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا، إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ ءَاتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا، لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا، وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ (مريم: ٨٨-٩٥).

وقبل الرّدّ على هذه الدّعوى الزّائغة جاء قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ في جملة معترضة متمكّنة في موقعها، وهي لتنزيه الذّات العليّة عن كلّ نقص، وأفظعه جعل الوالدية للخالق الذي لا يشبهه شيء في خلقه، وما ينبغي له أن يتّخذ ولداً، لأنّ ذلك يؤذن بالحدوث والجهات والفناء، وتعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، وقد أبطل ذلك الادّعاء بقوله: ﴿بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ لأنّ المالك لجميع الموجودات في العوالم العلويّة والسّفلية بما فيها من العقلاء وغيرهم، هو غنيّ بذاته عن تلك الموجودات، ولا يمكن

للمملوك أن يرتقي إلى مستوى المالك حتّى وإن اختصّه الخالق ببعض الميزات عن غيره مثل الرّسل والأنبياء والصّالحين من عباده، بل كلّ هؤلاء يقرّون بالعبودية والخضوع لله: ﴿لَنْ يَّسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَّكُونَ عَبْداً لِلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (النساء:١٧٢).

ولتأكيد نفي الولدية عنه تعالى أعقب ذلك ببيان بديع صنعه وعظيم قدرته، فقال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾: وبديع خبر لمحذوف تقديره: هو بديع السّماوت والأرض، أي خلقهما على غير مثال سابق، وذلك لا يقتضي سبق المادة كما حقّقه اللّغويّون، فصفة ﴿بَدِيعُ﴾ أدلّ على قدرة الخالق من قوله: ﴿خلق﴾، لأنّ الخلق هو التّقدير يقع في شيء موجود، كما جاء التّعبير القرآني بـــ"فاطر" وهو اسم فاعل من " الفطر" أي الخلق، وفيه معنى التّكوّن سريعاً، لأنّه مشتقّ من الفَطْرِ وهو الشّقّ، قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَآءُ انْفَطَرَت﴾ (الانفطار:٠١).

وجملة ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ فيما يتعلّق بتوجّه الإرادة الإلهية إلى إيجاد الأشياء، الجملة تمثيل لسرعة الإيجاد والتّكوين على الكيفية التي يريدها، والله أعلم بكيفيّة ذلك إذ هي من أسرار الخليقة التي استأثر الله بعلمها، فهو المبدئ المعيد للخلق.

وقد عبّر القرآن على ذلك بالنّشأة الأولى والنّشأة الآخرة، كما قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ اللّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ، قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت: ١٩-٢٠).

ومقابل أهل الكتاب ممن قالوا كلمة الكفر، يذكر الله الذين لا يعلمون وهم المشركون من غيرهم، وفي مقدّمتهم مشركو العرب الذين وصفهم الله بالأمّيين، ولو كان الأصناف الثلاثة قد جمعت من قوله: ﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ فإن قوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ الذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَاتِينَآ ءَايَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الذِينَ مِن قَبْلِهِم**﴾ جاء لبيان مترلقات الكفر بالقدح في وحدانية الله في الآية السابقة، وبالقدح في النبوءة كما جاء في هذه الآية، وكلا المترلقين ناشئ عن فساد التصوّر، إذ أن الطلب بسماع كلام الله أو إتيان الرسول بآية مادية محسوسة تدلّ على صدق نبوءته، بعكس ما يعتقده هؤلاء من أن الرسول بشر مثلهم يريد أن يتفضّل عليهم بادّعائه خبر السماء.

وقد عالج القرآن هذا التصوّر الفاسد بما لا مزيد عليه، وأزال ذلك العجب بمختلف البراهين التي تبيّن أن لا تناقض بين بشرية الرسول وتلقيه وحي السماء، لأن ذلك ميزة يختار الله لها من يشاء من عباده: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (القصص:٦٨).

وبما أن القلوب هي مستودع الخواطر والتصوّرات، فإن الألسنة هي ترجمان تلك الخواطر، والكفر ملّة واحدة، كما أن الحق معايير ثابتة، وقد يأخذ الكفر والضلال أشكالا وألوانا، وتتعدّد وسائله، ولكن دوافعه غالبا ما تتشابه في حنايا الصدور بما يملأها من الكفر والعناد ومن الحسد والبغي، فإذا بالأخلاف تعيد مقولات الأسلاف دونما رويّة أو تفكير، والتقليد الأعمى يعمي ويُصِمّ فلا منفذ للتبصّر والاهتداء، فلا يؤمن هؤلاء ولو جاءتهم كل آية، لأن المكابرة والعناد يحولان دون حصول الإيمان واليقين.

قال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، والمقصود بالآيات هو ما ورد في القرآن الكريم من الأدلة والبراهين على صدق النبوءة، وذلك وحده كاف في الإقناع لمن أذعن قلبه للإيمان وامتلأ يقينا بأن ما يبيّنه القرآن هو الحق الذي لا ريب فيه كما قال تعالى في شأن القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلذِينَ ءامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَالذِينَ لا يُومِنُونَ فِي ءاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى اوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (سورة فصلت: ٤٤).

والله أعلم.

حقّية الرسالة المحمدية،

والتحذير من اتباع اليهود والنصارى

أ)- النص:

إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ
الْيَهُودُ وَلَا النَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ
أَهْوَآءَهُم بَعْدَ الَّذِى جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ
الْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾

ب)- التحقيق اللغوي وأوجه القراءة:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾: بشيرا ونذيرا في موقع الحال، وهما على زنة "فعيل" بمعنى فاعل من بشّر المضاعف وأنذر المزيد ومجيئها من الرباعي على غير قياس كبديع. ﴿وَلاَ تَسْئَلْ عَنْ اَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾: قرأ نافع ويعقوب ﴿لاَ تَسْئَلْ﴾ بفتح الفوقية وسكون اللام، وقرأه جمهور العشرة بضمّ الفوقية ورفع اللام، على أن "لا" في القراءة الأولى ناهية وفي الثانية نافية، والسؤال كناية عن المؤاخذة واللوم، والجحيم: نار جهنم والعياذ بالله. ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾: الملّة الدين والشريعة، وهما مجموعة من عقائد وأعمال يلتزم بها طائفة من الناس. ﴿قُلِ انَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾: هدى الله فيه احتمالان، أي ما يقدّره الله للشخص من الهداية والتوفيق. وذلك ليس بيد الرسول، أو الهدى المنزل من عند الله وهو القرآن. ﴿أَهْوَآءَهُم﴾: جمع هوى وهو الرأي الناشئ عن شهوة بلا دليل. ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَّلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾: "من" مؤكدة للنفي. ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلاَوَتِهِ﴾: منصوب على المفعول المطلق، أي تلاوة حقّا.

ج)- البيان والتفسير:

على ذكر الذين لا يعلمون وقدحهم في النبوءة بطلبهم سماع كلام الله مباشرة، أو الإتيان بآية تدلّ على صدق الرسول، جاء ما يؤنسه ويثبت قلبه الشريف في قوله تعالى: **﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلاَ تَسْئَلْ عَنْ اَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾**:

يخاطب الله رسوله مؤكدا بأن كلامه لمزيد من التقرير لما يتضمّنه

الإخبار والإشهاد بحقية رسالته، ويتمثل ذلك الحقّ في مجموع العقائد والشرائع المنزلة من عند الله لخلقه يبلّغها الرسول إليهم بأسلوب البشارة والنذارة دونما إكراه ولا إعنات، وكان الرسول يودّ جاهدا أن يؤمن به أهل الكتاب فيتأيد بهم الإسلام على المشركين، وقد توخّى معهم المجادلة الحسنة والحوار الهادئ وأبرم معهم المواثيق، إن هم أرادوا البقاء على ملّتهم، ولكن مواقفهم المخزية خيّبت الظنون فكان هذا التذكير الإلهي تسلية لرسول الله وتهدئة لخواطره إذ ليس عليه هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء. فنهاه الله أن يحزن عليهم إن لم يؤمنوا، فهم أصحاب الجحيم.

ولا فائدة في السؤال عنهم، لأن فظاعة ما هم آئلون إليه لا يحيط بها الوصف ولا يحتملها العقل، فلا تسأل عنهم أيها الرسول سؤال تحسّر وحزن إن لم يؤمنوا بك، فحسبهم عذاب الجحيم وحسبك أنك بلّغت وبشّرت وأنذرت.

ومع هذا التأنيس لقلب رسول الله، يأتي التأييس من إيمان اليهود والنصارى معطوفا على قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾، فقال جلّ من قائل: **﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ انَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾**:

نفى الله تعالى نفيا تأبيديا بـــ"لن" رضى اليهود والنصارى عن ملة الرسول إلاّ أن يتبع ملتهم وهي ما هم عليه من الدين والشريعة، أفرد لفظ الملة وإن تعددت مشاربهم وأهواؤهم فيها، لأن الكفر ملّة واحدة، وقد كان رسول الله يلاطفهم طمعا في إيمانهم-كما تقدم- فجاءت هذه الآية لتسدّ منافذ

الرجاء في الحصول على رضاهم -لأن جعل ذلك مُغيًا باتباع الرسول لملّتهم وهو أمر مستحيل يجعل ذلك الرضا مستحيلا، وكل من اليهود والنصارى يندرج في هذا النفي المؤبد على حدّ سواء، بدليل التصريح بلا النافية بعد حرف العطف بينهما إذ قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ﴾، ذلك لأن الفريقين لا يصدّقان برسالة الإسلام أنها كتاب من الله بمنزلة ما عندهم من التوراة والإنجيل، وبالتّالي فهم يعتبرون أن هدى الله حكر عليهم، فأمر الله رسوله أن يجهر بالحقّ، وأنّ الهدى الحقيقي هو ما أنزله الله على رسله، والذي جاء القرآن متمّماً له ومصدّقاً لما بين يديه، وكاشفاً للزّيف الذي أضافه اليهود والنصارى إلى كتبهم، ثمّ حذّر الله نبيئه من أن يتّبع أهواءهم ممّا حرّفوه أو وضعوه، لأنّ ما أنزل الله عليه هو الهدى الكامل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد أكّد حكمه بعدّة مؤكّدات، وما أبدع التّعبير بكلمة ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ بدلاً من ﴿مِلَّتَهُمْ﴾ في التّحذير من الاتّباع، وذلك للتعريض بأنّ ما هم عليه يومئذ ليس بالهدى الخالص الذي جاء من عند الله كما يزعمون، وقوله تعالى: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي أنّك لا تلقى نصراً ولا تجد سنداً من الله فيما ترجوه، ويراد بهذا التّحذير مجموع الأمّة، وجاء من خلال التحذير لرسول الله، لأنّه القدوة، وإلاّ فما كان لرسول الله ﷺ أن يساوم في حقّ دينه، ولا أن يستخفّه الطّمع لاسترضاء اليهود والنّصارى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (الحديد:١٦).

وحتّى لا ينقطع حبل الرّجاء من مجموع أهل الكتاب، جاء الاستدراك النّاشئ عن قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ﴾ بأنّه لا يزال

فيهم من هو منصف يميّز بين الحقّ والباطل، ويتدبّر معاني الكتاب بتفكير حرّ، ويؤمن به عن اقتناع، فقال تعالى: ﴿الذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُومِنُونَ بِهِۦ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾:

والمقصود بالكتاب التّوراة والإنجيل كما يدلّ عليه السّياق، وقيل: المقصود هو القرآن لعموم الجنس، ولا تنافي، لأنّ بيان نوعية التلاوة عن تدبّر وإمعان وعدم التحريف يجعل التّالين للتوراة والإنجيل يؤمنون بما في القرآن، كما يجعل التّالين للقرآن يؤمنون بما هو الحقّ في التوراة والإنجيل، فالإخبار باسم الإشارة عن جملة ﴿الذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُومِنُونَ بِهِۦ﴾ يُثبت جدارتهم بالإيمان بالكتاب، وإن كان الضّمير في "به" يمكن أن يراد به النّبيّ أو الهدى الذي جاء به من الله، غير أنّ نظم الكلام على أهل الكتاب يقتضي عود الضّمير إلى "الكتاب" ممن آمن منهم بمحمد ﷺ وحسُن إيمانه كعبد الله بن سلام من اليهود وعديّ بن حاتم من النّصارى.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: وترد على الضّمير في "به" الاحتمالات السّابقة في معاده، فإذا كان الكافرون بالكتاب هم الخاسرون، فإنّ المؤمنين به هم الفائزون، وكفرهم بالكتاب يتناول كلّ ما ذكر الله عنهم من تحريف الكلم عن مواضعه، أو ادّعائهم لما كتبوه بأيديهم بأنّه من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، أو كتمان ما آتاهم الله من فضله، وفي الآية إرشاد إلى حسن التّدبّر لمعاني القرآن والتّجاوب مع أسراره ومعانيه، لأنّ الاكتفاء بتلاوة ألفاظه تبرّكاً بدون فهم لا يحقّق الهداية المطلوبة.

والله أعلم.

تذكير بني إسرائيل بنعمة الله عليهم، وتخويفهم من عذاب الآخرة

أ)- النّصّ:

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

ب)- المقارنة اللّغويّة:

تكرّرت هاتان الآيتان لتأطير ذلك الاستعراض التّاريخي الخاصّ ببني إسرائيل، فذُكرتا في ابتداء تلك الجولة، وتكرّرتا هنا بشيء من التّغاير في المبنى، على قاعدة ردّ العجُز إلى الصدّر في أفانين الكلام؛ فحولف في ترتيب لفظي العدل والشّفاعة تقديماً وتأخيراً، فقدّم هناك ﴿وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ وأخّر ﴿وَلاَ يُوخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾.

وهنا قدّم ﴿وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾، وأخّر لفظ الشّفاعة مسنداً إليه ﴿تَنْفَعُهَا﴾، وهذا التّفنّن في التّقديم والتّأخير قد روعي فيه اختلاف أحوال الجُناة في موقف الحساب، وهم يلتمسون أسباب النّجاة مرّة بتقديم الفدية ومرّة بتوسّط الشّفعاء، ولا يخلّصهم ذلك من عذاب الله.

ج)- البيان والتّفسير:

أعاد الله نداء بني إسرائيل للتّنبيه و الإنذار، والتّذكير بنعمة الله عليهم، بعد أن ذكّرهم بمثل ذلك في أوّل محاجّتهم، وفائدة إعادتها هنا هي لاستخلاص النّتائج المرجوّة لذلك العرض الطّويل من الأدلّة والبراهين، لحفز هممهم إلى الإيمان، وتحريضهم على اتّباع النبيّ الذي يجدون صفاته عندهم في التوراة والإنجيل.

قال تعالى:﴿**يَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ التِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾: والمناسبة بين هذه الآية وما سبقها أنّ الله تعالى عندما شنّع على من أعرض عن تدبّر الكتاب وكفر به ذكّر بني إسرائيل بما أنعم عليهم من النّعم الكثيرة، وأجلّها وأعظمها ما أنزل عليهم من التّوراة والإنجيل، وكان حريّاً بمن حباه الله بنعمة العلم والحكمة وفضّله على غيره من النّاس كان حريّاً به أن يقدّر تلك النّعمة بالانصياع إلى الحقّ والتّمسّك بهدى الله.

﴿**وَاتَّقُواْ يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ**﴾: والتّذكير من شأنه أن يوقظ الضّمائر ويحفّز الهمم، ويبعث النّخوة في نفوس الأخلاف بما يعرض عليهم من مفاخر الأسلاف، ولكن قد تقسو القلوب إذا طال عليها الأمد كما حدث لبني إسرائيل، وذلك لا يقتضي من النّاصح الدّاعي أن يقرن التّذكير بالتّخويف والإنذار من سوء العاقبة، بما ينتظرهم من عذاب يوم القيامة، ذلك اليوم الذي تنقطع فيه الأسباب، فلا فدية ولا شفاعة ولا ناصر لهم من الله إن هم بقوا على ضلالتهم، فعجزوا عن العمل وتمنّوا على الله الأماني بأنّهم أحبّاؤه فلا

يعذّبهم، أو أنّ الجنّة حكر عليهم فلا يدخلها غيرهم، نرجو من الله حسن الخاتمة وجميل العاقبة، فليعتبر المسلمون بهذا التّذكير حتّى لا يقعوا في ما وقع فيه بنو إسرائيل من الأوهام والأماني الكاذبة، بالاعتقاد الفاسد في شفاعة الأولياء، أو الاغترار بالانتماء إلى الشّرفاء، وقد قال رسول الله ﷺ لابنته فاطمة الزّهراء عليها السلام: «**يا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت، فإنّي لا أغني عنك من الله شيئاً**».[1]

والله أعلم.

إمامة إبراهيم، وخصائص البيت الحرام، وفضائل مكّة المكرّمة

أ)- النصّ:

وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ۖ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن

١ - رواه مسلم عن أبي هريرة، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿و أنذر عشيرتك الأقربين﴾، حديث ٢٠٦، ١/ ١٩٢.

طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي، وأوجه القراءة:

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾: ابتلى من الابتلاء، والصيغة للمبالغة، والبلاء الاختبار لمعرفة حال المختَبَر بتكليفه بما يشقّ عليه فعله أو تركه، والكلمات جمع كلمة، وتطلق على اللّفظ المفرد، وتطلق على الجمل المفيدة، والمراد بها ما تتضمّنه من معان -أي أوامر ونواه- وهي من تسمية المدلول باسم الدّال. ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾: الإمام الرّسول والقدوة للناس، إذ لا نبيء بعده إلاّ من ذرّيته. ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾: البيت علم بالغلبة على الكعبة المشرّفة و"أل" للعهد، مثابة: من ثاب يثوب إذا رجع، والمراد أنّ النّاس يقصدونه بالتّعظيم ويؤمّونه للحجّ، وأمنا: أي حفظ الناس من الأضرار، وجعل البيت نفس الأمن للمبالغة. ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾: مقام إبراهيم يُطلق على الكعبة لقيامه-أي إبراهيم عليه السلام- عندها يعبد الله، ويُطلق على الحجر الذي كان يقف عليه عند البناء، والمصلّى موضع الصلاة. ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾: عهدنا: العهد أصله الوعد المؤكّد وقوعه، عُدي بـــ" إلى" لأنّه بمعنى الوصية المؤكّد على الموصى العمل بها.الطّائفين والعاكفين والرّكّع السّجود: أي أصناف المتعبّدين في البيت

بالطّواف والاعتكاف والركوع والسّجود. ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا - امِنًا وَارْزُقَ اهْلَهُ, مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾: البلد هو المكان المتّسع من الأرض، ويكون متحيّزاً عامراً أو غامراً، الثمرات: جمع ثمرة، وهي ما تحمله الشّجرة وتنتجه مما فيه غذاء للإنسان. ﴿أَضْطَرُّهُ, إِلَى﴾: اضطرّ لازم يتعدّى بـ"إلى" ليدلّ على معنى الإلجاء والحمل على الشّيء.

ج)- أوجه في القراءة:

أ- ﴿إِبْرَاهِيم﴾: ذكر في قراءة اللّفظ ستّ لغات: إبراهيم، إبراهام، إبراهوم، إبراهم (بكسر الهاء وفتحها وضمّها).

ولم يقرأ جمهور القرّاء العشرة إلاّ بالأولى "إبراهيم"، وقرأ بعضهم بالثانية "إبراهام" في ثلاث وثلاثين موضعاً من القرآن.

ب- ﴿وَاتَّخَذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾: قرأ نافع وابن عامر ﴿اتَّخَذُوا﴾ بصيغة الماضي عطفاً على﴿جَعَلْنَا﴾، وقرأه باقي العشرة بكسر الخاء على صيغة الأمر على تقدير القول، أي قلنا اتّخذوا.

د)- بين يدي النّصّ:

أ- التّعريف بسيدنا إبراهيم: وفي التّعريف بهذا الرّسول الكريم أنقل النّصّ الذي أورده الإمام ابن عاشور إذ يقول: " وإبراهيم اسم الرّسول العظيم الملقّب بالخليل، وهو إبراهيم بن تارح (وتسمّي العرب تارح آزر) ابن ناحور بن سروج بن رعو بن فالح بن عابر بن شالح بن ارفكشاد بن سام بن نوح، هكذا تقول التوراة، ومعنى إبراهيم في لغة الكلدانيين أب رحيم أو أب راحم،

قاله السّهيلي وابن عطيّة، وفي التوراة أن اسم إبراهيم "إبرام" وأنّ الله لمّا أوحى إليه وكلّمه أمره أن يسمّي إبراهيم لأنّه يجعله أباً لجمهور من الأمم، فمعنى إبراهيم على هذا أبو أمم كثيرة، وُلد في "أور" الكلدانيين سنة ١٩٩٦ قبل ميلاد المسيح، ثمّ انتقل به والده إلى أرض "كنعان"، وهي أرض الفينيقيين فأقاموا "بحاران"، (وهي حوران)، ثمّ خرج منها لقحط أصاب "حاران" فدخل مصر وزوّجه "سارة"، وهناك رام ملك مصر افتكاك سارة فرأى آية صرفته عن مرامه، فأكرمها وأهداها جارية مصرية اسمها "هاجر"، وهي أمّ ولده إسماعيل، وسمّاه الله بعد ذلك "إبراهيم"، وأسكن ابنه إسماعيل وأمّه هاجر بوادي مكّة، ثمّ لمّا شبّ إسماعيل، بنى إبراهيم البيت الحرام هنالك، وتوفّي إبراهيم سنة ١٧٧٣ قبل الميلاد" انتهى.[١]

ب- النّصّ في مجمله: يبتدئ من الآية ١٢٤ إلى ١٣٤، **نقول:** لقد تمّت الجولة الحِجَاجيّة الطّويلة على أهل الكتاب لبيان ضلالهم وسوء نواياهم بإعراضهم عن دعوة الإسلام، وما ورد خلالها من التعريض بمشركي العرب، واغترارهم بما في أيدي أهل الكتاب من العلم والحكمة، وقد طالت محاجّة أهل الكتاب بما لا مزيد عليه من البيان والإطناب، انتقل الكلام إلى العرب على اعتبار أنّهم -كما يزعمون- على ملّة إبراهيم وأنهم سدنة البيت الذي بناه، وهم فرع من ذرّيته أحفاد لإسماعيل عليه السلام وكلتا الأمّتين العربية والإسرائيلية فرع من دوحة إبراهيم، فتكون الإشادة بفضائله من خلال هذا النّصّ وما يعقبه من بيان حادث تحويل القبلة يكون المقصود هو التحريض على الإنصاف للدعوة الإسلامية والتّخلّي عن المكابرة والعناد.

---

١ - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١/ ٧٠١- ٧٠٢.

لقد تنازعت الأمّتان الإسلامية والإسرائيلية فضل الانتماء إلى إبراهيم عليه السلام، وأيّتهما هي على ملّته؟، وعند الفخار بالأمجاد الماضية، تتعاظم الأجيال الحاضرة على بعضها البعض، فتجد المجال فسيحاً للمهاترات والدّعاوى الكاذبة قصد الإساءة إلى الطّرف الآخر، أو التّزكية لحاضر دنيء، وفي كلتا الحالتين، قد تجد الدعاية السّخيفة -حين يُتقن حبكها- تجد سبيلها إلى القلوب الفارغة والنفوس الخاوية من النخوة والإباء، فتنساق وراء كلّ ناعق، وتغترّ بكلّ مغامر، ولكن الحقيقة التاريخية الناصعة تحمل في طيّاتها مقومات الرسوخ والثبات، فتتحدّى عوامل الطّمس والمسخ، ثمّ تبرز ناصعة وهّاجة حين يُقيّض لها الذّيوع والانتشار، على يد الأوفياء من الأشياع والأنصار، ذلك هو الواقع التاريخي بين الأميين المنتمين إلى دوحة إبراهيم الإمام، وقد هداه الله إلى الإيمان، وسخر ممّا كان عليه قومه من عبادة الأوثان، ثمّ انبرى موقناً بنصرة ربّه يضرب في أرض الله يدعو للتوحيد ويرفع لواءه حيثما حلّ وارتحل، لا يبالي بما يجابهه من الأهوال والشّدائد حتّى انتهى بأمر الله إلى مكان البيت ليرفعه من القواعد: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَ هَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (النحل: ١٢٢).

نجد في هذا المقطع القرآني الكريم من سورة البقرة عرضاً شيّقاً لتلك المنزلة التي بوّأها الله إبراهيم مع ولده إسماعيل، وقد هداهما الله إلى مكان البيت، وكلّ من الأب والابن قد تحقّقت فيه صفات الإخلاص والوفاء للعقيدة بالإذعان والخضوع لله عندما جلّى معدنهما الصّافي بالبلاء المبين، فجازاهما جزاء المحسنين، وترك عليهما في الآخرين.

ولم يكن منصب الإمامة لينالَه إبراهيم لولا صبره وثباته ويقينه في ربّه،

وهو يجتاز ذلك الامتحان العصيب، في أن يتقرّب إلى الله بذبح ولده الحبيب.

فيا لله لعظمة ذلك القلب الحنون، حين طلب من مولاه أن يجعل إمامة التوحيد ثُلمة باقية في عقبه، فهو يؤمّن لهم مكان البيت، ويستدرّ رحمة ربّه ليكفل لهم موارد الرّزق لا لمجرّد الضّرورة الحياتية كما يعيش الحيوان، ولكن لتركيز الإيمان والعمل الصالح، لأنّ الجوع والخوف لا تستقيم بهما حياة، ولا يقوم عليهما عمران.

فلنستمع إليه في ابتهالاته الحارة، وهو يقول مرّة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾، ومرّة يقول: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم:٣٧).

ثمّ تنفذ بصيرته إلى آفاق المستقبل، ويحتاط لكرّ الأيام واللّيالي حين تتغيّر الأوضاع، فتسوء الأخلاق وتتردّى الطّباع، ويغدو الناس في تيه وضلال، يحتاجون إلى من يأخذ بأيديهم إلى سبيل الهداية والرّشاد، فإذا بخاتمة ابتهالاته ترفّ حبّاً وحناناً، وتفيض لأولاده وأحفاده برّاً وإحساناً: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وها قد استجاب الله دعوة إبراهيم، ببعثة الرسول الأميّ من ولد إسماعيل، فتتحرّك كوامن الغيرة والحسد في القلوب العمياء، وتعتبر ذلك بالنسبة لها هي الداهية الدّهياء، فما بال النّبوّة تتحوّل عن ولد إسحاق؟، ألم يأخذ الله عنهم العهد والميثاق؟ بلى، ولكن أنّى لهم ذلك وقد خانوا الأمانة،

وخاسوا بعهد ربّ العالمين...وهو القائل لإبراهيم: ﴿قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِيَ الظَّالِمِينَ﴾، وذلك هو مبعث المفاصلة بين الأمّتين، ولتعلمنّ نبأه بعد حين، فلنأخذ الآن في تفسير النّصّ.

هـ)- البيان والتّفسير:

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِيَ الظَّالِمِينَ﴾:

الكلام متّصل بما سبق من مختلف التّذكيرات لبني إسرائيل ومشركي العرب، وقد تهيّأ المقام للتذكير بقصّة إبراهيم، وهو الأب المشترك للفريقين، والتقدير: واذكر يا محمد لقومك، أو اذكروا يا بني إسرائيل، أو يكون متعلّق "إذ" هو قوله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

واختير لفظ "الابتلاء" في مقام التكليف لما فيه من الالتزام والتّعهّد، ويقتضي الصّبر والإخلاص والوفاء، فناسب ذلك استعمال صفة "الرّبّ" مضافة إلى الرعاية الربانية التي تُعدّ إبراهيم إلى مقام الإمامة في الدين والعقيدة، وهو جدير بذلك التكليف، والمكلّف به "كلمات" تتضمّن الأوامر والنواهي الشرعية، هكذا بصفة مجملة، إذ المقصود هو إبراز فضل إبراهيم بسرعة الامتثال والتّنفيذ والإتيان بها على الوجه الأكمل، وذلك بشهادة الله إذ قال في شأنه:

- ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (النجم:٣٧).
- ﴿انَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ (النحل:١٢٠).

- ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ (النساء:١٢٥).
- ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الصافات:١٠٩-١١٠-١١١).

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾: إن الإمامة -والمراد بها هنا الرسالة- هبة من الله يصطفي بها من يشاء من عباده، ولا تنال بكسب ولا محاباة، والجملة مفصولة عما قبلها للدلالة على ذلك، واختيار لفظ "الإمامة" بدلا من "الرسالة" لتشمل التبليغ المباشر لقومه، والقدوة لغيرهم من الناس، فإن الواقع التاريخي يشهد على ذلك، إذ كثرت تجوالاته في العالم القديم يدعو الناس إلى عبادة الله وحده، والإمامة مجالها واسع، من الإمامة الكبرى في المجال السياسي للأمة، إلى الإمامة في الصلاة، وأضيقها دائرة مسؤولية الرجل في بيته لأهله وأولاده. ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي واجعل أئمة من ذريتي بصيغة عطف التلقين كما حقّقه اللغويون وعرّفوه بأنه زيادة السامع إلى كلام المخاطب، و"من" تبعيضية، لأن الإمامة لا تخوّل لكل الذرية؟، وذلك من تمام آدابه مع الله في الدعاء، إذ راعى سنن الفطرة ولم يطلب المستحيل، ويا ما أسلم تلك الفطرة وهي ترجو استمرار الخير والصلاح في عقبها...

غير أن جواب الله تعالى جاء متضمّنا لاستجابة الدعاء ومصرّحا بذكر المانع من الحصول على الإمامة وهو "الظلم" ويشمل كل أنواع الظلم، لأن الملك لا يستقيم على الظلم، وجاء التعبير بكلمة "العهد" مضافة إلى رب العزّة للتنويه بشأنه، وتعريضا بعهد الله لبني إسرائيل والذي لم يوفّوا به، فكانوا من جملة الظالمين ممن يحرمون من منصب الإمامة، لأنها ليست بإمامة جنس ولا

عرق ولا عصبية، بل هي إمامة الدين والعقيدة التي لا تعترف بالفوارق الجنسية ولا بالحدود المادية المزيفة، وقد أطال العلماء في بيان شروط الإمامة العظمى أو شروط إمامة القضاء تطلب من مظانّها في الموسوعات الفقهية.

وعلى ذكر مناقب إبراهيم جاء ذكر البيت الحرام في معرض التذكير للمشركين بتلك النعمة التي بوأهم في قومهم منزلة عظمى، وما كان لهذا البيت من خصائص ومزايا، فقال جلّ من قائل: ﴿**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾:

الآية معطوفة على سابقتها ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ...﴾ وهي تذكير للعرب القرشيين بالأخصّ بنعمة البيت الحرام -وهم سدنته- وكان لأبويهم إبراهيم وإسماعيل فضل بنائه، كما أن لهذا البيت شرف الإضافة إلى الله ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾، وقد أصبح لفظ البيت علما بالغلبة على الكعبة، وقد أضفى الله عليها من الخصائص والفضائل ما جعلها مقدّسة وهي تعدّ أشرف بقعة على وجه الأرض، كما بيّن ذلك في سورة "آل عمران" ومن تلك الخصائص أنها:

أ- مثابة للناس: يدلّ لفظ المثابة على القصد والزيارة، ويدلّ في أصل معناه على الرجوع، وذلك أن الذين يقصدونه للعبادة يشتاقون الرجوع إليه، كما أن اللفظ يحمل معنى اللياذ إليه عند الخوف، وهو ما تدلّ عليه الخصيصة الثانية.

ب- وأمنا: أي أمنا للناس، فهو ملاذ للخائف ومكان للطمأنينة، حتى كان الرجل يرى قاتل أبيه في الحرم فلا يؤذيه ولا يزعجه، والناس يعرفون ذلك ويتوافقون عليه في الجاهلية والإسلام.

وأخبر عن البيت بمصدر الأمن، وهو سبب أو مكان له مبالغة في جعله كأنه نفس الأمن، وإطلاق اللفظ هو للدلالة على الشمول فيتناول كل أنواع الأمن في كل الأحوال بما يناسبها، وإن اختلفت أقوال العلماء في تحديدها وتفسيرها.

والعرب يدركون هذه المنّة ويقدّرونها حقّها، وقد امتنّ الله بها عليهم في عدّة أماكن من القرآن الكريم. ومن ذلك قوله تعالى:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ (العنكبوت:٦٧).

- ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ، الذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ (قريش:٤-٥).

ج- **﴿وَاتَّخَذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾**: وكلّ من القراءتين بصيغة الماضي أو الأمر لفعل ﴿اتَّخَذُوا﴾، فمعناهما يدلّ على حصول "الجعل"، والمعنى ألهمنا الناس فاتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى، أو أمرناهم فاتخذوا، فهي خصيصة ثالثة لهذا البيت المعمور. والمصلّى موضع الصلاة، ويطلق "مقام إبراهيم" على الكعبة وعلى الحجر الذي كان يقف عليه عند البناء حيث يصلّي الحجاج ركعتين بعد الطواف، وكانت الصلاة عند الناس القدامى عبارة عن أدعية وتوجّه إلى الله مما يرجّح قول من وسّع في معنى "المقام" بأنه الحرم كلّه، والإخبار أو الأمر في الآية لا يخصّ الحاضرين في وقت التنزيل، بل هو للمؤمنين من زمن إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى: **﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ**

وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾: اختير لفظ " العهد" لما يتضمنه من تأكيد الالتزام والوفاء، وهو تكليف من الله لهذين الرسولين الكريمين أن يطهّرا البيت، ولم يذكر ما يطهّراه منه ليشمل التطهير الحسّي من القاذورات والأوساخ والتطهير المعنوي من رجس الأوثان والشرك.

وإنما كان للبيت الحرام تلك الحرمة وذلك التشريف بالإضافة إلى ذات الله العلية ﴿بَيْتِي﴾ والمنزهة عن صفات الأجسام ليكون رمزا لقداسة المعبود يستحضره المتعبّدون في صلواتهم وابتهالاتهم، حتى لكأنهم في حضرة الله العلي، إذ هم عاجزون عن التوجّه إلى موجود غيبيّ مطلق الكمال والوجود لا يحدّه زمان ولا مكان، وتلك إحدى مميزات الإسلام في مراعاة ضعف الإنسان وعجزه عن إدراك كنه الذات العلية، فجعل البيت بتلك المنزلة من الحرمة والقداسة يندرج في نهج التربية الواقعية للمسلم في تقيده بالأسباب، مع توجّهه المخلص إلى خالق الأسباب في ما يعلو عن مداركه الضيّقة.

وقوله تعالى: ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ بيان لأنواع العبادات، وهذه الصور من العبادات هي من أعظم ما يتقرّب به العبد إلى الله، وهي عبادات قديمة في الديانات السابقة، وإن اختلفت أشكالها.

قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا -امنًا وَارْزُقْ اَهْلَهُۥ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَن -امَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئسَ الْمَصِيرُ**﴾:

عطف على الآية السابقة لتعداد منن الله على ذرية إبراهيم وإسماعيل، وقد توجّه إبراهيم إلى ربّه بهذا الدعاء الذي يفيض رقّة وحنانا لذريته إذ يطلب من مولاه أن يوفّر لهم الأمن والهناء والرزق المضمون والإشارة بـــ"هذا"مراد

بها المكان الذي وقع فيه الدعاء -أي مكة المكرمة- محضن امرأته "هاجر" وولدها إسماعيل وتوفير الأمن والغذاء هو مما يمكن المؤمنين من القيام بواجباتهم الدينية.

والتذكير بهذه النعمة للعرب المشركين تعريض بهم لما هم عليه من الكفر والشرك، وتحريض لهم على الإيمان ليكونوا حقّا على ملّة إبراهيم كما يدّعون وليكونوا أحر ياء بسدنة البيت.

وخصّ إبراهيم بدعائه المؤمنين، ولكن رحمة الله وسعت كل شيء، فكانت الإجابة شاملة للمؤمنين والكافرين، لأنه تعالى كفل الرزق لكل المخلوقات كما قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود:٦).

والرزق متاع دنيوي للإنسان، وهو قليل كما يصفه القرآن في غير ما آية، لأن الكافر مهما تمتّع بذلك الرزق فهو مقبل على ضنك العيش في عذاب جهنم. فليس تخويله الرزق الدنيوّي من الله تعالى مؤذنا برضى الله عنه ومحبته إياه، بل هو استدراج واختبار ليؤول كل امرئ في الحياة الأبدية إلى ما يختار.

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ، ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ، مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ (الشعراء:٢٠٥-٢٠٦-٢٠٧).

والله أعلم.

بناء إبراهيم وإسماعيل للبيت الحرام، ودعاؤهما عند بنائه

أ)- النص:

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي وأوجه القراءة:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾: القواعد جمع قاعدة، وهي أساس البناء الموالي للأرض والذي يثبت عليه البناء، ورفعها إبرازها من الأرض واعتلاء الجدران عليها، ويتضمن الرفع المعنوي لشرف البيت. ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾: أي منقادين إلى الله بالطاعة والعبادة، وهو من الإسلام الملازم لحقيقة الإيمان والتوحيد. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾: أي اجعل من أولادنا، والأمة اسم مشترك لمعان كثيرة، والمراد به هنا الجماعة الكبيرة التي يجمعها رابط النسب والدين أو الزمان والمكان. ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾: أرنا إراءة وأصله من الرؤية البصرية، ويستعمل مجازا في العلم ويتعدى بالهمزة إلى مفعولين. قرأه ابن كثير ويعقوب ﴿وَأَرْنَا﴾بسكون الرّاء للتخفيف، وقرأه أبو

عمرو باختلاس كسرة الرّاء تخفيفا أيضا. مناسكنا: جمع منسك وهو اسم مكان من نسك نسكا من باب "نصر" أي تعبّد، أو من "نسُك" بضم السين بمعنى ذبح تقرّبا إلى الله. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾: الآيات جمع "آية" من القرآن، والحكمة: العلم بالله ودقائق شرائعه، والتزكية: التطهير من النقائص.

ج)- من هو إسماعيل:

ولتعريفه أنقل أيضا النّص الذي حرّره الإمام ابن عاشور، قال ما ملخصه: "وإسماعيل اسم الابن البكر لإبراهيم عليه السلام وهو ولده من جاريته هاجر القبطية، ولد في أرض الكنعانيين بين "قادش" و"بارد" سنة ١٩١٠ قبل الميلاد، خرجت "هاجر" حاملا بإسماعيل مفارقة الموضع الذي فيه "سارة" مولاتها حين حدث لسارة من الغيرة لما حملت "هاجر" ولم يكن لسارة أبناء يومئذ، ولمّا كبر إسماعيل رأى إبراهيم رؤيا وحي أن يذبحه، فعزم على ذبحه ففداه الله، وإسماعيل يومئذ الابن الوحيد لإبراهيم قبل ولادة إسحاق، وكان إسماعيل مقيما بمكة حول الكعبة، وتوفي بمكة سنة ١٧٧٣ قبل الميلاد تقريبا.ودفن بالحجر التي حول الكعبة " انتهى.[١]

د)- البيان والتّفسير:

في معرض بيان مناقب إبراهيم عليه السلام وأياديه البيضاء على البيت الحرام الذي يعتزّ به العرب تبعا لساكنيه من قريش، يتتابع السياق لتذكير العرب

---

١ - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١/ ٧١٩.

بفضل بناة البيت إبراهيم وإسماعيل وابتهالاتهما إلى الله بطلب القبول لعملهما، وطلب الصلاح لذريتهما، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

عطفت الجملة على سابقتها مقرونة بـ"إذ" والتقدير اذكر أو اذكروا وجيء بالمضارع ﴿يَرْفَعُ﴾ والظاهر يقتضي صيغة الماضي لحكاية ما وقع وذلك لاستحضار الحالة، كأن المخاطب يعيش تلك اللّحظات ويشاهدها، لأن صورة إبراهيم موجودة في ذاكرة المخاطبين لما له من مكانة في نفوسهم، وفي التعبير برفع القواعد معان تتوارد إلى ذهن السامع، بحثا عما يفيده لفظ "الرفع" زيادة عن البناء وإطالته، من معنى التشريف والتعظيم بالعبادة والتوجّه إلى الله، كما جاء اختيار نفس اللفظ في تعظيم بيوت الله بصفة عامّة، إذ قال تعالى في سورة النّور: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ (النور: ٣٦)، وكذا ما يفيده لفظ ﴿القَوَاعِد﴾ من الثبات والتركيز، وتأخير اسم ﴿إِسْمَاعِيل﴾ معطوفا على الفاعل ﴿إِبْرَاهِيم﴾ بعد ذكر المفعول ﴿القَوَاعِد﴾ للتنويه بشأن إبراهيم في عملية البناء وللتنبيه على أن إسماعيل كان تابعا له ومساعدا في الرفع.

واهتماما باستحضار الحالة جيء بصيغة الدعاء كما نطق الداعي به مباشرة دون ذكر القول والتقدير قائلين: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، وطلب القبول أوّلا من الله تعالى هو ملاك الأمر وروح العبادة ينمّ عن آداب عالية مع الله تعالى واستعمال فعل القبول مزيدا على وزن "التفعّل" للمبالغة في أن يكون قبولا عظيما موفور الأجر والثواب، فناسب أن يكون

التذييل بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ بقصر الوصفين على الذات العلية، سمعا كاملا مقدّسا لألفاظ الدعاء، وعلما كاملا بنوايا النفوس، وهي مناط القبول عند الله.

وبعد التمهيد بطلب القبول عند الله يتكرّر النداء بـــ﴿ربّنا﴾ تأكيدا لضراعتهما إلى الله وإلحاحا في الطلب أن يثبتهما على الإسلام، إيمانا وإخلاصا في العقيدة، وعملا صالحا في السلوك وفق ما شرعه الله من أوامر ونواه، ومن أحكام الحلال والحرام، وفي طلب جعلهما مسلمين، مع أنهما كانا كذلك بالفعل، إشادة بما جاء به رسول الله من إكمال هذا الدين وتعريض بالمشركين الذين أعرضوا عنه، بينما يدّعون أنّهم على ملّة إبراهيم.

وبعد الرّجاء.أن يكون الدّاعيان قدوة صالحة في علاقتهما بالله طلبا الهداية لذريتهما: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ ليستمرّ الإسلام في عقبهما، وجيء بـــ"من" التبعيضية لتذكّرهما قول الله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، وينمّ هذا الدعاء على الشفقة والحنان وحبّ الخير وعن الشعور بالمسؤولية نحو الأولاد وإنقاذهم من النار بتنشئتهم على النهج القويم امتثالا لقوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءامَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ (التحريم:٦)، ولا شك أنّ أمّة الرّسول ﷺ هي من خيرة تلك البعضية، إيمانا وإخلاصا لله وتركيزا لدينه "الإسلام" وقد ارتضاه لخلقه إلى يوم يبعثون، ومع طلب الهداية الإسلامية طلب التعليم لأحكام شريعته بما يرتضيه تعالى من الأعمال والآداب والأخلاق وطلب المغفرة للذنوب بالتوبة النصوح، لأن البشر يذنبون مهما كانت تزكيتهم لأنفسهم، غير أن الخواص من عباد الله كالرّسل والأنبياء هم معصومون من الموبقات والمعاصي إلا ما يكون لماما من صغائر الذنوب مما

تفرزه طبيعة البشر ويجوز في استعمال صيغة المتكلّمين ﴿تُبْ عَلَيْنَا﴾ أنهما طلبا التوبة لعصاة ذريتهما من خلالهما، إمعانا في الشفقة والحنان، وصفتا ﴿التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ هما المناسبتان للمقام طلبا للاستجابة.

ثم تكرّر النداء طلبا لغرض آخر نشأ عن طلب الهداية للذرية، ببعث رسول منهم يزكّيهم ويعلّمهم، إذ قال: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾:

الضمير ﴿فِيهِمْ﴾ يعود على الذرية، والمطلوب أن يبعث فيهم رسولا منهم، أي من أنفسهم ينتمي إلى جنسهم، ولا يكون بعثه لهم خاصة، فقوله: ﴿فِيهِمْ﴾ فيه معنى الشمولية لدعوة ذلك الرّسول واستجابة هذه الدّعوة تجلّت في بعثه رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ لقوله: «**أنا دعوة أبي إبراهيم**».[1] .وقد اجتمعت في شخصه الشريف أواصر النسبية من إبراهيم وإسماعيل، ثمّ بيّن الله المقصد الأسمى من بعثة هذا الرّسول بقوله تعالى:

أ – ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ﴾: والمقصود بها آيات القرآن تلاوة تذكير وتدبّر، لما فيها من دلائل عقلية دالة على عظمة الله ووحدانيته وصدق رسله، وما فيها من بيان لأحكام الشريعة الغرّاء.

ب– ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾: ولفظ "الكتاب" يحتمل معاني منها: القرآن الكريم، وذلك بإبراز معانيه، أو أنه مصدر كتب يكتب والمراد

---

١ – رواه الحاكم في المستدرك عن العرباض بن سارية، من حديث طويل رقم ٣٥٦٦، و قال: صحيح الإسناد و لم يخرجاه، ٢/ ٤٥٣.

ترقية مستوى الأمّة بتعليم الكتابة، ويسند هذا المعنى امتنان الله على الإنسان بتعليمه ما لا يعلم بواسطة القلم والكتابة في أوّل آية نزولا من القرآن، والحكمة تعني معرفة أسرار التشريع ومقاصده العليا، وفي إيتاء الحكمة والتفقه في معرفة أسرار الأشياء الخير الكثير، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ اوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة:٢٦٩).

ج)- ﴿وَيُزَكِّيهِم﴾: قرن الله التعليم بالتربية لتزكية نفوسهم من دنس الكفر والشرك وتطهيرها من أدران الفسوق والعصيان، وجاء الترتيب لهذه المقاصد الثلاثة غاية في تنسيق النظم وفق وجودها وتحققها في الواقع، بدءاً بالوسيلة التعليمية بتلاوة الآيات، ثمّ موضوع التعليم ومضمونه، ثم الهدف من العملية التعليمية التربوية، وذلك أقصى ما توصّلت إليه التربية الحديثة، ولله المثل الأعلى، وهو العزيز الغالب على أمره، والحكيم في تدبير شؤون خلقه.

والله أعلم.

الحكم بالسّفه على الرّاغب عن ملّة إبراهيم

أ)- النّص:

وَمَنْ يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

ب)- التحقيق اللّغوي وأوجه القراءة:

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَن مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾:الاستفهام للإنكار والاستبعاد، والرغبة طلب أمر محبوب يتعدى بـــ"في" لتحقيق الأمر، وبـــ"عن" للعدول عنه. ﴿إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَه﴾: السفه والسفاهة ارتكاب أفعال لا يرضى بها العقل والمروءة. ﴿اصْطَفَيْنَاهُ﴾: أي اخترناه إماما لهذه الملة. ﴿وَأَوْصَىٰ بِهَآ إِبْرَاهِيمُ﴾: أوصى من الايصاء بأمر أو نهي يتعلق بصلاح المخاطب، والوصية أبلغ من مطلق الأمر والنهي، وجاءت القراءة الثانية بـــ "وصّى" أي بالتضعيف من التوصية.

ج)- من هو يعقوب؟

هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ولَدَه أبوه إسحاق من زوجه "رفقة الأرامية" سنة ١٨٣٦ قبل الميلاد، وعاش يعقوب في زمن جدّه إبراهيم حتى أصبح رجلا، ولقب بـــ"إسرائيل" وهو جدّهم جميعا، مات بأرض مصر سنة

١٩٨٩ قبل الميلاد، ودفن بأرض "كنعان" (بلد الخليل) أي في مدفن جدّه وأبيه، وبنو يعقوب هم الأسباط الإثني عشر ومنهم تشعبت قبائل بني إسرائيل، وأكبرهم سنا هو "راوبين" وأصغرهم "يوسف عليه السلام" وقيل أن أكبرهم "رايا" هو"شمعون" وقيل "يهوذا" وقد أخبر القرآن بأن جميعهم أنبياء وأن يوسف كان رسولا ".[١]

د)- البيان والتفسير:

تكميلا للتنويه بشأن إبراهيم بعد بيان فضائله، جاءت هذه الآيات لتوضّح أن ملّةً تركّز على التوحيد وإسلام الوجه لله وتدعو للعمل الصالح-بما في ذلك تعظيم شعائر الله- إن ملّة بهذا الشأن العظيم لا يعدل عنها إلا سفيه الرأي فقال تعالى: **﴿وَمَنْ يَّرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ﴾**: عطفت الجملة ﴿وَمَنْ يَّرْغَبُ﴾ على سوابقها في النص الماضي، وهي تقع موقع النتيجة لها، إذ المقصد هو التنويه بشأن ملّة إبراهيم التي يقتضي العقل والواجب أن لا يعدل عنها إلى ما فيه الشرك والضلال، فجاء نفي ذلك بصيغة الاستفهام الإنكاري، وأن من يرغب عن هذه الملّة فقد امتهن نفسه بالحطة والسفاهة، ويفيد الاستثناء معنى الحصر، وفي ذلك تعريض بالذين حادوا عن هذه الملّة بانتحالهم الضلالة والشرك.

ثم دعم الله رفعة إبراهيم زيادة على ما سبق بذكر منزلته عند الله، وأنه تعالى قد اختاره للإمامة والرسالة في الدنيا فكان محل احترام وتقدير من كل

---

١ - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١/ ٧٣٢. (بتصرف).

الطوائف، ومشهودا له بالصلاح في الآخرة، وأكّدت شهادة الله له بمؤكدين: ﴿وَإِنَّهُ, فِي الآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ﴾، كما أكد الخبر الأول باللاّم المشعرة بالقسم الاهتمام البالغ بمضمونها، وأن ملة هذا هو شأنها عند الله لا يعدل عنها إلا سفيه، وأوضح الله ذلك الاصطفاء حين دعاه إلى الإسلام بما أراه من الأدلة على عظمة الله ووحدانيته، فبادر إلى الانقياد والطاعة، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ, رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقد تطرقت سورة الأنعام إلى تلك الأدلة الكونية التي قادت إبراهيم إلى إسلام وجهه لله. وفي اختيار كلمة "الرّب" في هذا المقام له معناه التربوي في رعاية الله لإبراهيم عليه السلام، ومن دلائل الخير والصلاح أن يحرص إبراهيم على تواصل ذلك الخير والصلاح في ذريته، وذلك بوسيلة الوصايا يتركها الأسلاف للأخلاف، قال تعالى: **﴿وَأَوصى بِهَآ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُمْ مُّسْلِمُونَ﴾**:

ومضمون الوصية هو التزام الأبناء والأحفاد بأحكام الملّة الحنيفية، وأنها اختيار الله منهجا وسلوكا لهم، وعطف يعقوب على جده إبراهيم في الإيصاء لكونه جدا لبني إسرائيل تعريضا بهم وحجة عليهم لاتباع الإسلام.

وجيء بصيغة الوصية كما نطق بها إبراهيم في صيغتها اللفظية الموجزة، وذلك أبلغ في التأثير وهي تفسير لجملة ﴿أَوصى بِهَآ﴾، أوصاهم بالمحافظة على الدين وأنه هو الإسلام المختار من الله لخلقه إلى قيام الساعة، وأن يستمرّوا على الثبات عليه حتى الموت، فلا يفاجئهم وهم غير مسلمين، لأن أسباب الغفلة والنسيان قد تستحوذ على الإنسان فينسى أنه سيموت، والعبرة في الأعمال بخواتمها، وفي هذا الإرشاد فتح باب الرجاء للمنحرفين حتى لا يقنطوا من رحمة

الله ما دامت في العمر فسحة للتوبة.

والله أعلم.

وصية يعقوب لبنيه عند الموت

أ)- النص:

أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ اذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾: " أم " من حروف العطف يلازمها الاستفهام، ويحمل هنا على الإنكار، والشهداء جمع شهيد، بمعنى الشاهد أي الحاضر للأمر وحضور الموت بمعنى ظهور أماراته. ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾: "ما " للاستفهام وهي أعمّ من السؤال بـــ"من" التي تخص العقلاء. نظرا لأن المعبود يكون عاقلا وغيره. ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾: الإشارة إلى إبراهيم وأبنائه، والأمة الجماعة، وخلت: مضت وخلا منها المكان. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾: أي من ثواب أعمالها.

ج)- من هو إسحاق؟

هو ابن إبراهيم عليه السلام من زوجه "سارة " ولدته وهي عجوز، وهو أصغر من " إسماعيل" بأربع عشرة سنة، ولد سنة ١٨٩٦ قبل الميلاد، وهو جد بني إسرائيل، ويدعي اليهود أنه هو الذبيح الذي فداه الله، والحق أن الذبيح هو" إسماعيل" كما وردت قصته في القرآن ولأن كمال الامتثال لأمر الله، إنما يظهر في كون الولد وحيد أبيه، و لم يكن إسحاق وحيد أبيه قط.وقد توفي سنة ١٧٠٨ قبل الميلاد، ودفن مع أبيه وأمه في "حبرون" (بلد الخليل)".[١]

د)- البيان والتفسير:

بعد قرن يعقوب مع جدّه إبراهيم في الوصية للأبناء، بصفة موجزة انتقل النص إلى تفصيل وصية يعقوب لبنيه، وهذا التفصيل يقتضيه المقام في مراعاة المخاطبين هنا من أهل الكتاب للتنويه بشأن الإسلام الذي أنكروا هدايته تعصّبا لما عندهم، فقال جل من قائل: ﴿**أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ اذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ**﴾:

جاء العطف بـــ"أم" على الجملة السابقة ﴿وَأَوصىٰ بِهَآ إِبْرَاهِيمُ﴾ وهي تحمل معنى الاستفهام الإنكاري، وهو يستلزم النفي بدلالة الالتزام، فيكون موجها لليهود لنفي ما يعتقدون بأن جدهم "يعقوب" مات على اليهودية لا غير وأوصى بها فلزمت ذريته، حتى يكون ذلك الادعاء مبرّراً لإعراضهم عن

---

١ - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير،١/ ٧٣٤.(بتصرف).

الرسالة المحمدية، ففضحت الآية كذبهم، إذ لم يكونوا حاضرين لموت يعقوب، بله أن يعرفوا وصيته لبنيه، ثم أورد الله نص الوصية كما نطق بها يعقوب وقت احتضاره.

والوصية هي أضمن وثيقة يتركها الهالك لورثته يلتزمون بتنفيذها لتحقيق ما يرجوه الموصي من براءة ذمته من حقوق الله وحقوق العباد، ولرسم طريق الخير والصلاح لأولاده.

وحتى يلفت يعقوب انتباه أولاده وهم حيارى حوله مفجوعون باحتضار أبيهم، بادر بسؤالهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِي﴾، فلا مال ولاجاه ولا شأن من شؤون الدنيا يشغل بال هذا الوالد الكريم، بل همه الكبير الذي يريد أن يتركه تراثا لأولاده هو تركيز عقيدة الحنيفية السمحاء في نفوسهم وهي دين الإسلام، دين جميع الأنبياء والمرسلين، وحدانية لله تعالى وإسلام الوجه له خضوعا وامتثالا.

والسؤال بـــ"ما" دون "من" فيه إيحاء وتعريض بمن يعبد غير الله من مخلوقاته العاقلة وغير العاقلة، وفي صيغة السؤال حكمة ودهاء لسبر المعتقد الصحيح حسبما يقصده السائل من وراء الإجابة عنه، إذ قالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، ذكروا المعبود الحق بوصف "الألوهية" مضافا إلى آبائهم دون ذكر لفظ الجلالة "الله" لما في ذلك من بيان قدوتهم لآبائهم وهم الذين رفعوا لواء التوحيد وحاربوا الوثنية وهم بتلك الإجابة يبرهنون لأبيهم على حسن تمسّكهم بالعقيدة التي نشّأهم عليها، وفي إقحام "إسماعيل" معهم وهو عمهم تغليب للأكثر ولأن العمّ صنو الأب كما ورد في الحديث: «**احفظوني في العباس بقية**

آبائي».[1]، ثم إنّ إسماعيل جد للعرب ولنبيئنا محمد ﷺ وذكره في ذرية إبراهيم هو إيحاء بوحدة الدين الذي هو الإسلام، وهو ملاك الوحدة في الملة، وإن تعدّدت أنسابها، ولتركيز صفة الوحدانية في الإله المعبود قالوا بأسلوب البدلية ﴿إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ نفيا لأيّ تعدّد موهوم، حالة كونهم مسلمين خاضعين له. وفي اختيارهم لوصف ﴿مُسْلِمُونَ﴾ إيحاء لليهود الأحلاف المعارضين للإسلام بأنهم ليسوا على طريقة أسلافهم في الإيمان والعقيدة، وذلك ما يؤكده قوله تعالى: **﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾:**

الإشارة ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ عائدة إلى إبراهيم ويعقوب وبنيهم، وإنها أمة قد طواها الزمان في القرون الخوالي، لها ما كسبت من ثواب أعمالها مدخرا عند الله يجزيهم به وحدهم، ثم توجّه الخطاب لليهود المغرورين بأمجاد آبائهم، ليبين الله لهم أنه لا تنفعهم إلا أعمالهم، يسألون عنها يوم الحساب والجزاء، يوم تكون كل نفس بما كسبت رهينة، ولا يسأل أحد عن عمل أحد، وقد ركز القرآن هذا المعنى في تحديد مسؤولية الإنسان أمام الله في موقف الجزاء، وبين أن ذلك هو ما دعا إليه الأنبياء والرسل من أسس العقيدة في الإيمان واليوم الآخر، قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ، أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ، وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾.(النجم:٣٦-٤١).

---

١ - رواه الطبراني عن علي بن أبي طالب في المعجم الأوسط، حديث ٤٢٠٩، ٤/٢٨٣، وفي المعجم الصغير، حديث ٥٧٢، ١/٣٤٤.

الرّدّ على اليهود والنّصارى،

ودعوتهم لاتّباع الحنيفيّة السّمحاء

أ)- النّصّ:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ۖ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾: "أو" للتّقسيم، ليردّ السّامع كلاً إلى من قاله، وقائل الأول هم يهود المدينة، وقائل الثاني نصارى "نجران"، والكلّ يحصر الهداية في ملّته. ﴿حَنِيفًا﴾: الحنيف لغة هو المائل، والمراد الميل في المذهب، لأنّ إبراهيم خالف قومه في كفرهم، ويسمّى حنيفاً لأنّه كان مائلاً عن الأديان الباطلة إلى دين الحقّ، ثمّ صار اللّفظ لقب مدح له بالغلبة. ﴿الْأَسْبَاطِ﴾: هم أولاد يعقوب، وهم كالقبائل من العرب. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾: الشّقاق مشتقّ من الشّقّ أي الفلق، وتقسيم الجسم، والمراد

شدّة المخالفة لكم، فكأنّ كلّ فريق في شقّ غير شقّ صاحبه. ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾: أي يكفيك شرّهم وأذاهم وينصرك عليهم.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد أن بيّن الله حقيقة الحنيفيّة السّمحاء في ملّة إبراهيم من خلال وصيّته لبنيه ووصيّة يعقوب لبنيه، وأنّ ما جاء به الإسلام هو في صميم تلك الملّة، وكيف أعرض عنها الأخلاف من أهل الكتاب جاء هذا النّصّ لبيان عقيدة الفريقين، اليهود والنّصارى ومدى غرورهم بحصرهم الهدى في ما هم عليه، فقال تعالى: **﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا اَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾**:

يذكر المفسّرون في سبب النّزول، ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس: أنّ ابن صوريا قال للنّبيّ ﷺ: ما الهدى إلاّ ما نحن عليه، فاتّبعنا -يا محمد- تهتد، وقالت النّصارى مثل ذلك فأنزل الله الآية ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا اَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُواْ...﴾.

و"أو" تفيد التّوزيع والتّنويع، لتقسيم الجمع، وردّ كلّ كلام إلى من قاله، أي قال يهود المدينة، وقال نصارى نجران مثل قولهم، فحصر كلّ فريق الهداية في ملّته، ونفوا بمفهوم الشّرط أن تكون الهداية في غيرهم، فجاء الجواب الإلهي بالأمر لرسوله أن يقول لهم: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وانتصب لفظ "ملّة" على تقدير فعل " نتّبع" أي بل نكون أهل ملّة إبراهيم، إذ الكلّ يدّعي أنّه على ملّته، والحال أنّ إبراهيم كان حنيفاً مخلصاً لله، فلا اهتداء إلاّ باتّباع ملّته، وهي ما جاء به الإسلام ممّا يدعو إليه محمّد خاتم

الأنبياء.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بمشركي العرب الذين يدّعون أنّهم -أيضا- على ملّته، وتعريض بشرك أهل الكتاب لقولهم عزير بن الله، والمسيح ابن الله، ثمّ أمر الله نبيئه أن يقول مثل ذلك للمؤمنين فقال تعالى: **﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾:**

بعد أنّ خصّ الله تعالى ملّة إبراهيم بالذّكر لأنّها محلّ الرّضا من طرف الفرقاء كلّهم، دعا المؤمنين أن يعلنوا بإيمانهم الشّامل لجميع الأديان المنزّلة على رسله كلّهم، وبدأ بالإيمان بالله، لأنّه أصل متّفق عليه بين كلّ الشّرائع لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٢٥)، ثمّ خصّ بالذّكر الشّرائع المشهورة، فبدأ بالقرآن الكريم من قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، لما له من شرف التّصديق لما قبله من الشّرائع والهيمنة عليها.

ثمّ تعرّض لصحف إبراهيم وما أوتي موسى وعيسى من التّوراة والإنجيل، وجاء ذكر إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، لأنّهم خوطبوا بالعمل بما أُنزل على إبراهيم وموسى وعيسى فهي منزّلة إليهم كشأن المسلمين في قولهم:﴿ ءَامَنَّا بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ إذ الإنزال كان على محمد ﷺ ثمّ عمّم الله بالذّكر جميع الأنبياء والمرسلين تركيزاً لوحدة الدّين عند الله في أصوله العامّة، وأكّد ذلك بقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، أي أنّنا

-معاشر المسلمين- نؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين بأنّ الله بعثهم بالحقّ لا نفرّق بينهم في التّصديق والإيمان تعصّباً لأحدهم كما فعل اليهود والنّصارى، بل نؤمن بالجميع حالة كوننا مسلمين خاضعين لله، لا نحتكم إلى الهوى والتّعصّب، إذ أنّ ملاك العقيدة هو إسلام القلب لله والدّينونة له.

وبما أنّ أهل الكتاب قد طرأ على إيمانهم بعض الانحراف بعدما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم كما أعماهم التّعصّب فآمنوا ببعض الأنبياء، وكفروا ببعض، فقد فرّع الله على ما تقدّم على هذه الجملة الشّرطية التي تحدّد إطار الهداية الحقيقيّة لا كما يحصرونها في ما عندهم فقال تعالى: ﴿**فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾:

واختيار "إنْ" للشرط لإفادة الشّكّ في حصول شرطها، لأنّ إيمانهم بما جاء به الإسلام غير مرتقب، ولذلك جاء التّعبير بالمثلية، أي أنّ أهل الكتاب لا يكونون على هدى حقيقي كما أنزله الله إلا أن يؤمنوا بمثل إيمانكم- أيها المسلمون-، والإيمان يعني الجانب العقديّ نفياً لما ابتدعوه من التّثليث والتّشبيه.

ثمّ قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾، أي أعرضوا عمّا تدعوهم إليه من الإيمان الصّحيح كإيمانكم فقد تبيّن لكم أنّهم ليسوا روّاداً للحقّ ولا طلاّب هداية، بل موقفهم هو المشاقّة والعداوة لكم، وذلك يستدعي منكم الحذر من شرّهم وأذاهم، والله تعالى يكفيكم ذلك الشّر منهم بنصرتكم عليهم، وهذا الوعد من الله عامّ لجميع المؤمنين من خلال خطاب الرّسول، والله هو السّميع لما يتفوّهون به من إضمار الشّرّ لكم، والعليم بما يدبّرونه في الخفاء من الكيد لكم، وفي ذلك تطمين للرسول والمؤمنين وتثبيت

لهم في مواجهة أعدائهم، وقد تحقّق وعد الله بما حدث لبني قريظة وبني قينقاع وبإجلاء بني النّضير عن المدينة، ثمّ ضرب الجزية على اليهود والنّصارى بعد النّصر الكاسح للإسلام، فأين اليوم تحقيق هذا الوعد وقد انخذل المسلمون أمام أعدائهم، وأصبح غالبيتهم من مرضى القلوب الذين قال الله فيهم: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ (المائدة:٥٢).

والله أعلم.

صبغة الإيمان بالله تمحو الانتماء العنصري

أ)- النّصّ:

صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ ۖ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي وأوجه القراءة:

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾: من صبغ الثّوب يصبَغه -بفتح الباء وكسرها وضمّها-، والصّبغة هي الحالة التي يقع عليها الصّبغ، أي جعل الثوب بلون خاصّ، والمراد بذلك دين الله والإيمان به لظهور أثره على صاحبه، لأنّ الإيمان يتداخل ويمتزج في قلوب المؤمنين كما يتداخل الصّبغ ويمتزج بالثّوب. ﴿أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾: أي تجادلوننا جدالاً يقطعنا، لأنّ الحجّ القطع، والمعنى أتجادلوننا في أنّ الله اصطفى رسولاً من العرب لا منكم. ﴿لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾: أي كلّ يجازى بعمله، والمقصود بحديثنا معكم هو النّصيحة في الدّين. ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾: قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ بالتّاء على المخاطبة كـ"أتحاجّوننا"، والباقون بالياء على أنّه إخبار عن اليهود والنّصارى، فـ"أم" إمّا متّصلة أو منقطعة للانتقال من التّوبيخ على المحاجّة إلى التّوبيخ على الافتراء على الأنبياء. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُۥ مِنَ اللَّهِ﴾: أي إخفائها عن النّاس احتكاراً لها عنده، وقد جاءت من الله في ما أوحى به إلى رسله.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد أن ذكر الله تعالى صحّة هذا الدّين، بأن لقّن للمؤمنين ما يقولونه للإفصاح عن عقيدتهم الصّحيحة أمام أهل الكتاب، ذكر هنا بأسلوب التّشبيه ما يُظهر حقيقة الدّين إظهاراً جليّاً يصوّر مدى تمازجه بقلوب المؤمنين تظهر آثاره على تصرّفاتهم بالمشاهدة، كما تظهر الصّبغة على الثّوب المصبوغ، فقال تعالى: **﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَابِدُونَ﴾**:

﴿صِبْغَةَ﴾: منصوب على البدليّة من ﴿مِلَّةَ﴾ وتفسير لها، أو بتقدير فعل ﴿اتّبعوا﴾ أو هو مصدر مؤكّد أضيف للفظ الجلالة تعظيماً وتشريفاً وأنّها فطرة الله التي فطر النّاس عليها، لا تعصّب فيها لأحد، تتمثّل في هذا الدّين الذي أُمرتم باتّباعه.

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾، قد يلحق الآية بجملة المقول الذي أمر الله المؤمنين أن يقولوه في قوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ وذلك للتّعبير على مدى استعدادهم لقبول الحقّ، والتّصديق بجميع الأنبياء، ويؤكّدون ذلك بقولهم: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةً﴾، إذ هي من صنع الخالق، يطهّر عباده ويزكّيهم بها، أين منها صبغة أهل الكتاب من النّصارى لأولادهم بماء المعمودية ليصيروا نصرانيّين حقّاً كما يدّعون؟ وقولهم: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾، لا لغيره كما تفعلون أنتم-معشر اليهود والنصارى- بعبادتكم للأحبار والرّهبان.

وفي تفسير الآية احتمال آخر وهو أن يكون صدرها: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةً﴾ يكون حكايةً عن قول الله لتقرير ذلك الحكم العام، ويكون شطرها الثّاني:﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ حكاية عن قول المؤمنين، ومثل هذا الأسلوب وارد في القرآن للتّشريف والتّعظيم للمؤمنين.

ثمّ أمر الله نبيئه ليقول لأهل الكتاب: **﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾**:

والمحاجّون في الله يُحتَمل أن يكونوا أهل الكتاب أو مشركي العرب أو خطابٌ للكلّ، غير أنّ السّياق يرجّح القول الأوّل، ولما ورد في سبب النّزول

من أنّ اليهود قالت: نحن أهل الكتاب الأوّل وقبلتنا أقدم، و لم تكن الأنبياء من العرب، ولو كان محمد نبيئاً لكان منّا.

إنّها دعوى باطلة، إذ لا جدال في وحدانية الله وربوبيّته، ولا يكون القرب من الله بجنسية ولا انتماء، والله تعالى لا ينازعه أحد في اختياره للنّبوءة من يشاء من عباده، فنحن وإياكم متساوون في العبودية لله، فله أن يختار للنّبوءة من يشاء منّا أو منكم، فلا تفاضل عنده إلاّ بالتّقوى، ولكلّ منّا عمله يحاسب عليه، فإذا كان مناط القبول للأعمال عند الله هو الإخلاص له، فنحن -معشر المسلمين- مخلصون في عملنا لله لا نستشفع بصلحائنا، كما تفعلون أنتم، فمن أين ذلك الامتياز في القرب من الله والاختصاص بنبوءته؟.

ثمّ ينتقل السّياق بأسلوب الإضراب، من التّوبيخ على المحاجّة إلى التّوبيخ على الافتراء على الأنبياء وكتمان الشّهادة فيقول تعالى: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾:

وعلى اعتبار "أم" منقطعة تكون بمعنى: بل يقولون، والهمزة للإنكار لما يدّعونه من وصف الأنبياء السّابقين لنزول التّوراة والإنجيل باليهودية والنّصرانية، إذ أنّ أولئك الأنبياء كانوا كلّهم على التّوحيد لله والحنيفيّة له: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران:٦٧)، فهذه شهادة الله بحقيقة دينهم، وهو الإسلام الذي جاء محمد ﷺ ليركّزه وهو ما يدعوكم إليه، ولا شكّ أنّ الله تعالى هو العليم بما هو حقّ وصدق، فقد ارتضى الإسلام ديناً لخلقه إلى قيام السّاعة، وصدق

محمد في دعوته تعلمون به، ولكنّكم تكتمون شهادة ذلك حسداً وعناداً، ثمّ زادهم تقريعاً وتوبيخاً بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ, مِنَ اللَّهِ﴾، جاء الحكم بصيغة التّفضيل وبـ "من" ليشمل الحكم كلّ الكاتمين للشّهادة وفي طليعتهم اليهود والنّصارى إذ كتموا شهادة الله بالنّبوءة لرسولنا محمد في كتبهم وكتمان أوصافه، ثمّ هدّدهم بهذا الوعيد ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، فهو يكشف حقيقتكم ويجازيكم على أعمالكم، والإيمان بأنّ الله يعلم السّرّ وأخفى يراقب الإنسان في جميع تصرّفاته، هو الزّاجر القويّ للإنسان حتّى يكون دائم الحذر والخوف من غضب الله وسخطه.

وبهذا البيان الشّافي والأدلّة الدّامغة تتمّ المفاصلة والمفارقة بين ما كان عليه أسلاف أهل الكتاب من الدّين الصّحيح، وما عليه أخلافهم من الإدّعاء والغرور فتكرّرت الآية السّابقة بقوله تعالى: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾: وبذلك يتأكّد الزّجر عن التّعاظم بالآباء والأجداد والاتّكال على أعمالهم لتقرّر المسؤولية الشّخصية لكلّ أحد وفق ما ترشد إليه هداية القرآن، وقد علّل الفخر الرّازي تكرار هذه الآية بقوله: "متى اختلفت الأوقات والأحوال والمواطن لم يكن التّكرار عبثاً، فكأنّه تعالى قال: ما هذا إلاّ بشر، فوصف هؤلاء الأنبياء فيما أنتم عليه من الدّين، لا يسوغ التّقليد في هذا الجنس، فعليكم بترك الكلام في تلك الأمّة فلها ما كسبت، وانظروا فيما دعاكم إليه محمد ﷺ فإنّ ذلك أنفع لكم وأعود عليكم، ولا تسألون إلاّ عن عملكم".[1]

---

١ - الفخر الرازي، التفسير الكبير، ٤/٩٠.

الحكمة من تحويل القبلة، والإشادة بوسطية الإسلام.

أ)-النص:

سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

ب)-التحقيق اللغوي:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾: السفهاء جمع سفيه صفة مشبهة من فعل سفُه -بضمّ الفاء-، والسفاهة هي اضطراب الفكر والرأي أو الأخلاق، والسفيه لا يميّز بين ما له وما عليه. والمقصود بـ" السفهاء" هم من أنكروا تغيير القبلة من اليهود والكفار والمنافقين. ﴿مَا وَلَّاهُم عَن قِبْلَتِهِمُ التِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾: فعل "ولّى" مضاعف فعل "ولي" إذا دنا وقرب. ويتغيّر معناه بحسب حرف الجرّ فيقال: ولاه عن كذا صرفه عنه، عكسه ولاّه إليه، والقبلة: هي الجهة التي يستقبلها الإنسان. والمقصود بالضمير﴿وَلَّاهُم﴾ الرسول وأصحابه والمقصود بـ"القبلة التي كانوا عليها" هو بيت المقدس. ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾: الوسط اسم مكان واقع بين أمكنة تحيط به، ليس هو إلى بعضها أقرب منه إلى بعض، وقد استعير هنا لكل ما هو محمود من الخصال وشرحه الرسول بقولـه

"عدلا" أي لا إفراط ولا تفريط، كما قال: «**خير الأمور أوسطها**»[١]، وتحمل الوسطية معنى النفاسة والعزّة والخيار. ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ﴾: تعليل لتلك الوسطية، أي يشهدون على الأمم كلها عليها بالشرّ والضلال في حالة التكذيب والعناد، ولها بالخير في حالة التصديق والاتباع، وما هذه الشهادة من المسلمين على الأمم إلا لكونهم عدولا خيارا. ﴿مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾: العقب مؤخر القدم، أي رجع إلى ما كان وراءه، وهي استعارة تمثيلية للارتداد عن الإسلام والرجوع إلى الكفر. ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾: تقول العرب: كبُر عليه كذا إذا كان شديدا عليه، أي قضيّة تحويل القبلة محرجة للناس تمحّصهم فيظهر المؤمن الخالص والمنافق المرتاب. ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾: الإضاعة إتلاف الشيء وإبطال آثاره أي لا يضيع الله فضل إيمانكم وأعمالكم الصالحة.

ج)- بين يديّ النصّ:

لقد كان حادث تحويل القبلة مثار جدل كبير، اغتنمه كل من المشركين واليهود لبثّ الشبهات وحبك الدسائس، لخلخلة الصفّ المسلم، تعرّضت إلى بيانه هذه الآيات من قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ مِنَ النَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾.

وموقعها في مفتتح الجزء الثاني من السورة الكريمة جاء مناسبا لما قبلها من محاجّة اليهود والمشركين في شأن إبراهيم وملّته، والتنويه بشأن الكعبة

---

١ - رواه ابن أبي شيبة في المصنف بسنده عن ابن مبارك قال: حدثنا معمر عن أيوب عن أبي قلابة قال:« خير أموركم أوسطها» ، حديث ٣٥١٨٣، ٧/ ١٨٦.

وبنائها، ويعتبر ذلك تمهيدا لذكر هذه الحادثة التي أوقعت المسلمين في حرج، وهم بين حيرة المشركين وتغبّنهم عندما ولّى الرسول وأتباعه عن استقبال الكعبة، وكانوا يستقبلونها في مكة، وبين تذمر اليهود والمنافقين، عندما ولّوا عن استقبال بيت المقدس في المدينة، بعد نزول آيات التحويل هذه، إذ أن الروايات المتعلقة بهذا الحادث تبيّن في مجملها أن الرسول بمكة كان يتّجه في صلاته إلى الكعبة، وأنه بعد الهجرة أمر المسلمين أن يتوجّهوا في صلاتهم إلى بيت المقدس-وهي قبلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى- وفعلوا ذلك لمدة ستة أو سبعة عشر شهرا، ثم جاء الأمر الإلهي بالتوجّه إلى المسجد الحرام.

وقد اتخذ كلّ من مشركي العرب واليهود ذلك للطعن والتشكيك في دعوة محمد وأصحابه بأنه متقلب في أحكامه، والله يتنزّه عن البدوات، وذلك دليل على أن الرسول لا يتلقى الوحي من عند الله، وككلّ مرة كان لهذا الحادث وقعه الشديد في الصفّ المسلم بما ثار حوله من جدل، وما ألصق به من شبهات، وعندما يتلوث الجوّ الاجتماعي بمثل هذه المهاترات، تنشغل النفوس بالخوض في مستنقعها، حتى تكاد معالم الحق الذي يريده الله تنطمس أمام الأنظار، ولكن الله اللطيف بعباده يثبّت قلوب المؤمنين بما يتنزّل من الوحي، فيشفي الصدور وينير البصائر، بما يكشفه من دسائس المعاندين والمكابرين، فإذا بالحق المبين يتوهّج نوره على درب السالكين، يقول السيد قطب -رحمه الله- في حكمة هذا التحويل: " فإذا اتّجه المسلمون فترة من الزمن إلى المسجد الأقصى الذي يتّجه إليه اليهود والنصارى فقد كان هذا التوجّه لحكمة خاصّة هي التي أشار إليها السياق، وبيّناها فيما سبق. فالآن وقد شاء الله أن يعهد بالوراثة إلى الأمة الإسلامية وقد أبى أهل الكتاب أن يفيئوا إلى دين أبيهم إبراهيم -وهو الإسلام- فيشاركوا في هذه الوراثة، الآن يجيء تحويل

القبلة في أوانه، تحويلها إلى بيت الله الأول الذي بناه إبراهيم، لتتميّز للمسلمين كل خصائص الوراثة حسيّها وشعوريّها، وراثة الدين، وراثة القبلة، ووراثة الفضل من الله جميعا.

إنّ الاختصاص والتميّز ضروريان للجماعة المسلمة، الاختصاص والتميّز في التصوّر والاعتقاد، والاختصاص والتميّز في القبلة والعبادة، وهذه كتلك لابدّ من التميز فيها والاختصاص" انتهى.(١)

وبعد هذه الحوصلة نأخذ في تفسير الآيات بالتفصيل.

د)- البيان والتفسير :

قال تبارك وتعالى: ﴿**سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُم عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَّشَآءُ اِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾:

يميل بعض المفسّرين إلى أن المقصود من ﴿ السُّفَهَآء ﴾ هم اليهود بالخصوص اعتمادا على رواية الإمام البخاري عن البراء بن عازب قال: «لمّا قدم رسول الله المدينة فصلّى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا، وكان رسول الله يحب أن يتوجّه نحو الكعبة، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَآءِ﴾ فقال السفهاء من الناس وهم اليهود: ﴿مَا وَلَّاهُم عَن قِبْلَتِهِمُ التِي كَانُواْ عَلَيْهَا﴾فقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ...﴾

١ - سيد قطب، في ظلال القرآن،١/ ١٧٥.

الآية.[١]

قلت: لعل بيان السفهاء من أنهم يهود المدينة، كان من اجتهاد الراوي، ولا يمنع ذلك أن يكون المراد من ﴿السُّفَهَآءُ﴾ هم كلّ من خاض في هذه الحادثة من اليهود والمشركين والمنافقين، إذ وصفهم الله بالسفاهة وهي الاضطراب في الفكر والرأي، وذلك قدر مشترك في كل من خاض في هذا الحادث من خصوم الدعوة الإسلامية في مكة أوفي المدينة، ويعتبر تقديم هذا الإخبار بما سيقع تمهيدا لتلقي الأمر الإلهي بتحويل القبلة إلى الكعبة شطر المسجد الحرام.

وهذه البراعة في الاستهلال تجعل السامع متشوقا إلى ما يتلوها من البيان والتفصيل، وجيء بمقول القول على الصيغة التي نطق بها القائلون بأسلوب الاستفهام الإنكاري: ﴿مَا وَلَّاهُم عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا﴾ وهي في معتقدهم قبلة النّبيئين من قبلهم، وعندما يفاجأ الداعية بمثل هذه التساؤلات المحرجة -وهي متوقعة من الخصوم- سوف لن يضطرب في الإجابة، وقد لقنه الله تعالى بما يواجه به خصومه لتصحيح ذلك التصور الفاسد المؤسس على التقليد الأعمى وعبادة المألوف وهو يقول له: ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَّشَآءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فليست القضية في المتجه أين يكون؟، إذ الجهات والأماكن لا قدسية لها ولا فضل لذواتها ما لم يخصّها الله تعالى باختياره هو، فهو وحده تعالى يضفي ذلك الفضل: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ

---

١ - رواه البخاري عن البراء بن عازب، في كتاب الصلاة، أبواب القبلة، باب في التوجه نحو القبلة حيث كان، حديث ٣٩٠، ١/ ١٥٥.

وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ (القصص:٦٨).

وضمائر الجمع في الآية: ﴿مَا وَلَّاهُم عَن قِبْلَتِهِم﴾ تعود كلها للمسلمين، والإضافة في ﴿قِبْلَتِهِم﴾ للدّلالة على مزيد اختصاصها بهم وملازمتهم لها، واشتهر عند العرب استقبالهم للكعبة كما سنّ ذلك جدهم إبراهيم، وتدلّ هذه الآية على أن المسلمين تحوّلوا في قبلتهم من جهة إلى أخرى، واختلفت الروايات في تحديد تلك الجهة وكيفية استقبالها. غير أن الأشهر منها تدلّ على أنّ المسلمين كانوا يستقبلون بيت المقدس في المدينة حتى نزلت آية التحويل، فقد روى الإمام البخاري أن نزول آية تحويل القبلة كان قبل صلاة الصبح وأن الرسول صلى الصبح للكعبة قبلها، وضبط رواة السيرة أن ذلك قد تم في رجب سنة اثنتين من الهجرة قبل بدر بشهرين، وقيل يوم الثلاثاء نصف شعبان منها.[١]

وقوله تعالى:﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وقد تقدم نظير هذه الآية، أي لا تفاضل بين الأمكنة والأبنية بل ولا بين سائر المخلوقات، بخصوصية تكون في ذواتها، لا تكون في غيرها، وإنما الاختيار لله وحده يضفي على بعض مخلوقاته حرمة وقدسية، تكون جامعة لخلقه في العبادة، ورمزا للتوجه إلى الله فيها، إذ الجهات والأماكن كلها مخلوقة لله، وهو المنزه عن التحيز في مكان أوجهة، فلا غضاضة في التوجه إلى جهة دون أخرى حسب ما يختاره الله ويأمر به عباده، إذ الاستقامة على طريق الله تتحقق بامتثال أوامره لا بالعناد والمكابرة، والمهدي من الناس إلى الصراط

---

١ – ورد في رواية البخاري أنها كانت قبل صلاة العصر، و ذكر القرطبي عن الإمام مالك أنها نزلت قبل صلاة الصبح. أنظر تفسير القرطبي ٢/ ١٨٤ و ما بعدها.

المستقيم هو المتبع لإرشاد الله في التوجه إلى حيث أمره.

واتفق العلماء على أن استقبال الكعبة شرط من شروط الصحة في الصلاة إلا ما رخّصوا فيه من بعض الحالات، تتعذّر فيه معرفة القبلة أو التوجّه إليها، ويتعين على المصلي في المسجد الحرام أن يستقبل عين الكعبة من أحد جوانبها إلا إذا كان بعيدا عنها فعليه أن يجتهد في توخي التوجه إليها، مما هو مفصّل في كتب الفقه.

وللتصريح بما عليه المسلمون من الهداية بتوجههم نحو الكعبة في صلواتهم جاء قوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾:

الكاف للتشبيه والإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى المفهوم من قوله تعالى:﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ والخطاب في ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ للمسلمين، وجيء بهذا الاستطراد في ذكر أمر القبلة للإشادة بفضيلة أخرى للمسلمين، في كونهم عدولا خيارا شهداء على الأمم كلها، لوسطيّتهم بين الإفراط والتفريط، فهم المهديّون إلى الصراط المستقيم باستقبالهم الكعبة كما أمرهم الله.

وأطلقت صفة "الوسطيّة" لتشمل كل أنواعها في المجالات كلها من آداب وأخلاق وتشريع وسلوك وعادات، بل حتى في المجالات المادية من حيث المناخ والموقع الجغرافي مثلا، وذلك من أسباب الخيرية التي وصف الله بها هذه الأمة -أيضا- في سورة "آل عمران" بقوله تعالى:﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

يقول الإمام الرازي عن معنى الوسطية: "يجوز أن يكونوا وسطا بمعنى أنهم متوسطون في الدين بين المفرط والمفرّط، والغالي والمقصر، لأنهم لم يغلوا كما غلت النصارى فقالوا: المسيح بن الله، و لم يقصروا كما قصرت اليهود، فبدلوا الكتب واستخفوا بالرسل".[١]

وأما الشمولية التي يدل عليها تنكير اللفظ "وسطا" فقد عبر عنها السيد قطب في ظلال القرآن فقال ما ملخصه: "وإنها للأمة الوسط بكل معاني "الوسط" سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد، أو من الوسط بمعناه المادي والحسي".

ثم أخذ يفصل أنواع الوسطية إلى وسط: في التصور والاعتقاد، ووسط في التفكير والشعور، ووسط في التنظيم والتنسيق، ووسط في الارتباطات والعلاقات، ووسط في المكان في سرة الأرض وفي أوسط بقاعها، ووسط في الزمان تنهي عهد الطفولة البشرية من قبلها، وتحرس عهد الرشد العقلي من بعدها".[٢]

ثم علل الله ذلك بقوله:﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، أي تكون الأمة الإسلامية شاهدة على الأمم كلها ماضيها وحاضرها، شهادة دنيوية وأخروية. تشهدون بوسطيّتكم في الدنيا على المفرطين المغالين في الدين، وعلى المفرّطين الجانحين إلى البهيمية، تشهدون عليهم باعتدالكم وأخذكم بالكمال الإنساني كما هداكم الله إليه، إذ تركزون بين الناس موازين القيم والمبادئ كما صاغها الله، لا كما وضعها البشر

---

١ - الفخر الرازي، التفسير الكبير، ٤/ ٩٨.

٢ - سيد قطب، في ظلال القرآن، ٢/ ١٥-١٦.

بأهوائهم ووفق أغراضهم الدنيئة. وإذا كان الرسول هو المبلغ عن الله، فهو للمسلمين في مقام القدوة لتلك الوسطية، يشهد لهم بأنهم استقاموا على طريقته واتبعوا سنته، فهم أحرياء برضا الله ومحبته، وأحرياء بصفة الخيرية التي امتدحهم الله بها.

وقد ركز الله عظم تلك الشهادة في آيات أخرى، ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الحج:﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (الحج:٧٨).

وبخصوص الشهادة الأخروية جاء قوله تعالى في سورة النساء مخاطبا رسوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (النساء:٤١).

وهذه الجملة الاعتراضية في بيان أمر القبلة، بما تدل عليه من إكرام الله لهذه الأمة وفضلها عليه، تعكس ما أثاره حادث تحويل القبلة من فتنة عاشها المجتمع المسلم في مهاترات التشكيك وإشاعة الشبهات، فكانت تلك الإشادة بميزة الأمة الإسلامية تحصينا للجبهة الداخلية، وتثبيتا للقلوب المؤمنة، ثم كانت تمحيصا للنفوس وتطمينا لها، بما أرشدها الله إليه من الحجج، وما بين لهم من الحكمة في هذا الحادث فقال تعالى: **﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾**:

الجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ جيء بها لبيان الحكمة من تحويل القبلة، ويأخذ فعل ﴿جَعَلْنَا﴾ معنى شرعنا، لأنه من شؤون التعبد لا من شؤون الخلق، والمراد بالقبلة التي كنت عليها هو بيت

المقدس، لزم الرسول وأصحابه الصلاة إليها زمنا -كما تقدم- ثم بين الله علة ذلك بقوله: ﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ وبذلك تظهر الحكمة الإلهية في تقدير هذا الحادث، وهو في مغزاه تربية مثلى للمجتمع الناشئ في المدينة المنورة لترسيخ عقيدة التوجّه إلى الله وتمحيص الولاء له رويدا رويدا، والناس ما تزال فيهم رواسب من جاهلية تقدس الجنس وما يخصه من مقدسات وعادات مستحكمة، حتى لكأنّ الكعبة والبيت الحرام قد أخذا طابع الجنس العربي بحكم ما تواضعوا عليه من تراث جدهم إبراهيم، وعلى ما ألصقوا به من خرافات الشرك والضلال، فإن تخليص البيت من تلك الشوائب وتمحيصه لعبادة الله لم يكن بالأمر السهل، ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿**وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ**﴾، ومن هنا تدرك محل الاختبار من قوله تعالى: ﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾.

والمقصود بعلم الله هنا تجلّيه من عالم الغيب كما هو مقدور في علمه الأزليّ ليظهر في واقع النّاس حتّى يحاسبهم عليه، لأنّ الله يعلم ما يكون قبل أن يكون، وقد أظهر هذا الحادث الصّادق في إيمانه الذي ليس له أيّة مرجعيّة قديمة يتشبّث بها، فهو يخلص ولاءه لله والرسول محبّة واتّباعاً وانقياداً، وهو ثابت على ذلك في الحالتين من الاتّجاه إلى القبلة المأمور بها، وأمّا الواهي في إيمانه فسرعان ما يقع في الحيرة والاضطراب، وقد يجرّه ذلك إلى الارتداد والانقلاب -والعياذ بالله-، وفي مثل تلك المواقف الحرجة لا هادي للإنسان إلاّ عون الله وتوفيقه للثّبات على طريق الهدى والرّشاد.

ولمّا كان التّحوّل إلى الكعبة في الصّلاة، باعثاً على التّشكيك في قبول الصّلاة المتّجه فيها إلى بيت المقدس، جاء التّطمين الإلهي للمسلمين بقبول الله

لما قدّموه من صلوات قبل ذلك، فقال جلّ من قائل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

ولئن كان الابتلاء مظهراً لحكمة الله، وتدرّجاً في تشريع أحكامه، فإنّه تعالى لا يكلّف النّاس ما لا يطيقون، ولا يبخس حقّهم في ما قدّموه من أعمال بنيّة صادقة، لأنّ من صفاته العليّة الرّأفة والرّحمة بعباده، وقد روى البخاري في سبب النّزول: **«كان مات على القبلة قبل أن تحوّل رجال قُتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله الآية»**.[1]

تحويل القبلة وموقف أهل الكتاب من ذلك

أ)- النّصّ:

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾

---

١ - رواه البخاري عن البراء بن عازب في كتاب التفسير، باب﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾، حديث٤٢١٦،(١٦٣١/٤).

ب)- التّحقيق اللّغوي وأوجه القراءة:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَآءِ﴾:"قد" للتّحقيق، وتكون بمعنى "ربّما" للتّكثير، و"التّقلّب" مطاوع قلبه إذا حوّله، وتقليب الوجه تحويله من جهته الأصلية، وترديده في السّماء عبارة عن توجّه الرّسول إلى الله، وهو يتشوّف لنزول الوحي بتحويل القبلة. ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾: أي نوجّهنّك إلى قبلة ترضاها وهي الكعبة. ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: تولية الوجه المكان أو الشّيء هي جعله قبالته وأمامه، والتّولّي عند جعله وراءه، و"الشّطر" في الأصل القسم المنفصل من الشّيء، وكذا المتّصل كشطري النّاقة، ويطلق على النّحو والجهة، وهو المراد هنا، وسُمّيت الكعبة بالمسجد الحرام لأنّها شطر منه، إذ المراد هو استقبال الجهة التي تكون فيها الكعبة لا ذاتها لما في ذلك من حرج، وانتصب "شطر" على المفعولية لا على الظّرفية.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾: أي وفي أيّ مكان كنتم فاستقبلوا جهة المسجد الحرام. ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾: قرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر وروْح عن يعقوب بتاء الخطاب ﴿تَعْمَلُونَ﴾، كناية عن وعد للمسلمين على الامتثال لاستقبال الكعبة، وقرأه الباقون بالياء. ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾: التّنكير مع إطلاق لفظ "كلّ" يدلّ على الكثرة، والمراد بالآية الحجّة والبرهان للإقناع. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾: الامتراء الشّكّ والتّردّد، **الأهواء** جمع "هوى" وهو الحبّ البليغ للشيء يقتضي طلبه ولو بحصول الضّرّ لمحصّله، وغلب على إطلاقه في القرآن على الغيّ والضّلال.

ج)- بين يدي النصّ:

"نبذة عن الكعبة"

لا شكّ في عقيدة المسلم أن المسجد الحرام هو أشرف بقعة على وجه الأرض اختارها الله تبارك وتعالى وشرّفها بإضافتها إليه:﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَاكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

ولا شكّ أنّ الكعبة المشرّفة هي أوّل بيت وُضع للنّاس على وجه الأرض لإفراد العبادة لله وحده، وقد أفاض المؤرّخون ورواة السّيرة في ذكر تاريخ وجود الكعبة وأطوار بنائها، ومختلف البنّائين لها من لدن آدم عليه السلام وأنّ إبراهيم قد أظهرها بإرشاد من الله بعد أن انطمست معالمها، كما تعرّض المؤرّخون إلى بيان ما تعرّضت إليه الكعبة من تخريب وتدمير إن بسبب الآفات الطّبيعيّة كالسّيل والحريق، أو بسبب من الإنسان كما فعله بعض الطّغاة والجبابرة كالحجّاج والقرامطة، وكلّ ذلك محلّ للنّظر والنّقد لتمحيص تلك الرّوايات.

وليس في القرآن الكريم تفصيل لهذه الجوانب المادّية لهيكل البيت إلاّ ما تقدّم من الإشادة بإمامة إبراهيم ورفعه لقواعد البيت مع ولده إسماعيل، ولكن الله العليم بشؤون خلقه، والحكيم في ما يختاره ليكون محلّ عنايته ومحطّ إفضاله وبركاته، قد ركّز في القرآن الكريم على الجوانب الرّوحية لتلك الأماكن المختارة، بما أضفى عليها من الجلال والقدسية، تلوذ إليها خلائقه توجّهاً إليه والتماساً لرحماته، غير أنّ الإنسان بحكم التصاقه بالواقع المشاهد، قد يشتطّ أحياناً في تصوّراته، ويشغف بالمظاهر الشّكلية لتلك المقدّسات إلى حدّ المغالاة، فيخطئ المقصد الشّرعي في أداء المناسك.

وفي هذا الإطار كثيراً ما تساءلت: هل قدسية الكعبة المشرّفة روحية محضة، أم هي مزدوجة مادّياً ومعنويّاً؟، ويلحّ على الخاطر مثل هذا السّؤال حين نرى ضيوف الرحمان في الحجّ كيف يتزاحمون إلى حدّ الاقتتال-أحياناً- لاستلام الحجر الأسعد وتقبيله اقتداءً برسول الله ﷺ.

حاولت أن أجد في كتب التّفسير ما يشفي الغليل للإجابة على هذا السّؤال، فوجدت الإمام الكبير الشيخ رشيد رضا-رحمه الله- مع أستاذه الإمام محمد عبده -رحمه الله- ينفيان نفياً قاطعاً ما حكاه القصّاصون من أخبار هذا البيت المعمور كوجوده من عهد آدم، وارتفاعه إلى السّماء في وقت الطوفان، ثمّ إنزاله مرّة أخرى، ويعتبران تلك الأخبار من الإسرائيليات، بل يريان أنّ مواد ذلك البناء المقدّس-بما فيها الحجر الأسعد- لا تعدو أن تكون من الموادّ المعروفة عند النّاس لذلك الوقت، وأنّ شرف هذا البيت وقداسته إنّما هو ضرب من الشّرف المعنوي كان بفضل الله واختياره، وهو القائل:﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ (القصص:٦٨).

ومَثَلُهُ في ذلك الاصطفاء والتّقديس كمثل شرف الأنبياء والرّسل ممن اختارهم الله لخلقه فقال:﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَآئِكَةِ رُسُلاً وَمِنْ النَّاسِ﴾ (الحج:٧٥).

وهكذا نجد الإمامين الكبيرين، لا يريان ميزة مادّية للبيت، ولا لذات الحجر الأسعد، وإن استلمه رسول الله وقبّله، ويستندان في ذلك إلى ما روي عن عمر ﷺ إذ قال عند استلامه للحجر: "**أما والله إني لأعلم أنك حجر لا تضرّ ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبّلك ما قبّلتك، ثمّ دنا**

فقبّله".[١]

قلت: ما ذهب إليه الإمامان يناسب وضعيّة هذا العصر الذي يعتمد فيه العلماء على منطق العقل، وحصيلة التّجارب العلمية، وبالتّالي هو الذي يتلاءم مع مبادئ الإسلام وحرصه على اطّراح مثل تلك السّلوكات، والارتفاع بنفس المؤمن إلى المقامات السّامية في العالم الرّوحاني الذي يتجاوز الحدود المادّية المألوفة، وقد حارب كلّ ظواهر الشّرك الظّاهرة منها والخفيّة، وما هذه الأماكن المقدّسة بأمر الله إلاّ منطلقات للإنسان المؤمن في رحلاته الرّوحية إلى ملكوت الله، وهي بمراعاة حرمتها وآدابها محطّات استقبال لأنوار ذلك الملكوت، عندما تتألّق الرّوح، فتكون لها قابلّية التّلقّي والاستقبال، وكفاها شرفاً أن تكون بيوتاً لله، أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه.

يقول الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: **«بيوتي في الأرض المساجد، وزوّاري عمّارها، وحقّ على المزور أن يكرم زائره».**[٢]

قرأت في مجلّة "العربي" أنّ أحد علماء الإنجليز في القرن الثامن عشر تظاهر بالإسلام، وجاور البيت الحرام، حتّى استطاع أن يحصل على عيّنة من الحجر الأسعد، ذهب بها إلى بلاده لتحليلها في المخابر العلمية، فتبيّن أن مادّته

---

١ - رواه البخاري في كتاب الحج، باب ما ذكر في الحجر الأسود، حديث١٥٢٠،٢: ٥٧٩. بلفظ قريب.

٢ - رواه بن أبي شيبة في المصنّف: حدثنا أبو أسامة عن مسعر عن الوليد بن العيزار عن عمرو بن ميمون عن عمر قال: «المساجد بيوت الله في الأرض وحق على المزور أن يكرم زائره» حديث ٣٤٦١٥، ١١٥/٧.

ليست من أنواع الأحجار المعروفة على وجه الأرض، ورجّح العلماء أن يكون قطعة من إحدى " النّيازك" التي تسقط على الأرض من حين لآخر، وعلى صحّة هذه الفرضيّة العلمية فهي لا تعدو ظاهرة طبيعيّة وقعت مثيلاتها عشرات المرّات، و لم يحاول النّاس أن يقدّسوا ما عثروا عليه من تلك الأحجار، والله وحده أعلم بسر ذلك الحجر المقدّس، فما علينا -نحن المؤمنين- إلاّ أن نستجيب لأمر الله في مثل هذه الأمور التّعبّديّة، و الله أعلم.

د)- البيان والتّفسير:

من مهاترات اليهود في أمر القبلة، إذ كانت في أوّل الهجرة إلى بيت المقدس أنّهم كانوا يقولون عن الرسول ﷺ: "يخالفنا في ديننا ويتّبع قبلتنا، ولولا ديننا لم يدر أين يستقبل القبلة"، فكره الرّسول ذلك حتّى روي أنّه قال لجبريل: **«وددت لو أنّ الله صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها»**.(١)

وحُقَّ لرسول الله ﷺ أن يتشوّف لتحويل القبلة إلى الكعبة، إذ هي قبلة جدّه إبراهيم، وقبلة قومه الذين يرجو دخولهم إلى الإسلام، وهم العمدة والسّند في إظهار هذا الدين الذي امتنّ الله به عليهم فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ (الزخرف:٤٤).

ويعظم في نفس الرسول هذا التّشوّق، ويزيده ضراماً موقف اليهود ومهاتراتهم، والله يعلم ما في حنايا الصّدور من الخواطر والأمانيّ، ولكنّه تعالى يوقّت لكلّ حدث أجله، ويقضي بالحكمة في كلّ أمر، فهو يؤكّد وعده للرسول ويطمئنه بإنجاز ذلك الوعد فيقول تبارك وتعالى: ﴿**قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ**

---

١ - راجع: القرطبي، أحكام القرآن، ١/ ٦٤ و ما بعدها.

وَجْهَكَ فِي السَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾:

ليس بمستنكر على رسول الله أن يميل قلبه إلى شيء، ويتمنّى من الله تعالى أن يحقّقه له، لأنّه إنسان بشر وحاشا لرسول الله أن يتمنّى ما ليس بحقّ أو ما لا خير فيه لأمّته، لأنّ القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمان، والرسول نفسه يقول داعياً ربّه: **«اللهم لا تؤاخذني في ما تملك ولا أملك»**.[1]

فها هو ذا تعتلج الأماني في صدره، ولكنّه لا يستعجل ولا يُفصح عن رغبته تأدّباً مع الله وانتظاراً لأمره، ولكن الله العليم بذات الصّدور لا يترك الرسول مكبوت الأماني، طويل التّرقّب، ولدفع الاستبطاء في التّرقّب جاء الخبر: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾، مؤكّدا بـ"قد" لا لدفع الشّكّ في وعد الله، ولكن لتطمين رسوله وتهدئة نفسه في الحرص على حصول ما يرغب فيه، ثمّ عقّب على ذلك التّمهيد اللّطيف بقوله:﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾، وهو التّصريح بالمقصود بتحقيق ما ترغب فيه من التّوجّه في صلاتك إلى الكعبة، وإسناد التّولية إلى الله تعالى، ثمّ إضفاء الرّضا على الحدث، يَشيَان بالشّرعية الإلهية أوّلاً، لأنّ ذلك قد تمّ بأمر الله، ثمّ للمقصد النّبيل الذي كان الرّسول يتوخّاه من ذلك، في تعظيم بيت الله وتوحيد صفّ أمّته في عبادة مولاها وقد دانت له بالوحدانية في معتقدها، فهي جديرة بالوحدة في قبلتها وعبادتها.

---

١ - رواه أبو داود في سننه عن عائشة بلفظ «فلا تلمني فيما تملك و لا أملك»، كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء، حديث ٢١٣٤، ٢/ ٢٤٢، و رواه البيهقي عن عائشة أيضاً، حديث ١٤٥٢٢، ٧/ ٢٩٨.

ولذا كان خطاب الله متوجّها إليه أوّلا لتطمينه وإرضاء رغبته: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، والجمهور على أنّ المراد بالمسجد الحرام هنا الكعبة، على أن الكعبة من أقدس مشمولاته، وأن الاستقبال يكون إليها، كما ثبت من الأحاديث الصحيحة، والتوجّه شطر المسجد الحرام يختلف بين القريب والبعيد كما قال ابن عباس ﷺ: « **البيت قبلة لأهل المسجد، والمسجد قبلة لأهل الحرم، والحرم قبلة لأهل المشرق والمغرب**».[١]، ويؤكده الأمر الإلهي لجميع المؤمنين في قوله تعالى:﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، و﴿حَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ لتعميم كل أقطار الأرض، وتعميم جميع المكلّفين.

وللإمام الرّازي ملحظ دقيق في استقبال القبلة ومقصدها الشّرعي حيث قال: "ولما كان العبد الضعيف إذا وصل إلى مجلس الملك العظيم لابدّ من أن يستقبله بوجهه، ويبالغ في الثناء عليه بلسانه وبالخدمة له، فاستقبال القبلة في الصلاة يجري مجرى الثناء عليه، والركوع والسجود يجري مجرى الخدمة ولله المثل الأعلى".[٢]

وتأكيد الأمر الإلهي بصيغة الإفراد للرسول وصيغة الجماعة للمؤمنين لدفع الإيهام أن يكون الأمر خاصا بالرّسول، وللاهتمام بشأن هذا الحدث العظيم في بلورة ميزة الأمّة الإسلامية أمام تطاول أهل الكتاب بدينهم وسدًّا

١- رواه البيهقي عن ابن عباس، باب من طلب باجتهاده جهة الكعبة، حديث ٢٠٦٦، وقال: تفرد به عمر بن حفص المكي وهو ضعيف لا يحتج به وروي بإسناد آخر ضعيف عن عبد الله بن حبشي كذلك مرفوعا ولا يحتج بمثله والله أعلم، ٩/٢. ووافقه الحافظ: الموسوعة، ٣٤١/١.

٢ - الرازي، التفسير الكبير، ١٦٤/١.

لأبواب الفتنة في وجوه المشركين المتردّدين، وذلك بإذعان المؤمنين إلى حكم الله، وتطهير صفوف جماعتهم من المنافقين الإمّعات.

ولمّا كان أهل الكتاب من وراء كلّ الدّسائس فقد تعرّض السياق إلى بيان حقيقة موقفهم وأنهم يعلمون أنّ هذا الحادث حقّ، وقد أكّد ذلك بمؤكّدين، فهم يعلمون بأن ما أمر به الرّسول من استقبال الكعبة هو حق من عند الله وعلم علماؤهم ذلك من خلال كتب أنبيائهم، إذ بيّنت خبر الرّسول وخبر صلاته إلى القبلتين، كما علموا أنّ الكعبة هي البيت العتيق الذي جعله الله تعالى قبلة لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ وعيد وتهديد لأولئك المتجاهلين لما ثبت عندهم أنّه الحق وعلى قراءة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بتاء الخطاب للمسلمين يكون وعدا لهم وبشارة بالرّضا والقبول من الله على صبرهم وثباتهم في تطبيق أحكام الله، مهما عظمت التضحيات واشتدّت التّحدّيات، ثم أوضح الله تعالى لرسوله ما يكون من معارضة هؤلاء مهما يبذله من مجهود في إقناعهم فقال جلّ من قائل:

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾:

ولمزيد من التأكيد على مكابرة أهل الكتاب وعنادهم عطف الله هذه الآية على ما قبلها في قوله:﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ هكذا بنفس الصلة، وتعني علماءهم ومن خلالهم العامة منهم، وذلك لنفي أيّ طمع في اتّباع قبلة المسلمين مهما حاول الرّسول إقناعهم بالحجج الدّامغة، وأكّدت الجملة بالقسم

واللام الموطئيّة له، فهم إذ يعلمون أن تحويل القبلة حق ويكتمون ذلك، فلا مطمع في اتّباعهم لقبلتك أيّها الرّسول إذ هم يتّخذون ذلك الموقف عنادا ومكابرة، وأنت لا يكون من شأنك أبدًا اتّباع قبلتهم أي رجوعك إلى استقبال بيت المقدس.

وفي هذه المشاكلة البديعة تأييس من إذعان أهل الكتاب إلى الحق وتنزيه لرسول الله ومن خلاله تحذير للمؤمنين من مداهنة خصومهم في أيّ من الواجبات الدينية، ثم يأتي تأنيس الرّسول من مخالفة أهل الكتاب له، بأن ذلك هو دأبهم حتى في معاملة بعضهم البعض إذ ليست لهم قبلة واحدة، فكلّ من اليهود والنصارى وكلّ فريق منهم لا يغيّر اتجاهه إلى قبلة الآخر: ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾.

ولزيادة التأكيد والتحذير من التهاون في أمر القبلة عطف الله على الجملة قوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾. اشتملت الجملة على عدّة مؤكّدات يقول عنها الإمام ابن عاشور: "وقد بولغ في هذا التحذير باشتمال مجموع الشّرط والجزاء على عدّة مؤكّدات أومأ إليها صاحب الكشّاف، وفصّلها صاحب الكشف إلى عشرة وهي: القسم المدلول عليه باللاّم، واللاّم الموطئة للقسم، لأنها تزيد القسم تأكيدا، وحرف التوكيد في جملة الجزاء، ولام الابتداء في خبرها، واسمية الجملة، وجعل حرف الشّرط "إن" الحرف الدّال على الشّك، والمقتضى أنّ أقل جزء من اتّباع أهوائهم كافٍ في الظلم، والإتيان بـ"إِذَنْ" الدّالة الجزئية فإنها أكّدت ربط الجزاء بالشّرط، والإجمال ثم التفصيل في قوله: ﴿مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ فإنه يدلّ على الاهتمام، والاهتمام بالوازع يؤول إلى تحقيق العقاب على الارتكاب

لانقطاع العذر، وجعل ما نزل عليه هو نفس العلم، والتعريف في ﴿الظَّالِمِينَ﴾ الدّال على أن يكون من المعهودين بهذا الوصف الذي هو لهم سجية" انتهى.(١)

قلت: لقد تقدّم نظير هذه الجملة في ما سبق بفارق جزاء الشّرط، فليرجع إليها.

وأمّا إشكالية كيف يوجّه مثل هذا التهديد الصارم إلى رسول الله لمثل هذه المخالفة التي لا يمكن أن تصدر منه؟، فللمفسّرين فيه تأويلات لا تخلو من تكلّف بل ومن تعسّف في تشويش الكلام البليغ، وقد نقل الشيخ رشيد رضا حديثا لأستاذه الشيخ محمد عبده هو في غاية الموضوعية والدّقة، ننقله بنصّه لزيادة الإفادة، قال: "هذا الخطاب بهذا الوعيد لأعلى الناس مقاما عند الله تعالى هو أشدّ وعيد لغيره ممّن يتّبع الهوى، ويحاول استرضاء الناس بمجاراتهم على ما هم عليه من الباطل، فإنه أفرده بالخطاب مع أن المراد به أمته، إذ يستحيل أن يتبع هو أهواءهم، أو أن يجاريهم على شيء نهاه الله تعالى عنه، لينبّه الغافل، ويعلم المؤمنين أن اتّباع أهواء الناس ولو لغرض صحيح هو من الظلم العظيم الذي يقطع طريق الحق، ويردي الناس في مهاوي الباطل، كأنه يقول: إنّ هذا ذنب عظيم لا يتسامح فيه مع أحد، حتى لو فرض وقوعه من أكرم الناس على الله تعالى لسجّل عليه الظلم، وجعله من أهله الذين صار وصفا لازما لهم وما للظالمين من أنصار، فكيف حال من ليس له ما يقارب مكانته عند ربّه عزّ وجلّ" انتهى.(٢)

قلت: إنّ هذا الأسلوب التربوي الحكيم كثيرا ما يرد في القرآن، وهو

---

١ - الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، ٢/ ٣٧.

٢ - محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٢/ ١٨.

على قاعدة قول العرب: "إيّاك أعني واسمعي يا جارة".

ثمّ بيّن الله تعالى الدّافع الحقيقي للذين أوتوا الكتاب في المكابرة والإنكار فقال عزّ من قائل: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾:

استطراد بمناسبة موقف أهل الكتاب من تحويل القبلة لبيان أنّ أصل إنكارهم وعنادهم لذلك هو من إنكارهم وطعنهم في رسول الإسلام وما جاء به من الحق، على أن يكون معاد الضمير إليه في قوله: ﴿يَعْرِفُونَه﴾، أو أن يكون إلى لفظ "الحقّ"، ثم شبّه معرفتهم لذلك بمعرفة أبنائهم ليدلّ على كمال تلك المعرفة، لأن معرفة الوالد بولده تترسّخ بطول مراعاته وتربيته وشدّة التعلّق به، وهو ما عبّر عنه عبد الله بن سلام من علماء اليهود لعمر ﷺ إذ قال له في شأن معرفته بالرّسول:" أنا أعلم به منّي بابني"، أي معرفة لا يتطرّق إليها شكّ.

وعلى آداب "أخلاقية الدّعوة في القرآن الكريم" فقد أسند كتمان الحق إلى فريق منهم، لأنّ منهم من اعترف بالحقّ وآمن به كعبد الله بن سلام وتميم الدّاري، وأكّد الله أن ما عليه الرّسول هو الحقّ من الرّب تعالى، وفي إضافته إلى ضمير المخاطب ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ مزيد من العناية الإلهية برسول الله حتى يثبت على ما هو عليه من ذلك الحق، ولا يشكّ فيه وحاشاه أن يكون منه من ذلك، وإنما المقصود بالنهي أمته ممن عساه يغترّ بفتنة الماكرين المخادعين على القاعدة السابقة.

فاللّهم إنّا نسألك اليقين والثبات، ونعوذ بك فتنة المحيا والممات.

حكمة الاختلاف في القبلة، وبيان أسباب تحويلها

أ)- النص:

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي وأوجه القراءة:

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾: "كل" اسم دال على الإحاطة والشمول، وهو مبهم يتعين بما يضاف إليه، والتنوين فيه للعوض يدل على المضاف إليه وتقديره هنا "أمّة" وهو مفهوم من السياق، و الوجهة البقعة التي يُتوجّه إليها وهي هنا اسم مكان على وزن "فعلة"، وتستعار لما يهتم فيه المرء من الأمور. هو مولّيها: من ولّى، يتعدى إلى مفعولين، والمفعول الأول محذوف والتقدير: هو مولّيها وجهه، وقرأه ابن عامر: ﴿هُوَ مُوَلَّاهَا﴾ بألف بعد اللاّم بصيغة ما لم

يُسَمَّ فاعله، والتقدير: "يولّيه إياها مولٍّ". ﴿فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ﴾: أي بادروا إلى الطاعات، وحقّه التعدية باللاّم، عُدّي هنا بنفسه على تضمين "استبقوا" معنى اغتنموا، والمراد عموم الخيرات، وهي جمع "خير" على غير قياس. ﴿يَاتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعًا﴾: يجمعكم ليوم القيامة فيثيب ويعاقب. ﴿وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: قرأ الجمهور ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بمثناة فوقية على الخطاب، وقرأه أبو عمرو بياء الغيبة. ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾: التعريف في الناس للاستغراق، يشمل مشركي مكة وأهل الكتاب، ﴿حُجَّةٌ﴾ أي لتنفي مجادلتهم لكم، لأن الحجة هي ما يقصد به إثبات المخالف، بحيث لا يجد منه تفصّياً، وأما الاحتجاج فهو إتيان المحتجّ بما يظنه حجة ولو مغالطة. ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً﴾: الكاف للتشبيه، والمشبه هو العلتان في قوله تعالى: ﴿وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي﴾ ﴿وَلَعَلَّكُم تَهْتَدُونَ﴾، والمشبه به هو إرسال الرسول، والتقدير: أتم نعمتي عليكم إتماما شبيها بإرسال الرسول إليكم. ﴿يُزَكِّيكُمْ﴾: من التزكية وهي تطهير النفس من كلّ الأدناس. ﴿الْحِكْمَةَ﴾: أي التعاليم النافعة والمانعة من الوقوع في الخطأ والفساد، وهي تعاليم القرآن وأحكامه. ﴿اشْكُرُواْ لِي﴾: يتعدى بنفسه وباللام التي تسمى بلام التبليغ ولام التبيين، والتعدية بهذه اللام هي الأفصح.

ج)- البيان والتفسير:

يتتابع سياق الآيات في مساندة الرسول وتأييد موقف المسلمين في

اتجاههم إلى الكعبة ببيان أن ما هم عليه هو الحق الذي يجب أن يثبتوا عليه، وأن لا يترقّبوا اعتراف أهل الكتاب بقبلتهم، فعطف الله على ما سبق ما يرشد المسلمين إلى فهم المقاصد الشرعية، والتماس الحق والخير من مصدرهما، وعدم الاهتمام بمخالفة المعاندين، لأن مصير الخلائق إلى الله وهو يجازي كلا بما عمل، فقال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَاتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا انَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

نتساءل ونحن نتناول هذا العرض لمعاني هذه الآيات وتكاملها مع سابقتها نتساءل لم ذلك التأكيد على حادث تحويل القبلة وتكرار الأمر الإلهي بالتزام الاتجاه الجديد نحو المسجد الحرام معلّلا ببيان الحكمة من وراء ذلك؟ فنستنتج ما ثار حول ذلك من جدل، كان له الأثر العميق في طوائف المجتمع المدني من المسلمين وأهل الكتاب، حتى كاد انشغالهم بهذه القضية يصرفهم عن إدراك الحق، وتشوّش عليهم طريق البرّ الواضح كما رسمه الله، فما أصعب تغيير الذهنيات، وما أشد مواجهة التقاليد والعادات. فالرسول وأصحابه لم يتردّدوا قط في التوجه إلى الكعبة كما أمرهم الله، ولكنّهم على صدقهم ووفائهم لله ولرسوله كانوا بحاجة إلى مثل هذا التوكيد والتكرار والبيان لمواجهة حملة الأضاليل والأكاذيب.

بيّن الله تعالى في مفتتح النصّ ما يعتبر فذلكة لما سبق فقال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾، أي لكل أهل ملة أو طائفة جهة تتجه إليها في صلاتها أي ما يعبّر عنه بـــ"القبلة"، ذلك بالمعنى الحقيقي لـــ"لوجهة"، وهي تحتمل أيضا المعنى المجازي من التدبير للأمور والاتجاه في الفهم والإدراك، فحذار أيها

المسلمون من الانشغال بمخالفة الناس لكم، وهي لا تقدح في الحق الذي أنتم عليه، لأن اختلاف الناس في قبلتهم لا يمس بجوهر الدين، فما عليكم إلا أن تتنافسوا في المبرّات والطّاعات حتى تصادفوا الحق الذي أراده الله، وتكونوا على طريق البر الذي رسمه الله.

والخيرات جمع خير تشمل كل أنواعه، كما فصلها الله تعالى في آية البر اللاحقة، والاستباق يقتضي المسارعة والتنافس وما يتطلّب ذلك من الجهد والعزيمة. ثم علل الأمر بقوله: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَاتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي يأت بكم يوم القيامة للحساب والجزاء، فاجتهدوا لتكونوا من الفائزين بقبول الله ورضوانه قبل فوات الأوان.

واختيار اسم الشرط الدّال على المكان ﴿أَيْنَ مَا﴾ ليتضمن معنى أن أساس القبول عند الله هو المقاصد والنّيات لا الأمكنة والجهات. والله لا يعجزه ذلك لأنه على كل شيء قدير، وشبيه بهذه الآية قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَاكُمْ فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ (المائدة:٤٨).

ويأتي التوكيد للأمر بالاتجاه إلى الكعبة لبيان أن ذلك حكم شرعي عام في كل زمان ومكان مع بيان المقصد الشرعي والحكمة من وراء ذلك بحيث لا يمكن التهاون في القيام به ولو في بعض حالات العذر فقال جل من قائل:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ، وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾:

جاء العطف على السياق على ما سبق من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ ليدلّ على تكامل السياق، فتكرار الأمر الإلهي بالتوجه إلى الكعبة ثلاث مرات مع تنويع التعقيب في كل مرة فهو -زيادة على تأكيد الحكم وتعميمه ليشمل كل الأحوال وكل الأمكنة والأزمنة- قد رتب الله عليه قوله ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ وما تلاه من الفوائد الأخرى لتثبيت المسلمين على الحق الواضح الذي أكده خلال الآيات ثلاث مرات، تنويها بشأن استقبال الكعبة، وتحذيرا من التهاون في أمرها، وتهوينا من شأن المعاندين المكابرين.

وإعادة الكلام وتنويعه في مثل تلك المواقف الحادة هو من أساليب الكلام البليغ، والالتفات من ضمير الخطاب إلى الغيبة، ومن صيغة الإفراد إلى الجمع تفنّن من شأنه تركيز الانتباه، واستقطاب لكل المخاطبين، حتى لا يتأثروا بالدعايات المغرضة والشبهات المضللة.

وفي بيان التعليل للأوامر الإلهية المؤكدة، يرتّب الله ثلاث فوائد تقتضي الامتثال للأمر المطلوب.

الأولى: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، ولفظ ﴿النَّاسِ﴾ يشمل كلّ من جادل في أمر تحويل القبلة من مشركي العرب وأهل الكتاب وغيرهم من

جميع الناس، فلهذا الدّين ميزته وهيمنته على جميع الأديان، فلا يدعّي عليه أهل دين بأنه مقلّد له أو مقتبس منه، فلكل من مشركي العرب وأهل الكتاب حجته للطعن في نبوءته ﷺ بتحويل القبلة إن من الكعبة إلى بيت المقدس أولا، ثم من بيت المقدس إلى الكعبة نهائيا.

فأهل الكتاب كانوا يعرفون من كتبهم ذلك التحويل، كما خبّر الله به وبشر بالرسول الخاتم. فيكون بقاؤه على الاتجاه إلى بيت المقدس دليلا على أنه ليس هو النبيّ المبشر به، وأما مشركو مكّة فيتخذون من اتجاه الرسول إلى بيت المقدس مقدحا بأنّه ليس بالنبيّ الذي جاء لإحياء ملة إبراهيم، إذ هو لا يستقبل البيت الذي بناه، وهكذا تدحض حجة الفريقين فلا يبقى منهم إلا المعاندون الظالمون الذين قال الله فيهم: ﴿الاَّ الذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾، فهؤلاء لا تجدي فيهم المحاجّة، إذ هم ليسوا على هدى ولا على بصيرة في ما يقولون وما يفعلون، وهؤلاء لا خشية منهم في مسار الدّعوات، لأن الله من ورائهم محيط، وهو ناصر الحق مهما تطاول أهل الباطل.

الثانية: ﴿وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾، وقد امتن الله على رسوله عندما بشّره بفتح مكة، في قوله تعالى في سورة الفتح: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا، لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ (الفتح:١-٢). كما امتنّ الله على المؤمنين بإكمال دينهم وأن ذلك من إتمام نعمته عليهم حيث قال تعالى: ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الاسْلاَمَ دِيناً﴾(المائدة:٤)، وتلك هي النعمة

الكبرى تظافرت على إتمامها نعم أخرى في بناء هيكلها كنعمة الهجرة وتحويل القبلة، وانتصار المسلمين على أعدائهم، وهل من نعمة أجلّ وأرضى لرسول الله وصحابته من أن يستقبلوا أفضل بيت لله على أرضه؟.

الثالثة: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، ويكون الاهتداء بالثبات على الحقّ، وهو ما أرشدكم الله إليه في استقبال بيته ليكون رمزا لفخركم وعزّكم بعد أن يطهّره الله على أيديكم من رجس الشرك والأوثان وفي هذا الرجاء بشارة للمؤمنين بتحقيق وعد الله بالنصر والتمكين والفتح المبين.

ثم قال تعالى في تعداد نعمه على المؤمنين: **﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾**:

جاء هذا التشبيه بالكاف لإتمام إطار النعمة الكبرى بإكمال الدين كما تقدم، وذلك بتذكير المخاطبين من المهاجرين والأنصار بأن بعث فيهم رسولا منهم جاءهم بهذا الدين من عند الله، جاءهم بلسانهم ومن جنسهم ليكون ذلك أدعى إلى استجابتهم لهداية الله، وقد امتن الله على المؤمنين بنظير هذه الآية في سورة "آل عمران" في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُومِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾.

أضفى الله على الرسول في الآيتين صفات هي كلها روافد لتلك النعمة الشاملة فقال تعالى:

أ)- **الصفة الأولى:**﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا﴾، وإطلاق كلمة "آيات" ليشمل كل أنواع الآيات العقلية والكونية الدالة على وحدانية الله، وعلى أسس العقيدة الصحيحة وفق التصوّر الإسلامي الحقّ، ولعل قوله ﴿يَتْلُواْ﴾ يرجّح أن يكون المراد من الآيات القرآن الكريم، ولو أنّ التلاوة لا تعني مجرد القراءة، ولكن ما يصحبها من تدبّر للمعاني.

والنظر العقلي لا يقتصر على فهم المسموع، بل يكون من المشاهد من صنع الله البديع في الآفاق وفي الأنفس. إذ يقول تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت:٥٣).

والله تعالى جعل إنزال القرآن مساويا لخلق السماوات والأرض في العظمة والتأثير فيمن يحسن النظر والتأمل فيهما فقال جلّ من قائل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان:٠١) وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الملك:٠١).

وفي التذكير بهذه النعمة تحريض للمؤمنين على إدمان النظر والتدبّر في آيات الله لمعرفة الحقّ عن قناعة تقوم على الدليل والبرهان، وبذلك يترسّخ الإيمان.

ب)- **الصفة الثانية:**﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾، وعندما يصلح القلب بالإيمان الصحيح تنقاد الجوارح إلى التطهير الذاتي من الرذائل والأخلاق الدنيئة، فتتزكى النفس وتجفو كلّ قبيح من العادات والتقاليد بتوفيق من الله واستنارة

بهديه.

ج)- **الصفة الثالثة:** ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، فالعلم والمعرفة وتعليم الكتاب قد يراد به المعنى المشترك للكتاب، أي تعليم القرآن أو تعليم الكتابة التي هي الوسيلة الكبرى لرقيّ الإنسان في مجال الحضارة، والحكمة تعني التفقه في الدين ومعرفة أسراره وذلك أدعى لحسن تطبيقه، وقد فسّرها البعض بالسنة النبوية.ونلاحظ كيف رتّب الله تلك الفوائد على المنهج التربوي الحديث، كما سبق وأن أشرنا إليه في دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ تعميم لمجالات التعليم المختلفة في سائر فروعه وفنونه، وتكرار لفظ "التعليم" إن كانت الأولية لعلم الشريعة وأحكامها ومقاصدها، فإن وحي الله على لسان نبيّه يتناول معارف أخرى يهتدي بها الإنسان في مدارج حضارته بحثا وتنقيبا في قواعد الاجتماع البشري وفي أسرار الكون، والله يرى لهذا الإنسان ما يشاء من علمه، ويقدره إلى أن يبلغ فيه الآماد التي قدّرها.

ثمّ أرشد الله المؤمنين إلى تحقيق شكرهم لتلك النعمة فقال: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ**﴾: فذِكْر الله وحمده على تلك النعم هما الضمان لدوامها، وذكر الله باستحضار القلب لجلاله وعظمته وترديد اللسان لألفاظ حمده يقتضي أن نشكره على نعمه التي أفاضها علينا.

وبما أن الإنسان قد تبطره النعمة -ولو كان مؤمناً- ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق:٦-٧)، فإنّ قوله: ﴿وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ هو نهي عن

جحود تلك النعمة بنكرانها تماما أو بصرفها في غير موضعها، وهو تحذير من مضلّلات الهوى، ومن الغفلة والنسيان.

فاللهم اجعلنا من الذاكرين الشاكرين لنعمك، ونعوذ بك من زوال النعم وحلول النقم.

الاستعانة بالصلاة في الصّبر على البلاء، ومن هم الشهداء؟

أ)- النص:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾: الصبر توطين النفس على احتمال المكاره. وقد ذُكِر في القرآن سبعين مرَّة، وهو أمُّ الفضائل، واعتبره الرَّسول نصف الإيمان، لأنَّه يربي ملكات الخير في النفس. والصَّلاة لغة هي الدعاء. وشرعا:

هي أقوال وأفعال رتّبها رسول الله لعبادة الله مفتتحة بالتكبير ومختتمة بالتسليم.
﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾: معيَّة الله تكون بالتوفيق والعون والتأييد.
﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾: لنبلوَنّكم من الابتلاء والاختبار والمعنى نصيبكم بتلك الشّدائد، ليعلم الناس أحوالكم وقيمة نفوسكم. ولفظ "شيء"من أسماء الأجناس العامَّة إذا أضيفت إلى اسم الجنس أو بُيِّنَتْ به دلّت على قصد التعليل والتحقير، والخوف والجوع والنقص من الأموال والأنفس والثمرات وكلُّها من المصائب البشرية المعتادة في المعايش. ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾: الصلاة من الله للعبد تكون بمعنى الرحمة والمغفرة وإعلاء المنزلة.

ج)- البيان والتفسير:

ما يزال حادث تحويل القبلة يأخذ حيِّزه من السِّياق، ويمتدُّ حتى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾، وتعترضه بعض الجمل يقتضيها الإرشاد والتوجيه الحكيم للجماعة المسلمة لإعدادها بما يتطلّبه الموقف من الصَّبر والعزيمة والثبات والتعبئة لمواجهة الأحداث، فربَّ ضارَّة فيها منافع وفوائد إذا أحسن الإنسان استغلالها وتوظيفها لرفع الرُّوح المعنويَّة، وتحفيز الهمم لمزيد من الجهد والتضحية، وذلك يتطلّب الصَّبر وهو أهمُّ الفضائل كلِّها إذ يربّي ملكات الخير في النفس البشرية، وقد تكرَّر التحريض عليه في القرآن، وأنَّه تعالى يوفِّي الصَّابرين أجرهم بغير حساب، وجاء النِّداء الإلهي بأحبِّ الصِّفات إلى المؤمنين فقال جلَّ من قائل:

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ استَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾:

وقد تقدَّم مثل هذا الإرشاد لبني إسرائيل (البقرة:٤٤)، بيَّنَّا فيه كيف يستعين المؤمن على مشاقِّ التكليف بالصَّبر والصَّلاة، من خلال توجيهات الرَّسول وتطبيقاته في ذلك، وفي هذا النِّداء الحبيب استئناس لنفوس المؤمنين واستجاشة للوازع الإيماني، وهم يتهيَّأون لأمر عظيم تواجههم فيه متاعب جمَّة وبلايا شديدة، خلال انطلاقتهم في بناء الدَّولة الإسلامية بالمدينة المنوَّرة، علما بأنَّ حادث تحويل القبلة قد تمَّ في رجب أو شعبان من السنة الثانية للهجرة، فإزاء إرشادهم إلى الاستعانة بالصَّبر والصَّلاة لضمان معيَّة الله لهم جاء ذكر الجهاد والشهادة في سبيل الله فقال تعالى:﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلَ اَحْيَآءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾:

أعقب الأمر بالصَّبر بالنَّهي عن النظرة السَّطحية المادِّية إلى الشهيد وذلك للتنبيه على أنَّهم مقبلون على أشدِّ ما يكون فيه الصَّبر، وهو الموت في سبيل الله. ولم يكن مفهوم الشَّهادة بالمعنى الدِّيني في نظريَّتهم واضحا، إذ كانوا في الجاهلية يقاتلون فيموتون، وتختلف دوافعهم ومقاصدهم في ذلك، فأصبح من الضَّروريِّ تقويم ذلك التَّصوُّر، ووضع المعايير لمعنى الشَّهادة، والتعبير بصيغة المضارع في قوله تعالى:﴿لِمَنْ يُقْتَلُ﴾ يوحي بأنَّ المسلمين مقبلون على مواجهات دامية يكون منهم شهداء، فمن هو الشَّهيد عند الله ؟؟.

كلمة "الشهادة" ملازمة لكلمة "الجهاد" في الإسلام كلاهما لهما مفهوم محدَّد مضبوط، وردت فيه نصوص من القرآن والسُّنَّة لا تدع مجالا للتأويل، في

محاولة الخروج بمفهومهما من الإطار الإسلامي المحدَّد، ذلك لأنَّ الفلسفات المادية الحديثة قد أعطت هذا المفهوم نفسه لكل من يقاتل أو يقتل في تحقيق أهدافها التي رسمتها وفق ما يتبنَّاه من إيديولوجيات اليمين أو اليسار، وقد تسلَّلت هذه المفاهيم المادِّية إلى عالمنا الإسلامي وهو واقع في شراك التَّبعيَّة والتقليد.

لقد حدَّدت هذه الآية الكريمة داعية الموت للشهيد أن يموت في سبيل الله لا غير، وذلك يعني إلغاء الدَّواعي والدَّوافع الأخرى التي يتقاتل من أجلها النَّاس فيموتون أو يغلبون من كل ما زيِّن لهم من متاع الدّنيا المشار إليه في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَآءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران: ١٤)

فسبيل الله هو ما شرعه الله بوحيه المنزَّل على رسله عقيدةً وشريعةً ومنهاجًا يلتزم به عباده ويستقيمون عليه كما أمروا، بعيدا عن نوازع الأهواء وتدافع المنافع، كما يؤكِّد الله ذلك لرسوله إذ يقول:﴿وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَ لاَ تَتَّبِعَ أَهْوَآءَهُم﴾ (الشورى:١٥)، وفي تحديد معنى الكلمتين يقول المولى تبارك وتعالى:﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالاَخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلَ اَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُوتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٧٤).

وحتى الصَّحابة رضوان الله عليهم قد اختلفت نظرتهم إلى المقاييس التي تؤهِّل المقاتل لشرف الشَّهادة، حين سألوا رسول الله عن الرَّجل يقاتل شجاعة

ويقاتل رياء، أيُّ ذلك في سبيل الله ؟. فقال الرَّسول: **«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»**.(١)

وعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رجلا قال يا رسول الله:**«رجل يريد الجهاد في سبيل الله، وهو يبتغي عرضا من الدُّنيا؟. فقال: لا أجر له، فأعاد عليه ثلاثا كلّ ذلك يقول: لا أجر له»**.(٢)

فنلاحظ أن استفسار الصَّحابة عن المفهوم الصَّحيح للشهادة لم يخرج عن الدَّوافع النَّفسية التي يمكن أن تتردَّد في نفس المقاتل ممَّا يغلب على الطبع البشري كالشَّجاعة والحميَّة والرِّياء.

والخلاصة أنَّ كلّ ما يخرج عن الإطار الإسلاميِّ المحدَّد بجملة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فهو في سبيل الطَّاغوت، وبالتالي فهو لاغٍ في مقياس دين الله، ويؤكِّد هذا المعنى قوله تعالى:﴿الَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ (النِّساء: ٧٦).

أمَّا من حيث منزلة الشُّهداء عند الله وكرامتهم بعد الشَّهادة فقد بيَّنت

---

١ - رواه البخاري عن أبي موسى الأشعري في كتاب الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، حديث ٢٦٥٥، ١٠٣٤/٣. و رواه مسلم عنه أيضاً في كتاب الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، حديث ١٩٠٤، ١٥١٢/٣.

٢ - رواه أبو داود عن أبي هريرة: كتاب الجهاد، باب في من يغزو و يلتمس الدنيا، حديث ٢٥١٦، ١٤/٣. و رواه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة حديث ٢٤٣٦، و قال: صحيح الإسناد و لم يخرجاه، ٩٤/٢.

الآية في سورة البقرة كما في سورة آل عمران آية ١٦٩، أنّهم أحياء عند ربِّهم يرزقون.

واستعملت في الآيتين أداة "بل" للإضراب الإبطالي، والنهي عن القول بأنهم أموات ليس لمجرّد القول، بل هو للقول الناشئ عن الاعتقاد، اعتمادا على ما في العالم المشاهد، فأزاح الله للمؤمنين حجب الغيب بإخبارهم عمَّا في العالم الغيبيّ من حياة كريمة لأولئك الشُّهداء -الله أعلم بكنهها وحقيقتها- يصوّرها رسول الله بما ثبت في صحيح مسلم بقوله ﷺ:

«إنَّ أرواح الشُّهداء في حواصل طيور خضر تسْرح في الجنَّة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلّقة تحت العرش فاطّلع عليهم ربّك إطلاعة فقال: ماذا تبغون؟. فقالوا يا ربَّنا: وأيُّ شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ؟ ثمَّ عاد عليهم بمثل هذا، فلمَّا رأوا أنَّهم لا يُتركون من أن يسألوا قالوا: نريد أن تردَّنا إلى الدُّنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرَّة أخرى لما يرون من ثواب الشهادة فيقول الرَّب جلَّ جلاله: إنّي كتبت أنَّهم إليها لا يُرجعون».[1]

ويؤكّد هذا المعنى قوله تعالى في سورة الحديد:﴿وَالشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ (الحديد:١٩). وحسبهم منزلة عند الله أنَّهم في مصاف الأنبياء والصِّدِّيقين ممن يُخفَّف عنهم الحساب ويُعجّل لهم في هول المحشر يقول

---

١ - رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود في كتاب الجهاد، باب بيان أنّ أرواح الشهداء في الجنة، حديث ١٨٨٧، (١٥٠٢/٣).

تعالى:﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (الزمر:٦٩).

ودون الشَّهادة في سبيل الله لنصرة الحق والدّفاع عنه وما يدّخره الله للشهيد من المغفرة والرِّضوان فإن الباقين من المؤمنين على قيد الحياة لا تخطئهم مصائب الدّنيا ونكباتها، فقد اقتضت حكمة الله أن يبلوهم بها بلاء اختبار وامتحان لتُعْلَم أحوالهم علم معاينة في واقع الناس، لأن الله لا يخفى عليه شيء من أحوال خلقه، قال تعالى مخاطبا المؤمنين عموما وفي طليعتهم الصَّحابة الكرام: **﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾**:

أكّد الله الخبر بصيغة القسم في صيغة المضارع ﴿لَنَبْلُوَنَّكُم﴾ ليوطّنوا أنفسهم على ما يخفّ طريق الإيمان ونصرة الحق من المصائب والمخاطر، ولا ينافي ذلك ما وعدهم الله به من النصر والتمكين، ومن نعيم الدنيا وعزّة السلطان، لأن طريق المجد ليس مفروشا بالورود. يقول الشاعر:

ولا تحسبنّ المجد شهـــدا أنت آكله ولا بد دون الشـــهد مـــن إبر النَّحل

و يقول أيضا:

لا يسلم الشَّرف الرفيع من الأذى حـــتى يـــُراقَ عـــلى جـــوانبه الدّم

وفي هذا الإخبار بالابتلاء للمؤمنين تربية مثلى لهم ليعلموا أن إتمام نعمة الله عليهم لا يعني تعطيل سنة الله في خلقه بوقوع بعض المصائب والنكبات

لتمحّص النفوس بالرّضا بقضاء الله، وتزداد ثباتا في إيمانها، لأن المصائب تربّي الأفراد والأمم، وجيء بكلمة "شَيْءٍ" و" مِن" التبعيضية للتهوين من شأن تلك المصائب التي تقتضيها سنة الحياة، وأنها ليست للسخط والانتقام، وللخوف والجوع أسبابهما التي يمكن للإنسان التخفيف من آثارهما في حياة الفرد والمجتمع، بما يحفظ التوازن البيئي والاجتماعي، ولقد درج الماديّون أن يصفوا النّشاط الإنساني في ذلك "صراعا مع الطبيعة"، ولكن القرآن الكريم يربط كل الظواهر الطبيعية بالإرادة الإلهية، وأن ذلك يتم بحكمة بالغة وتقدير دقيق يقول تعالى في سورة الشورى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (الشورى:٢٧).

وهنا يأمر الله رسوله بأن يبشّر الصّابرين، ويصف لهم الدّواء النّاجع في مواجهة تلك المصائب فيقول: **﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾**:

لا شكّ أنّ المبشَّرين هم المؤمنون، ولو اقتصر وصفهم على الصّبر وحده لكفاهم شرفا ورفعة، ولكن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا...﴾ الآية، يفيد أن نوعية صبرهم ممتازة بما يتمتعون به من يقين بحكمة الله في تصريف قضائه وقدره، وبما يجدونه من رضا تام بما يأتيهم من الله، إيمانا منهم بأنهم ملك له وأنهم صائرون إليه، فهم إذ يسترجعون بقولهم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ يعبرون عن اعتقادهم الصّادق بمآبهم إلى الله وأنهم في الدنيا يحتسبون

حياتهم كلها لله، ومن كان كذلك فلا يمكن أن يجزع بما يصيبه اعتقادا بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أروح هذه الجملة على النَّفس المؤمنة سيما عند الصَّدمة الأولى، إذ هي المحكّ الدَّقيق لقوة الصَّبر والإيمان، يقول الرَّسول ﷺ: **«إنَّما الصَّبر عند الصَّدمة الأولى»**.[١]، وليس معنى ذلك أن يفقد الإنسان كلّ حسرة في قلبه، أو حتّى دمعة من عينه عند ما تلمّ به مصيبة، لأنَّ ذلك من قساوة القلب وهي مذمومة، بل المطلوب من المؤمن أن لا يندّ به الحزن والأسى حتى يتجاوز بذلك الحدود المشروعة فيسخط المقدور، وقد ثبت عن رسول الله كما روي في الصحيحين:**« أنه بكى عندما حضَرَ الموتُ ولده إبراهيم وقيل له: أليس قد نهيتنا عن ذلك ؟. فأخبر أنها الرَّحمة، وقال: إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون »**.[٢]

ثم جيء بهذه الجملة لبيان الجزاء المبشر به فقال تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾:

والإشارة للتنبيه على أن المشار إليهم هم الموصوفون بما سبق، وأنهم

---

١ - رواه البخاري عن انس بن مالك في كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، حديث ١٢٢٣، ١/ ٤٣٠. ورواه مسلم عن أنس بن مالك في كتاب الجنائز، باب في الصبر على المصيبة، حديث ٩٢٦، ٢/ ٦٣٧.

٢ - رواه البخاري عن أنس بن مالك كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «إنّا بك لمحزونون»، حديث ١٢٤١، ١/٤٣٩.

جديرون بصلوات الله ورحمته، والصلاة من الله بمعنى التزكية والمغفرة وإعلاء المنزلة، وعطفت عليها الرحمة لاستكمال حسن الجزاء بما يحصل لهم من الطمأنينة والرضا وذلك هو الخير الذي لا يكون إلا للمؤمن في حالة السَّرَّاء والضَّراء من الشكر والصبر كما وصفه رسول الله، وذلك من كمال هداية الله لهم إلى معرفة الحقّ والأخذ بأسبابه، فهم لا يعترضون على الله في ما يقدِّر لهم، وليسوا ممن قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج:٦٦).

والله أعلم.

بِهِمَا﴾: الحجّ لغة القصد، وشرعاً قصد بيت الله الحرام لأداء مناسك الحجّ المعروفة. اعتمر من العمرة، وهي لغة: الزّيارة، وشرعاً أداء مناسك العمرة، ليس فيها وقوف بعرفات ولا بمزدلفة ولا بمنى، وهي لا تتحدّد بزمان معيّن، بل وقتها كلّ أيّام السّنة؛ فلا جناح: لا إثم أن يطّوّف، أصله يتطوّف أي تكرار التّطواف، والمراد به السّعي بينهما لسبعة أشواط. ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾: تطوّع لغة الإتيان بالفعل طوعاً لا كرهاً، فأُطلق على التّبرّع بالخير، والإكثار من الطّاعة زيادة على الواجب. ﴿إِنَّ الذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾: الكتم والكتمان ترك إظهار الشّيء قصداً مع مسيس الحاجة إليه، والمقصود بهم علماء اليهود من البيّنات كآية الرّجم ونعوت الرّسول. ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾: يبعدهم الله من رحمته. ﴿وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾: من الإنظار أي الإمهال، أو هو من النّظر بمعنى الانتظار.

ج)- التّعريف بالصّفا والمروة:

هما اسمان لجبلين متقابلين قرب المسجد الحرام، وبينهما مسافة سبعمائة وسبعين ذراعاً، وطريق السّعي بينهما يمرّ حذو جدار المسجد الحرام، فأمّا الصّفا فهو رأس نهاية جبل أبي قبيس، وأمّا المروة فهو رأس منتهى جبل قُعيْقعان، والحكمة في شرع السّعي بينهما للحجّاج والمعتمرين هي التّذكير بنعمة الله على هاجر أمّ إسماعيل حين ضاق بها الأمر في عطشها وعطش ولدها إسماعيل عليه السلام فأغاثها الله تعالى بالماء الذي أنبعه من "زمزم"، ليعلم الخلق أنّه سبحانه وإن كان يبتلي أولياءه في الدّنيا بأنواع المحن، فإنّ فرجه قريب ممّن استغاث به ولاذ إليه، وهو القائل: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ

السُّوءَ﴾ (النمل:٦٢).

د)- أوجه القراءة:

﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾: قرأ الجمهور ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ﴾ بصيغة الماضي، وقرأه حمزة والكسائي ويعقوب وخلف ﴿ وَمَن يَطَّوَّعْ﴾ بصيغة المضارع وجزمه مع ياء الغيبة.

هـ)- البيان والتّفسير:

في معرض محاجّة أهل الكتاب والمشركين في أمر تحويل القبلة، وما في ذلك من نعمة كبرى على المسلمين، وتضمّن الآيات السّابقة للبشارة بتطهير المسجد الحرام من أرجاس الشّرك، في معرض ذلك كلّه تجيء هذه الآيات شديدة الاتّصال بما قبلها، لأنّ السّعي بين الصّفا والمروة من شعائر الحجّ، يذكّر المسلمين بإتمام نعمه عليهم بتحويل القبلة إلى المسجد الحرام، على ما ذكره تعالى في قصّة بناء الكعبة، وكان السّعي بين الصّفا والمروة من شعائر إبراهيم، لأنّهما من آثار امرأته هاجر وولده إسماعيل حين بلغا أعلى الدّرجات بالصّبر على البلوى، فأغاثهما الله بماء " زمزم"، وهكذا يتمّ انسجام النّظم في ترتيب الآيات، قال تعالى:

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾:

التّأكيد على كون الصّفا والمروة من شعائر الله يدلّ على نوع من التّردّد والشّكّ عند المخاطبين من كونهما كذلك، إذ روى الإمام البخاري عن أنس

رضي الله عنه قال:« **كنّا نرى أنّهما من أمر الجاهلية، فلمّا جاء الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله ﴿إنّ الصفا والمروة...﴾**»[1]، وقول أنس : كنّا نرى أنّهما من الجاهلية ينبني على ما أثبته الرّواة بأنّ عبد المطّلب عندما جدّد حفر" زمزم" نقل صنمين (إساف ونائلة) كان العرب يذبحون لهما قرب الكعبة، فنقل"إساف" إلى الصّفا و"نائلة" إلى المروة، ثمّ أحدث المشركون أصناماً صغيرة بين الجبلين، وذلك هو سبب تحرّج المسلمين من السّعي بينهما، فبيّن الله تعالى أنّ الصّفا والمروة من شعائر الله التي يجب أن تُعظّم، أي هي من أعلام دينه.

ومن جملة المناسك التي طلب إبراهيم من ربّه أن يريها له ولذرّيته في دعائه عند رفع قواعد البيت: ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا﴾، ويكفي ما لهذين الجبلين من القداسة والشّرف وصفهما بأنّهما من شعائر الله، ولا يزيل تلك القداسة عن البيت الحرام بكلّ ما فيه من المقدّسات ما كان يرتكبه الجاهليون فيه من أمور الشّرك وأرجاسه، ولمّا كانت تلك الأماكن المقدّسة مواقيت الحجّ والعمرة، وقد أزال الرسول من مناسكها كلّ ما يمتّ إلى الجاهلية، جاء التّفريع بذكر فعل تلك العبادة، وأنّ السّعي بين الصّفا والمروة من جملة تلك المناسك، فلا يريب ولا يتحرّج الحاجّ أو المعتمر في السّعي بينهما، بعد أن بيّن الله أنّهما من شعائر الله، وهو القائل: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحجّ:٣٢).

والتّعبير بنفي الإثم عن فعل كذا، ظاهر في الدّلالة على الإباحة للسعي

---

١ - رواه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله تعالى ﴿ إنّ الصفا و المروة...﴾، حديث ٤٢٢٦، ٤/ ١٦٣٥.

بينهما، وذلك لإزالة ما عرض للمسلمين من التّردّد بسبب فعل الجاهليين، وتلك الحالة تقتضي ذلك التّعبير، ولكنّ إخبار الله تعالى عن كونهما من شعائر الله يقتضي وجوب السّعي بينهما للحاجّ والمعتمر، ولذلك اختلفت آراء الأئمّة في حكم السّعي بينهما، وأغلب الفقهاء على أنّه واجب، ويبقى الخلاف في كونه يبطل الحجّ والعمرة بتركه، أولا يبطل وينجبر بدم، خلاف بين الفقهاء يُطلب في مظانّه.

وقوله: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾، والتّطوّع فيه معنى التّبرّع بالزيادة في الطاعة، وهو تذييل لحكم عام بعد ذكر حكم السّعي، ويشمل كلّ أنواع الطّاعات يتطوّع بها المؤمن بعد أدائه للواجب منها، فإنّ الله يجازيه عن ذلك خيراً، فلا يُضيع أجر المحسنين وهو عليم بما في الصّدور من المقاصد والنّوايا، وفي وصفه تعالى بـ"الشّاكر" على النعمة تعبير تمثيليّ لتعجيل الثّواب وتحقيقه مبالغة في إحسان الله وتلطّفه بعباده.

ثمّ يعود السّياق إلى مجراه من محاجّة أهل الكتاب والمشركين فيقول تعالى: ﴿**إِنَّ الذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ**﴾:

فالآية وإن نزلت في شأن علماء اليهود فهي عامّة في حكمها، تتناول كلّ من كتم علمه بما أنزل الله من البيّنات والهدى- أي كلّ ما يتّصل بأمور الدين من الدلائل العقلية والنقلية- لا يجوز إخفاؤه أو كتمانه، وذلك بمحوه أو تبديله وتحريفه، أو حتّى بتأويله وتفسيره بغير معناه، كما فعل اليهود والنّصارى بتحريف الكَلِم عن مواضعه وكتمان ما يعرفونه من أوصاف الرسول والبشارة به في كتبهم.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ للدلالة على انتفاء عذرهم في ذلك الكتمان، لأنّه أمر قد بيّنه الله للناس في الكتاب -أي في التوراة والإنجيل وما يلحق بهما من كتب أنبياء بني إسرائيل-، ويُحتمل أن يراد بالكتاب بيان ذلك في القرآن فيكون المراد بالنّاس أمّة محمد ﷺ، وينصبّ ذنب الكتمان أكثر على أولئك الذين يدركون ما بيّنه الله، ثمّ يكتمون على غيرهم ما عرفوه من الحقّ، وهذا ينطبق على كلّ العلماء في كلّ زمان ومكان، فهم تبع لعلماء السّوء من بني إسرائيل.

﴿أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾: الإشارة بالبعيد لاحتقار شأنهم، وللدلالة على أنّهم أحرياء بذلك الحكم، وهو إبعادهم عن رحمة الله، وإظهار لفظ الجلالة في مكان الإضمار هو لتفخيم الحكم، ولعن اللاّعنين هو بمعنى الدّعاء عليهم، والتّعريف فيه للاستغراق، يشمل ما فصّله الله في الآية اللاّحقة: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، وقيل: حتّى الجمادات تلعنهم والله يعلم منطقها وتسبيحها، والتّعبير بجمع السلامة تنزيل لها منزلة العاقل.

ومع هذا الوعيد الشّديد على كتمان الحقّ، يفتح الله باب الرّجاء للذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فيقول تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾: فلتغيير حكم الوعيد على الكاتمين لابدّ من توفّر ثلاثة شروط:

أ- التّوبة النّصوح: وهي النّدم على فعل القبيح والتّعهّد بعدم العودة إليه مستقبلاً.

ب- يكون إصلاحهم لما أفسدوه بالصّدق في العمل علامة على صدق

تلك التوبة.

ج- البيان الصادق لما كتموه، لأنّ استدراك ما ضيّعه التّائب أمر لابدّ منه في قبول تلك التوبة، سيما ما تعلّق به حقّ الغير.

والاستثناء من حكم الوعيد في الجملة السّابقة كاف لإخراج التّائبين منه، غير أنّ قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ جاء للدلالة على فائدة إثبات قبول توبتهم من الله تعالى، وذلك أمر زائد عن متعلّق التوبة في إسقاط الذنب، وذلك من فضل الله وكرمه على عباده لأنّه هو التّواب الرحيم، بصيغة المبالغة للتنبيه على رحمته الواسعة وكرمه العظيم، غير أنّ المصرّين الرّاضين بالكفر ابتداءً فلهم من المولى هذا الإنذار الشّديد في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ اوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾:

فإلى جانب الكاتمين للحقّ المستحقّين اللّعنة صنف آخر من النّاس هم أشدّ إيغالاً في استحقاق اللّعنة وهم المصرّون على الكفر والشّرك، فإذا كانت التوبة أبوابها مفتّحة لأولئك الكاتمين، فإنّ هؤلاء منغلقون على كفرهم وإصرارهم ابتداءً، فلا مطمع في منفذ لنور الحقّ إلى قلوبهم.

وللمفسّرين احتمالان في بيان المراد من هذا الصّنف:

أ- أنّهم أولئك المذكورون في الآية السابقة إذا أصرّوا وماتوا على ذلك.

ب- أنّهم الذين كفروا على العموم، وهو راجح لما أفاده ذكر وصفهم

بالكفر ﴿إِنَّ الذِينَ كَفَرُواْ﴾، ويؤيّده كذلك تنويع أصناف اللاّعنين هنا، والتّنصيص على دوام العذاب ونوعيته، إذ المقصود باللّعنة هنا لازمها من عذاب جهنّم- والعياذ بالله- حيث لا يجدون مهلةً للنّدم ولا للتّوبة، وبالتّالي لا يؤجّل عنهم العذاب ولا يخفّف كشأن عقوبات الدّنيا، وذلك غاية في تيئيس الكفّار وانقطاعهم عن رحمة الله.

والله أعلم.

وحدانية الله ورحمته، وآيات قدرته

أ)- النّصّ:

وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾: الإله هو المعبود مطلقاً -في كلام العرب-، ولتعدّد المعبودات عندهم جاء ذكرها في القرآن بالجمع " آلهة"، قال تعالى:

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُم﴾ (الأنبياء:٦٨)، ووصفه بالوحدانية هو الحقّ، لأنّه هو المستحقّ للعبادة. ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾: أي الكامل الرحمة، إذ هو المنعم بجلائل النّعم كلّها. ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: أي يتعاور النّور والظّلمة على وجه الأرض، ويختلفان بالزّيادة والنّقصان ما بين الفصول. ﴿وَالْفُلْكِ﴾:بالضّم اسم للسفينة، يستوي في لفظه المفرد والمؤنّث، الأصل فيه التّذكير، ويجوز تأنيثه على تأويله بمعنى السّفينة. ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾: البثّ في الأصل نشر ما كان خفيّاً، ثمّ استُعمل في انتشار الشّيء بعدما كان كامناً، كما في هذه الآية، وبثّ الدّوابّ في الأرض، هي خلق الكائنات الحيّة التي تتحرّك على الأرض مهما كان نوعها وحجمها، وغلب استعمال هذا اللفظ على ما يُركب ويُحمل عليه. ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾: تقليبها لكلّ الجهات مع تنوّعها في الحرارة والبرودة وفي اليُبس والرّطوبة. ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ﴾: تسوقه الريح من موضع إلى موضع بتقدير الله.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾: قرأه الجمهور ﴿الرِّيَاحِ﴾ بالجمع، وقرأه حمزة والكسائي ﴿الرِّيحِ﴾ بالإفراد على إرادة الجنس.

قيل: إنّ الرياح بصيغة الجمع يكثر استعماله في ريح الخير، وأنّ الريح بالإفراد يكثر استعماله في ريح الشّرّ، وفي القرآن ما يعضّد ذلك كقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ (الحجر:٢٢) ، وقوله: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الأحقاف:٢٤)

د)- البيان والتّفسير:

بعد بيان حال المشركين المصرّين على كفرهم حتّى الموت، وما ينالهم من العذاب الشّديد بالطّرد من رحمة الله، عطف الله على ذلك ما يزيل آثار الكفر والشّرك باعتقاد وحدانية الله وإثبات ذلك بمجالي رحمته الكاملة وأدلة قدرته في الآفاق، فقال جلّ من قائل: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾:

ضمير الخطاب عامّ لكلّ من يسمع القرآن ماضياً أو مستقبلاً، ويندرج فيه المشركون المنصوص عليهم في الآية السّابقة، لأنّ الشّرك فساد في التّصوّر يكون عن جهل أو تقليد، فساد التّصوّر لحقيقة الألوهية، والتي تتركّز على الوحدانية في كلّ ما يتّصل بذات المعبود من صفات وأقوال وأفعال، لأنّ التّصوّر الإيماني عند البشر، وإن كان يقوم على أصل الفطرة الإنسانية في الاعتقاد بوجود الإله، غير أنّ التّراكمات التي توالت عليه، قد أدخلت عليه ما شوّش على النّاس تصوّرهم، فاختلفوا في إدراك ما يجب أن تكون عليه الذّات الإلهية العليّة من الكمال المطلق والإرادة المطلقة في تدبير شؤون الملك والخلق، فإلى جانب تركيز الوحدانية في كلّ ما يتّصل بوجود الإله بمثل تلك المؤكّدات الكثيرة يخصّص وصفه بكمال الرحمة ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، وهو المناسب لكمال الألوهية والرّبوبية، وبمجالي تلك الرّحمة لا يحصيها العدّ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم:٣٤)، وأعظمها قدراً ونفعاً نعمة الخلق والإيجاد، ونعمة الهداية والإرشاد.

والإنسان -بحكم الإلف والعادة- قد يغفل عمّا يحيط بوجوده من

عجائب الزّمان والمكان، وذلك لحصوله على حرّية التّحرّك والإرادة في حيّز ضيّق من الزّمان والمكان، وقد ينسى ارتباطه الحتمي بالوجود الكبير في أبعاده الزّمانية والمكانية التي لا يعلم مداها إلاّ الخالق العظيم، ولذا نجد القرآن الكريم يركّز كثيراً في تصحيح التّصوّر الإيماني على لفت الأنظار والعقول إلى عجائب صنع الله في الأنفس والآفاق، من مثل قوله تعالى هنا: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ التِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَآءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾.

جاء ذكر هذه الآيات الدّالّة على عظمة الخالق للتّدليل والبرهنة على تلك الحقيقة الوجودية من وحدانية الإله وكمال رحمته، وقد أكّد الجملة بـ"إنّ"، وتعدّدت أسماؤها متعاطفة، ثمّ أكّد خبرها بـ"اللاّم" لزيادة الاهتمام بمضامين الجملة، والتي تتمثّل في تعداد تلك الظّواهر الكونية العجيبة، والنّاس وإنّ تفاوتت مداركهم في فهم تفاصيلها، فإنّهم غير محرومين من الإدراك الكلّي لتلك الظّواهر بدءاً بالكون الفسيح في فضائه اللاّمتناهي وفي سعته وامتداده، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ، وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ (الذاريات:٤٧-٤٨).

أ- ﴿**خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾: مجال كبير للنّظر والتّأمّل، وإيراد السّماء بصيغة الجمع لتشمل كلّ الأجرام العظيمة التي تدور في قبّة السّماء، سواء تلك التي ضبطها الإنسان وحدّد أبعادها في النظام الشمسي، أو ما هو بعيد ومغيّب في المجرّات الأخرى، ففي تناسقها ونظامها البديع أدلّة واضحة

لقدرة الله وعظمته، فقد خطا الإنسان خطوات عملاقة في علوم الفضاء لسبر أغواره وإدراك بعض أسراره، واقتنع أغلب العلماء بالقوّة الواجبة الوجود والتي تدبّر أمره بقدرها وعظمتها، وصدق وعد الله في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصّلت:٥٣).

ولا تقلّ مكوّنات الأرض دلالة على تلك العظمة، كيف مهدها الخالق لحياة الإنسان، وكيف عمّرها بمختلف الكائنات، كما تشير إليه الجملة اللاّحقة، وبالرغم من كون الأرض في متناول الإنسان اكتشافاً لمجاهيلها وتسخير طاقاتها، فما تزال جوانب منها تتطلّب الكشف والبحث.

ب- ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: في تعاقبهما لتعاور النور والظلمة وتواليهما على وجه الأرض، توزيعا على الجهات الأربع، وامتدادا وضمورا ما بين الفصول الأربعة في نظام دقيق فيهما دليل محسوس -أيضا- لرحمة الله وفضله و لم يخف سبب ذلك على الإنسان وأنّه من آثار دوران الأرض حول نفسها وحول الشّمس.

تتم العمليّة في أربع وعشرين ساعة في ميزان مضبوط بالدّقائق والثّواني، وكم ذكّر القرآن بهذه الظّاهرة الطّبيعيّة، إذ أن في اختلاف الليل والنهار فوائد جمّة لحياة الكائنات، ما بين سكون وحركة، وانزواء وانتشار، في فترات متقاربة ومتجدّدة، لا يكون معها ملل بطول الانتظار، كما تبيّنه آيات القصص في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ، قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ (القصص:٧١-٧٢).

ج- ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾: والفلك صنعها الإنسان قديماً، واحترف بصنعها سيدنا نوح عليه السلام بإلهام من الله، ليسخّرها قارباً للنجاة من هول الطوفان، ولمّا كانت صناعة الفلك في حدّ ذاتها ليس فيها من غرابة لأنّها من فعل الإنسان، جاء وصفها بما يضفي عليها طابع الغرابة والتدليل على قدرة الله، بأنّها تجري في البحر وتحمل ما ينفع الناس، فخلق البحر بتلك العظمة الرّهيبة والكيفية العجيبة، وبكل ما يعجّ به من الكائنات، وما يتبخّر من مياهه لتكوين السّحب، وترطيب المناخ إلى غير ذلك من الفوائد الأخرى، ذلك آية الآيات في عظمة الخلق، وإسباغ النّعم على الخلائق، ثمّ تسخير البحر من طرف الإنسان، بجعل السّفن تمخر عبابه حاملة على متنها ما ينفع النّاس من أنواع المؤن والبضائع تصل القارّات بعضها إلى بعض، وإلى غير ذلك من أنواع المنافع الأخرى التي يدلّ عليها عموم الآية ﴿بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾،

وهذه النعمة أشاد القرآن بها كثيراً، سيما سوق السّفن بالرياح المختلفة في قوّة دفعها وفي اتّجاهات هبوبها، فهي وإن استعاض الإنسان بها محرّكات الدّفع البخاري أو النّووي، فما تزال الرياح وضبط مساراتها وقوّتها من المعارف البحريّة اللاّزمة لربّان السّفن وطاقمها، وآية الشّورى جمعت بين الأمرين في تصريف الرّياح، وكون ذلك من آيات عظمة الله فقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ، إِنْ يَّشَأْ يُسْكِنِ الرِّيَاحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ، أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى:٣٢-٣٣-٣٤).

د- ﴿وَمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَآءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ: ظاهرة تلبّد السّحب وأسباب تكوّنها، ونزول الماء منها على وجه الأرض، أصبحت هي الأخرى معلومة لدى الإنسان، مضبوطة على التقريب بوسائل الإرصاد الجوّي، غير أنّ الإنسان ما يزال عاجزاً وسيظلّ كذلك عن التّحكّم في تسخير تلك الظّاهرة وفق رغباته، لأنّ الماء والهواء ونور الشّمس من خزائن الله التي لا يمكن للإنسان أن يمتلكها أو يسخّرها كما يشاء، وذلك مظهر آخر لرحمته تعالى وفضله، يقول تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيَ إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً﴾ (الإسراء:١٠٠).

لقد ربط الله كنه الحياة بوجود الماء فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُومِنُونَ﴾ (الأنبياء:٣٠)، وتعدّد التّذكير بهذه الظاهرة العجيبة، التي ترتبط بأعظم مقوّم لوجودنا مما لا يمكن جحوده أو إنكاره حتّى من أشدّ الملحدين تعنّتاً وجحوداً، وكثيراً ما يدلّل بها القرآن الكريم على قدرة الله في إعادة الخلق للمرة الثانية في يوم البعث والنّشور كقوله تعالى في سورة الروم:﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الروم:٥٠)، ولئن كان الماء عنصراً هامّاً في قوام حياة الكائنات، فإنّ علوم الحياة وعلوم المادّة ما تزال عاجزة عن معرفة بذرة الحياة كيف تتفتّق في المادّة الجامدة لتجعل منها كائناً حيّاً بكلّ خصائصه ومميّزاته، فسبحان الذي خلق فسوّى وقدّر فهدى.

هـ- ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ﴾: والمعجزة لا تكمن في نشوء الريح أو تكوين السحاب، بل في تصريف كليهما على قدر معلوم، فاتجاه الريح ونوعيته ضروري لتصريف

السحاب، حتّى يتوزّع على كلّ بقاع الأرض وفق نظام معيّن يختلف باختلاف المناطق، وكلّ من الريح والسحاب قد تنجرّ عنهما كوارث تدمّر وتخرّب ولا يملك الإنسان دفعاً لها بوسائله المحدودة لولا ألطاف الله، وقد أشار القرآن إلى تلك الكوارث الطّبيعية حتّى يجعل المؤمن قويّ الارتباط بمولاه في جلب النّفع ودفع الضّرّ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ الأَرْضِ أَ.لَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (النمل:٦٢).

و- ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: هذه الدّلائل والعلامات مبسوطة في صفحة الكون القريب منّا نعيشها ونشاهدها، ولكن الذين يتفاعلون معها هم الذين يدركون أسرارها، ويستوعبون حكمها ومنافعها باستخدام عقولهم وإدمان النّظر في ملكوت السّماوات والأرض لمعرفة عظمة الخالق، ولا شكّ أنّ العلم بأسرار الخليقة يقوّي الإيمان ويخدمه، إلاّ من ختم الله على قلبه وسمعه وبصره، ولذلك يستنهض القرآن همم المؤمنين للنظر والبحث من مثل قوله تعالى في سورة يونس: ﴿قُلُ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُومِنُونَ﴾ (يونس:١٠١).

فاللّهم علّمنا ما جهلناه، واستعملنا فيما علمناه.

والله أعلم.

حال المشركين مع آلهتهم في الدّنيا والآخرة

أ)- النّصّ:

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾: جمع ندٌّ، النّظير والمماثل من دون الله، أي أشركه مع الله، والمراد بالأنداد هنا وفي آيات أخرى من القرآن الأصنام، ومن خلال الأصنام ما ترمز إليه من السّادات والكبراء، أو من الملائكة والجنّ. ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾: والحبّ والمحبّة هي ميل النّفس إلى ما هو حسن عندها بمعاينة أو سماع أو حصول نفع محقّق أو موهوم، لأنّ المحبّة لا تنحصر في ميل النّفس إلى المرئيات، والمؤمن يحبّ الله وإن لم يره مثلاً. ﴿إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾: "إذ" هنا بمعنى "إذا"، بدليل المضارع بعدها ﴿يَرَوْنَ﴾ بمعنى يشاهدون، وسُلّطت الرّؤية على المعقول الغيبي لإنزاله منزلة المحسوس وجواب " لو" محذوف لقصد التّفخيم والتّهويل. ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: بدل اشتمال

من العذاب، أو من الذين ظلموا، أو على حذف لام التّعليل، لأنّ القـوة لله جميعاً، أو بتقدير: "لعلمت أنّ القوّة لله"، وانتصب ﴿جَمِيعًا﴾ على التّوكيـد لقوله ﴿القُوَّةَ﴾، بمعنى جميع جنس القوّة ثابت لله. ﴿إِذْ تَبَرَّأَ﴾: التّبرّأ المبالغة في التّنصّل والتّباعد ممّن يكره قربه وجواره تنزّهاً منه. ﴿تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾: التّقطّع الانقطاع الشّديد، والأسباب جمع سبب وهو الحبل الذي يُمدّ ليرتقى عليه في النّخلة أو السّطح، ثمّ أُطلق لكلّ ما يُتوصّل به إلى مقصد معنوي من مختلف الصّلات والعلاقات. ﴿لَوَ اَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾: الكرّة الرّجع إلى محلّ كان فيه الرّاجع، وهي اسم مرّة من الكرّ، والمراد بها الرّجوع إلى الدّنيا. ﴿حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾: الحسرة هي الحزن في ندامة وتلهّف، وهي أخصّ من النّدم، وقيل: هما مترادفان.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَلَوْ تَرَى الذِينَ ظَلَمُواْ﴾: قرأ نافع وابن عامر ويعقوب ﴿ وَلَوْ تَرَى﴾ بتاء فوقيّة، وهو خطاب لغير معيّن، ويجوز أن يكون الخطاب للرسول، فالذين ظلموا على الاحتمالين مفعول ترى، وقرأه الجمهور ﴿يَرَى الذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بتحتيّة، ويكون ﴿الذِينَ ظَلَمُواْ﴾ فاعلاً ليرى، حُذف مفعوله لدلالة المقام عليه.

﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: قرأه الجمهور بفتح همزة " أنّ "، على أنّه بدل اشتمال من العذاب أو ﴿مِنَ الذِينَ ظَلَمُواْ﴾، أو يكون على حذف لام التّعليل، أي لأنّ القوّة لله جميعاً، وقرأه أبو جعفر ويعقوب: ﴿إِنَّ القُـوَّةَ لله﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف البياني، وقرأ ابن عامر وحده: ﴿إِذْ يَـرَوْنَ العَـذَابَ﴾

بضمّ الياء، أي يريهم الله العذاب.

د)- البيان والتّفسير:

بعد أن بيّن الله تعالى في الآية السّابقة أنّ الاستدلال على وحدانية الله وقدرته من خلال ما خلق الله في السماوات والأرض لا يعقله إلاّ العالمون، ذكر هنا شأن الذين لا يهتدون بتلك الأدلّة، فعطف على الآية السّابقة قوله تعالى هنا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾:

تقديم الجار والمجرور ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ مؤذن بالتّعجيب من شأنهم إذ هم بذكر شأنهم في حبّهم للأنداد التي يشركونها مع الله في الحبّ والتّعظيم هم بذلك منحرفون عن الفطرة السّليمة، والأنداد جمع ندٍّ، وهو المثل المنازع، وإن كان المتبادر أنّها الأوثان التي عبدها الجاهليون وقت التّنزيل، فإن تفنّن النّاس في وسائل ما سمّاه الرّسول بالشّرك الخفيّ، يرجّح ما ذهب إليه جمهور المفسّرين أنّ الأنداد أعمّ من الأصنام والأوثان، فيشمل كلّ ما عبده النّاس من دون الله، وتوسّلوا إلى تلك المعبودات في طلب حاجاتهم، ويؤيّد ذلك قوله تعالى بعد ذلك: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ﴾ أي الإتيان بالجمع للعقلاء.

والحبّ عاطفة نفسية يميل بها الإنسان إلى من يحبّه لما يجده فيه من الحسن والكمال، وما يحصل عليه من النّفع المحقّق أو الموهوم، وغالباً ما تكون دوافع ذلك الحبّ في ما هو مشاهد محسوس لما فيه من الإغراء والزّينة، وقد عبّر القرآن على ذلك ممّا هو من طبيعة البشر كما جاء قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَآءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ

الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران:١٤)، والمؤمن لا يعدل بحبّ الله شيئاً من مخلوقاته، فهو وإن كان لا يرى الله بعين بصره فهو يراه بعين بصيرته، ويعظّمه لما فيه من صفات الكمال والحسن المطلق، ولما حباه من فضله ورحمته، وقد ضلّ أولئك المبطلون عندما ساووا حبّ آلهتهم الباطلة بحبّ الله في التّعظيم والتّقديس، مع أنّهم مقرّون بوجود الله، وأنّه الخالق الرّازق، فإنّ التّسوية التي يقتضيها التّشبيه بين الحبّين في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ ليس معناها التّساوي في ماهية العاطفة النّفسية، وإنّما المراد بها التّساوي في التّقرّب والتّعظيم والطّاعة، علماً بأنّ معتقدات المشركين في تلك الآلهة تختلف أحوالها ومشاربها، ولكنّها تتّفق في ذلك القدر المشترك من التّقديس والتّعظيم لها.

يقول الإمام ابن عاشور تعقيباً لمعنى تلك التّسوية في حبّ الأنداد وحبّ الله: "واعلم أنّ المراد إنكار محبّتهم الأنداد من أصلها لا إنكار تسويتها بحبّ الله تعالى، وإنّما قُيّدت بمماثلة محبّة الله لتشويهها، وللنّداء على انحطاط عقول أصحابها، وفيه إيقاظ لعيون معظم المشركين، وهم الذين زعموا أنّ الأصنام شفعاء لهم كما كثرت حكاية ذلك عنهم في القرآن، فنبّهوا إلى أنّهم سوّوا بين محبّة التّابع ومحبّة المتبوع، ومحبّة المخلوق ومحبّة الخالق لعلّهم يستفيقون، فإذا ذهبوا يبحثون عمّا تستحقّه الأصنام من المحبّة، وتطلّبوا أسباب المحبّة وجدوها مفقودة، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ (مريم:٤٢)، مع ما في هذه الحال من زيادة موجب الإنكار" انتهى.[1]

---

١ - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٢/ ٩١.

ثم قال تعالى: ﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، والتفضيل يقتضي أنّ شيئين اشتركا في صفة، وزاد أحدهما على الآخر فيها، فالمفضول هو محبّة المؤمنين لله، والمفضول عليه هو محبّة المشركين لأندادهم، قال أمير الشعراء:

ومن يعدل بحبّ الله شيئاً كحبّ المال، ضلّ هوىً وخاباَ

ذلك لأنّ محبّة المؤمنين لربّهم صادرة عن إيمان راسخ بجلال الله وقدرته، فهي محبّة خالصة لذاته تعالى، لأنّه أهل للمحبّة، لا تتزلزل بخواطر الشّكّ ولا تتزعزع لمفاجآت الطّوارئ، لأنّ المؤمن عظيم الثّقة بربّه مهما اختبره ببعض ما يضيق به، لأنّه يعتقد أنّ علمه بما وراء الظّواهر محدود، وأنّ الله وحده هو علاّم الغيوب، ومن ثمّ لا يستشرف هذا النّوع من الحبّ الإلهي إلاّ رضا المحبوب، فعلى قدر معرفة الله يتنامى ذلك الحبّ في قلب المؤمن، حتّى يكون الله ورسوله أحبّ إليه ممّا سواهما حتّى من النّفس التي بين جنبيه.

﴿وَلَوْ تَرَى الذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾: فإذا كان المؤمن معتدل المزاج متّزن النّفس إزاء العوارض المقلقة بفضل استقراره العاطفي بمحبّة الله، فإنّ المشركين على عكس ذلك لأنّهم اعتدوا على حقّ الله بلوثة الشّرك-وهو أفدح الظّلم- ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(لقمان:١٢)، وهم بالتّالي ظالمون لأنفسهم إذ أورثوها مهاوي الهلاك حيرة واضطراباً وضلالاً في الحياة الدنيا، وتفجّعاً وحسرةً عندما ينكشف الغطاء يوم القيامة، وذلك على قراءة ﴿يَرَى﴾ بالياء، وفي القراءة بالتّاء ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ فإنّ الخطاب للرسول ومن خلاله لكلّ من يقرأ القرآن ويصلح للرّؤية، ولزيادة التّهويل والتّفخيم حذف جواب " لو"، و﴿إِذْ يَرَوْنَ﴾، "إذ" بمعنى المضارع لأنّه للاستقبال، وإن كانت "إذ" للماضي في الأصل فإنّ

الإتيان بها للدلالة على قرب السّاعة لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا، وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ (المعارج:٦-٧)، والتقدير: لو يشاهد الذين ظلموا ما يكون يومئذ من عذاب لعلموا أنّ القوّة لله جميعاً، وأنّ الملك يومئذ لله وحده في الدنيا والآخرة.

وبما أنّ الواقع البشري في الحياة الدّنيا يقوم على التّجمّع والمخالطة، وما يترتّب على ذلك من الطّبقيّة والاختلاف في المستوى الحضاري والاجتماعي، فإنّ أهوال الموقف يوم القيامة تذوب فيه تلك الفوارق، فلا أنساب بين النّاس، ولا خلّة ولا شفاعة.

يقول تعالى: ﴿ **إِذْ تَبَرَّأَ الذينَ اتُّبِعُواْ منَ الذينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ، وَقَالَ الذينَ اتَّبَعُواْ لَوَ انَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**﴾:

إذ تبرّأ بمعنى في وقت التّبرّؤ، أو هي مفعول لأذكر، وإذا كانت علاقة المتبوعين بالأتباع علاقة منافع ومصالح لا تنبني على الحبّ والوفاء، فإنّ كلّ أسباب المناصرة والموازرة تنقطع بينهم بقطع النّظر عن نوعيّة المتبوعين أكانوا إنساً أو جنّاً أو ملائكةً أو شياطين، فإنّ أوصاف مشاهد يوم القيامة في القرآن تذكر التّبرّؤ والانفصام الذي يقع يومئذ بين الأخلاّء والأحباب كقوله تعالى في سورة الزّخرف: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف:٦٧).

وبما أنّ الخيبة هي أشدّ في نفوس الأتباع كانت لهم تلك الأمنية البعيدة المنال، أنّهم لو رجعوا إلى الدّنيا مرّة أخرى ليتبرّأوا من متبوعيهم كما تركوهم اليوم في الشّدّة والعذاب حتّى يكون الجزاء من جنس العمل، فيرون متبوعيهم

في شدّة وعذاب فلا يخلّصونهم كما فعلوا هم بأتباعهم يوم القيامة، ولكنّها أمانيّ يعلّلون بها أنفسهم، وهيهات أن تتحقّق، وعند انقطاع الرّجاء وعجز الحيل فليس لهم إلاّ الحسرات يتجرّعونها من جرّاء فظاعة أعمالهم، ومأواهم النّار خالدين فيها أبداً وما هم منها بمخرجين، والعياذ بالله.

والله أعلم.

تحريم الطّيّبات منشؤه وسوسة الشّيطان وتقليد الآباء

أ)- النّصّ:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا﴾: تتعيّن "من" هنا للتّبعيض، لأنّ المأكول هو بعضٌ من كل نوع من أنواع المأكولات، حلال:

هو ما أباحه الشّرع الحنيف ضدّه الحرام، وأمّا الطّيب: هو ما تستطيبه النّفوس بالإدراك السّليم المستقيم، بحيث لا يكون في تناوله ضرّ روحاني أو جسماني. ﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾: جمع خُطْوَة بضمّ فسكون، اسم لمسافة ما بين القدمين، وأمّا الخَطوة بفتح الخاء فهي المرّة من مصدر الخطو، وتُطلق على المخطُو من إطلاق المصدر على المفعول، واتّباع الخطوات تعبير تمثيلي، من اتّباع السّائر خطوات السّائرين في مسلك ما. ﴿يَامُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَآءِ﴾: السّوء ما يسوء وقوعه أو عاقبته، والفحشاء اسم مشتقّ من فَحُش إذا تجاوز الحدّ المعروف، ممّا ينكره الشّرع ويستقبحه، وهي أقبح وأشدّ من السّوء. ﴿أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾: أي ما وجدوهم عليه من أمور الشّرك. ﴿يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَآءً وَنِدَآءً﴾: النّعق نداء الغنم مكسور العين، وقيل: إنّ الدّعاء والنّداء نوعان من الأصوات للغنم، يدعوها الرّاعي فتقبل، ويزجرها برفع الصّوت فتزجر، ولا تعقل ممّا يقول شيئاً.

ج)- أوجه القراءة:

﴿خُطُوَات﴾: جمع سلامة، قرأه الجمهور بضمّ فسكون، وقرأه ابن عامر وقنبل عن ابن كثير وحفص عن عاصم بضمّ الخاء والطّاء على الإتباع، والإتباع يساوي السّكون في الخفّة على اللّسان.

د)- البيان والتّفسير:

من مظاهر الشّرك التي حاربها الإسلام تحريم المشركين على أنفسهم أو على أزواجهم أشياء من الحرث والأنعام ممّا هو حلال طيّب من خيرات الأرض، فناسب في سياق التّنديد بالشّرك وتشويه أحوال أهله ناسب أن يذكر

تلك المساوئ، بعدما لفت أنظار المخاطبين إلى التّأمّل فيما خلق الله في السّماوات والأرض، وما سخّر فيهما من وسائل الرّزق لمخلوقاته، وكلّها دلائل على وحدانية الله وقدرته فقال جلّ من قائل: ﴿**يَآ أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ, لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ، إِنَّمَا يَأمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾:

تتابع نداءان في هذا النّصّ والذي يليه، يمهّد الأوّل للثاني في وضع بعض الشّرائع لتنظيم حياة المجتمع المسلم، فالنّداء الأوّل ﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ موجّه لأمّة الدّعوة لتصحّح بعض الأخطاء التي هي من رواسب الجاهلية، في غياب الوعي بتقليد الآباء، وليس تقويم السّلوك وتغيير الذّهنيات بالأمر السّهل في مسار الدّعوات، ولذلك تضمّن البيان أمراً ونهيًا، فقد أمر الله أن يأكل النّاس ممّا في الأرض على العموم، واشترط أن يكون المأكول حلالاً طيّباً، والحلال هو ما أحلّه الشّرع الحنيف، وأمّا الطّيّب فهو ما تستطيبه النفوس السّليمة، وتنتفع به في الحفاظ على حياتها، فيخرج بهذين القيدين كلّ ما هو محرّم شرعاً، وما هو من الخبائث المُستقذرة، وأتبع الأمر بالنّهي فقال: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ والتّعبير تمثيليّ لوسوسة الشّيطان، كمن يتبع آثار خطوات السّائرين لبلوغ المقصود، والإنسان يحسّ بالخواطر الشّيطانية إذ تعتلج في نفسه، وقد تحتلّ كلّ أقطارها فتسدّ عليه منافذ الهداية، فإن لم يردعها بالوازع الإيماني والديني فإنّها تتغلّب عليه، وهذا الشّيطان المخلوق المتمرّد على الله على ما تقدّم بيانه في قصّة بدء الخليقة يقول عنه رسول الله: «**إنّ الشّيطان يجري من**

بني آدم مجرى الدّم في العروق »[1]، فنحسّ بآثاره السّيّئة في نفوسنا الأمّارة بالسّوء من غير أن نرى له تجسيداً ماديّاً، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾ (الأعراف:٢٧).

ومحاربة الوساوس الشّيطانية إنّما تكون بالمغالبة والمجاهدة، وتتطلّب الصّبر والإرادة من المؤمن حتّى يخنقها في مهدها، ويستعين لذلك بذكر الله وتقوية الصّلة به واستظهار هيبته وجلاله، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس:٧-١٠).

وقوله تعالى:﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تعليل للنهي، والعداوة بين بني آدم والشّيطان متقرّرة منذ بدء الخليقة، ردّدها آيات القرآن كلّما تعرّضت لقصّة آدم وخروجه من الجنّة، وذلك لإثارة داعية مخالفته والحذر منه كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿يَا بَنِي ءَادَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ (الأعراف: ٢٧)، وقال الإمام البوصيري:

وخالف النّفس والشّيطان واعصهما وإن هما محضاك النّصح فاتّهم

ثمّ أردف الله مزيداً من البيان للتعليل السّابق بذكر خسيستين للشّيطان بدافع عداوته للإنسان فقال:

---

١ - رواه مسلم عن أنس: باب بيان أنه يستحب لمن رؤى خاليا بامرأة وكانت زوجة أو محرما له أن يقول هذه فلانة ليرفع ظن السوء به، حديث ٢١٧٤ و ما بعده، ١٧١٢/٤.

ورواه البخاري عن علي بن الحسين، كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، حديث ١٩٣٣، ٧١٧/٢.

أ- ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَآءِ﴾: وكونه آمراً فهو في موقف المتسلّط المؤثّر في نفوس المأمورين، قد لا يملكون دفع أوامره إلاّ بعون من الله والعياذ به منه، وكلّ ما يأمر به من السّوء والفحشاء فهو منكر يزيّنه للنّاس بمختلف الحيل والدّسائس، قد لا يبدو لأوّل وهلة بأنّه شرّ وإثم.

ب- ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾: أي في أمور الأحكام التّشريعية من تحليل ما حرّم الله أو تحريم ما أحلّه، وبالأخصّ ما يتّصل بأصول العقائد ومبادئ القيم والأخلاق، وما أشقى البشريّة قديماً وحديثاً إلاّ افتيات الجاهليّة على الله والاحتكام إلى هواها نبذاً لشريعته، أو تأويلاً وتحريفاً لنصوصها، حتّى إذا دعا داعي الله إلى نهجه القويم أعرضوا عنه متذرّعين باتّباع ما وجدوا عليه آباءهم:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾:

الضّمير في ﴿لَهُم﴾ يرجع إلى متّبعي خطوات الشّيطان - وهم المشركون- المعرضون عن دعوة رسول الله، وإذ كان المقلّدون لا يزالون فاقدي الوعي ضعاف الشخصية، فقد جاء الأسلوب على طريق الحكاية عنهم لأنّهم أحطّ من أن يخاطبهم الله مباشرة، وأيّ انحطاط وسفاهة أشدّ ممّن يؤثر المألوف من العادات الفاسدة والتّقاليد البالية على ما أنزل الله من الهدى والنّور، ينير بهما سبيل السّالكين، ويضمن بهما سعادة الدّارين؟، ولذلك جاء الرّدّ الإنكاري في معرض التّعجّب من ذلك الموقف المشين فقال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾، أي أنّ اتّباع المقلّد لما وجد عليه آباءه حاصل في كلّ حال حتّى في تلك التي يكونون فيه على جهل مطبق

وضلالة عمياء، لا يستندون فيما هم عليه إلى دليل عقلي أو شرعي، ويجب التّفريق بين التّقليد الأعمى والاتّباع على بصيرة وهدى، ففي الأوّل تعطيل للمدارك وخنق لحرّية التّفكير، وفي الثاني تمحيص للأدلّة وقناعة ذاتية تستند إلى المنطق والحجّة، والمقلّد لا يعرف الحقّ إلاّ بالرّجال ممّن يقلّدهم، بينما المتّبع الباحث يجتهد لمعرفة الرجال بالحقّ الذي اقتنع به، وتبيّنه على هدى وبصيرة.

ولتشنيع التقليد الأعمى ضرب الله مثلاً فقال: ﴿**وَمَثَلُ الذينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾:

أظهر الله في ضرب هذا المثل صفة الكفر، لأنّها علّة العلل في ما تقدّم من الأعمال القبيحة من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾، فشبّههم بالذي ينعق على بهائمه يناديها لتتجمّع أو يزجرها فتزجر، وهي لا تعقل ولا تفهم ممّا يقوله شيئاً، إلاّ أنّها بحكم الإلف والعادة تأتمر لأوامر راعيها دونما إدراك، وكذلك شأن الكفر عند صاحبه يعميه عن النّظر في الدّلائل والبراهين، ويصمّه عن سماع صوت الحقّ وإن كان ناصعاً، ثمّ هو لا ينطق إلاّ بالسّفاهة والغواية، فشأن الكفّار كشأن الحيوانات العجماء، مسلوبة العقل، مسوقة بالزّجر والعصا.

أعاذنا الله من الكفر والضّلال، وأخرجنا من ظلمات الجهل والوهم والخبال.

والله أعلم.

الأمر بالأكل من الطّيّبات والشّكر لله فيها

أ)- النّصّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝١٧٢ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٧٣﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾: الشّكر يتعدّى بنفسه وباللاّم وهو أفصح، والشّكر هو الثّناء على المحسن بما أَوْلاَكَهُ من معروف، وأصله في اللّغة الظّهور، يقال: دابّة شكور، إذا ظهر عليها من السّمن فوق ما تُعطى من العلف، والعبادة هنا يُراد بها الاعتقاد بالإلهية والخضوع لها، وليس المراد بها الطّاعات الشّرعية. ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾: الميتة لغة الذّات التي أصابها الموت، ويقال: الميّت والميْت بالتّشديد والتّخفيف، والمخفّف مع زيادة تاء التأنيث، الميتة: هي الدّابّة التي تُذبح إذا فارقتها الرّوح بغير ذكاة، والدّم: ذُكر هنا مطلقاً، وقُيد في سورة الأنعام بالمسفوح، فهو المحرّم لأنّه ضارّ لا يُنتفع به، وأمّا الذي خالط اللحم فغير محرّم إجماعاً، والخنزير: يُجمع على خنازير، هو الحيوان المعروف بأكل القاذورات، قيل: إنّ لفظه مشتقّ من خزر العين، لأنّه كذلك ينظر، يقال: تخازر الرّجل، إذا ضيّق جفنه ليحدّد النّظر. ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾: الإهلال هو رفع الصّوت، أي ما نودي عند ذبحه

بغير اسم الله تعالى، إذ جرت عادة العرب بالصّياح عند الذّبح بأسماء آلهتهم.
﴿فَمَنُ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ﴾: اضطرّ من الاضطرار للأكل ممّا سدّ الرّمقة، باغ: من البغي، أي طالب لذلك المحرّم ذاته، عاد: أي متجاوز في الأكل قدر الضّرورة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿الْمَيْتَة﴾: قرأ الجمهور الميتة بتخفيف الياء، وقرأه أبو جعفر بالتّشديد.
﴿فَمَنُ اضْطُرَّ﴾: قُرئ بضمّ النّون للاتّباع، وبالكسر لالتقاء السّاكنين، وقرأ أبو جعفر: ﴿فَمَنُ اضْطِرَّ﴾ بكسر الطّاء، لأنّ أصله "اضْطَرَرَ" براءين، أولاهما مكسورة، فلمّا أريد إدغام الرّاء الأولى في الثانية نُقلت حركتها إلى الطّاء بعد طرح حركة الطّاء ، وقرئ بإدغام الضّاد في الطّاء ﴿فَمَن اطُّرَّ﴾.

د)- البيان والتّفسير:

بعد النّداء لأمّة الدعوة والتّنديد على أهل الكفر لتحريم بعض مما رزقهم الله به من الطّيّبات تقليداً للآباء بدون تفكير ولا تدبير، أردف الله هنا نداءً آخر لأمّة الاستجابة لتحذير الذين آمنوا من الوقوع في ذلك مع بيان شرعيٍّ لما هو محرّم من المطعومات، فقال جلّ من قائل: **﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾**:

ولمّا كان من شأن أمّة الاستجابة أن تتّبع ما أنزل الله جاء هذا النّداء الإلهي في مقدّمة بيان كثير من الأحكام الشّرعية في مختلف المجالات، وهو ما يشكّل القسم الثاني من السّورة الكريمة بعد تلك الجولة الطّويلة من قسمها

الأول في ذكر مواقف المؤيّدين والمعارضين للدعوة الإسلامية.

والنّداء الجماعي للمجتمع الإيماني بـ: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يرشد إلى المسؤولية التّضامنيّة التي تقع على المؤمنين في تطبيق أحكام الله والالتزام بتعاليمه وإرشاداته، وتكرّر الأمر هنا بالأكل من الطّيّبات -وهي ما طاب كسبه من الحلال- والمراد بالأكل الانتفاع بها من جميع الوجوه، ويستلزم هنا الأمر أن لا يحرموا منها أنفسهم ولو على اعتقاد حلّيتها كمن يفعل زهدا وتقشّفاً لرياضة النّفس، وتكرّر الأمر بالأكل تخصيصاً للمؤمنين وتشريفاً لهم ليرتّب عليه ذكر الشّكر لله واجباً على أنّه الرّازق المنعم الذي سخّر لكم أسباب تلك النّعم إذ الشّكر هو من تمام العبادة لله وحده، والأمر به هنا هو لدرء كلّ توجّه غير شرعيّ لغير الله، كما يفعل المشركون، وتقديم "إيّاه" هو للاهتمام وفيها معنى الحصر في أنّ من لم يشكر الله لم يخصّه بالعبادة.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنُ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

في المطعومات ما هو محرّم شرعا، ومن أعظمها فائدة لجسم الإنسان ما يكون من الحيوان أكلاً وشرباً ودفئاً، قال تعالى في سورة النحل: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَاكُلُونَ﴾ (النحل:٥)، إلاّ أنّ الأكل منها في بعض الحالات يضرّ بجسم الإنسان، وكذا الأكل من بعض أنواعها المستقذرة. وقد جاء بيان ذلك في هذه الآية: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾، جاء بصيغة الحصر "إنّما" لتحريم أربعة أنواع من المطعومات الحيوانية، فالحصر إضافي لا حقيقي، لأنّ هناك محرّمات أخرى غيرها.

أ- فالميتة: من الحيوانات التي تُذبح، والتي يفارقها الروح من غير ذكاة شرعية، سواء ماتت بمرض أو بعلّة عارضة. وقد أُسند حكم التحريم إلى ذاتها، والحكم يتعلّق بالمعاني لا بالذّوات، فيكون المراد تحريم أكلها، وهو القدر المتّفق عليه بين علماء الإسلام، لأنّ أكل الميتة تستقذره النفوس السّليمة وما فيها من أضرار. وأمّا ما وراء الأكل من أنواع الانتفاع الأخرى كجلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها، والاستصباح بدُهنها ...إلخ، فقد اختلف العلماء في جواز ذلك ومنعه، ممّا هو مفصّل في كتب الفقه، وألحق الرّسول بالميتة ما قُطع من حيّ، كقطع إلية الغنم، وجبّ الأسنمة من الإبل، أي وهي حيّة، كما استثنى الرّسول من ذلك السّمك والجراد.

ب- الدّم: وهو ما يفرز من الغذاء في جسم الحيوان وبه حياته، إذ يسري في العروق بواسطة القلب ويدور في كلّ أرجاء الجسم، ويبقى محفوظاً من التّعفّن، وإذا ما تدفّق خارج الجسم تلوّث بالجراثيم الضّارّة، ولذلك قيّد المحرّم منه بالمسفوح في آيات أخرى.

ج- لحم الخنزير: خصّ بالذّكر لحمه لأنّه المقصود بالأكل، وكان العرب يأكلون الوحشيّ منه دون الإنسي، فجاء التحريم عامّاً لما في هذا الحيوان من الأضرار لأنّه يفضّل أكل القاذورات والنّجاسات، ولما له من سوء الطّباع، فهو يؤثر في آكل لحمه مادّيا ومعنويّاً، والرّاجح أنّ غير لحمه تبع له في الحرمة، فكلّ أجزائه حرام إلاّ ما قاله بعض العلماء من التّرخيص في الانتفاع بشعره للغرز، وأمّا ما عرف من خنزير البحر فله حكم السّمك في الحلّ.

د- وما أُهِلّ به لغير الله: والإهلال هو رفع الصّوت، لأنّ الوثنيين ينادون عند الذّبح بغير اسم الله، فينادون باسم معبودهم ويقدّمون له القرابين.

وهذا النهي يدخل في إطار حماية العقيدة فلا يجوز إشراك أحد غير الله كرسول أو وليّ عند الذّبح، لأنّ الله وحده هو المنعم علينا بذلك الحيوان. يقول قطب الأيّمّة في تيسيره: " فيحرم ما ذكر عليه المسيح، وقيل: حلّ لأنّ الله عزّ وجلّ أباح ذبائح أهل الكتاب، وقد علم أنّهم يخلطون. ويحرم ما ذكر للجنّ اتّقاء بهم لمريض، أو عند حفر بئر أو بناء دار، بأن يذبح على الموضع الذي يحفر نفسه أو في الدّار نفسها، أو في موضع مجاور لهما لذلك... "، ثمّ قال-رحمه الله-: "كلّ ما نهي عن قتله في الحديث من نحو الصّرد والهدهد، فذبحه للأكل أو لمنفعة حلال، والآية تشمله".[1]

قلت: ما تزال هذه العادة متّبعة في مجتمعنا، وهي دخيلة تسرّبت إليه من مخالطة أجناس حملوا معهم تلك التّقاليد مثل اليهود والرّومان والأفارقة والهنود، وأخطرها على عقيدة المسلم تلك الولائم والوعدات التي تقام على أضرحة الأولياء، وكادت الدعوة الإصلاحية في مجتمعنا الجزائري تقضي على التّقاليد الفاسدة لولا ما أصاب مجتمعنا من نكسات خطيرة كادت تودي بأصول الدّين كلّها، وما يزال الذّبح لبناء دار أوحفر بئر -كما ذكره الشيخ- معمولاً به حتّى اليوم، وأفضل ما حقّقه المرشدون في هذا المجال، هو إرشاد النّاس ألاّ يذبحوا في نفس المكان، وأن ينووا بذلك دفع الجانّ، وإنّما ينوون بذلك الصّدقة لوجه الله دفعاً لكلّ ضرر متوقّع، فيشترون بالمناسبة كمّية من اللّحم يوزّعونها على الفقراء والمساكين وبذلك يتّقي الناس شبهات الشّرك الخفي.

ثمّ فرّع الله على حكم التحريم هذا قوله: ﴿فَمَنُ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ

---

١ - احمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، ١ / ٣٥٥.

فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: وكما قال الفقهاء: (**الضّرورة تُقدّر بقدرها**)، ولذلك قيّدها ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَّلاَ عَادٍ﴾، بحيث تكون رخصة الأكل من تلك المحرّمات لإنقاذ النّفس دونما بغي ولا عدوان من رغبة الأكل منها لذاتها، أو تجاوز قدر الحاجة في دفع الهلاك، لأنّ الحياة أثمن وأغلى نعمة من الخالق، فهو أرحم بنا من أن يرضى لنا بالتّهلكة، وبما أنّ تقدير الضرورة ممّا يختلف فيه الناس تبعاً لأهوائهم، فإنّ ذلك ممّا يقع فيه الخطأ والانزلاق، فيكون من تمام رحمة الله أن يغفر ذلك الخطأ بالتوبة والرّجوع إلى الله.

والله أعلم.

وعيد كتمان ما أنزل الله طلباً لمتاع الدّنيا

أ)- النّصّ:

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾: أي يخفون شيئا ممّا أنزل الله من الكتاب المعهود وهم علماء اليهود والنّصارى، يشترون به ثمنا قليلا وقد تقدّم وجه التعبير بالشراء والبيع في أول السّورة (آية ١٥)، والثّمن القليل هو ما يحصلون عليه من أتباعهم بدل ذلك الكتمان. ﴿أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ﴾: الأكل مستعار لأخذ الرّشوة، لأنّ الأكل تغييب للطّعام في البطن فيخفى كما تخفى الرّشوة. ﴿وَلاَ يُزَكِّيهِمْ﴾: لا يطهّرهم من الذّنوب، أو لا يثني عليهم في ذلك المجمع. ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾: تعجّب من شدّة صبرهم على النّار، والمراد تعجيب النّاس من شأنهم، لأنّ الله تعالى لا شيء غريب عنده.فلا نتصور منه التّعجيب. ﴿إِنَّ الذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾: والموصولات المتتابعة في هذه الآيات هي كلّها على نسق واحد، ويظهر خلافهم في الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه تبعا لهواهم، ووصف شقاقهم بالبعد، أي عن الوفاق إلى الحقّ والهداية.

ج)- البيان والتّفسير:

قضيّة التحريم والتّحليل بغير ما أنزل الله طلبا لمتاع من الدّنيا قليل، مع التّلاعب بآيات الله وتحريفها قد تعرض له السّياق من قبل في السّورة في معرض محاجّة أهل الكتاب، وجاءت هذه الآيات بمناسبة بيان ما حرّمه الله على المسلمين من المطعومات الحيوانيّة، ليؤكد بذلك تحذيرهم من اتّباع سنن أهل الكتاب بما أحدثوه في دينهم من تحليل وتحريم وفق هواهم وكتمان ما أنزل الله فقال جلّ من قائل: **﴿إِنَّ الذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ**

وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

دأب علماء اليهود على احتكار ما عندهم من العلم بما أنزل الله يكتمونه على أتباعهم فلا يظهرونه إطلاقا، أو هم يحرّفونه بسوء التأويل إذا ما غيّروا العمل بحكم من الأحكام كما فعلوا أمام الرّسول في إخفاء حكم الزاني، وتغيير صفات الرسول حتى لا تتطابق مع شخصيته فيكون ذلك ذريعة لعدم الإيمان به ، وفي مقابل ذلك كانوا يصيبون من أتباعهم الهدايا والأموال، وقد تقدّم تحليل التّعبير التّمثيلي بالبيع والشّراء في أوائل السّورة، وإن كانت هذه الآية تندرج في أخبار أهل الكتاب وكشف أحوالهم فإنّ حكمها عام يصدق على كلّ من كتم ما أنزل الله، وفي ذلك تحذير للمسلمين أن يتّبعوا سنن من قبلهم.

ويا ما أكثر علماء السّوء ممّن يتملق الرّؤساء، ويستغفل الدّهماء، استبقاء لجاه أو حظوة، أو أخذا لجعالة أو رشوة، وقد وصف الله الثّمن المأخوذ بالقلة لانقطاع مدّته وسوء عاقبته، فهو وإن لم يكن قليلا في مبلغه، فهو قليل باعتبار ما يترتب عليه من فوات السّعادة وراحة البال، ومن الشّقاوة وسوء المآل، ولذلك قال: ﴿أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ﴾، فاسم الإشارة للتّشهير بهم، ولاستحقاقهم لذلك الوعيد، وجيء بذكر الأكل والبطون، لأنّ ذلك أعمّ المنافع، وأدلّ على الجشع واجتدام شهواتهم الحيوانيّة، واعتبر ما يأكلونه من السحت نارا، لأنّ أكل السّحت يؤدّي إلى عذابها، ولأن النار والتّراب من النّاحية الحسّية في التّشبيه هما أنجع مادة تنهي جشع البطن وتحدّ من رغبته كما عبّر الرّسول عن ذلك بقوله:«**ولا يملأ جوف ابن آدم إلا**

التّراب».[1]، وقوله: **«ما ملأ ابن آدم وعاء شرّا من بطنه».**[2]

وأسوأ من ذلك العذاب المادّي المهلك ما يصحبه من عذاب معنويّ مخز لهم أمام الخلائق يوم القيامة ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، نفي كلام الله لهم هو كناية عن غضبه عليهم وبالتالي يبقون في دنس الإثم محرومين من الصّفح والمغفرة ومن التّزكية والثّناء، وإذا جمعوا بين العذاب الحسّي والمعنوي في الدنيا والآخرة فقد ذاقوا بذلك أقسى الآلام وأشدّ العذاب، ولبيان أن ذلك ممّا كسبت أيديهم وأنّه جزاء وفاق قال تعالى: **﴿أُوْلَئِكَ الذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾:**

تكرّر اسم الإشارة لنفس المعنى السّابق لإضافة حكم آخر للذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب، وأنهم بذلك الثّمن القليل يشترون الضّلالة بالهدى، وبئست المعارضة تلك التي يكون فيها كتاب الله الحامل للهدى والنور والضامن لمغفرة الله معتاضا بالضلالة والعذاب، فقد استبدلوا ما هو أدنى بالذي هو خير، وهم يعلمون أنهم بتلك الأعمال الدّنيئة يستوجبون عذاب النّار، ولمّا كان عذاب النّار يحصل لهم في الآجلة نُزّل غير الحاصل منزلة الحاصل لشدّة

١- رواه البخاري عن ابن عباس: باب ما يتقى من فتنة المال، حديث ٦٠٧٢، ٥/٢٣٦٤.
ورواه مسلم عن أنس بن مالك: كتاب الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثا، حديث١٠٤٨، ٢/٧٢٥.

٢- رواه الحاكم في المستدرك عن المقداد بن معدي كرب بلفظ "آدمي"، حديث ٧٩٤٥، ٤/٣٦٧. و رواه النسائي في السنن الكبرى عن المقداد بلفظ "آدمي"، حديث ٦٧٦٨، ٤/١٧٧.

استحضاره في الذّهن بما وصف به هؤلاء من المخالفات، فصح بذلك أن يتعجب من صبرهم على النّار كلّ من يراهم على تلك الحالة، وقال ابن عبّاس: إن "ما" في الآية هي للاستفهام التوبيخي بمعنى: أي شيء صبّرهم على عمل أهل النّار؟، وكلا المعنيين التّعجيب أو الاستفهام التوبيخي هو للتّشنيع والتّنفير. ولتعليل ما ينتظر هؤلاء من سوء المآل، قال تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ**﴾:

والإشارة هي إلى الحكم السّابق لبيان سببه بأنّ الله نزّل الكتاب بالحقّ، والحقّ أحقّ أن يُتّبع، لأنّ غايته الإرشاد إلى مناهج الهدى ومسالك الخير، وكلّ كتمان لها في كتاب الله إنّما هو كتمان لذلك الحقّ، ممّا يفسح المجال للشّرّ والباطل في حياة النّاس.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾، تكرّر لفظ الكتاب في مقام الإضمار في آخر آية من هذا النّصّ الكريم ليأخذ حكماً مستقلاً وليشمل كلّ الاحتمالات الممكنة من شمولية اللّفظ لكلّ ما أنزله الله من الكتب السّماوية، سيما المشهورة منها كالتّوراة والإنجيل والقرآن، وبالتّالي يتناول الحكم كلّ الذين اختلفوا في كتاب الله الذي جاء لتجميع المؤمنين باتّباع أحكامه، والاعتصام بحبله، ولكنّهم على العكس من ذلك أصبحوا في شقاق بعيد باختلافهم في الدين، وبالتّناصر والتّعاون، حتّى لكأنّ كلّ فريق في شقّ غير الذي فيه الآخر، وعلى قدر خلافهم تبعد المسافة بينهما.

هذا، وللمفسّرين احتمالات كثيرة في تعيين المراد بالكتاب في هذه الآية، سواء في موقع النّصب في أوّل الآية ﴿نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾، أو في موقع الجرّ بعدها لا حاجة للإفاضة فيها، لأنّ الحقّ في كتاب الله حقيقة لا مرية فيها،

كما أنّ الاختلاف فيها بأي بسبب من الأسباب تترتّب عنه المصائب والويلات بما ينتج عنها من الانزلاقات والانحرافات، ولذلك كانت وصيّة رسول الله لأمّته في حجّة الوداع:« **تركت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا أبداً كتاب الله وسنّتي**»[1].

فاللّهمّ ارحمنا بالقرآن العظيم، واجعله لنا إماماً ورحمةً وهدىً ونوراً وشفاءً يا أرحم الرّاحمين.

والله أعلم.

١ - روى الربيع بن حبيب نحوه في المسند، باب ذكر القرآن، حديث ٣٠ قال: أبو عبيدة قال بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:«تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً: كتاب الله عز وجل فما لم تجدوه في كتاب الله ففي سنتي فما لم تجدوه في سنتي فإلى أولي الأمر منكم»، ١/ ٣٣.

بيان أصول البرّ ومقاصد الدّين

أ)- النّص:

لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿البِرَّ﴾: بكسر الباء، لغة سعة الإحسان والخير الكامل، وشرعاً هو ما يُتقرّب به إلى الله من الأخلاق والأعمال الصّالحة. ﴿أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾: أي أن تتّجهوا نحو المغرب أو المشرق، فالمصدر المؤوّل في محل نصب خبر ليس على قراءة الرّفع في ﴿البرّ﴾، وهو في محلّ رفع اسم لليس مؤخّر على قراءة النّصب في ﴿البرّ﴾. ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾: جملة معترضة، وهو مجاز في التّمكّن من حبّ المال. ﴿وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾: السّائلين جمع سائل، من ألجأته الضّرورة إلى سؤال النّاس. وفي الرّقاب: أي تحرير العبيد وعتقهم. ﴿الصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾: البأساء مشتقّة من البؤس، وهو سوء الحالة من الفقر وغيره، والضّرّاء: شدّة الحال على الإنسان

من ضرّ ألمّ به، وتقابلها السّرّاء من كلّ ما يسرّ الإنسان من أحواله. وحين البأس: أي شدّة القتال وضراوته في الحرب، وقد انتصب وصف " الصّابرين" على الاختصاص، وهو معطوف على مرفوعات.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لَيْسَ البِرُّ﴾: قرأ الجمهور برفع ﴿البِرُّ﴾ على أنّه اسم ليس والخبر هو﴿أَنْ تُوَلُّواْ﴾، وقرأه حمزة وحفص عن عاصم بنصب﴿البِرَّ﴾ على أن قوله: ﴿تُوَلُّواْ﴾ اسم "ليس" مؤخّر، ولكلاَ القراءتين وجه في التعبير العربي الفصيح، فعلى وجه الرّفع فلأنّ البرّ أمر مشهور معروف لأهل الأديان مرغوب فيه للجميع، وعلى توجيه قراءة النّصب للبرّ، فلأنّ أمر استقبال القبلة أصبح هو الشّغل الشّاغل لهم.

﴿وَلَكِنِ البِرُّ﴾: قرأ الجمهور ﴿لكن﴾ بالتّشديد، وقرأ نافع وابن عامر بالتخفيف، أي ولكن جملة البرّ هو من آمن بالله ...إلخ.

د)- البيان والتّفسير:

كانت حادثة تحويل القبلة مثار جدل طويل أربكت المجتمع الإسلامي، إذ احتدم الخلاف فيها بين المسلمين وأهل الكتاب، كما أنّ أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم، ورأى كلّ فريق أنّ الصّلاة لا تصحّ إلاّ للقبلة التي هو عليها، فالنّصارى كانوا يولّون وجوههم في صلاتهم قِبل المشرق، واليهود يولّونها قِبل المغرب، وكان المسلمون يتوجّهون في صلاتهم قِبَلَ بيت المقدس، ثمّ أمرهم الله بالتّحوّل إلى المسجد الحرام، قبلة إبراهيم عليه السلام، ومن طبيعة البشر في كلّ خلاف أن يتشبث كلّ فريق بموقفه وينتقص من شأن الفريق

الآخر، وبذلك تضطرب معايير البرّ بمحاولة كلّ فريق تفسيره بما يتناسب مع توجّهه وطروحاته، فجاءت آية البرّ هذه دُرّة ناصعة الأنوار من قبل الواحد القهّار لتحسم الموقف بما هو حقّ في تحديد ذلك المعيار، فقال جلّ من قائل: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾:

بدأ عرض حادثة تحويل القبلة بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾، فكان الرّدّ الإجمالي من الله لهذا السؤال: ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ثمّ يتفنّن الأسلوب في المُحاجّة وبيان حكمة تحويل القبلة، ويختتم العرض بهذه الآية التي تبتدئ بذكر المشرق والمغرب-وهما لله وحده- كما تبيّنه الجملة الأولى في مفتتح العرض، ليرتبط العَجُز بالصّدر في نسج محكم بليغ، وقد تخلّله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّٰبِرِينَ﴾، ممّا يدلّ على مدى إعنات المسلمين من طرف أهل الكتاب في اعتبارهم أنّ المسلمين حادوا عن البّر بتحوّلهم عن قبلة أهل الكتاب، فأراد الله تعالى أن يرجع الجميع إلى جادّة الحقّ والصّواب، وعلى هذا يجوز في ضمير المخاطب في قوله: ﴿أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ أن يكون للمسلمين خاصّة، ويجوز أن يكون لكلّ من يستمع القرآن ومنهم أهل الكتاب والمشركون، والبرّ اسم جامع للخير وسعة الإحسان، نفى الله تعالى أن يكون مقصوراً على تولية الوجوه لجهة معيّنة، لأنّ الجهات كلّها لله، فلا يتحقّق المقصود من الدّينونة لله بتوجّه شكلي،وإنّما يتحقّق بالالتزام بما كلّفنا الله به من أصول العقيدة وأحكام الشّريعة، فيكون التّوجّه المادي المأمور به نحو جهة معيّنة مُعبراً عن التوجّه الروحي الخالص لله، ولتفصيل هذا المعنى حدّد الله المعايير الصّحيحة للبرّ، ثمّ

حَكَم للمتّصفين بها بالصّدق والفلاح في آخر الآية، فقال: ﴿**وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ - امَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ**﴾:

بدأ الله بذكر أصول العقيدة الإسلامية التي يظهر أثرها على النفس ويصدّقها العمل الصالح كما قال رسول الله:«**ليس الإيمان بالتّمنّي، ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل**»[1].

والإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة هو من الإيمان بالغيب الذي بسطنا القول فيه في مفتتح السورة، وبيّنّا فيه أنّه مفرق الطّريق بين أصناف النّاس في التّصديق بدعوة القرآن أو عدمه، كما صنّفتهم الآية بين مؤمن وكافر ومنافق، وكثيراً ما ركّز القرآن على أسس هذه العقيدة، سيما في القرآن المكّي، لأنّ النّاس لا يطبعون سلوكاتهم إلاّ وفق ما يؤمنون به ويعتقدون، فالإيمان بالله وحده يحرّر الإنسان من العبودية لغير الله، وتسمو روحه وتقوى شخصيّته بما يكون له من حبّ الله والثّقة به واللّياذ إليه في السّرّاء والضّرّاء، كما أنّ الإيمان باليوم الآخر يضعه في سياج من الخوف والرّجاء يكون فيه متّزناً في كلّ أحواله، سيّداً على نفسه في شهواتها ورغباتها، ولمّا كانت الأمور الغيبية لا تعرف إلاّ عن طريق الوحي، كان الإيمان بالكتب والرّسل وسيلة لإكمال النقص البشري عن إدراك ما وراء الطّبيعة، لا يعرفها إلاّ عن طريق الأنبياء والرسل ممّن اختارهم الله لوحيه ورسالته ثمّ بيّن الله تعالى أصول الأعمال الصّالحة فبدأ بإنفاق الأموال وقال: ﴿**وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ**﴾:

---

١ - رواه ابن أبي شيبة من قول الحسن، حديث ٣٥٢١١، قال:«إن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني إن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل».

ولا يتجسّد الإيمان في تزكية النّفوس إلا بالعمل الصّالح، ويلاحظ في الآية التّركيز على إنفاق الأموال ببيان أوجه الإنفاق المتعدّدة فرديّة واجتماعيّة، وكلّها توطئة لما تتلوها من التّشريعات في بيان سبل الإنفاق، علما بأن سورة البقرة من أوائل القرآن نزولا بالمدينة المنوّرة وكان المجتمع المسلم تتّضح معالمه شيئا فشيئا وتتركّز قواعد بنيانه على المنهج الّذي ارتضاه الله لصالح عباده في حياتهم الفرديّة والاجتماعية.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ جاء في مقدّمة الصّفات في صلة الموصول "من" وجملة ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ هي قيد للتّكميل و"على" بمعنى مع حبّه لذلك المال وعدم زهادته فيه، فهو يعطيه حبّا لله وطلبا لمرضاته، أو يكون المعنى "يؤتيه لأجل حبّه لله" وجوّز بعض المفسّرين أن يرجع الضّمير في ﴿حبّه﴾ للمعطى، أي لحبّه ذوي قرباه وفيه تكلّف.

ثمّ ذكر الله أصنافا ممّن يُعْطَون ذلك المال لتحقيق التّكافل الاجتماعي في المجتمع المسلم. فبدأ بذوي القربى لأنّهم أولى من يجب على المسلم أن يواسيهم بجهده وماله لأنّ ذلك صدقة وقربى، ثمّ ذكر الفقراء والمساكين بعد اليتامى، وهم الذين فقدوا آباءهم، فيعطون من الصّدقة والزّكاة مع الحاجة أو دونها لأنّ القصد هو المواساة وجبر خواطرهم ليشقّوا طريق حياتهم في اتّزان واعتدال وثقة، وأمّا المساكين والفقراء فهم ذوو الحاجات والفقر، غير أنّ المسكين اختلف العلماء في ضبط حالته فقال البعض: هو أشدّ فقراً من الفقير، وقيل: هو أقلّ فقراً منه، وقد يُطلق أحدهما على الآخر.

وابن السّبيل هو المسافر الذي انقطع به الطّريق عن الوصول إلى بلده، ولو كان غنيّاً فيه، سمّي بذلك لأنّه يصاحب الطّريق كما يصاحب الولد أباه،

حتّى كأنّ السّبيل أبوه وأمّه ورحمه، والضّرب في أرض الله ممّا حـرّض عليـه الشّرع الحنيف سعياً وراء المنافع الحيويّة في تحقيق المصالح الدّينية والدّنيويـة، فخصّص لكلّ من الغريب والضّيف حيّزاً من المواساة والعـون مـا يضـمن سلامتهما في الحلّ والتّرحال.

وذكر الله تعالى نوعاً آخر من الفقراء، وهم السّائلون الـذين ألجـأهم الحاجة إلى السّؤال، وعطفهم على من سبق هو من عطف العامّ على الخاص، لأنّه يمكن أن يضطّر أحد المذكورين السّابقين إلى السّؤال، وهو ما ينفّر عنـه الشّرع الحنيف، إلاّ أن يكون لضرورة ملحّة تقدّر بقدرها، إذ الواجب علـى المؤمن أن يكسب قوته بكدّ يمينه ويعتمد على نفسه في توفير أسباب الـرّزق، قال تعالى: ﴿هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك:١٥)، وقال رسول الله ﷺ: **«لأن يغدو أحدكم إلى الجبل فيحتطب فيبيع ويأكل خير من أن يسأل النّاس أعطوه أومنعوه »**[1].

---

١ - رواه البخاري عن أبي هريرة في كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى:﴿ لا يسألون النـاس إلحافا﴾، حديث ١٤١٠ ٥٣٨/٢، بلفظ مقارب.

و رواه ابن حجر في الزوائد: باب أكل التراب خير من أكل الحرام عن أبي هريرة قال: قـال رسول الله ﷺ:«والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب إلى الجبل فيحتطب ثم يأتي به فيحمله على ظهره فيبيعه فيأكل خير له من أن يسأل الناس، ولأن يأخذ ترابا فيجعله في فيه خير له من أن يجعل في فيه ما حرم الله عليه»، قلت: هو في قصة التراب رواه أحمد ورجالـه رجال محمد بن إسحق وقد وثق. ١٩٣/١٠.

وكما قال:« **لا تحلّ الصّدقة لغنيّ ولا لذي مرّة** »[1]، أي قادر على العمل.

ثمّ قال تعالى: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي مساعدة الأرقاء في تحرير رقابهم، كمساعدة المكاتبين على أداء أقساطهم وكذا مساعدة الأسرى في الافتداء، كلّ ذلك لضمان الحرّيّة والحفاظ على كرامة الإنسان.

ومن معايير البرّ إقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة، وهما ركنان أساسيان في البناء الإسلامي يتكاملان في أغلب التّوجيهات القرآنيّة، وذِكْر الزكاة معطوفة على ما سبق يدلّ على أن المال المطلوب إنفاقه على الأصناف المذكورة إنما هو في غير الزكاة -أي من صدقات التّطوّع- ترغيبا في البذل والعطاء وتركيزا للتّكافل الاجتماعي بين المسلمين، سيما إذا نزلت بهم ضائقة، واتّفق العلماء على أنّ صرف المال واجب في مثل تلك الحالات.

ذلك في الجانب الاجتماعي والتّعاوني في مجالات الأعمال البرّيّة العمليّة، وأما في الجوانب الخلقيّة المعنويّة فقد ذكر الله تعالى أوصافا هي ذروة الأخلاق منها.

أ – ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾: وهو معطوف على قوله:﴿مَنَ - امَنَ بِاللهِ﴾، وقيّده بالظّرف "إذا" للدلالة على المبادرة الفوريّة

---

١ – رواه الترمذي عن عبد الله بن عمرو: كتاب الزكاة، باب من لا تحل له الصدقة، حديث ٦٥٢، ٣/٤٢.و رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو: كتاب الزكاة، باب من يعطى له الصدقة و حد الغنى، حديث ١٦٣٤، ٢/١١٨.و رواه النسائي عن أبي هريرة: كتاب الزكاة، باب إذا لم يكن له دراهم، حديث ٢٥٩٧(٥/٩٩.و رواه ابن ماجة عن أبي هريرة: كتاب الزكاة، باب من سأل عن ظهر غنى، حديث ١٨٣٩، ١/٥٨٩.

بالوفاء إثر الإدلاء بالعهد، وذلك بعد أن يتأكد صاحبه بقدرته على الوفـــاء، وأولى العهود بالوفاء عهد المؤمن مع ربّه ﴿أَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُم﴾، ثمّ عهده مع الخلائق كلّها في واجب ومباح، ولا عهد على معصيّة أو مكروه.

ب- ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾: والصّبر نصف الإيمان كما جاء في الأثر[1]، وهو أساس كل الأخلاق الكريمة، وجزاؤه عنـــد الله ليس له حدّ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠)، وقد خصّص الله بعض متعلّقاته بالذكر في أحوال الضّرّاء والبأساء، مما قد يصيب الإنسان أو المجتمع من عوارض السّوء والضّر وهي كثيرة، طبعت الحياة على سنة ذلك. وقد تقدّم ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ الآية...، وكذا الصبر المطلوب في وقت الحرب والنّزال ممّا يكون نصرة لدين الله أو ذوداً عن دار الإسلام، فالصّبر في هذه المواقف الثّلاثة هو دليل على كمال الإيمان وعلى تمام الصّدق والتّقوى، ولذلك جاء التذييل بقوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

وفي الآية الكريمة جماع الفضائل كلّها، وقد تحقّقت أوصافها في صفوة خلق الله من رسله وأنبيائه، وهي يسيرة على من يسّرها الله لـــه مـــن ســـائر المؤمنين.

و الله أعلم.

---

١ - هذا الأثر موقوف على عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «الصبر نصف الإيمـــان، والـــيقين الإيمان كلّه»، أورده ابن أبي خيثمة في تاريخه، وساقه الحافظ بسنده عن عبد الله بن مســـعود أيضاً، قال ابن حجر: وهذا موقوف صحيح. موسوعة ابن حجر الحديثية، ٤٣/١.

وسطية الإسلام في أحكام القصاص والدّية والعفو

أ)- النص:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾: كتب عليكم بمعنى فرض عليكم، بمعنى أن حكم القصاص حق لازم للأمّة لا محيد عنه، والقصاص اسم لتعويض حقّ جناية أو حقّ غُرم على أحد بمثل ذلك من عند المحقوق إنصافاً وعدلاً، أي يُفعل بالجاني مثل ما فعل بالمجني عليه. والقتلى جمع قتيل، و"في" للسّببيّة مع تقدير مضاف -أي القصاص في قتل القتلى-، لأنّ القصاص لا يكون في ذوات القتلى. ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾...إلخ: الباء متعلّقة بمحذوف وتقديره يقتصّ أو يقتل بالحرّ...إلخ. ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾: أي إذا أعطي العفو على القاتل من أخيه في الدّين وهو وليّ المقتول سقط القصاص. ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾: الاتّباع والأداء مصدران عوّضا عن فعليهما، والتقدير: فليتّبع اتّباعاً وليؤدّ أداءً، بمعنى تجب المطالبة للدية بالمعروف وتأديتها

بإحسان دونما إرهاق ولا مماطلة. ﴿يَآ أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾: أهل العقول الكاملة.

ج)- بين يدي النّص:

يذكر المفسّرون أنّ هذه الأحكام كانت من أوّل ما أنزل الله بالمدينة المنوّرة، وهي أحكام تتعلّق بصون الدّماء، وذكروا في سبب النّزول عدّة روايات، تبيّن ما جرت به العادة عند العرب في جاهليتهم من البغي والطّغيان في تجاوز الحدّ بينهم بالثّارات، إذ لا يرضون بالمماثلة في قتل الجاني، اعتزازاً بأنفسهم على غيرهم، فيقتلون الحرّ بالعبد والرّجل بالمرأة، والرّجلين أو أكثر بالرّجل...إلخ، ويجعلون جراحاتهم ضعف جراحات خصومهم، كما أنّ أهل الكتاب تأرجحت أحكامهم بين الشّدّة والسّماحة في القصاص، فيروي ابن عبّاس أنّه كان في بني إسرائيل القصاص و لم تكن الدّية على عكس النّصارى، إذ كانت أحكامهم تميل إلى التّساهل والعفو ومقابلة الإساءة بالإحسان كما ورد ذلك في كثير من وصايا السّيد المسيح عليه السلام.

وفي غير إطار الشّرائع السماوية المشهورة نجد حصيلة كبرى من القوانين والشرائع الوضعية تختلف في الشّدّة واللّين تبعاً للأوضاع البشريّة المختلفة في تربيتها وأمزجتها، وفي طبيعتها البدويّة أو الحضاريّة ونظرتها إلى الإنسان والكون والحياة، وجريمة القتل واكبت المسيرة البشريّة منذ انطلاقتها على عهد آدم وأبنائه، فلا مناص من ردعها بوسائل تكون فعّالة ومضبوطة في التّنفيذ يتولاّها من بيده الأمر حتّى لا تتحكّم فيها الأهواء، وتنفكّ عن المشاحنات والانتقامات.

ومن مقاصد الإسلام العليا أن جعل من كلّياته العامّة في تشريعاته حفظ النّفس، وضبط لها حقوقها المادّية والمعنوية بأحكام هي غاية في الدّقّة والتّقنين

لا إفراط فيها ولا تفريط، يطبعها طابع الوسطية والاعتدال، تناسب في حياة البشر كلّ الظّروف والأحوال، وهي لا يستوعبها إلاّ ذوو العقول الرّاجحة ممّن يدرسون طبيعة البشر ويعرفون خبايا النّفوس وتطوّرات المجتمعات، ودعك من تهافت أولئك الذين ليست لهم استقلالية في التّفكير ولا وازع من إيمان ممّن يردّد ما يقوله المغرضون من أعداء الإسلام، ويتستّرون وراء الشّعارات الجوفاء لاستبعاد نفوذهم على الضّعفاء، ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (التوبة:٣٢).

فحسب هذه الأحكام أنّها من الله خالق البشر، وهو أعلم بمن خلق، نرجوه تعالى أن يهدينا سبل رشدنا -نحن المسلمين- بالرّجوع إلى أحكام كتابه العزيز حفظاً ودرايةً وتطبيقاً لإرشاداته وتوجيهاته، ونأخذ الآن في تفسير هذه الآيات.

د)- البيان والتّفسير:

﴿يَآ أَيُّهَا الذين ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾: إنّه النّداء التّضامني للمجتمع المسلم، بعد النّداء الدّاعي إلى الاستعانة بالصّبر والصّلاة، هذا المجتمع الذي يتوق إلى الأمن والطمأنينة، وهو في أولى خطواته لبناء الدولة الإسلامية الفتيّة، ولا شكّ أنّ أسباب الأمن وصيانة النّفوس والممتلكات من أوكد الواجبات على الدولة، ولمّا كانت النّفس البشريّة هي الرّكيزة الأولى في البناء الحضاري كانت هذه البداية بأحكام القصاص أمراً طبيعيّاً تقتضيه ضرورة التنظيم الاجتماعي في توفير أسباب الأمن أوّلاً حتّى تتّجه الجهود في ظلّه للبناء والتّشييد، والجريمة معول هدّام لا يقوم معه بنيان كما قال الشّاعر:

مـــتى يـــبلغ البنيان يومـــاً تمامه إذا كنت تبـــنيه وغيـــرك يَـــهْدِم

جاء الأمر الإلهي بفعل ﴿كُتِبَ عَلَيْكُم﴾ أي فرض، وفيه معنى الإلزام، إذ هو حقّ للأمّة لا محيد عنه، ويدلّ على ذلك ضمير الخطاب " عليكم"، غير أنّ إقامة الحدود موكلة إلى أولي الأمر من الأمّة، ومن معاني القصـــاص المماثلـــة والمساواة، أي يُقتل القاتل بمساوٍ له لا أكثر من غير امتيـــاز بـــين الأقويـــاء والضّعفاء، وذلك إبطالاً للعادات الجاهلية فلا يذهب حقّ قتيل باطلاً، ولا يُقتل غير القاتل باطلاً، والقتلى جمع قتيل، وذلك باعتبار جمع المخاطبين و"في" بمعنى: القصاص في شأنهم أو بسببهم، وأنّه حقّ واجب على القاتل لمن له الدّم، ويجوز له العفو مطلقاً، أو العفو مع أخذ الدّية كما سيأتي.

وقوله تعالى: ﴿**الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ**﴾: هو بيان وتفصيل لما في الجملة الأولى، ومفهوم القيد مع معنى الوصفية في الأنواع الثلاثة للقتلى يقتضي أنّ كلّ واحد منها يُقتل بمثله لا بغيره، ولكن السّـــنة المطهّـــرة بيّنت أنّه لا يطّرد في كلّ الأحوال، وفي كتب الفقه تفاريع ذلك، وننقل مـــا حقّقه قطب الأئمّة في هذا الباب إذ يقول: "وقد بيّنت السّنة أنّ الذّكر يُقتـــل بالأنثى بلا ردّ، وأنّه تعتبر المماثلة في الدين، وأنّ الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه، فلا يُقتل مسلم ولو عبداً بكافر ولو حرّاً، ويُقتل كافر بمسلم، وعن عليّ-كرّم الله وجهه-: «**مضت السّنة بأن لا يُقتل مسلم بذي عهد ولا حرّ بعبد**»[1]، والمشرك غير ذي عهد أولى بأن لا يُقتل به مؤمن، وكان أبو بكر وعمر كلّما

---

١ - رواه الدارقطني بسنده عن عامر قال:قال علي رضي الله عنه: من السنة أن لا يقتل مسلم بذي عهد ولا حر بعبد. حديث ١٦٣، ١٣٤/٣.و جاء في مصنف ابـــن أبي شـــيبة قريبـــا منه:حديث ٢٧٤٧٧، ٤٠٩/٥

قَتل حرٌّ عبداً لا يقتلانه به، سواء أكان له أم لغيره، وهما عمدة بين الصّحابة ولا يخالفهما أحد، وقتل رجل عبداً فجلده رسول الله ﷺ و نفاه سنة، و لم يصحّ عن مالك والشّافعي أنّه لا يُقتل الذّكر بالأنثى، وقيل عن أبي حنيفة أنّه يُقتل الحرّ في العبد المؤمن لقوله ﷺ :«**المؤمنون تتكافأ دماءهم**»[1] رواه ابن ماجة، ورُدّ بأنّه استثنى منه العبد، إذ قال: «**لا يُقتل حرٌّ بعبدٍ**».

وعن مالك والحنفيّة أنّه ليس للولي إلاّ القتل إلاّ إن رضي القاتل بالدّية، ويردّه تخييره ﷺ بين القتل والدّية وقتلهما". انتهى[2]

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ اَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌۢ بِالْمَعْرُوفِ وَاَدَآءٌ اِلَيْهِ بِاِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾:

تفرّع عن الحكم السّابق هذا الإرشاد الإلهي بقبول الصّلح بين الطّرفين لبيان أنّ حكم القصاص ليس واجباً على الولّي، بل حقّ له إن شاء أخذ به أو تركه، فمعنى ﴿عُفِيَ لَهُ﴾ أي أُعطي العفو على القاتل من عوض الصّلح، ومن معاني "العفو" الميسور من المال، واختيار الفعل ﴿عُفِيَ لَهُ﴾ يؤذن بمراعاة التّيسير والسّماحة، كما أنّ التّعبير بالأخوّة في هذا المقام هو لاستعطاف عاطفة أولياء الدّم بمراعاة الأخوّة الدّينية على اعتبار أنّ ﴿أَخِيهِ﴾ هو وليّ الدّم، وهناك احتمال آخر رجّحه الإمام ابن عاشور بأنّ المراد من لفظ ﴿أَخِيهِ﴾ هو القاتل،

---

١ - رواه ابن ماجه عن ابن عباس: كتاب الديات، باب المؤمنون تتكافأ دماؤهم، حديث ٢٦٨٣، ٢/٨٩٥. ورواه أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: باب في السرية ترد على أهل العسكر، حديث ٢٧٥١، ٣/٨٠. و رواه النسائي عن علي بن أبي طالب: باب القود بين الأحرار، حديث ٤٧٣٥، ٨/٢٠.

٢ - احمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، ٠١/ ٣٧١-٣٧٢.

وعلّل ذلك بقوله: "وُصف بأنّه أخ تذكيراً بأخوّة الإسلام وترقيقاً لـنفس وليّ المقتول، لأنّه إذا اعتبر القاتل أخاً له كان من المروءة أن لا يرضى بالقَوَد، لأنّه كمن رضي بقتل أخيه".(١)

قلت: وللمفسّرين تأويلات أخرى في فكّ إشكال هذه الآية، والتّنكير في لفظ ﴿شَيْءٌ﴾ أي شيء من العفو ممّن لهم حقّ المطالبة بالدّم حتّى ولو كان واحداً منهم أو طالبوا بشيء من الدّية لا بكلّها، وبقطع النّظر عن نوع ذلك العوض في الدّية، فيجب على من ناله شيء من ذلك أن يتّبع المعروف في التّنفيذ وذلك بالرّضا والقبول، بما عُفي له بلا عنف ولا محادّاة ولا إرهاق، كما يجب على القاتل أداء الدّية أو بعضها بلا مماطلة ولا بخس لأيّ حقّ، وفي ظلّ هذا الحكم الرّشيد يفيء النّاس إلى الصّلح والاحتكام إلى العقل والمروءة في الفصل بين النّاس في قضايا القتل العمد، وأمّا قتل الخطأ فستأتي أحكامه في سورة النساء.

وفي التعقيب على الحكم قال تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾:

أي انّ التّخفيف عليكم بتخييركم بين القتل والدّية والعفو وهو مظهر من مظاهر رحمة الله بكم، وإيثار للتّراحم والتّعاطف بينكم، واختيار كلمة التّخفيف للإيماء إلى ما في كلّ من الديانة اليهودية من حكم القتل دون العفو والدّية وفي الدّيانة المسيحية من إيثار العفو على القاتل مطلقاً ممّا يجرّئ على الجريمة.

---

١ - الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، ٢ / ١٤١.

ثمّ قال تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، والاعتداء بعد ذلك أي بعد ترك القصاص بالقتل، أو بعد أخذ الدّية، أو بعد العفو الكلّي فلا يعود إلى الجناية مرّة أخرى، ويتمثّل ذلك في القاتل إذا تكرّر منه القتل، وفي الوليّ العافي إذا قُتل القاتل بعد أخذه الدّية أو عفوه عليه، ففي كلتا الحالتين يستحقّ الجاني منهما العقاب، وللعلماء آراء في ذلك تشديداً بعدم العفو عنه، أو تنفيذاً لأمر الحاكم في ما يراه الأصلح، ولذلك اختلف تفسيرهم أين يكون له العذاب الأليم، فقيل في الدنيا بالقتل، ولو عفا عنه وليّ القاتل، وقيل هو عذاب الآخرة، ويؤيّده ما روي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**لا أعفي أحداً قَتل بعد أخذ الدّية**»[1]، ولتعليل شرعية القصاص وبيان حكمته قال تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾:

يقول البلغاء: إنّ هذه الآية من أبلغ آي القرآن، بياناً وإعجازاً في مبناها ومعناها، وتفنّن المفسّرون في إظهار وجه الإعجاز فيها مقارنة بما نطق به فصحاء العرب في نفس المعنى عندما قالوا: "**القتل أنفى للقتل**"، ولكن شتّان ما بين العبارتين في انتقاء الكلمات واختصارها وعدم تكرار ألفاظها، وجاءت كلمة ﴿حَيَاةٌ﴾ نكرة لتفيد نوعاً من الحياة عظيماً في شأنه يتحقّق لمتّبعي حكم الله، إذ يصون حياتكم بردع الجناة وقمع العدوان بحصر الجريمة في نطاق ضيّق، ويفيء النّاس إلى تحكيم منطق العقل، وشحذ عواطف التّراحم والتّآخي في المجتمع المسلم.

---

١ - رواه عبد الرزاق في المصنف عن معمر عن قتادة مرسلاً، باب القتل بعد أخذ الدية، ١٥/١٠ بنفس اللفظ. و راوه أبو داود عن جابر بن عبد الله: كتاب الديات، باب من يقتل بعد أخذ الدية، حديث ٤٥٠٧، ١٧٣/٤.

وفي النّداء ﴿يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ تنبيه على إحكام التّأمّل والتّدبّر في حكم القصاص حتّى لا يُعتبر تكريساً للجناية، بل هو عدل ورحمة وضمان لحياة الفريقين، لعلّكم تتّقون تلك الاعتداءات التي ألفتموها في جاهليتكم وتتّقون الله بالإذعان لحكمه.

والله أعلم.

الوصيّة الواجبة للوالدين والأقربين.

أ)- النّصّ:

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾: نائب فاعله الوصيّة، ذُكّر للفصل ولمعنى "الإيصاء"، ومعناه فُرض عليكم. ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾: حضور الشّيء حلوله ونزوله وهو ضدّ الغيبة، وإسناد الحضور إلى الموت إسناد مجازي، لأنّه حضور

أسباب. ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾: الخير المال قليله أو كثيره، الوصية تُجمع على وصايا، وهي الأمر بفعل شيء أو تركه ممّا فيه نفع للمأمور أو الآمر في مغيب الآمر إن في حياته أو فيما بعد موته، وشاع إطلاقها على أمر بشيء يصلح بعد الموت للموصى، والتّعريف في الوصيّة للجنس. ﴿بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾: المراد بالمعروف العدل الذي لا مضارّة فيه بحيث لا يحدث منه تحاسد وشحناء بين الأقارب، و ﴿حقّاً﴾ مصدر مؤكّد لفعل ﴿كُتِبَ﴾، وعلى المتّقين صفة، أي حقّاً كائناً على المتّقين. ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ...﴾: الضّمائر في الآية عائدة إلى القول أو الكلام الذي يقوله الموصي، والمراد من التّبديل الإبطال أو النّقص من شاهد ووصيّ. ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾: الجنف هو الحيف والميل والجور وفعله كفرح، والإثم المعصية بتعمّد الإجحاف والظّلم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُّوصٍ﴾: قرأ الجمهور ﴿مُوصٍ﴾ على أنّه اسم فاعل "أوصى"، وقرأه أبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف ﴿مُوَصٍّ﴾ بفتح الواو وتشديد الصّاد على أنّه اسم فاعل "وصّى" المضاعف.

د)- البيان والتّفسير:

على ذكر الموت للقتيل وذكره للقاتل قصاصاً جاء ذكر الوصيّة التي هي من أعمال البرّ بعد الموت، وجاء الخطاب للمجموع للتّركيز على التّضامن والتّكافل بين أفراد المجتمع، و لم يتكرّر النّداء الإيماني لأنّ الوصيّة معروفة قبل

الإسلام، غير أنّ أحكامها تحتاج إلى إصلاح وتغيير لتتماشى مع الحقّ والعدل وفق شرع الله الحنيف في مقاصده العليا لحفظ النّفس والمال والعقل والدّين والنّسل، فقال جلّ من قائل: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**﴾:

نزلت هذه الآية الكريمة في إطار التّشريع الإسلامي لتنظيم الثّروة وتوزيعها، إذ نزلت بعدها آية المواريث التي حدّدت الأنصبة للورثة بحكمة وعدل، وقد جعلت الوالدين وارثين في جميع الحالات، أمّا الأقربون فقد بقي النّصّ على عمومه في وجوب الإيصاء لهم إلاّ من ورّثت منهم آية الميراث فلا وصيّة له لقوله ﷺ: «**إنّ الله أعطى لكلّ ذي حقّ حقّه فلا وصيّة لوارث**».[1]

وتتعيّن الوصيّة على من ترك مالاً، إذا ظهرت عليه علامات الموت وأسبابه، وقد أجمع العلماء على أنّ المراد بـ" الخير" هو المال، واختلفوا في تحديد مقداره، بين الكثير والقليل، كما يلوّح التّعبير بـ" الخير" أن يكون ذلك المال طيّباً حلالاً في الأحسن المطلوب، وقد رأى بعض العلماء أنّ تحديد مقدار المال الذي تجب فيه الوصّية يخضع لأعراف النّاس ولمستوى معيشتهم، وما رووه عن عائشة وعلي -رضي الله عنهما- يؤيّد ذلك إذ أراد رجل أن يوصي، فسألته عائشة: كم مالك؟، فقال: ثلاثة آلاف درهم، فقالت: كم عيالك؟، فقال: أربعة، فقالت: إنّما قال الله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْراً﴾، وإنّ هذا يسير

١ - رواه الترمذي عن أبي أمامة الباهلي: كتاب الوصايا، باب لا وصية لوارث، حديث ٢١٢٠: ٤٣٣/٤

فاتركه لعيالك.[١]

وكذلك سأل عليّ مولى له الوصيّة عند احتضاره وله سبعمائة درهم أو ستّمائة فمنعه لكونه ذا عيال، وقال: إنّ الله تعالى قال: ﴿إِن تَـرَكَ خَيْـراً﴾، والخير هو المال الكثير.

ولئن وُقّت وجوب الوصيّة بحضور الموت فهو يُعتبر كحدّ أقصى، وإلاّ فإنّ توقّع الموت بشهود مقدّماته يلحق بذلك، بل الأحوط للدين أن يحـرص المؤمن على إعداد وصيته في وقت صحّته وجواز أمره لقوله ﷺ: **«ما حـقّ امرئ له مال يوصي فيه، يبيت ليلتين إلاّ ووصيّته مكتوبة عنده»**[٢].

وتبدو حكمة هذا التّشريع في توطيد العلائق الأسريّة ومراعاة التّماسك لإطارها المنبثق أصلاً عن الوالدين، ثمّ لمن تنداح بهم دائرة الأسرة من الأقربين الذين لا يرثون، ذلك لأنّ العرب الجاهليّين كانوا يؤثرون أولادهم بعضـهم على بعض، أو يوصون لبعض سادات القبيلة، وعند احتدام عاطفـة الحنـان والشّفقة على الأولاد قد ينسى الوالدان، فتظهر بذلك حكمة البدء بهمـا في النّصّ.

وقوله تعالى: ﴿بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾، قيّدت فرضيّة الوصيّة أن تكون بالمعروف لتفادي أيّ ظلم أو إجحاف للموصى لهم بأن يراعي الموصي

---

١ - رواه البيهقي في السنن عن ابن أبي مليكة عن عائشة: باب من استحب ترك الوصية إذا لم يترك شيئا كثيرا استبقاء على ورثته، حديث ١٢٣٥٩.

٢ - رواه البخاري عن عبد الله بن عمر: كتاب الوصايا، باب الوصـايا، حـديث٢٥٨٧، ١٠٠٥/٣. و رواه مسلم عن عبد الله بن عمر، كتاب الوصايا، حديث ١٦٢٧، ١٢٤٩/٣.

تقوى الله بإنفاذ حكمه في مراعاة حقّ القرابة، وحتّى لا يتضرّر الورثة فقد حصر الرّسول ﷺ الوصيّة في حدود الثّلث لحديثه المشهور عن سعد بن أبي وقّاص أنّه مرض فعاده النّبي، فاستأذنه أن يوصي بجميع ماله فمنعه، إلى أن قال له: «**الثّلث والثّلث كثير، إنّك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكفّفون النّاس**»[1].

وفي أحكام الوصيّة هذه تفاريع تُطلب في مظانّها في كتب الفقه، وكذا في كون الآية منسوخة أو محكمة، وتقرير كيفية النّسخ تَرِدُ في تقارير مطوّلة للفقهاء، وفي ما إذا أحدث الورثة تبديلاً أو تغييراً فإنّ الموصي يكون بريئاً، ويقع الإثم على المبدّلين، قال تعالى: ﴿**فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى الذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾:

ويكون التّبديل بإنكار الوصيّة وإبطالها أو بالنّقص فيها ممّن يملك التّنفيذ بعدما تحقّق وتأكّد من مضمون الوصيّة، سيما إذا كانت على مقتضى توجيهات الشّرع الحنيف، لا ظلم فيها ولا إجحاف، ولتبرئة ذمّة الموصي جاء نفي الإثم عنه بصيغة القصر "إنّما" إذ يقع على الذين يبدّلونه من وليّ ووصيّ وشاهد، ولا يفيد أي تعلّل في ذلك ممّا يقع فيه كثير ممّن يوكل إليهم تنفيذ الوصيّة، ويؤكّد الوعيد على التّبديل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أي لا تخفى عليه حيل النّاس ولا تنطلي عليه مبرّراتهم فيجازيهم على ما يفعلون، ثمّ قال تعالى: ﴿**فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ**

---

١ - رواه البخاري عن الزهري عن عامر بن سعد عن أبيه، كتاب المرضى، باب ما رخّص للمريض أن يقول إنّي وجع...، حديث ٥٣٤٤، ٥/٢١٤٥.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

قد يخرج الموصي عن المعروف، فلا يعدل في الوصيّة، وتنجرّ عن ذلك توتّرات عائليّة تؤدّي أحياناً إلى تعطيل الوصيّة تماماً ممّا يزرع العداوة والشّحناء بين الأقرباء، ولا يخفى ما في عداوة ذوي القربى من مضاضة وتأذٍّ، ولذا فرّع الله عن وعيد التّبديل هذا الإذن في نوع ما يُقصد به الإصلاح بما هو معروف، وذلك بالصّلح بين الموصي والموصى لهم، أو بين الورثة والموصى لدرء الجنف والحيف في كلّ حالة، حتّى ولو كان ذلك الحيف عن غير قصد، وهو ما يفيده التّعبير بـ"خَافَ"، بدلاً من "عَلِمَ" مثلاً، فهذا النّوع من الإصلاح مطلوب شرعاً، وليس على من قام بذلك إثم ولا حرج، لأنّ إحقاق الحقّ وتوخّي العدل بين المستحقّين للحقوق الشّرعية هو من المقاصد الشّرعية العليا، لأنّ مثل هذا التّبديل المأذون فيه يحقّق البرّ والإحسان المأمور بهما شرعاً، وإنّ هذا الإذن مغفور لفاعله لأنّه ضمان للمصلحة العامّة، كما أنّه مظهر لرحمة الله في تدبير شؤون خلقه.

والله أعلم.

فرضيّة الصّيام، و بيان بعض أحكامه

أ)- النّصّ:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾: كُتِب بمعنى فُرِض، وهو يدلّ على الوجوب -كما تقدّم- و الصّيام أو الصّوم في المعنى اللّغوي: هو الإمساك عن الشّيء وتركه، وفي الاصطلاح الشّرعي هو الإمساك عن الأكل والشّرب و غشيان النّساء وجميع المحرّمات في مدّة عيّنها الشّرع الحنيف احتساباً لوجه الله وتزكية للنّفس. و"أل" فيه للعهد الذّهني- أي كُتِب عليكم جنس الصّيام المعروف. ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الذينَ مِن قَبْلِكُم﴾: تشبيه الفرضية بالفرضيّة في ماهية الصّوم، لا في كيفيّته ولا في صفته وعدّة أيّامه. ﴿لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾: "لعلّ" للتّرجّي، ويكون الرّجاء فيما وقعت أسبابه، فالصّوم سبب للتّقوى لأنّه يقمع

الهوى ويردع عن الشّهوات. ﴿أَيَّاماً مَعْدُودَات﴾: منصوب بتقدير فعل "صوموا" ومعدودات كناية عن القلّة، هي شهر رمضان عند جمهور المفسّرين. ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَر﴾: أي الواجب على من أفطر بسببٍ ممّا ذُكِر أن يقضي تلك الأيّام التي أفطر فيها، و"أُخر" جمع "أخرى" صفة للجمع الذي لا يعقل، يُعامل معاملة الواحدة المؤنّثة، ويُعامل معاملة الجمع المؤنّث. ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِين﴾: وعلى الذين يطيقونه أي الذين يشقّ عليهم الصّوم، فالمطيق هو الذي أطاق الفعل-أي كان في طوقه أن يفعله لأنّ الطّاقة أقرب درجات القدرة إلى مرتبة العجز، وهؤلاء كالشيخ الهرم والحامل والمرضع، والفدية هي إطعام مسكين عن كلّ يوم. ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً﴾: أي زاد على ما فُرِض، لأنّ التّطوّع هو السّعي في أن يكون طائعاً غير مكروه. ﴿فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْه﴾: شهد بمعنى حضر دخول الشهر أو حلوله بأن كان مقيماً. ﴿اليُسْرَ﴾: السهولة والتخفيف ضدّه العسر.

ج)- أوجه القراءة:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنْزِلَ فِيهِ القُرْءَان﴾: قرأ الجمهور ﴿القُرْءَان﴾ بهمزة مفتوحة بعد الرّاء السّاكنة و بعد الهمزة ألف، وقرأه ابن كثير ﴿القُرَان﴾ براء مفتوحة بعدها ألف، على نقل حركة الهمزة إلى الرّاء السّاكنة لقصد التّخفيف.

د)- البيان و التّفسير:

الصّوم ركن عظيم في البناء الإسلامي لما شرعه الله من العبادات التي تُزكّي النّفس البشريّة وتُعدّها لتحمّل أعظم الأمانات في إعلاء كلمة الله

والجهاد في سبيله، وذلك لما يكون في الصّوم من أثر بالغ في إصلاح أحوال الأفراد، فيصلح بهم شأن المجتمع الذين ينتمون إليه، وقد تكرّر النّداء الرّبّاني بالصّفة الإيمانية للمخاطبين، استحاشة لداعية الشّعور بالمسؤولية في النّهوض بتكاليف الدّعوة والتّبليغ فقال جلّ من قائل: ﴿ **يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الذينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ**﴾:

صُدِّرت الآية بهذا النّداء الكريم ﴿يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُواْ﴾، وهو نداء حبيب إلى نفوس المخاطَبين تقتضيه طبيعة التّكليف، وهم بأزاء فريضة تتطلّب الجهد والصّبر، وقد فُصِّل هذا النّداء عمّا سيق للانتقال من حكم إلى حكم، وبما أنّ العرب بصفة عامّة كانوا يعرفون الصّوم المأمور به للعهد الذّهني، أي هو معروف لدى المخاطبين في ماهيته، زيدت عليه قيود محدّدة شرعاً، ثمّ جاء التّشبيه لفرضيّته، بما فُرِض على المؤمنين من أتباع الدّيانات السّابقة، وهو تشبيه في ماهية الصّوم لا في كيفيّته، تنويهاً بشأن هذه العبادة، و تحفيزاً لهمم المسلمين للقيام بها على الوجه الأكمل. فللصّوم فضل عظيم وشأن كبير عند الله، ونفع عميم عند عباده المؤمنين، وحسبه فضلاً وشرفاً عند الله أن خصّه بالإضافة إليه في الحديث القدسي: «**يقول الله تبارك وتعالى: كلّ عمل ابن آدم له إلاّ الصّوم، فإنّه لي وأنا أجزي به، ترك عبدي طعامه و شرابه من أجلي**»[1].

أمّا منافعه عند المؤمنين فقد عدّدها العلماء بما لا مزيد عليه، وتبرز الآية الكريمة المقصد الشّرعي منه بأنّه رجاء الحصول على التّقوى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وكلمة التّقوى هي كلمة جامعة لكلّ أنواع الخير والصّلاح، إذ

١- رواه مسلم عن أبي هريرة، كتاب الصوم، باب فضل الصيام، حديث ١١٥١، ٢/٨٠٧.

وصفها الله بأنّها خير زاد يتزوّد به المؤمن عند ممارسته لمختلف العبادات الّتي كلّفه الله بها، ثمّ إنّها مناط القبول والرّضى عند الله في قيام العبد بأيّ طاعة لله، كما قال تعالى في سورة الحجّ: ﴿لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُم﴾ (الحجّ:٣٥).

ثمّ بيّن الله تعالى أنّ الصّوم محدود بأيّام معدودات قليلة هي شهر رمضان عند جمهور المفسّرين، والوصف بالمعدودات كناية عن القلّة تهويناً لمؤونة التكليف بها، إذ جعلها الله فرضاً واجباً على المطيقين لها، وأمّا من يلقى المشقّة في الصّوم فقد رخّص الله له في الإفطار على أن يقضي ما أفطره عندما يزول عنه الحرج فقال تعالى: ﴿**فَمَنْ كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً اَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ اَيَّامٍ اُخَرَ**﴾:

يحدّد النّصّ حالتين تكونان مظنّة للحرج و المشقّة و هما المرض والسّفر، والمشقّة تجلب التّيسير، و جاء اللّفظان مطلقين دونما تحديد لحجم المشقّة المنجرّة عنهما، وقد توسّع الأئمّة والفقهاء في بيان ذلك بين التّشديد والتّخفيف، ولله الحكمة البالغة في التّشريع لخلقه إذ أطلق و لم يقيّد، لأنّ التّقديرات البشريّة في تقرير تفاصيل الأحكام الفقهية مهما توخّوا فيها علّة الحكم فإنّها ستظلّ ناقصة أزاء ما يريده الله من الحكمة في ما شرعه، على أنّ ما ذكره الله لاحقاً من إرادته التّيسير لعباده ونصّ على ذلك بخصوص عبادة الصّوم يجعلنا لا نخرج عن روح النّصّ هنا تاركين التّفاصيل والجزئيّات تُؤخذ من مظانّها في الموسوعات الفقهيّة، فأيّما مرض أو سفر يسبّب المشقّة والضّرر للصّائم فقد رخّص الله له أن يُفطر، على أن يقضي ما أفطره عندما يُرفَع عنه ذلك الحرج، والله تعالى يحبّ أن تُؤتَى رخصه كما يحبّ أن تُؤتَى عزائمه، كما

ثبت ذلك في الحديث الشّريف.[1]

وحسب المؤمن في تطبيق ذلك أن يكون مدفوعاً بتقوى الله وخشيته لا بهوى نفسه، أو مراعاة المصالح العاجلة، وقد رُويت عن رسول الله ﷺ أحاديث في موضوع المرض والسّفر تساعد في مجموعها على تفهّم روح النّصّ، وكيف كان سلفنا الصّالح يتعاملون مع الأوامر والتّوجيهات الإلهية دونما تعقيد و لا غلق حبّذا لو أنّ الخَلَفَ ساروا على سننها -إذن- لَطَرَحْنَا عن كاهل الأمّة الإسلامية كثيراً من شرور الخلاف وأوزار التّنابذ والخصام.

ثمّ تعرّض النّصّ إلى حالات تكون فيها المشقّة مستديمة أو عارضة لبعض الأشخاص فقال جلّ من قائل: ﴿**وَعَلَى الذينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَنْ تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنتُم تَعْلَمُونَ**﴾:

الجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾، و الذين يطيقون الصّيام هم من جملة المخاطبين بفرضيته عليهم، أي أنّهم في طوقهم أن يفعلوه ولكن بأقصى جهد و مشقّة، لأنّ الإطاقة هي الاحتمال بأقصى جهد، فهؤلاء قد رخّص الله لهم أن يفطروا، على أن يطعموا مسكينا عن كلّ يوم أفطروه، وبما أنّ العلّة قد تكون مستديمة عند البعض كالشّيخ الهرم والمريض المزمن، فهؤلاء يفطرون ويطعمون وليس عليهم قضاء، أمّا من كانت علّته عارضة كالحامل والمرضع فإنّه يفطر ويقضي متى استطاع ذلك، وقال بعض علماء الصّحابة والتّابعين أنّ هذا التّرخيص فُرِض في أوّل الإسلام، إذ كان تكليف الصّوم شاقّاً على المسلمين، ثمّ نُسِخ بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ

١ – رواه البيهقي عن عبد الله بن عمر في السّنن، حديث ٥١٩٩، ٣/١٤٠.

الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

يقول الإمام ابن عاشور: "ورويت في ذلك آثار كثيرة عن التّابعين، وهو الأقرب من عادة الشّارع في تدرّج تشريع التّكاليف التي فيها مشقّة على النّاس من تغيير معتادهم كما تدرّج في تشريع منع الخمر.

ونلحق بالهرِم و المرضع والحامل كلّ من تلحقه مشقّة أو توقّع ضرّ مثلهم، وذلك يختلف باختلاف الأمزجة واختلاف أزمان الصّوم من اعتدال أو شدّة برد أو حرّ، وباختلاف أعمال الصّائم التي يعملها لاكتسابه من الصّنائع كالصّائغ والحدّاد والحمّامي وخدمة الأرض وسير البريد وحمل الأمتعة وتعبيد الطّرقات...إلخ»[1].

قلت: وبناء على هذا التّوجيه الدّقيق لمعنى الآية: فإنّ ابن عبّاس يرى أنّها غير منسوخة، بل هي للشيخ الهرم والمرأة الكبيرة ولمن في مثل حالهما ممّن لا يستطيعون الصّوم، يفطرون ويطعمون مكان كلّ يوم مسكيناً.

وفسّرت الفدية بالإطعام، وهو ما يُشبع عادة من الطّعام المعتمد عليه للغذاء في البلد، أي لوجبتين غداءً وعشاءً، ثمّ حبّب الله التّطوّع في الإطعام للمساكين إطلاقاً، توسيعاً لدائرة التّكافل الاجتماعي وأنّ ذلك خير وبركة لصاحبه، ثمّ مع الرّخصة يأتي التّحفيز على الصّوم، وإن كان فيه مشقّة -هكذا على الإطلاق- أي حتّى في حالتي المرض والسّفر، ما لم يبلغا بالصّائم حدّ الضّرر المهلك لأنّ اللفظ على عمومه، وذلك في اختيار الإمامين الفخر الرّازي والقرطبي، وقد ذيّل الله هذه التّوجيهات بقوله: ﴿إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي ما

١- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٣٨٧/٢.

يكون في الصّوم من الفوائد المادية و الرّوحية، وما ينجرّ عنه من أجر وثواب.

وتكملة للآية السّابقة جاء هذا الاستئناف البياني للأيّام المعدودات التي كتب الله علينا صيامها، بأنّها شهر رمضان فقال تعالى: **﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنزِلَ فِيهِ القُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾:**

قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ خبر لمبتدإ محذوف تقديره: هي أي الأيّام المعدودات هي شهر رمضان، والشّهر مشتقّ من الشّهرة بظهور هلاله فيراه النّاس ويثبت عندهم ظهور الشّهر وهو جزء من اثني عشر جزءاً في تقسيم السّنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ (التوبة:٣٦).

ورمضان علَم على الشهر التّاسع من أشهر السّنة القمرية التي يعتمدها العرب في ضبط حساباتهم، وإضافة لفظ الشّهر إلى رمضان للدلالة على استيعاب جميع أيّامه بالصّوم، فهي الظّرف الزّمني المحدّد من الله لأداء هذه الفريضة، وقد أشاد الله بفضله بأن قدّره ظرفاً زمنيّاً لبدء نزول القرءان، فجعل ذلك علّة لذلك التّخصيص بالشّرف والقدر، والمخاطبون يدركون ما لنزول القرءان من الفضل عليهم في الهداية والإرشاد وهو كتابهم الخالد الذي رفع ذكرهم وأخرجهم من الظّلمات إلى النّور، فهو هدى للنّاس بصفة عامّة بما فيه من الإرشاد والنّصح، وهو ميسّر لمن يستدلّ به لطريق الخير بمعرفة حقّ الألوهية والرّبوبية، والإيمان بالرّسالة والنّبوءة وبالتّالي فإنّ القرآن يفرق بين الحقّ والباطل، فلا عجب أن يكون ظرفاً رمضان زمنيّاً لعبادة الصّوم يؤدّيها المؤمنون شكراً لله على نعمة الهداية.

وبعد تهيئة النّفوس وترويضها لتحمّل مشقّة الصّوم بما سبق يأتي هذا

التّفريع بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً اَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ اَيَّامٍ اُخَرَ﴾:

و"شَهِدَ" بمعنى حضر، أي بأن كان غير مسافر، ويكون حضر بمعنى "علم"، وذلك بالنّسبة لتحقّق وجود الهلال برؤيته أو بالإخبار عن رؤيته.

وبعد الرّخصة تأتي العزيمة بوجوب الصّوم بالنّسبة للصّحيح المقيم فيما عدا من لا يطيقه كالشّيخ والمريض المزمن. وبعد تحديد ظرفه الزّمني وتعظيم أمره أُعيد ذكر الرّخصة للمريض والمسافر لئلاّ يُتوهّم إسقاطها بعد ذلك التّأكيد للصّوم وخيريته، ولذلك جاء التّعليل بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾:

أي شرع الله لكم تلك الرّخصة لأنّه يريد بكم اليسر، أكّد إثبات تلك القاعدة العظيمة في طبيعة هذا الدّين بأن لا حرج فيه، أكّده بنفي الضّدّ ﴿وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾، ثمّ عطف عليه بقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ، وَلِتُكَبِّرُواْ اللهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

وإكمال العدّة يتمّ بصوم أيّام شهر رمضان بكامله أداءً وقضاءً. والأمر بالتّكبير يُراد به تعظيم المؤمن لله بما حباه من نعمة الهداية، إذ وفّقه إلى حسن طاعته وهو يقوم بأداء فريضة الصّوم، شكراً لله تعالى، ولصاحب المنار توجيه جيّد في ترتيب هذه التّعليلات نكملُ به تفسير هذا النّصّ، قال: "إنّ إكمال العدّة تعليل لكون الصّيام المشروع أيّاماً معدودات لابدّ من استيفائها أداء في حالة العزيمة وقضاء في حالة الرّخصة، وإرادة اليُسر دون العسر تعليل للرّخص الثّلاث: للسّفر والمرض والمشقّة التي تقتضي الفدية، والتّكبير تعليل لإكمال العدّة بصيام الشّهر كلّه، ومظهره الأكبر في عيد الفطر إذ شرع فيه التّكبير

القولي ليله وإلى ما بعد صلاته، وبذلك كلّه نكون من الشّاكرين له على هذه النّعم كلّها وعلى غيرها".[١]

و الله أعلم.

متابعة أحكام الصّيام

أ)- النّصّ:

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَ أَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧).

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾: استعمال الشّرط "إذا" مع مادّة السّؤال

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٢/١٦٥.

"سألك" هو لقصد الاهتمام بما سيُذكر بعده، والمقصود بـ"عبادي" هم المؤمنون المخاطَبون بهذه الأحكام. ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾: أجاب واستجاب يكون بالإقبال على المنادي، أو بقول يدلّ على الاستعداد للحضور نحو "لبّيك" أي يلبّي المؤمنون ما دعاهم الله إليه بالإيمان و الطّاعة. ﴿يَرْشُدُونَ﴾: من الرّشد والرّشاد أي الهداية وإصابة الحق، ضدّه الغيّ و الفساد. ﴿الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾: أي الإفضاء إليهنّ ومباشرتهنّ، والأصل من الرّفث أنّه الفُحش في الكلام، سيما مع النساء في شؤون الالتذاذ بهنّ ثمّ أُطلق على الجماع كناية. ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَ أَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾: أي بينكم وبينهنّ ملابسة وخلطة، فكلّ منكم لباس للآخر يستر صاحبه ويمنعه من الفجور. ﴿تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾: من الاختيان أي مراودة الخيانة، وخيانة النفس تمثيل لانتقاصها بعض ما أحلّ الله لها من اللّذّات. ﴿الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ﴾: والخيط هو سلك الكتّان أو الصّوف أو غيرهما يلفق به بين الثياب بإبرة أو خيط، وجاء تشبيها لأوّل ما يبدو من بياض النهار أو سواد الليل. ﴿وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾: المباشرة هي لمس الواحد بشرة الآخر والمراد بها هنا الجماع، و الاعتكاف لغة اللّبث وملازمة الشيء، و شرعا المكث في المسجد طاعة وتقرّبا إلى الله. ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾: جمع "حدّ" وهو الحاجز بين شيئين، و يُطلق على ما شرعه الله لعباده من الأحكام.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾: حُذفت ياء المتكلّم من قوله "دعان"، وذلك في قراءة نافع وأبي عمرو وحمزة والكسائي، لأنّ حذفها في الوقف لغة

جمهور العرب ما عدا أهل الحجاز، و لا تُحذَف عندهم في الوصل لأنّ الأصل عدمه، ولأنّ رسم المصحف يبنى على حال الوقف، و أثبَت الياء ابن كثير وهشام ويعقوب في الوصل والوقف، وقرأ ابن ذكوان وعاصم بحذف الياء في الوصل والوقف وهي لغة هذيل.

د)- البيان و التّفسير:

تعاطفت أوامر الله في الجُمل السابقة بصيغة الخطاب للمؤمنين يأمرهم فيها بإكمال عدّة الصّيام، وبالتّكبير لله رجاء أن يكونوا من الشّاكرين، وذلك يقتضي منهم القول والعمل متوجّهين إلى الله طلبا للرّضى والقبول، وهم في أداء واجباتهم تلك قد يختلفون في صيغ أدعيتهم وفي كيفية إبلاغها ورفعها إلى الله ما بين الجهر والإخفات، كما دلّت على ذلك مختلف الرّوايات الكثيرة التي تذكر أسباب النّزول لهذه الآية الكريمة التي توسّطت بيان أحكام الصّوم إذ قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِيَ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾:

التفت الله تعالى إلى خطاب النّبيّ وحده، لأنّ المقام مقام تبليغ و إرشاد، سيما وقد طرح المؤمنون عليه السّؤال عن الطّريقة المثلى في توجّههم إلى الله بالدّعاء، بعد أن طرحوا أوضار الشّرك حين كانوا يتّخذون الوسطاء بينهم وبين الله. وإذ أصبحوا بإيمانهم جديرين بتشريف الله فقد وُصفوا بأنّهم عباده المخلصون الأوفياء، فقال تعالى في شأنهم: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾، واستعمال الشرط "إذا" مع السّؤال لقصد الاهتمام بما سيُذكر، ومثل هذا السؤال متوقّع من المؤمنين والإجابة عنه بمثل تلك اللّطافة والرّقّة في مثل هذا المقام من بيان أحكام الصّوم من شأنه أن يُعِدّ النّفوس إلى الرّضى والاطمئنان

بتلكم الأحكام.

إنّها التربية الإلهية المثلى في مجال الدعوة والتّبليغ، ومعنى قرب الله أنّ علمه محيط بكلّ شيء، فهو تعالى عليم بما في نفوس عباده مطّلع على أحوالهم فهو قريب من كلّ شيء، ودعاء العبد له وسيلة للتّقرّب إليه، فهو تعالى يجيب دعوة الدّاعي إذا رفعها إليه بالعمل الصّالح وبالإخلاص في التوجّه إليه، قال تعالى في سورة فاطر: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر:٢٦)، وما أبلغ هذا الجواب في ترتيب الاستجابة على الدعاء مباشرة عندما تتوفّر لدى المؤمن الدّاعي الآداب المطلوبة وقد أكّدت هذا المعنى كثير من الأحاديث:

- أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجة من حديث ابن ميمون عن سلمان الفارسيﷺ عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «**إنّ الله ليستحي أن يبسُط العبد إليه يديه يسأله فيهما خيرا فيردّهما خائبتين**».[١]

- و في صحيح مسلم عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «**لا يزال يُستجاب للعبد ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل، قيل: يا رسول الله وما الاستعجال؟، قال: يقول: قد دعوت وقد دعوت، فلم أرَ يُستجاب لي، فيستحسر عند ذلك و يدَع الدعاء**».[٢]

أمّا كيف يستجيب الله الدعاء ومتى؟؟، فيَكِل فيه العبد الأمر إلى الله،

١- رواه الحاكم في المستدرك عن سليمان، حديث ١٨٣٠، وقال صحيح الإسناد و لم يخرجاه، ٦٧٥/١.

٢- رواه مسلم عن أبي هريرة، كتاب الذكر والدعاء، باب بيان أنّه يستجاب للداعي ما لم يعجل، حديث ٢٧٣٥، ٢٠٩٥/٤.

وقد فرّع الله على إجابته للعبد أمرين:

- أن يستجيب لأوامر الله طاعة وانقياداً.
- أن يكون مخلصاً في إيمانه.

والثمرة الأخيرة لذلك هي الرّشاد والصّلاح لهم وذلك غاية ما يرجى للمؤمن في دنياه و آخرته والصّائم أقرب الدّاعين استجابة، لأنّه شديد الصّلة بربّه، وهو متلبّس بعبادة الصّوم فقد روى ابن ماجة عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**للصّائم عند إفطاره دعوة لا تُردُّ**».(١)

ويتابع السّياق بيان أحكام الصيام فيقول تعالى: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَ أَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ**﴾:

ذكر المفسّرون في أسباب نزول هذه الآية حوادث كثيرة وقعت عند الأصحاب، وكان ذلك في أوّل ما فرض الصوم، أي قبل نزول هذا البيان التّفصيلي لكيفية الصوم، فاجتهد الأصحاب أمام ذلك الإجمال وأقرّهم النّبيّ على ذلك الاجتهاد حتّى نزل هذا النّصّ القطعي لبيان كيفية الصوم بما يتماشى مع قاعدة اليُسر، وفي ما روي من أسباب النّزول ما أخرجه أحمد والحاكم عن معاذ ابن جبل رضي الله عنه قال: «**كانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا،**

---

١ – رواه ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو بن العاص، كتاب الصوم، باب في الصائم لا تردّ دعوته، حديث ١٧٥٣، ١/٥٥٧.

فإذا ناموا امتنعوا، ثمّ إنّ رجلاً من الأنصار يقال له قيس بن صرمة صلّى العشاء، ثمّ نام فلم يأكل ولم يشرب حتّى أصبح، فأصبح مجهودا، وكان عمر أصابه من النّساء بعدما نام، فأتى النّبيّ ﷺ فذكر له ذلك، فأنزل الله ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾.[1]

قلت: إنّ هذه التّجربة القاسية التي وقع فيها الأصحاب، وهم يحاولون امتثال أمر الله في فرضية الصّوم، وتأخير البيان الإلهي لما هو المطلوب من الصّوم، يجعلهم يدركون فضل الله عليهم في رفع المشقّة عنهم، ويحسّون رحمة الله بهم ومدى ما في تكاليف دينهم من اليُسر.

وليلة الصّيام هي الليلة التي يصبح منها المرء صائماً، والرّفث إلى النساء هو الإفضاء إليهنّ ومباشرتهنّ، وقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَ أَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ هو لبيان سبب الحكم في ترخيص مباشرتهنّ ليلة الصيام، وهو إيحاء بليغ لما يجب أن تكون عليه العلاقة الزوجية من دفء وحرارة ومودّة متبادلة بين الزوجين لتحقيق السّكن النّفسي لكليهما لا لمجرّد الإشباع الحيواني، ولا يفلت النّصّ أن يمحو آثار الشّعور بالذّنب في ما اجتهدوا فيه، إذ جاء التعبير بخيانة الأنفس تمثيلاً لتكليفها ما لم تُكلّف، وانتقاصها حقّها تعزيراً لها، فكان عفو الله النّديّ، وتوبته عليهم، ثمّ إباحته لتلبيتهم لرغباتهم المكبوتة، مع الإيحاء بحكمة الله في ذلك الاتّصال الشّرعي و الغاية منه في بقاء النسل البشري: ﴿وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

---

١ - رواه الحاكم عن معاذ بن جبل، حديث ٣٠٨٥، وقال: صحيح الإسناد و لم يخرجاه، ٣٠١/٢- ورواه أحمد عن معاذ أيضاً، ٢٤٦/٥.

﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾:

وكذا أباح الله في الفترة ذاتها الأكل والشّرب حتّى يتبيّن بياض الفجر أي الفجر الصّادق، ثمّ حدّد الله نهاية وقت الصّيام ببدء الليل وهو غروب الشمس، وقد أوضح الرسول الفترة الزمنية لوقت الصّوم في ما أخرجه البخاري ومسلم، قال رسول الله ﷺ: «**إذا أدبر النّهار وأقبل الليل وغابت الشّمس فقد أفطر الصّائم**».(١)

ثمّ يستثني الله من إباحة المباشرة للنساء حالة العكوف في المساجد أي سواء في ذلك فترة الإمساك و فترة الإفطار، فإنّ مباشرة النساء تبطل الاعتكاف، كما تبطل الصيام نهاراً.

ثمّ أشار الله إلى كلّ الأحكام المتقدّمة ووصفها بأنّها حدود الله، لأنّها تحدّد الأعمال وترسم أُطُرها حتّى لا يتجاوزها المؤمن فيكون عمله باطلاً، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا﴾:

والنهي عن قُربها يتطلّب الاحتياط والحذر، لأنّه من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه، والتقوى تقتضي من المؤمن الحيطة في تنفيذ أوامر الله حتّى لا يقع في المحظور،

وقد شدّد العلماء في هتك حرمة رمضان، بحيث لا يرون في ما يترتّب

١- رواه البخاري عن عمر بن الخطّاب، كتاب الصوم، باب متى يحلّ فطر الصّائم، حديث ١٨٥٣، ٢/٦٩١. ورواه مسلم عن عمر أيضاً، كتاب الصوم، باب وقت انقضاء الصوم وخروج النهار، حديث ١١٠٠، ٢/٧٧٢.

على ذلك من التوبة والقضاء والكفّارة أنّه يُعفى عند الله من التّبعة والحساب.

ثمّ كان التذييل بعد بيان تلك الأحكام بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، فإنّ المقصد من بيان تلك الأحكام-وعلى نحو ذلك ما يبيّنه الله من آياته للناس- هو إعدادهم للتقوى، حتّى لا يقعوا في المخالفات، ولا ينحرفوا مع الأوهام والخرافات، أو ينقادوا للهوى والشّهوات.

والله أعلم.

النهي عن أكل الأموال بالباطل

أ)- النّصّ:

وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿لاَ تَاكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُم بِالبَاطِلِ﴾: أي لا يأكل بعضكم مال بعض، الأموال جمع مال، ويُعرَّف بأنّه ما بقدره يكون قدر إقامة نظام معاش أفراد النّاس في تناول الضّروريات والحاجيات والتّحسينيات بحسب مبلغ حضارتهم حاصلاً بكدح، والباطل اسم فاعل من بَطَل إذا ذهب ضياعاً وخسراً أي أكلها بدون وجه. ﴿وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الحُكَّامِ﴾: تُدلوا من الإدلاء، وهو في الأصل

إرسال الدّلو في البئر، وهو هنا مجاز في التّوسّل والـدّفع، أي لا تلقوهـا إلى الحكّام، والمراد التّرافع بها إليهم بخصام الفجور. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُـونَ﴾: حـال مؤكّدة، لأنّ الذي يفعل ذلك هو عالم بفعله، وهو آثم بذلك.

ج)- البيان و التّفسير:

على ذكر احترام حدود الله، وفي ظلّ بيان أحكام الصّوم، والامتناع عن الأكل والشّرب، ينتقل السّياق إلى النهي عن نوع آخر من الأكل، يتمثّـل في أكل أموال الغير بالباطل سيما عند التّقاضي بشأنها أمام الحكّام، والمناسبة لمـا قبله واضحة، وذلك لما يجب أن يكون عليه الصّائم من تـوخّي الحـلال في مطعمه ومشربه، ليحصل على الفوائد العظمى المادّية والرّوحية مـن صـيامه طهارة نفس وصفاء قلب وقوّة إرادة وعزيمة في عبادة الله والالتزام بأحكـام شريعته قال تعالى: **﴿وَلاَ تَاكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُم بِالبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَـا إِلَـى الْحُكَّامِ لِتَاكُلُواْ فَرِيقاً مِّنَ اَمْوَالِ النَّاسِ بِالاِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:**

عُطِفت الجملة على ما قبلها للمناسبة المذكورة، والخطاب فيها لعمـوم المُكلّفين. وقد عرف الإنسان قيمة المال منذ وجوده على ظهر الأرض وتفـنّن في طرق كسبه، كما تفنّن في طرق إنفاقه، ومعروف عن الجاهليّين العرب أنّ لهم عادات وتقاليد في ذلك لا تمتُّ إلى العدل والإنصاف بصلة، إذ يسود بينهم قانون الغاب، فلا يجد المستضعَفون بينهم أدنى رحمة ولا شفقة، ومن ثَمّ عُنـيَ الإسلام بمحاربة تلك الظّواهر، ليأخذ العدل مجراه في العلائق الاجتماعية، وفي التّعامل بين النّاس، على اعتبار أنّ الأموال المتداولة بينهم هي حقّ للجميع فجاء التّعبير بـ: ﴿وَلاَ تَاكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُم بِالبَاطِلِ﴾ للإشعار بوحـدة الأمّـة وتكافلها في ذلك، فيحترم المؤمن مال غيره كما يحترم مال نفسه، كما جـاء

التّعبير بالأكل بالباطل، وهو يشمل كلّ تناول للمال بغير الأوجه المشروعة، سواء ما كان منها معروفاً كالرّبا والسّرقة، وجحد الحقوق...إلخ، أو ما هو مستحدث اليوم من أنواع القمار والغشّ والخديعة.

ومن الأكل بالباطل أن تُخاصم بالفجور ليقضي لك القاضي وأنت تعلم أنّك على الباطل، سيما إذا كان خصمك أدنى منك في الإدلاء بحجّته، أو أنّك تغري الحاكم بالرّشوة، فتكون بذلك آثماً مرّتين، وقد ورد في الصّحيحين عن أمّ سلمة وابن عباس أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إنّما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم فلعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صادق فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو يذرها**».[1]

ومن هنا تعظم مسؤولية القاضي في توخّي العدل والإنصاف للمظلومين، كما تعظم مسؤولية كلّ الأجهزة القضائية، سيما المحلّفين والمحامين، ومهما يجتهد القاضي في إصدار الحكم فإنّه لايحلّ حراماً ولا يحرّم حلالاً، لأنّه يحكم على الظّاهر، وإنّما الإثم على المحتال المخادع، وفي إلزامية حكم القاضي، وهل هو على الظّاهر، أم ينفذ ظاهراً وباطناً، خلاف بين العلماء.

وكم في القرآن من تنديد ونهي عن أكل الأموال بالباطل تصبّ كلّها في خانة هذه الآية الكريمة التي تعرّضت إلى أكثر الوسائل تفويتاً لحقوق النّاس

١- رواه البخاري عن أمّ سلمة، كتاب الأحكام، باب موعظة الإمام للخصوم، حديث ٦٧٤٨، ٦/٢٦٢٢.

ورواه مسلم عن ابن عباس، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللّحن بالحجّة، حديث ١٧١٣، ٣/١٣٣٧.

بالتّقاضي إلى الحكّام حتّى في بعض القضايا التي لا تستدعي ذلك، قال تعالى في سورة النساء:

أ- ﴿يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُواْ لاَ تَاكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُم﴾ (النساء:٢٩).

ب- ﴿وَلاَ تُؤتُواْ السُّفَهَآءَ اَمْوَالَكُم التِي جَعَلَ اللهُ لَكُم قِيَماً﴾ (النساء:٥).

ج- ﴿إِنَّ الذينَ يَاكُلُونَ أَمْوَالَ اليَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَاكُلُونَ فِي بُطُونِهِم نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ (النساء:١٠).

فاللهمّ اغننا بحلالك عن حرامك، وبفضلك عمّن سواك، وارزقنا الشّكر والقناعة، والموت بلا ذنب ولا تباعة.

والله أعلم.

التّوقيت الشّرعي بالشّهر القمريّ،

وبيان حقيقة البرّ

أ)- النّصّ:

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ﴾: وموضوع السّؤال هو عن سبب تشكّله على كيفيات مختلفة، فكانت الإجابة منصرفة إلى معنى آخر لتحديد المواقيت الشّرعية، ويسمّى ذلك في البلاغة بالأسلوب الحكيم، والأهلّة جمع هلال وهو القمر عندما يبدو دقيقاً في اللّيلتين أو الثّلاث في أوّل كلّ شهر، وسُمّي كذلك لرفع الصّوت عند طلوعه أوّلاً، وأمّا جمعه مع أنّه واحد فعلى اعتبار ليالي طلوعه. ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ﴾: مواقيت جمع "ميقات"، وهو ما يُعرف به الوقت-أي الزّمن المعيّن المقدّر-، وقيل: إنّ الميقات أخصّ من الوقت، لأنّه قدّر فيه عمل من الأعمال. ﴿وَلَيْسَ البِرُّ بِأَن تَأتُوا البُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾: وذلك في الإحرام باتّخاذ نقب يدخلون منه إلى المسجد ويخرجون تاركين باب البيت الأصليّ اعتقاداً منهم أنّ ذلك من البرّ.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَلَيْسَ البِرُّ...﴾الآية: تقدّم خلاف القرّاء في نصب كلمة "البرّ" ورفعها وفي تشديد نون "لكن". ﴿وَاْتُواْ البُيُوتَ مِنَ اَبْوَابِهَا﴾: قرأ الجمهور "البيوت" في موضعي الآية بكسر الباء على خلاف صيغة جمع "فعل" على "فعول"، فهي كسرة لمناسبة وقوع الياء التّحتية بعد حركة الضمّ للتّخفيف، وقرأه أبو عمرو وورش عن نافع، وحفص عن عاصم وأبو جعفر، قرأوه بضمّ الياء على أصل صيغة الجمع مع عدم الاعتداد ببعض الثّقل.

د)- البيان و التّفسير:

تُطالعنا في قطاع كبير من هذه السّورة كثير من الأسئلة، يوجّهها المسلمون إلى رسول الله ﷺ في مواضع شتّى، وكلّها تتّصل بحياتهم الجديدة، وهم يلتمسون بذلك المسلك الصّحيح في ما يعترضهم من مشاكل، إذ تفتّحت مداركهم على حياة جديدة، وعلى تصوّر جديد لما حولهم من شؤون الكون، فأخذ مجتمعهم الفاضل يتبلور شيئاً فشيئاً بخصائصه ومميّزاته وتتحدّد فيه العلائق الاجتماعية وفق منهج الله السّويّ.

وأوّل الأسئلة كانت عن الأهلّة، ما بالها تتشكّل على تلك الأحوال المختلفة هلالاً فبدراً كاملاً ثمّ هلالاً، ثمّ تختفي لتظهر من جديد.

ومناسبة وضع السّؤال في هذا الموضع هي البيان المتقدّم لتوقيت الصّيام، كما جاء ذكر الحجّ تمهيداً لبيان بعض أحكامه، وكذا حكم القتال في الأشهر الحُرُم،فقال تعالى:﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الاَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ**﴾:

كان لقيام اليهود في المدينة وتواطئهم مع المشركين في مكّة استفزازات للمسلمين بمحاولة التّشكيك في صدق الدّعوة الإسلامية، إذ يلقون بمثل هذه الأسئلة التّعجيزية فيتنزل القرآن بالإجابة الصّادقة، ويقطع عنهم الطّريق ويدمغهم بالحقّ، فقد روي في أسباب النّزول أنّ أحد اليهود سأل أنصاريًّا عن الأهلّة وأحوالها في الدّقّة إلى أن تصير بدراً ثمّ تتناقص حتّى تختفي، فسأل الأنصاريّ رسول الله فنزلت هذه الآية، وقيل: إنّ السّائل هو معاذ بن جبل ﷺ.

وبما أنّ موضوع السّؤال كان علمياً في موضوع الفلك، ولم يتهيّأ المخاطَبون بعد لاستيعاب نظرّيات ذلك العلم، جاءت الإجابة بالأسلوب الحكيم، موجّهة إلى ما يهمّهم من ضبط مواقيت عباداتهم وفي تنظيم شؤونهم المختلفة، والإجابة بمثل هذا الأسلوب تتضمّن إرشاداً بليغاً للمسلمين أن يطالبوا من الشّرع ما ليس منه، وبالتّالي فإنّ القرآن كتاب إرشاد وتوجيه، وكلّ سؤال يخرج عن ذلك الإطار فهو في غير محلّه.

يقول سيّد قطب رحمه الله: "إنّ مادّة القرآن التي يعمل فيها هي الإنسان ذاته: تصوّره واعتقاده، ومشاعره ومفهوماته، وسلوكه وأعماله، وروابطه وعلاقاته، أمّا العلوم المادّية والإبداع في عالم المادّة بشتّى وسائله وصنوفهن فهي موكولة إلى عقل الإنسان وتجاربه وكشوفه ونظرّياته".[1]

أمّا إفراد الحجّ بالذّكر في الآية الكريمة فللمفسّرين فيه اجتهادات، قال الإمام الرّازي: "وأحسن الوجوه فيه ما ذكره القفّال-رحمه الله-، وهو أنّ إفراد الحجّ بالذّكر إنّما كان لبيان أنّ الحجّ مقصور على الأشهر التي عيّنها الله تعالى

١ - سيد قطب، في ظلال القرآن، ٢/٩٣.

لفرضه، وأنّه لا يجوز نقل الحجّ من تلك الأشهر إلى أشهر أخرى كما كانت العرب تفعل ذلك في النّسيء".[١]

وعلى ذكر الحجّ جاء العطف للتّنديد بعادة جاهليّة ترتبط بشؤون الحجّ فقال تعالى: **﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى، وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا، وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾:**

فقد روي في الصّحيحين عن البراء بن عازب ﷺ قال: **«كان الأنصار إذا حجّوا فجاءوا لم يدخلوا من قِبَل أبواب البيوت، فجاء رجل فدخل من قِبَل أبواب البيوت، فجاء رجل فدخل من قِبَل بابه-فكأنّه عُيِّرَ بذلك- فنزلت ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ...﴾.»**[٢]

وكانوا يعتقدون أنّ إتيان البيوت عند الرّجوع من السّفر من غير أبوابها برّ، وكان ذلك خطأً في التّصوّر لا يعدو أن يكون من بقايا الجاهليّة، وقد حدّد الله معايير البرّ الصّحيح في ما سبق، ومثل هذا التّصرّف إنّما هو انحراف عن الإطار الذي رسمه الله للبرّ ولا هو من التّقوى لله في شيء، ولذلك أمرهم الله بان يرجعوا إلى حظيرة التّقوى بإتيانهم للبيوت من أبوابها، ففي ذلك رجاء فلاحهم في الدّنيا والآخرة.

والله أعلم.

---

١ - الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ١٢٤/٥.

٢- رواه البخاري في كتاب الحج، باب قول الله تعالى: وآتوا البيوت من أبوابها، حديث ١٧٠٩، ٦٣٩/٢.

قواعد القتال في سبيل الله، وبيان الغاية منه

أ)- النص:

وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الذِينَ يُقَاتِلُونَكُم﴾: قاتلوا مقاتلة وهي من المُفاعلة وتعني حصول الفعل من الجانبين، وتعني هنا اتّخاذ أسباب القتال أي المحاربة، والقتال: الحرب بجميع أحوالها، والقتال في سبيل الله ما كان منه لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه. ﴿وَلاَ تَعْتَدُواْ﴾: أي لا تُبادئُوا أعداءكم بالقتال، وقيل: لا تعتدوا في القتال -أي بمخالفة بعض قواعد الحرب-. ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم﴾: ثقفتموهم بمعنى لقيتموهم لقاء حرب. ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾: أي إخراج المشركين من مكّة كما فعلوا بالرسول وأصحابه.

﴿وَالفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ﴾: الفتنة هي زرع الخوف في النفوس واضطراب أحوال العيش.

﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ﴾: اللاّم في "للهِ" للاختصاص، أي حتّى يكون جنس الدّين مختصّاً بالله وحده، لا يخشى أحد غيره ولا يصدّ عنه. ﴿وَالحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾: جمع حرمة وهي ما يجب احترامه، وكونها قصاصاً أي مماثلة في المجازاة والانتصاف إذا انتُهكت. ﴿فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾: وذلك يشمل المماثلة في المقدار وفي الأحوال مثل كونه في الشهر الحرام أو البلد الحرام. ﴿وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾: إرشاد عام يشمل معنى الأمر بالإنفاق وغيره من تصاريف الحرب وحفظ النّفوس. ﴿وَأَحْسِنُواْ﴾: من الإحسان، وهو فعل النّافع الملائم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ المَسْجِدِ الحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُم فيه﴾:قرأ الجمهور ثلاثتها بألف بعد القاف، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوهُمْ عِندَ المَسْجِدِ الحَرَامِ حَتَّى يُقْتُلُوكُم فِيهِ، فَإِن قَتَلُوكُم﴾، أي بدون ألف بعد القاف.

د)- بين يدي النّصّ:

جاء هذا الحشد من الأوامر بالقتال والقتل مناسباً لما قبلها من ذكر الحجّ وأن الأهلّة هي مواقيت للناس في عباداتهم ومعاملاتهم وفي مألوف الجاهلية أنّ القتال محرّم في الأشهر الحُرُم وفي المسجد الحرام، وقيل: إنّ هذه الآيات هي أوّل ما نزل في القتال، وذلك بعد التمهيد بإذن الله للمؤمنين بقتال أعدائهم

لأنّهم ظلموا، وكان ذلك في أوّل الهجرة إلى المدينة، وقد وعدهم الله بنصرهم وبالتّمكين لهم في الأرض لتركيز دين الله فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ...﴾ إلى قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (الحجّ:٣٧-٣٩).

وكان المؤمنون في مكّة مكفوفين عن دفع ذلك الظّلم بالقوّة، إذ أمرهم الله بالصّبر و الثّبات وهم يُكابدون البغي والضّيم من طرف أعدائهم فلا ينتصرون لأنفسهم، وفيهم أبطال من أمثال عمر وعليّ وحمزة رضي الله عنهم. ذلك لأنّ الله تعالى أرادت حكمته أن يتمّ إعداد تلك الطّليعة من المؤمنين وتطويعها للقيادة والإمارة المنتظرة في المدينة المنوّرة حتّى تصبح الرّكائز المتينة في بناء الدولة الإسلامية النّاشئة، ومن ثمّ تبدأ عملية التّغيير والإصلاح على نهج الله ورسوله، وما يتطلّب ذلك من جهاد وتضحية، كان المؤمنون يتوقّعون فرضية الجهاد عليهم، بمثل هذه الآيات التي أرست قواعد القتال وحدّدت غاياته كمرحلة أولى لردّ العدوان وتقليم أظافر الشّرك، ثمّ تجيء آيات سورة "براءة" تكملة لمنهج الله في إعلاء كلمته ونصرة دينه.

هـ)- البيان و التّفسير:

قال الله تبارك وتعالى: **﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾**:

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «نزلت هذه الآيات في صلح الحديبية، وذلك أنّ رسول الله ﷺ لمّا صُدَّ عن البيت هو وأصحابه، نَحَر الهدي بالحديبية، ثمّ صالحه المشركون على أن يرجع عامَه، ثمّ يأتي القابل، على أن يُخْلو له مكّة ثلاثة أيام، فيطوف بالبيت ويفعل ما يشاء، وصالحهم رسول الله ﷺ، فلمّا كان العام

المقبل تجهّز رسول الله وأصحابه لعمرة القضاء، وخافوا أن لا تفي لهم قريش بذلك وأن يصدّوهم عن المسجد الحرام ويقاتلوهم، وكره الأصحاب قتالهم في الشهر الحرام فأنزل الله الآية.

أمر الله المؤمنين بقتال أعدائهم لدفع هجومهم حتّى وإن وقع ذلك في الشّهر الحرام، وقوله: ﴿الذينَ يُقَاتِلُونَكُم﴾ يُراد به المبادأة بالقتال، بحيث يتبيّن للمسلمين أنّ أعداءهم جاهزون لحربهم، وقيل: إنّ القيد في الآية هو لإخراج من لا يُقاتل كالنّساء والشيوخ والصّبيان شريطة أن يكون ذلك القتال في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه، لا لهوى في النّفس أو لإدراك متاع من الدّنيا، ممّا يجرّ إلى العدوان والبغي، ولذلك جاء النهي عن الاعتداء، كالابتداء بالظّلم أو قتال المسالمين وكلّ ما فيه تجاوز لأحكام الحرب ممّا تعارف عليه النّاس، سيما اليوم في ما انعقدت عليه الاتّفاقيات الدّولية، وقد اقتبست البشريّة الكثير من رصيد الإسلام في ذلك، ومن وصايا رسول الله وخلفائه الرّاشدين، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ زيادة تحذير من ذلك، لأنّ المؤمن لا يرتكب ما يبغضه الله.

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ، وَالفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ، وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ المَسْجِدِ الحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُم فِيهِ، فَإِنْ قَاتَلُوكُم فَاقْتُلُوهُم كَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ، فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

جاء التّوكيد للقتال بمثل هذا الأسلوب لتحريض المؤمنين على المضيّ في قتال أعدائهم بدون هوادة بحيث يعمّ المواقع و البقاع، وذلك بملاحقة أعدائهم حيثما كانوا، فكلّ مكان يحلّ فيه العدوّ فهو موضع قتال.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي من مكّة المكرّمة، وفي ذلك إذن للمسلمين أن ينتقموا لأنفسهم بمثل ما حدث لهم عندما أخرجهم المشركون من ديارهم وصادروا أموالهم، وهذا إرهاص لفتح مكّة بعد صلح الحديبية.

ولمّا كان ما حدث للمسلمين من أعظم ما يُفتَنُ به المرء في دينه جاء التّعقيب العام بقوله تعالى: ﴿وَالفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ﴾، وفي ذلك إيذان للمسلمين في قتال أعدائهم بمكّة عندما تسمح ظروفهم بذلك، ولا حرج عليهم في قتالهم بالمسجد الحرام إن هم اضطرّوا لذلك عندما يواجههم أعداؤهم بالقتال فيه، بحيث يكفّون عنهم إذا كفّوا، ولا ذمّ عليهم في ذلك، لأنّ الأعداء هم الذين خرقوا حرمة المسجد، فليس من الحزم أن يبقى المسلمون مكتوفي الأيدي أمامهم فيُمنون بالهزيمة، وذلك الجزاء هو الجزاء العادل للكافرين لأنّ الشّرّ بالشّرّ والبادئ أظلم كما يقول المثل.

﴿فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: ومع الحزم والشّدّة عند العناد والمكابرة يأتي الصّفح واللّين عند الإنصاف والإذعان لحكم الله عندما ينتهي الكفّار من تعنّتهم وكفرهم بالله، وذلك أنسب لمغفرة الله ورحمته، لأنّه تعالى لا يغفر أن يُشرك به، وقال ابن عبّاس: المعنى أن ينتهوا عن القتال، أي يكون صفح المسلمين لهم مظنّةً لدخولهم في دين الله، غذ ينبغي للمسلمين أن يتخلّقوا بأخلاق الله في استئناس نفوس الشّرودين بالصّفح واللّين.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ، فَإِنِ انْتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾:

بعد البيان التّفصيلي لجملة ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الذِينَ يُقَاتِلُونَكُم﴾ تأتي

الآية: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ لبيان الغاية من القتال، وهي كفالة الحرّيّة لكلّ شخص في دينه، وذلك هو المقصد في شرعية القتال، بأن لا يُفتن الناس في دينهم فلا يخشون غير الله، ولا يصدّهم عن منهج الله أيّ باغ يتحدّى الله ورسوله، وذلك بأن تخضد شوكة الأعداء حيثما كانوا، بحيث يظهر الدّين وتُقام شعائره بكلّ حرّية، وتقع مسؤولية توفير ذلك الجوّ على المجتمع المسلم في كلّ زمان ومكان، بأن يكون دائما على أهبة الاستعداد للدّفاع عن دينه، إذ لا يتحقّق انتفاء الفتنة إلاّ برضوخ المشركين ودخولهم في الإسلام، وبأن تُصفّى جموع الفاتنين، فلا تقوم لهم قائمة، وقد تبقى منهم بقيّة لا يُؤمن شرّها، وقد تهادن المسلمين وتصالحهم، ففي هذه الحالة يعتبرون غير ظالمين، فلا يبادؤون بقتال ولا يُؤخذون بالظّنّة، واعتبار دفع الظالمين ومناجزتهم عدوانا إنّما هو من باب المشاكلة اللّفظية.

ثمّ بيّن الله حكم القتال في الأشهر الحُرُم فقال تعالى: ﴿**الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾، بعد أن بيّن الله حكم القتال في المسجد الحرام بيّن في هذه الآية حكم القتال في الأشهر الحُرم، وكان اعتبار حرمة الشهر الحرام عند الجاهليّين لا تقلّ عن حرمة البيت الحرام في كفالة الأمن للخائفين، غير أنّ الذي ينتهك تلك الحرمات فجزاؤه أن تُنتهَك حُرمته؛ لأنّه لا أقلّ في العقوبة العادلة من أن تُقابل بالمثل كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ (النحل:١٢٦).

ومن ثَمّ فلا حرج على المسلمين أن يعاملوا أعداءهم بالمثل، فقد صدّهم المشركون عن البيت عام الحديبية، وعندما رجعوا سنة سبع لعمرة القضاء أذِن الله لهم بقتال أعدائهم، ولو كان ذلك في الشهر الحرام. ثمّ بيّن الله الحكم العام

في المعاملة بالمثل فقال: ﴿وَالحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾، أي مماثلة في المجازاة والانتصاف، لأنّ حرمة النّاس مقدّمة على حرمة الأزمنة والأمكنة، فرّع الله عليه قوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُم فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾، وسُمّي جزاء الاعتداء اعتداءً على وجه المشاكلة كما تقدّم، والمماثلة في الجزاء تكون في المقدار وفي الظّروف والأحوال كالقتال في الشّهر الحرام وفي البلد الحرام، ولكن شريطة أن يلتزم المؤمنون بتقوى الله فلا يتجاوزون حدود الله في ذلك حتّى يكون الله معهم بالنّصر والتّمكين.

ولمّا كانت الغلبة في الحروب ترتكز على إعداد العدّة، وذلك يتطلّب وفرة الأموال، عطف الله على قوله: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ قوله في نهاية الشّرط: **﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُواْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾**:

الخطاب لكافّة المسلمين، وهذا الأمر بالإنفاق مع التّحذير من إلقاء الأيدي إلى التّهلكة يستدعيه موقف الحزم واليقظة في ما يجب أن يكون عليه المسلمون من مواصلة الاستعداد لمواجهة أعدائهم، حتّى لا يخلدوا إلى الدّعة والأمن اطمئناناً منهم بأنّ الله وعدهم بالنّصر وبأنّهم متوكّلون على الله، وأنّ الله يدافع عن الذين آمنوا وغير ذلك ممّا عساه يمليه عليهم إيمانهم الرّاسخ بالله، فجاء هذا التّنبيه الإلهيّ بأنّ شدّة تعلّقهم بالله لا يُسقط عنهم الأخذ بالأسباب، سيما وهم يواجهون عدوّاً هو أقوى منهم عدداً وعُدّةً.

ومبالغة في هذه النّصيحة الاستراتيجيّة في حياة الأمم عقّب الله الأمر بالإنفاق بالنّهي عن كلّ ما من شانه أن يُعرّض النّفوس إلى التّهلكة، فقال: ﴿وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ لأنّ الشّحّ في مجالات الأنفاق موت للأنفس

ووأد للجماعة، ومحقٌ للقيم تَغيضُ معه ينابيع الخير وتموت النّخوة والإباء، ومن ثَمَّ تتهيَّأ الجماعة إلى قبول الذّل والهوان.

والأمر بالإنفاق في سبيل الله يقتضي العموم لكلّ ما هو وسيلة لتقوية صفوف المسلمين وحماية بيضة الإسلام، كما أنّ النّهي في سياق النّفي في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ يقتضي كذلك العموم لكلّ إلقاء باليد إلى التّهلكة على مستوى الفرد أو الجماعة.

ويؤطّر تلك الإرشادات كلّها قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُواْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، لأنّ الإحسان هو المستوى الرّفيع الذي يستشرف إليه كلّ مؤمن يرجو محبّة الله ويلتمس رضاه، فإذا كان الإحسان ملابساً للمؤمن فإنّه لا يتوانى ولا يقصّر في تنفيذ ما تقدّم من تلك الأوامر، وإذا أحبّ الله عبداً كان سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يُبصر به إلى آخر ما جاء في الحديث القدسّي.

جعلنا الله من المتّقين المحسنين.

والله أعلم.

بيان أحكام الحجّ و العمرة

أ)- النّص:

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾: اللاّم في الحجّ والعمرة لتعريف الجنس إذ هما عبادتان معروفتان عند المُخاطَبين، فالحجّ هو زيارة الكعبة في موسم معيّن في وقت واحد للجماعة، وفيه الوقوف بعرفات، والعمرة زيارة الكعبة في غير موسم معيّن، وهي لكلّ فرد بخصوصه.

والحجّ في اللّغة بفتح الحاء وكسرها تكرّر القصد إلى الشّيء أو كثرة قاصديه، والعمرة مشتقّة من التّعمير أي شغل المكان ضدّها الإخلاء، ولا تُطلق بهذا الوزن "فُعْلة" إلاّ على زيارة الكعبة في غير أشهر الحجّ. ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا

اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ﴾: من الإحصار وهو منع الذّات من فعلٍ ما، أي مُنعتم من إتمام العمرة والحجّ بعدوّ أو مرض، والهدي هو اسم الحيوان المُتقرَّب به إلى الله في الحجّ يُذبَح ويُفرَّق لحمه على الفقراء فهو "فعل" من أهدى، وقيل: هو جمع "هدية". ﴿وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾: لا تحلقوا رؤوسكم أي لا تتحلّلوا من الإحرام إلى غاية بلوغ الهدي مَحِلَّه-بفتح الميم وكسر الحاء-، وهو مكان الحلول أو زمانه، حيث يحلّ ذبحه، وهو في حال الإحصار حيث يحصر الحاجّ وإلاّ فالكعبة لقوله تعالى: ﴿هَدْياً بَالِغَ الكَعْبَةِ﴾(المائدة:٩٧). ﴿أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ﴾: أي أُصيب الحاجّ بقمّل أو صداع فيضطرّ إلى حلق شعره، فعليه فدية، صوم ثلاثة أيّام هناك أو صدقة بثلاثة أصوُع -من قوت البلد- على ستّة مساكين، أو نسك أي ذبح شاة. و"أو" للتخيير، وأُلحق به من حلق لغير عذر أو استمتع بغير الحلق كالطّيب واللّبس والدّهن لعذر أو غيره. ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾: الأمن ضدّ الخوف، وهو أيضاً السلامة من كلّ ما يُخاف منه كالمرض أو خوف العدوّ. ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالعُمْرَةِ إِلَى الحَجِّ﴾: أي تمتّع بمحظورات الإحرام بسبب العمرة، بأن أدّاها وأتمّها، ثمّ تحلّل وبقي متمتّعاً إلى زمن الحجّ ليحجّ من مكّة فعليه هدي أقلّه شاة. ﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الحَجِّ﴾: القصد من نهي هذه الأمور الثلاثة نفي جنس للمبالغة في النهي عنها وإبعاد الحاجّ عنها. ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾: التّزوّد إعداد الزّاد وهو الطّعام الذي يحمله المسافر، وهو مستعار للاستكثار من فعل الخير. ﴿يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾: الألباب جمع "لُبّ" وهو العقل، واللّبّ من كلّ شيء الخالص منه، وفعلُه: لبّ يلبّ.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الحَجِّ﴾: قرأ الجمهور بفتح أواخر الكلمات الثلاث المنفية "بلا" على اعتبار أنّ "لا" نافية للجنس نصّاً، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو برفع "رفث" و"فسوق" على أنّ "لا" أخت "ليس" نافية للجنس غير نصّ، وقرءا "جدال" بفتح اللاّم على اعتبار"لا" نافية للجنس نصّاً، وعلى أنّه عطف جملة على جملة. وروي عن أبي عمرو أنّه قال: "الرّفع بمعنى لا يكون رفث ولا فسوق، يعني أنّ خبر "لا" محذوف وأنّ المصدرين نائبان عن فعليهما، وأنّهما رفعا لقصد الدّلالة على الثّبات مثل رفع "الحمد لله" وانتهى الكلام، ثمّ ابتدأ النّفي "ولا جدال في الحجّ" على أنّ الحج خبر "لا"، والكلام على القراءتين خبر مستعمل في النهي كما تقدّم.

د)- البيان والتّفسير:

على ذكر الحجّ ضمن المواقيت التي تضبطها الأهلّة، وعلى ذكر أحكام الصّيام وما تلاها من ذكر القتال وبيان أحكام الأشهر الحُرُم والمسجد الحرام، انتقل السّياق إلى بيان أحكام الحجّ، والمناسبة في ذلك واضحة، فأشهر الحجّ هي من الأشهر الحُرُم وهي تأتي بعد شهر الصّيام، ولا خلاف في أنّ هذه الآيات نزلت في صلح الحديبية لسنة ستّ من الهجرة فهي في رأي الإمام ابن عاشور لبيان أحكام العمرة وذلك قبل أن يُفرض الحجّ، وإنّما ذكر الحجّ على وجه الإدماج تبشيراً بأنّهم سيتمكّنون من الحجّ فيما بعد، وهذا من معجزات القرآن.[1]

١- الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢/٢١٧.

قال تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ الحَجَّ وَالعُمْرَةَ للهِ، فَإِنْ احْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ، وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الهَدْيُ مَحِلَّهُ، فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾:

أمر الله بإتمام الحجّ والعمرة، والإتمام هو إكمال الشّيء والإتيان به تامّاً، ويتحقّق ذلك في الحجّ والعمرة بأداء مناسكهما على الوجه الأكمل وبإخلاص العمل فيهما لله وحده دون أي قصد آخر، وقد كان الحجّ معروفاً عند الجاهليين من عهد إبراهيم عليه السلام غير أنّ الإسلام قد أبطل ما كان فيه من أنواع المنكرات وخلّصه من شوائب الشّرك وأضاف فيه بعض المناسك، رتّبها رسول الله بالتّطبيق العملي لأصحابه وهو يقول لهم: «**خذوا عنّي مناسككم**».[1]

وقد حجّ المسلمون سنة تسع بإمرة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه ثمّ حجّ النّبيّ ﷺ سنة عشر، وهذه الآيات نزلت في السنة السادسة في صلح الحديبية، ولم يكن في وُسع المسلمين يومئذ إلاّ أداء العمرة، وقد تمّ لهم ذلك سنة سبع، بما سُمّي بعمرة القضاء، فكان ذكر الحجّ مقروناً بالعمرة فيها إرهاصاً لما قدّره الله من فتح المسلمين لمكّة سنة ثمان من الهجرة حيث تمّ تطهير المسجد الحرام من أرجاس الشّرك.

وقد اتّفق العلماء على فرضية الحجّ لقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حَجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾(آل عمران:٩٧). أمّا العمرة فقد اختلفوا في وجوبها كالحجّ لقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَأَتِمُّواْ الحَجَّ

---

١ - رواه البيهقي في السنن عن جابر، كتاب الحج، باب الإيضاع في المحسر، حديث ٩٣٠٧، ١٢٥/٥.

وَالعُمْرَةَ لله﴾، وقوله: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالعُمْرَةِ إِلَى الحَجِّ﴾، وقوله في الصفا والمروة ﴿فَمَن حَجَّ أَوْ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾(البقرة:)، كما وردت أحاديث يستأنس منها فرضيتها كقوله ﷺ فيما رواه الدارقطني والحاكم أنّه قال لأصحابه: **«دخلت العمرة في الحجّ إلى يوم القيامة»** [١]، وقوله: **«إنّ الحجّ والعمرة فريضتان، لا يضرّك بأيّهما بدأت»** [٢].

ويرى فريق آخر من الأئمّة أنّ العمرة سنّة، لأنّ كلّ الآيات التي فرض الله بها الحجّ جاءت مجرّدة عن ذكر العمرة، وقد نقل قطب الأئمّة في تيسير التفسير جملة من الأحاديث في الموضوع ثمّ قال: "فيُجمَع بين الروايات بأنّها- أي العمرة- غير واجبة استقلالاً كما وجب الحجّ، وواجبة على مريد الحجّ أن يعتمر معه قبله أو بعده، ولو كان الحجّ نفلاً، ومن أحرم لحجّ نفل أو عمرة وأفسده أو أفسدها أتمّه أو أتمّها وأعاده وأعادها". [٣]

وتتلخّص بعض أحكام الحجّ والعمرة ممّا ورد في هذه الآيات فيما يلي:

أ)-**الإحصار**: ﴿فَإِنْ احْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ﴾: أي مُنعتُم من الإتمام بعدوّ أو مرض أو غيرهما، كما حدث لرسول الله وأصحابه في صلح الحديبية، ولمّا كان منعهم هناك بسبب العدوّ فقد اختلف الأئمّة في أسباب الإحصار بين التّعميم لكلّ مانع أو حصره في العدوّ، غير أنّ الأرجح هو القول الأوّل لأنّ نزول الآية في صلح الحديبية لا ينافي عموم الحكم، وقد استدلّ من

---

١ - رواه البيهقي في السنن بسنده عن طاوس، حديث ٨٦٠٧، ٦/٥.

٢ - رواه الحاكم في المستدرك عن زيد بن ثابت مرفوعاً، حديث ١٧٣٠، ٦٤٣/١، وقال: الصحيح عن زيد بن ثابت قوله. (أي أنّ الحديث موقوف).

٣ - احمد بن يوسف اطفيّش، تيسير التفسير، ٤٢٥/١.

قال بالعموم بأحاديث وآثار عن الصّحابة كقوله ﷺ: « **من كُسر أو عرج فعليه الحجّ من قابل**»[١]، كما روي عن بعض الصّحابة: «**من أحرم بحجّ أو عمرة ثمّ حُبس عن البيت بمرض يجهده أو عدوّ يحبسه فعليه ذبح ما استيسر من الهدي**»[٢]، أي يذبح الهدي قبل أن يتحلّل، وذلك ما يفيده قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾. قال القطب -رحمه الله-: "ومحلّه هو منى، أيّام منى أو الحرم مطلقاً، ولو قبل أيّام منى عندنا وعند أبي حنيفة، ويرى الإمام الشّافعي أنّه ينحر حيث أُحصِر ولو في الحلّ فمحلّه عنده موضع حلول المحصر"، ثمّ قال القطب: "وعلى المحصر الحجّ أو العمرة أو كلاهما من قابل، كما تُقضى الصلاة والصوم، وكما اعتمر النّبيّ ﷺ من قابل، وهكذا شأن النّفل إذا دخل فيه صحيحاً وقطع أعيد، كما يوفّى بالنّذر والوعد، بل زاد بالدخول".[٣]

ب)- حلق الرأس أو التقصير: أي التّحلّل من الإحرام. فهى الله عن الحلق قبل بلوغ الهدي محلّه أي مكان ذبحه على ما في تحديد مكان الذّبح من الخلاف بين العلماء كما تقدّم.

ج)- تحديد نوع الهدي ووقت ذبحه: ففي النّوع الأوّل يقول تعالى: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾، أي فعليكم ما تيسّر منه، من شاة أو بقرة أو بعير،

---

١ - رواه الحاكم عن الحجاج بن عمرو الأنصاري، حديث ١٧٢٥، ٦٤٢/١، وقال صحيح على شرط البخاري و لم يخرجاه. ولفظه: « من كسر أو عرج فقد حل، وعليه الحج من قابل».

٢ - رواه الطبري بسنده عن علي عن ابن عبّاس، تفسير الطبري، ٢١٣/٢-٢٢٣.

٣ - احمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، ٤٢٨/١.

قال ابن عبّاس: «وما عظم أفضل»، ويرى عمر بن الخطّاب أنّ الشّاة لا تكفي، وقيل: إن لم يجد المحصر هدياً قوّم الحيوان واشترى بقيمته طعاماً وتصدّق به، فإن لم يجد صام عن كلّ مدّ من الطّعام يوماً.

وبخصوص توقيت الذّبح قال قطب الأئمّة: "ويوقّت لذبحه، فإذا كان الوقت الذي حدّ لرسوله احتاط وحلق، وعن ابن مسعود: «لدغ رجل محرم بعمرة فأحصر، فقال: ابعثوا بالهدي واجعلوا بينكم وبينه يوم أمار» أي أمارة، وعن أبي حنيفة: إن كان حاجّاً فبالحرم متى شاء، ويجعل يوم أمار، وعند أبي يوسف ومحمد في أيّام النّحر، وإن كان معتمراً فبالحرم في كلّ وقت عنده وعندهما".(١)

د)- قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾. قد يضطرّ المحرم إلى مخالفة شروط الإحرام بأن يحلق رأسه قبل بلوغ الهدي محلّه، وذلك بسبب مرض ألمّ به، أو كان به أذى من الهوام، فإنّ الله تعالى أباح له أن يحلق رأسه قبل أن يبلغ هديه محلّه، وقبل أن يكمل أفعال الحجّ، وذلك في مقابل فدية يؤدّيها، وهو مخيّر في:

- أن يصوم ثلاثة أيّام.
- أن يطعم ستّة مساكين.
- أو يقدّم نُسُكاً بذبح شاة ويتصدّق بها.

وهذه الفدية هي لكلّ فعل منافٍ للإحرام.

ثمّ قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ

(١) - احمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، ١/٤٢٨.

الهَدْيِ، فَمَن لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ، تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ، ذَلِكَ لِمَن لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾:

عطفت الجملة: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ على قوله: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ فالأمن مقابل الإحصار، أي كنتم في حال أمن وسعة لا تخافون عدوّاً ولا تشكون مرضاً، وبما أنّ الآية نزلت في شأن الحديبية، وكان الإحصار بسبب خوف العدوّ فإنّ المقصود بقوله: "أمنتم" هو ذهاب الخوف من العدوّ، غير أنّ العلماء قاسوا عليه حكم المرض.

والتّمتّع يكون بالتّحلّل من الإحرام بالعمرة وانتظار زمن الحجّ ليحجّ إلى مكّة، فعلى من فعل ذلك دم جبر أقلّه شاة يذبحها شكراً لله يوم النّحر أو قبله، ويجوز أن يأكل منها ويتصدّق، فيكون معنى الآية، فمن قام بأعمال العمرة قبل الحجّ منتهياً إليه فعليه ذلك الواجب من ذبح شاة إن كان وحده، أو يشترك مع غيره في بدنة أو بقرة، ويجب مثل ذلك على القارن بين الحجّ والعمرة.

فمن لم يجد الهدي إمّا لعدم وجوده تماماً أو وجوده للمال الذي يشتريه به، فعليه أن يصوم لله ثلاثة أيّام، والأولى أن يصومها وهو محرم بالحجّ في العشرة قبل الوقوف بعرفة خشية أن يضعف عن القيام بالصلاة والدّعاء، ولا يجوز صوم يوم النّحر، وعندما يرجع إلى بلده يزيد صوم سبعة أيّام، وأجاز بعض الأئمّة صيامها في الطّريق راجعاً إلى أهله، ولو وصل إلى أهله قبل تمامها، ثمّ أجمل الله الحساب بعد تفرّقه فقال: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ مبيّنا بذلك العدد الكامل للصوم المطلوب، وأضاف إليه قوله "كاملة" للتحريض على الإتيان بها كاملة لا ينقص منها شيء، وللإشارة إلى أنّ البدل قائم تماماً مقام المبدل منه في

الفضيلة والأجر.

﴿ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: الإشارة إلى أقرب مذكور، وهو هدي التّمتّع أو بدله من الصّيام هو للغرباء من أهل الآفاق إذ هم الذين يحتاجون إلى ذلك التمتّع، أمّا الحاضرون في المسجد الحرام سواء من سكن الحرم أصلاً أو من سكنه ولو لم يستوطنه فلا هدي عليهم في القران والتّمتّع لأنّهم لا مشقّة عليهم في إعادة العمرة لأنّه لا يجب عليهم الإحرام من الميقات فلا خلل في تمتّعهم، وبالتالي فلا هدي ولا صوم عليهم. يقول قطب الأئمة -رحمه الله-: "وحاضرو المسجد الحرام عندنا من سكن في الحرم ولو لم يستوطنه، ومن دخل الميقات عند أبي حنيفة، ومن في مكّة عند مالك، ومن بينه وبين الحرم أقّل من مسافة القصر عند الشّافعي على مذهبه في مسافة القصر".(١)

﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: وتقوى الله تكون بحسن الامتثال لأوامره واجتناب نواهيه وبالمحافظة على تلك الإرشادات والإتيان بها على الوجه الأمثل، لأنّ التّحلّل من الإحرام فيه مظنّة للإخلال ببعض ما يجب مراعاته في أداء هذه العبادة، فتكون تقوى الله رادعاً للمؤمن في تلك الحالة، فيبتعد عمّا يُسخط الله خوفاً من عقابه،ثمّ يأتي بعض التّفصيل لمناسك الحجّ.

بدأ الله ببيان ما يُحظَر في الإحرام فقال تعالى: **﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ، وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَـآ أُولِي**

١- احمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، ٤٣٨/١.

الأَلْبَابِ﴾:

بدأ الله ببيان مواعيد الحجّ فقال بأنّه أشهر معلومات، إشارة إلى ما توارثه العرب عن شريعة إبراهيم عليه السلام، وهي من بداية شهر شوال إلى نهاية أيام النّحر، والمعنى أنّ الحجّ يقع في مدّة هذه الأشهر، وجاء هذا الإخبار الإلهي بجمع القلّة في لفظ "أشهر"، قيل: ليكون تمهيداً لقوله تعالى: ﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ﴾ حتّى يهوّن بذلك على الناس صعوبة ترك ما ليس لهم منه بدّ من تلك المحظورات في الحجّ.

ونجد اختلافاً بين الفقهاء في تحديد الإطار الزّمني لهذه العبادة بدايةً ونهايةً، وظاهر النّصّ أنّ الأشهر المعلومات هي شوّال وذو القعدة والعشر الأوائل من ذي الحجّة، وقد وقع الخلاف في شهر ذي الحجّة، أهو الشّهر بكامله، أم العشر الأوائل منه أو تسعاً أو ثلاثة عشر يوماً منه...إلخ؟.

وعلى ذلك فلا يصحّ الإحرام بالحجّ إلاّ في هذه الأشهر المعلومات، وبعض المذاهب يعتبر الإحرام به صحيحاً على مدار السّنة على ما هو مفصّل في فروع الفقه.

يقول صاحب المنار: "معناه أنّ الوقت الذي يؤدّى فيه الحجّ أشهر يعلمها النّاس، وهي شوّال وذو القعدة وذو الحجّة، أي أنّه يؤدّى في هذه الأشهر، ولا يلزم أن يكون من أوّل يوم منها إلى آخر يوم، بل معناه أنّه يصحّ الإحرام به من غرّة أوّلها وتنتهي أركانه وواجباته في أثناء آخرها".[1]

قلت: إنّ ذلك على قاعدة تنزيل بعض الشّهر منزلة الشّهر، إذ لا يلزم

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٢/٢٢٦.

من كون الشهر محلاً لكذا أن يكون في كلّ يوم منه، كما قال القطب.

قوله: ﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ﴾ أي يجب على من فرض على نفسه الحجّ والتزم بالشّروع فيه أن يمتنع عن تلك الأشياء الثلاثة وهي:

أ- **الرّفث**: وهو غشيان النساء كما تعورف شرعاً، أو هو دواعيه من الكلام في أمر النّساء إمّا في حضرتهنّ أو إطلاقاً.

ب- **الفسوق**: وهو الخروج عن حدود الشّرع بأيّ عمل محظور قولاً أو فعلاً، فيدخل فيه السّباب والتّنابز بالألقاب...إلخ، وخصّه البعض بالذّبح للأصنام.

ج- **الجدال**: الخصومة الشّديدة والمغاضبة بالنّقاش الحادّ وغيره، ولو مع المكاري أو الخادم، وقد كان من عادة الجاهليّين التّفاخر والتّعاظم بالآباء في تلك المواسم، أمّا المناظرة العلمية الهادئة فليست من الجدال المحرّم.

وقد اختير نفي الجنس لهذه المنهيّات الثّلاث للمبالغة في النهي عنها ومنعها عن الحاجّ تعظيماً لشعائر الله، ولأنّ حجم الإثم يعظم بحرمة الزّمان والمكان حيث يجب التّجرّد لطاعة الله، والتزام الأدب اللاّئق بحرمة البيت.

ومع التّخلّي عن فعل الخبيث يجب التّحلّي بفعل الطّيّب الجميل، لأنّ الله تعالى رقيب لكلّ حالة عليم بكلّ تصرّف، قال تعالى: ﴿**وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ، وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَآ أُولِي الأَلْبَابِ**﴾:

إذ أنّ كلّ ما يأتي به الحاجّ هو رياضة روحية تزوّده بخير زاد ينفعه في رحلته من الحياة الفانية إلى الحياة الباقية، كما يتزوّد المسافر لضمان بقائه ودفع الهلاك عنه، فيجب على الحاجّ أن يستكثر من الخير جهد المستطاع حيث

تُضاعَف الحسنات وتزكو القربات.

وقد قيل: إنّ هذه الآية نزلت لردع أهل اليمن لأنّهم كانوا يتركون التزوّد في رحلة الحجّ زعماً منهم أنّ ذلك من مقتضى التوكّل على الله وكانوا يقولون: "نحجّ بيت الله ولا يطعمنا..."، وذلك مخالفة لطبيعة الحياة وجهل بسنّة الإسلام في وجوب الأخذ بالأسباب وإعداد العدّة لكلّ مطلب يريده الإنسان، وبما أنّ المقصود بالزّاد هنا ما يكون للنّقاء الرّوحي، فقد ذيّل الله الأمر بالتّزوّد بقوله: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾، لأنّها هي الزّاد الأخروي الذي يدّخره الإنسان لما بعد موته، وقوله: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾: لأنّ أولي العقول الرّاجحة هم من يفقه ذلك المعنى من التّقوى ويكونون أهلاً للانتفاع به، جعلنا الله منهم.

والله أعلم.

تتمّة أحكام الحجّ.

أ)- النّص:

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ ۚ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾: الجُناح الحرج والإثم، والمراد بالفضل اكتساب المال بالرّبح في التجارة أيّام الحجّ. ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾: الإفاضة الخروج بسرعة، وسُمّي الخروج من عرفات إفاضةً لأنّهم يخرجون منها في وقت واحد بأعداد كثيرة تتدافع بشدّة. وعرفة موقف الحاجّ لأداء المناسك في اليوم التّاسع من ذي الحجّة، والمشعر الحرام: المشعر مشتقّ من الشّعور أي العلم، أو من الشّعار أي

العلامة، لأنّه أقيمت فيه علامة كالمنار من عهد الجاهلية، والمشعر الحرام هو المزدلفة، وُصف بالحرام لأنّه من أرض الحرم بخلاف "عرفات". ﴿أَفِيضُواْ مِّنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾: أي من عرفة، وكانت قريش تقف بالمزدلفة، ترفّعاً عن الوقوف مع غيرهم. ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾: أي أدّيتم أعمال الحجّ كلّها، والمناسك جمع منسك مشتقّ من نَسَك نسكاً إذا تعبّد، وهو مصدر ميمي أو اسم مكان. ﴿وَمَا لَهُ, فِي الآخِرَةِ مِن خَلاَقٍ﴾: بفتح الخاء: الحظّ من الخير والنّفيس منه، مشتق من الخلاقة وهي الجدارة والاستحقاق. ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾: وذلك للمستعجل بالنّفر من منى بعد يومين من أيّام التّشريق، وتلك رخصة لمن أعجله الرّجوع إلى وطنه، والتّأخّر يعني اللّبث في منى حتّى ينفر جميع الحجّاج.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾: قرأ الجميع "مَنَاسِكَكُم" بفك الكافين، وقرأه السّوسي عن أبي عمرو بإدغامهما، وهو الإدغام الكبير.

د)- التّعريف بعرفة والمزدلفة:

أ- يقال: "عرفات" بصيغة الجمع، ويقال: "عرفة" بصيغة المفرد، وهي اسم واد، وهو مسيل متّسع تنحدر إليه مياه جبال تحيط به، تُعرف بجبال عرفة بالإفراد، وجعلت "عرفات" عَلَماً على ذلك الوادي، وفي وسط وادي عرفة جُبيل يقف عليه ناس ويخطب عليهم خطيب في اليوم التاسع من ذي الحجّة عند الظهر، وقد وقف عليه النّبيّ ﷺ راكباً يوم عرفة، وقد بُني على ذلك الجُبيل علم في الموضع الذي وقف فيه الرّسول يقف الأئمّة عنده حتّى اليوم،

والوقوف بعرفة أعظم أركان الحجّ كلّها، وكلّها موقف.

ب- المشعر الحرام: هو جبل "المزدلفة" سُمّيت كذلك لأنّها ازدلفت من "منى" أي اقتربت، ويبيت الحجيج عندها قاصدين التّصبيح في "منى"، ووصف بالمشعر الحرام لأنّه معلم للعبادة وهو من الحرم بخلاف "عرفات"، ويقال لـه "جَمْع" لأنّ جميع الحجيج يجتمعون في الوقوف به، ويسمّى أيضاً "قُزَح" بقاف مضمومة وزاي مفتوحة، وهو اسم قرن جبل بين جبال من طرف "مزدلفـة" يقف عليه الإمام.

هـ)- البيان والتّفسير:

بمناسبة النّهي عن أعمال في الحجّ، والأمر بالتّزوّد بالتّقوى مع مخاطبـة أولي الألباب وأمرهم بالتّقوى، جاءت هذه الآيات للاحتراس ممّا عساه يتوهّم بأنّ أيّام الحجّ لا يُباح فيها غير أعمال الخير والبرّ، فيحرم العرب ممّـا كـانوا يجنونه من أعمال التّجارة والكسب في أيّام الحجّ، إذ كانوا يقيمـون أسـواقاً للتجارة والمفاخرة فيتبارى الشّعراء والخطباء في سوق "عكاظ" ثمّ يخرجون منها إلى سوق "مِجَنَّة" ثمّ إلى "ذي المجاز"، كلّ ذلك في أيام الحجّ مـن شـهر ذي القعدة، فجاءت هذه الآيات لرفع ذلك الحرج ودفع ذلك الوهم إذ قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ اَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾:

وفي سبب نزول هذه الآية روى ابن عباس﵄ما قال: «كانت عكـاظ ومجنّة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية فتأثّموا أن يتّجروا في المواسـم فنزلـت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ اَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾».[1]

١- أنظر: تفسير الطبري، ٢/٢٧٥؛ تفسير ابن كثير، ١/٢٤٠.

أعلمهم الله تعالى أنّ لا إثم عليهم في طلب الرّزق بالطّرق الحلال في أيّام الحجّ بالاتّجار أو بكراء الدّوابّ للحجيج ما دام هناك إخلاص في العبادة لله، و لم يكن جمع المال هو المقصود بالذّات، بل إنّ قوله تعالى: ﴿ اَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يُشعر بأنّ اكتساب الرّزق على اعتبار ذلك أنّه فضل من الله يُعتبر في حدّ ذاته عبادة، ويدلّ عليه قوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُواْ فِي الأَرْضِ وَابْتَغُواْ مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُواْ اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الجمعة:١١).

فابتغاء الرّزق إذا صاحبه ذكر الله والاستعانة به كان عبادة تجعل صاحبها من المفلحين، وبديهيّ أن لا تتعارض أعمال التّجارة بالأوقات التي تُؤدّى فيها مناسك الحجّ ولا تزاحمها فلكلّ منسك وقته، وأنّ التّفرّغ للعبادة في فضل من الأوقات هو أفضل وأكمل لمن استغنى عن أعمال التّجارة وغيرها من أنواع الكسب ثمّ قال تعالى: **﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ، وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ، ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**:

يُلاحَظ في هذه الآيات التّركيز على ذكر الله كثيراً عندما يتقلّب الحاجّ في تلك الأماكن المقدّسة، وجاء التّشبيه له بذكر الآباء وأشدّ من ذلك ويندرج هذا التّركيز في إبطال عادة المفاخرة والتّعاظم بالآباء والأجداد، كما كان يفعل العرب في تلك المواسم، وقد ضغط الرّسول ﷺ على مبدإ الأخوّة الدّينيّة وعلى المساواة عندما قال في خطبة الوداع: «**يا أيها النّاس إنّما النّاس رجلان: برّ تقيّ كريم على الله، أو فاجر شقيّ هيّن على الله**، ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ

أَكْرَمَكُم عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُم إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:٤٩)» .[١]

وتتضمّن هذه الآيات: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ...﴾ بعض أحكام الحجّ مقرونة بمناسكها وهي كما يلي:

أ- الوقوف بعرفات والإفاضة منها:

فالوقوف بعرفات ركن أساسي في الحجّ وعمدة أفعاله، ويبتدئ من الزّوال ظهراً في اليوم التّاسع من ذي الحجّة إلى طلوع الفجر من يوم النّحر على أرجح الأقوال، وقد سنّ الرّسول الوقوف في ذلك الموقف ليبطل بذلك ما اعتاده المشركون، إذ كانوا يدفعون من عرفات قبل أن تغيب الشّمس.

والإفاضة تعني الخروج بسرعة ودفع وهي واجبة أيضاً وتقتضي سبق الوقوف بعرفات، والمعنى: إذا أفضتم خارجين من عرفات إلى المزدلفة، وقد ذكر الله هذا المنسك باسمه "عرفات" تنويهاً بشأنه، وتعظيماً لحرمته، وهو إبطال لعادة قريش، إذ كانوا في الجاهلية يقفون في "جمع" وهو المزدلفة لأنّهم حمس ويرون أنّ الوقوف لا يكون خارج الحرم، وعرفات خارجه، يفعلون ذلك ترفّعاً وامتيازاً لهم عن العرب.

ب-ذكر الله عند المشعر الحرام:

والمشعر الحرام هي المزدلفة وتُسمّى بأسماء أخرى كما تقدّم ووصف

١- رواه الترمذي عن ابن عمر، كتاب التفسير، باب "ومن سورة الحجرات"، حديث ٣٢٧٠، ٣٨٩/٥. وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث عبد الله بن دينار عن ابن عمر إلا من هذا الوجه.

بالحرام، لأنّه من أرض الحرم، فإذا دفع الحاجّ من عرفات بعد غروب الشّمس، ذكر الله عند المشعر الحرام بالدّعاء والتّهليل والتّكبير والتّلبية، كما فعل رسول الله ﷺ، وقد ثبت أنّ رسول الله صلّى الظّهر والعصر يوم عرفة جمع تقديم مع خطبة كخطبة الجمعة، وصلّى المغرب والعشاء بالمزدلفة جمع تأخير بأذان واحد وإقامتين، والسّنة العملية لرسول الله تبيّن ذلك وهو القائل لأصحابه: «**خذوا عنّي مناسككم**» [1]، فقد روي عنه ﷺ في ما رواه جابر بن عبد الله في صحيح مسلم: «**أنّه لم يزل واقفاً بعرفة حتّى غربت الشّمس وبدت الصّفرة قليلاً حتّى غاب القرص وأردف أسامة خلفه، ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزّمام، حتّى إن رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول بيده اليمنى: « أيّها النّاس السّكينة السّكينة كلّما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً حتّى تصعد، حتّى أتى المزدلفة فصلّى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبّح بينهما شيئاً، ثمّ اضطجع حتّى طلع الفجر، فصلّى الفجر حتّى تبيّن له الصّبح بأذان وإقامة، ثمّ ركب القصواء حتّى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة فدعا الله وكبّره وهلّله ووحّده فلم يزل حتّى أسفر جدّاً فدفع قبل أن تطلع الشّمس**». [2]

تلك هي الصّورة العملية لما يجب أن يفعله الحاجّ عند الإفاضة من عرفات إلى المزدلفة فالوقوف لذكر الله في المزدلفة واجب، وأمّا المبيت فيها سنّة، وليس ذلك من أركان الحجّ عند الجمهور.

١- تقدّم تخريجه.

٢- رواه مسلم عن جعفر بن محمد عن أبيه، كتاب الحج، باب حجّة النّبيّ ﷺ، حديث ١٢١٨، ٢/٨٩١. وانظر: تفسير ابن كثير، ١/٢٤٢.

ثمّ قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾: تأكيد لذكر الله بإخلاص، جيء به مطلقاً عامّاً بعد الذّكر الخاصّ في المشعر الحرام، وفي ذلك نوع من التّأطير والتّحصين للعقيدة حتّى لا تشوبها شائبة من العادات والتّقاليد الجاهلية حين كان العرب يتّخذون من تلك المواسم مجالاً للمفاخرة، فالتّجرّد لله وحده في تلك الأماكن هو السّمة العظمى التي تجمع المسلمين هناك، فلا امتياز لأحد على أحد ولا اشتغال إلاّ بذكر الله، وهو يمتنّ عليهم بنعمة الهداية، فيجب أن يكون الذّكر على مستوى تلك النّعمة شبيهاً بها في الحسن والكمال، وهم يحسّون ويتذكّرون ما كانوا عليه من الضّلال في جاهليتهم.

ج-الإفاضة من مزدلفة إلى منى:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: هناك من المفسّرين من جعل الخطاب هنا لقريش خاصّة لإلغاء ما كانوا عليه من امتياز، وقيل: إنّ الخطاب للعموم فتدخل قريش بالأولى، وكرّر الإفاضة من عرفات للتّأكيد، ولبيان أنّ المؤمنين في هذه الأحكام سواء وليست قريش بأولى من غيرها، إذ لا عبرة بالأنساب والأحساب، ولا يكون الشّرف إلاّ بالتّقوى، وقيل: إنّ الإفاضة الثانية هي من المزدلفة إلى منى بعد الوقوف بعرفات فتكون "ثمّ" للترتيب في الذّكر لا في الزمان، أي يجب أن تكون الإفاضة من مزدلفة مرتّبة على الإفاضة من عرفات ومتأخّرة عنها.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه تعريض بالمشركين لما غيّروه في المناسك وبما كانوا عليه من ضلال الشّرك.

ثمّ قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن خَلاَقٍ، وَمِنْهُم مَنْ يَّقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللهُ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾:

ما تزال الآيات تركّز على ذكر الله خلال أداء المناسك وبعدها، وجاء قضاء المناسك الحجّية بصفة إجمالية بعد البيان والتّفصيل، وقد تضمّن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِّنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ تضمّن الدّفع من مزدلفة إلى منى حيث يرمي الحاجّ جمرة العقبة فيحصل له التّحلّل الأصغر فيحلق ويذبح ويتمّ التّحلّل الأكبر بطواف الإفاضة وبذلك تتمّ مناسك الحجّ.

وبما أنّ الانتهاء من مناسك الحجّ قد يكون معه تراجع عن ذكر الله وانشغال كبير للتّأهّب للعودة، كما أنّ العرب اعتادوا أيضاً المفاخرة بالآباء بعد فراغهم من أعمال الحجّ، فلمّا أنعم الله عليهم بهداية الإسلام أمرهم الله أن يتوجّهوا إليه وحده بالذّكر والشّكر، بحيث ينقطعون عن تلك العادة الجاهليّة ويستبدلونها بذكر الله، كما كانوا يذكرون آباءهم، بل الواجب يقتضي أن يكون ذكرهم لله أشدّ من ذكرهم لآبائهم، وبما أنّ النّاس يختلفون في هذا المجال بين مقلّ ومكثر، وبين موفّق في دعائه ومخطئ، فقد فرّع الله على ما تقدّم قوله: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن خَلاَقٍ، وَمِنْهُم مَنْ يَّقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللهُ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾:

إنّها المعايير التي تزن النّاس وتحدّد مواقفهم، وبالتّالي تقدّر مآلاتهم في

الحياة الأبديّة، فالنّاس على فريقين حتّى وهم في الأماكن المستجابة الدّعاء.

فريق ليس له من همّ دعائه لله إلاّ أنّ يحرص على أمور الدّنيا ويستزيد من خيراتها ذاهلاً عن حياة الآخرة، فهؤلاء قد يناهم نصيبهم من الدّنيا، و لا نصيب لهم في الآخرة على الإطلاق.

وأمّا الفريق الثاني فهو الموفّق الحظيّ عند الله فهم يطلبون الحسنة من الله في الدّنيا والآخرة هكذا على العموم، والله هو الذي يحدّد ويختار لهم نوع تلك الحسنة، بما يناسب الحياة الدّنيا من الأزواج والأولاد والأموال والرّزق الحلال والصّحّة والعافية...إلخ، وبما يناسب الآخرة من المغفرة والرّضوان ونعيم الجنّة، ولشدّة إشفاقهم على ما ينتظرهم من مصير فهم يطلبون الوقاية من النّار، لأنّ الإنسان مهما زكت أفعاله فهو معرّض للفتنة وارتكاب الذّنوب.

وللتّنويه بشأن هؤلاء واستحقاقهم لإجابة ما طلبوه جاء قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾، واسم الإشارة راجع إلى الفريق الثاني، أي أنّ الله تعالى قد استجاب لهم وأنّ ذلك ناتج عن كسبهم في نصيب منه والباقي يكفّر الله به سيّئاتهم.

وهكذا يربّي الإسلام المؤمنين بان يتّجهوا إلى الله في كلّ أمورهم ويستشرفوا ما عنده من الخير، وهو مالك الدّنيا والآخرة، ولا يتوانى أحدهم عن اتّخاذ الأسباب في كلّ ما يطمح إليه من سعادة الدّارين.

والتّذييل بقوله تعالى: ﴿وَاللّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ تبشير لأهل ذلك الموقف بسرعة الحصول لإجابة دعائهم، وبما أنّ سرعة الحساب جاءت مطلقة في الآية فهي للدّنيا والآخرة، فالله تعالى يوفّي كلّ عامل جزاء عمله بدون إبطاء، وذلك أنسب بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾.

أمّا تصوّر تلك السّرعة فلا مجال لنا لإدراكها إلاّ ما يثبت عن طريق نصّ صحيح كما ورد عن رسول الله ﷺ: «**أنّ الله يحاسب الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدّنيا**»، وورد: **في قدر فواق ناقة**»، أو«**بمقدار لمح البصر**». وهو تمثيل للقلّة إذ يخلق الله في قلوب عباده القدرة على معرفة أعمالهم وجزائها في ذلك الموقف، والله أعلم.

ويؤكّد الله على متابعة ذكره في أيّام منى أي أيّام التّشريق وتنتهي بذلك أيّام الحجّ فقال تعالى: ﴿ **وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ، فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ، وَمَن تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ لِّمَنِ اتَّقَى، وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾:

والأيّام المعدودات هي على الأرجح ثلاثة أيّام بعد يوم النّحر، وقال ابن عبّاس﵄: الأيّام المعدودات أيّام التّشريق، وهي التي ترمى فيها الجمار، وينحر فيها الهدي"، وجاء الأمر الإلهي بذكر الله في هذه الأيّام مطلقاً في كلّ وقت، إلاّ أنّ السّنّة قد بيّنت ذلك بأن يكون ذكر الله في أدبار الصّلوات وعند رمي الجمار وذبح القرابين وغير ذلك من سائر الأعمال الأخرى، وقد ورد في صحيح البخاري أنّه ﷺ كان يكبّر بمنى تلك الأيّام وعلى فراشه وفي فسطاطه وفي مجلسه وفي ممشاه في تلك الأيّام جميعاً.[1]

---

١ - رواه البخاري في كتاب الحج، ترجمة للباب قال: باب التكبير أيام منى وإذا غدا إلى عرفة، وكان عمر رضي الله عنه يكبر في قبته بمنى فيسمعه أهل المسجد فيكبرون ويكبر أهل الأسواق حتى ترتج منى تكبيرا وكان ابن عمر يكبر بمنى تلك الأيام وخلف الصلوات وعلى فراشه وفي فسطاطه ومجلسه وممشاه تلك الأيام جميعا. ١/٣٣٠.

وقد خيّر الله في التّعجيل والتّأخير وشرطه بالتّقوى فقال: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ، وَمَن تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ لِّمَنِ اتَّقَىٰ، وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، وتدلّ الآية أنّ المبيت والإقامة في منى في الأيام المعدودات واجبة، ومن أخلّ بذلك فعليه هدي، ولكن الله فرّع على ذلك قوله: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي من تعجّل في الإتيان بالمطلوب في الأيام الثلاثة بأن اختصره في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخّر و لم يأخذ بالرّخصة فلا إثم عليه، شريطة أن يتّقي الله في أداء تلك المناسك، لأنّ التّقوى هي روح العبادة، ولئن دلّت الرّخصة على التّخيير بين التّعجيل والتّأخير فإنّ التّأخير هو الأفضل.

وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، فيه تذكير بما هو من عقيدة المسلم وتحذير من مخالفة ذلك في أعمال الحجّ.

والله أعلم.

تمّ بحمد الله الجزء الأوّل من تفسير "نفحات الرّحمن"

ويليه بإذن الله تعالى الجزء الثاني وأوّله:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (الآية:٢٠٤).

الفهارس

فهرس الآيات والعناوين الرّئيسيّة 440

فهرس الأحاديث 445

فهرس الآثار 449

فهرس التّعريفات والتّراجم..... 449

فهرس الأبيات الشّعرية..... 450

فهرس الآيات والعناوين الرّئيسيّة

مقدّمة التّفسير

كلمة الشيخ شريفي سعيد ..... أ
تعريف مختصر بالمؤلّف ..... ت
مقدمة المؤلّف ..... ج
حول القرآن الكريم وعلومه ..... ز

الآية	العنوان	الصّفحة

تفسير سورة الفاتحة

7-1 بين يدي سورة الفاتحة 01
- في الفاتحة مقوّمات العقيدة وأصول الشّرع 4-12

تفسير سورة البقرة

- بين يدي السّورة 13
1 الأحرف المقطّعة من أوائل السّور وآراء العلماء فيها 16
- أصناف النّاس أمام هداية القرآن 19
5-1 أ- الصّنف الأوّل (المتّقون) 19
7-6 ب- الصّنف الثاني (الكافرون) 27

16-8 ج- الصّنف الثالث (المنافقون وصفاتهم) 33
20-17 ضرب المثل لفريقي المنافقين..... 44
22-21 نداء الله تعالى لخلقه وأمرهم بعبادته..... 50
24-23 الله يتحدّى خلقه بالقرآن ولا مجيب 56
25 البشارة بالجنّة تتعلّق بالإيمان والعمل الصّالح 63
27-26 فائدة ضرب المثل في القرآن، وموقف المؤمنين والكافرين من ذلك 70
29-28 الحياتان والموتتان حجّة على الكفّار، ومجالي قدرة الله في الآفاق..... 75
33-30 استخلاف آدم في الأرض، وتعليمه الأسماء كلّها..... 84
34 سجود الملائكة لآدم تكريما له، وعصيان إبليس..... 93
39-35 إسكان آدم وزوجه الجنّة، وموقف الشيطان منهما..... 97
43-40 بيان مطالب عهد الله إلى بني إسرائيل..... 107
48-44 بعض الأمراض الفردية والاجتماعية وطريقة علاجها.... 114
54-49 بيان نِعم الله على بني إسرائيل..... 122
60-55 توالي النعم على بني إسرائيل 130
62-61 عقوبة العصيان، وجزاء الإيمان 139
66-63 بعض العقوبات على اليهود لمخالفاتهم..... 146
73-67 مظهر آخر لتعنّت اليهود في قصّة ذبح البقرة 150
74 أنّى لقلوب اليهود أن تلين؟..... 157

78-75 لا مطمع في إيمان اليهود برسالة الإسلام 161
82-79 دعاوى الأحبار وتحريفاتهم وافتراءاتهم على الله 166
83 مضامين الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل، ومخالفتهم إيّاه 171
86-84 نقض اليهود الميثاق بالقتل والنّفي لأنفسهم..... 176
89-87 موقف اليهود من الرّسل والكتب 181
91-90 داعية كفر اليهود بمحمّد، ومَبَاءَتُهم بغضب من الله 187
96-92 عبادة اليهود للعجل، وحرصهم على الحياة..... 191
98-97 عداوة الله وملائكته ورسله 197
101-99 نقض اليهود للعهود، ونبذهم لكتاب الله..... 202
103-102 اشتغال اليهود بالسّحر والشّعوذة، وخبر هاروت وماروت 205
105-104 الأدب الواجب في خطاب الرّسول، وفضل الله لمن يختصّه بالرّسالة..... 216
108-106 إثبات النّسخ، وبيان أحكامه..... 220
110-109 تمنّي أهل الكتاب ردّة المسلمين إلى الكفر، وما هو واجب المسلمين في ذلك 225
113-111 غرور اليهود والنّصارى بدينهم، ورأي كلّ فريق في الآخر 229
115-114 ظلم تعطيل المساجد عن ذكر الله، وصحّة التّوجّه إلى الله من أيّ مكان..... 234

118-116 تنزيه الله عن اتّخاذ الولد، وتشابه المشركين بمن قبلهم في طلب الآيات 239
121-119 حقيقة الرّسالة المحمّدية، والتّحذير من اتّباع اليهود والنّصارى 244
123-122 تذكير بني إسرائيل بنعمة الله عليهم، وتخويفهم من عذاب الآخرة 249
126-124 إمامة البيت وخصائص البيت الحرام، وفضائل مكة 251
129-127 بناء إبراهيم وإسماعيل البيت الحرام، ودعاؤهما عند بنائه . 263
132-130 الحكم بالسّفه على الرّاغب عن ملّة إبراهيم..... 269
134-133 وصيّة يعقوب لبنيه عند الموت..... 272
137-135 الردّ على اليهود والنّصارى، ودعوتهم لاتّباع الحنيفيّة السّمحاء..... 276
141-138 صبغة الإيمان بالله تمحو الانتماء العنصري 280
143-142 الحكمة من تحويل القبلة، والإشادة بوسطيّة الإسلام..... 285
147-144 تحويل القبلة، وموقف أهل الكتاب من ذلك 295
152-148 حكمة الاختلاف في الكعبة، وبيان أسباب تحويلها 307
157-153 الاستعانة بالصّلاة في الصّبر على البلاء..... 316
162-158 السّعي بين الصّفا والمروة، وجزاء كتمان آيات الله..... 326
164-163 وحدانية الله ورحمته وآيات قدرته 333
167-165 حال المشركين مع آلهتهم في الدّنيا والآخرة 341

171-168 تحريم الطّيّبات منشؤه وسوسة الشّيطان وتقليد الآباء 347
173-172 الأمر بالأكل من الطّيّبات، والشكر لله فيها 353
176-174 وعيد كتمان ما أنزل الله طلباً لمتاع الدّنيا 358
177 بيان أصول البرّ ومقاصد الدّين 364
179-178 وسطيّة الإسلام في أحكام القصاص والدّية والعفو 372
182-180 الوصيّة الواجبة للوالدين والأقربين 379
185-183 فرضيّة الصّيام، وبيان بعض أحكامه 385
187-186 متابعة أحكام الصّيام 393
188 النّهي عن أكل الأموال بالباطل 400
189 التّوقيت الشّرعي بالشّهر القمري، وبيان حقيقة البرّ 404
195-190 قواعد القتال في سبيل الله وبيان الغاية منه 408
197-196 بيان أحكام الحجّ والعمرة 416
203-198 تتمّة أحكام الحجّ 428

فهرس الأحاديث

طرف الحديث	الصّفحة
ابدأ بمن تعول	24
احفظوني في العبّاس بقيّة آبائي	274
أدعوا بالموت على أيّ الفريقين	195
إذا أدبر النّهار وأقبل الليل	399
أعددت للصالحين من عبادي	66
اقرأوا سورة البقرة	13
ألا أدلّكم على ما يمحو الله به	119
ألا إنّها ستكون فتنة	س
ألا وإنّ في الجسد مضغة	39-22
إنّ أرواح الشّهداء	321
إنّ الحجّ والعمرة فريضتان	420
أنّ الرّسول صلّى الصّبح للكعبة	290
أنّ الرّسول كان يقول قبل القراءة	01
إنّ الله أعطى لكلّ ذي حقّ حقّه	381
إنّ الشّيطان يجري من ابن آدم	349
إنّ الله حرّم من الرّضاع	174
إنّ الله ليستحيي أن يبسط العبد إليه	396

إنّ الله يحاسب الخلق 437
إنّ الله يحبّ أن تؤتى رخصه 388
إنّ هذا الدّين متين 155
أنا دعوة أبي إبراهيم 267
إنّكم لن تسعوا النّاس 175
إنّما أنا بشر 402
إنّما الصّبر عند الصدمة الأولى 324
أنّه بكى عندما حضر الموت 324
إنّه الذّكر الحكيم 11
أنّه ﷺ كان يكبّر بمنى تلك الأيّام 437
أنّه لم يزل واقفاً بعرفة 433
أنّهم بدّلوا وصيّة موسى 136
آية المنافق ثلاث 43
بيوتي في الأرض المساجد 299
تركت فيكم ما إن تمسّكتم به 363
تفكّروا في خلق الله 53
الثّلث، والثّلث كثير 383
جعلت قرّة عيني في الصّلاة 119
جعلت لي الأرض مسجداً 238
خذوا عنّي مناسككم 419

خير الأمور أوسطها 286
خيركم من تعلّم القرآن..... ر
دخلت العمرة في الحجّ إلى يوم القيامة 420
الصّبر نصف الإيمان 118
صلّوا كما رأيتموني أصلّي 23
علّموا أولادكم القرآن ..... ز
كان مات على القبلة..... 295
كان الأنصار إذا حجوا..... 407
كانت عكاظ ومجنّة 430
كانوا يأكلون ويشربون 397
كلّ أمر ذي بال 02
كلّ عمل ابن آدم له إلاّ الصّوم..... 387
الكلمة الطّيّبة صدقة..... 175
كنّا نرى أنّهما من أمر الجاهلية..... 329
الكيّس من دان نفسه 232-196-170
لأعلّمنك سورة هي من أعظم السّور 07
لأن يغدو أحدكم إلى الجبل..... 369
للصّائم عند إفطاره دعوة لا تُردّ..... 397
لما قدم رسول الله المدينة 288
اللهم لا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك 301

لو ذبحوا أيّ بقرة لأجزأ تهم..... 152
ليس الإيمان بالتّمنّي 367
ليس المسكين الذي يطوف 172
لا أعفي أحداً قتل بعد أخذ الدّية..... 378
لا تحلّ الصّدقة لغنيّ 370
لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم 396
لا يملأ جوف ابن آدم إلاّ التّراب 360
لا يقتل حرّ بعبد 376
ما حقّ امرئ له مال يوصي فيه 382
ما ملأ ابن آدم وعاءً..... 361
ما مسخت صورهم ولكن مسخت قلوبهم..... 149
المؤمنون تتكافأ دماؤهم..... 376
مضت السّنّة أن لا يُقتل مسلم بكافر 375
من أحرم بحجّ أو عمرة ثمّ حبس..... 421
من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا..... 320
من كسر أو عرج فعليه الحجّ من قابل 421
نزلت هذه الآية في صلح الحديبية..... 410
وددت لو أنّ الله صرفني عن قبلة اليهود..... 300
يا أيّها النّاس: إنّما النّاس رجلان 431
يا فاطمة بنت محمد 251

يا رسول الله: رجل يريد الجهاد 320

فهرس الآثار

طرف الأثر	الصّفحة

أيّ سماء تظلّني ..... د
الأيّام المعدودات أيّام التّشريق 437
أما والله إنّي لأعلم أنّك حجر 298
البيت قبلة لأهل المسجد 302
كم مالك؟ 381
في كتاب الله ستر 16

فهرس التّعريفات والتّراجم

إبراهيم 253
إسحاق 273
إسماعيل 264
بابل 206
سليمان عليه السلام 206
الصّفا والمروة 327
عرفة والمزدلفة 429

الكعبة 297
موسى 123
هاروت وماروت 206
يعقوب 269

فهرس الأبيات الشّعرية

صدر البيت	الصّفحة
إذا رمت ان تلقى من النّاس حرمة	36
كلّ ما لم يكن من الصّعب في	120
متى يبلغ البنيان يوماً تمامه	375
وخالف النّفس والشّيطان واعصهما	350
والدّعاوى ما لم يقم عليها دليل	231
ومن جهلت نفسه قدره	40
ومن يعدل بحبّ الله شيئاً	345
لا تحسبنّ المجد شهداً أنت آكله	322
لا يسلم الشّريف الرّفيع من الأذى	322
يُغمى على المرء في أيّام محنته	40

أيها الأخ المسلم:

لاشك أنك تتعرض لنفحات الرحمن وأنت تناجيه في صلاتك، أو تهيم في جلاله وأنت في خلواتك، أو تتلو كتابه في تدبر وإمعان، فتزيد إيمانا على إيمان . . .

لقد من الله علي بتلك النفحات، وأنا أرتع في رياض كتابه، وأستجلي مكنونات أسراره وعجائبه تحقيقا وتسجيلا على صفحات الدفتر ووعظا وإرشادا على خشبات المنبر، فها أنذا أُهديكها "أيها الأخ المسلم" خالصة نقية، وأنت الأخ الوفي، فتقبل مني هذه الهدية.

المؤلف

ردمك × - 17 -787- 9961 I.S.B.N